





تأليف

ا . ب . كلوت بك

الحائز على وسام اللجيون دونور من درجة اوفيسيه وعلى
وسامات اخر من درجة كوماندور
والدكتور في الطب والجراحة والمفتش العام للمصلحة الطبية الملكية والعسكرية بالقطر
المصرى ورئيس مجلس الصحة
وعضو اكاذيمية الطب الملوكية بباريس واكاذيمية العلوم بنابلى
وغيرها من الجمعيات العلمية الفرنسية والاجنبية

وتعريب

محمد مسعود

المحرر الفنى بوزارة الداخلية

الباب السادس

اخلاق وعادات المسلمين

— لاحق لسابق —

الاغذية وآداب الطعام

الغذاء — الوان الطعام — الترتيب المتبع فى تقديمها — المشروبات — قهوة البن — الشربات — الحشيش — الافيون — الوجبة — الآنية والاوعية المستعملة للاطعمة — آداب الطعام — الاقتداء بالاوربيين في طريقة الاكل — طعام الملاحين

١ — الغذاء

يتناول المسلمون كثيراً من الاطعمة التى اعتدنا نحن تناولها . فهم يحبون من اللحوم لحم الضأن ويفضلونه على كل لحم سواه . ويأكل أصحاب اليسار ، غير هذا اللحم ، اللحم البقرى . والفقراء اللحم الجاموسى وسكان الصحراء لحم الجمل أحياناً . ويمسك المسلمون جميعا عن أكل اللحوم المحرمة كلحم الخنزير

والخيل والحمير الخ . أما لحم العجول وصغار الضأن فأنهم لا يتغذون به إلا فى النادر . لأن الشريعة الأسلامية توصى نصوصها بالامتناع عن ذبح صغار الماشية دفعا لما يخشى من انقراض انواعها . أما الطيور فمن النادر مثولها على موائدهم لأنهم ، كما سبق لنا القول ، لا يميلون الى الصيد والقنص لتعذر ذبح الحيوانات المصيدة بعد صيدها . وهم شديدو العناية باستنزاف دماء الحيوانات المذبوحة للتغذى بها . ولكنهم لا يجارون اليهود فيما يتخذونه من وسائل الاحتياط لهذا الأمر . فمن ذلك أنهم لا يرون ضرورة في أن يكون القائم بذبح الحيوانات رجلا اقتصر فى عمله على هذه المهمة فأصبحت صفة قائمة به لا تتعداه الى سواه ، ولا أن تكون المدية التى يذبح بها جامعة صفات وخصائص لا تتوافر في سواها الخ

ويكثر المصريون من أكل الطيور الداجنة والسمك ولكنهم لا يعرفون من خيرات البحر ، غير السمك ، شيئا من الأنواع الأخرى كأنواع المحار والأصداف مع أنها لم تكن محرمة عليهم . ويحبون الألبان والبيض حبا جما ويستنفدون المقادير الوافرة من البقول والخضر والحشائش على اختلاف

انوعها ، ولاسيما الخباز (الخبيزة) والباميا والملوخيا (الملوكية) والباذنجان والطماطم والقرع والكرنب والعدس والفول والفاصوليا والترمس والبسلة . ومن البقول ما اعتادوا تناوله نيئاً كالبصل والخيار والشمام والخس والرجلة (البقلة الحمقاء) الخ . ومما يوجب الأسف إساءتهم الظن فى البطاطس الذى لو أقبلوا على استعماله غذاء لهم لأفادهم فائدة لاتنكر . وتدخل فواكه البلاد بنسبة عظيمة ضمن الأغذية التى يتناولونها

وهم يطهون الاطعمة بالزبدة ويكثرون من ألوانها ، ولكن العناية بالشطر الأكبر منها تكاد تكون معدومة

ويجلب الزيت الذى يستنفد في مصر من الشام واليونان وعلى الخصوص من جزيرة كريد . وهو من الصنف الواطيء الذى لو وجد مثله فى أوروبا لما استعمل في غير الصناعة ، على انه يجلب الى مصر أنواع من الزيت الجيد كزيت (بروڤانس) وزيت (يوك) ولكن استعمالها لايتعدي الأوربيين والأغنياء من أهل البلاد

وزيت الزيتون ينتصر فى مصر بمقادير قليلة جدا ، لأن أشجار الزيتون لاتزال ، كما قلناه سابقا ، نادرة الوجود بها .

ويستخرج الزيت أيضا من بذور الخس والسمسم . وفقراء المصريين يستعملون فى بعض الأحيان زيت بذر الكتان المعروف بالزيت الحار وهو شديد الدسم حريف الطعم بطبيعته وبما يختلط بالبذر من بذور الخردل

والبهارات شائعة الاستعمال فى المطابخ المصرية فأن الفلفل الأسود والشطة والقرفة والقرنفل والحبهان الخ يستنفد فيها بمقادير عظيمة

ويكثر المصريون من استعمال الليمون إذهم يعصرونه على جميع ألوان الطعام تقريبا ويستخرجون الخل من البلح ولكنه ردىء النوع

أما الخبز الذى أشرنا فيما سبق الى احترامهم إياه الاحترام العظيم فهو عندهم كما فى أوربا أساس التغذية الذى تقوم عليه ، ولكن الخبز الذى يعجنونه لايجارى خبزنا فى جودته وحسن صناعته . لأنهم يضيفون الماء الكثير الى العجينة حتى تكاد تصير سائلة ويقللون من الخميرة وينقصون نضج الخبز الذى يختلف شكله اختلافا عظيما عن شكل خبزنا . فأنه عندهم أشبه بفطائر مستوية كبيرة . ومنذ انتشر الفرانون الأوربيون فى

القاهرة والأسكندرية وبعض أمهات مدائن القطر المصرى أخذوا يقلدونهم فى صناعتهم فجعلوا خبزهم بنفس الحجم المرعى فى أوربا

٢ — الوان الطعام

من ألوان الطعام عند المصريين الحساء . وهو يعمل على طريقة واحدة تكاد لاتتغير ، فأنه عبارة عن الماء الذى صلقت فيه دجاجة أو بعض أفراخ الحمام ، على موائد الاغنياء منهم ، أو قطعة من اللحم على موائد متوسطي الحال . وقد يضيفون اليه بعض الخشائش أو البقول وأحيانا نوعاً من العجين المجفف يسمونه بالشعرية

ومن الأطعمة التى يميل اليها المصريون ويفضلونها على غيرها شواء اللحم . ويظهر أنهم أتقنوا هذا اللون وأجادوا فيه كل الأجادة . وإذا شووا اللحم لايشوونه فى الأسياخ بل فى الأفران ، بخلاف الاتراك والعربان فأنهم يشوونه فيها وقد يشوون على هذه الطريقة خروفا بأكمله . وبعضهم يربطونه بحبل الى قائمة منصوبة ثم يشوونه بتقليبه على جوانبه المختلفة فوق النار

ويهيء المصريون نوعا آخر من الشواء يسمونه « الـكباب » وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم تسلك فى أسياخ صغيرة . وإذ كانوا لا يأكلون دهن الخنزير فأنهم يرتبون تلك القطع فى الأسياخ بحيث يتخلل قطع اللحم الأحمر قطع من اللحم الدهنى ، أما الطيور فتجهز بالزبدة فى طوّة أو فى الفرن

ويبتدىء المصريون الطعام بأصناف كثيرة تتألف من اللحم وحده أو مخلوطا بالخضر والبقول ، وأحيانا بالزبيب وعصير العنب . وهم يميلون كثيرا الى الاطعمة المحشوة ويضعون الحشو فى الطيور بل وفى الخراف نفسها أو فى أجزاء منها ومن لحم البقر ، ويحشون أيضا القرع الصغير أو الخيار الخ

والأرز عنـدهم من الاطعمة الوطنية يأكلونه مفلفلا ويسمونه بالأرز المفلفل ويطهونه إما بالزبدة أو فى عصير اللحم (البهريز) ، ويخلطون الأرز احيانا باللحم المفروم ثم يحشون به ورق العنب ويسمونه بالورق المحشي والضلمة

أما الفطائر فعندهم شراهة عظيمة اليها . وهم يصنعونها على طرق مختلفة وأصناف متعددة لا تجمعها بفطائرنا رابطة شبه . لأن فطائرهم ترجع ، على اختلافها ، الى فطائر مسطحة مستديرة

يضعون بداخلها اللحم أحيانا أو القشدة أو الجبن الأبيض أو المربى أحيانا أخرى . وعلى كل حال فالشرقيون لا يستطيعون مجاراة الأوربيين فى صناعة الفطائر أو تجهيز غيرها من الأطعمة

وفى جميع الأحياء حوانيت تجهز فيها الفطائر مسطحة مستوية لتباع على الجمهور. ويميل العرب الى المربيات وهم يصنعونها من العسل المتوافر بمقادير عظيمة فى أنحاء القطر المصرى

ولم يعتد المصريون أن يأكلوا ، قبل ألوان الطعام المعتادة شيئا ما على سبيل فتح الشهية مما يسميه الأوربيون (هوردوفر) ولكنهم يأكلون أحيانا السمك المملح المعروف بالفسيخ والبطارخ والصحناة (السردين) وبعض الخيار الصغير المخلل والزيتون الأسود وأنواع السلطات الخ . وهذه الاصناف التى تصف على المائدة ليؤكل منها خلال الاصناف ، قلما تكون مقبولة فى الذوق لشدة ملوحتها أو لشدة حموضتها بسبب الخل .

وإذا كان الشرقيون لا يجدون لذة فى طعم زيتنا الطازج فأنهم يجدون اللذة فى طعم زيتهم الذى اعتراه الفساد

ويختم الطعام عادة بالفواكه التي تثمرها البلاد كالمشمش

والخوخ والعنب والبلح الخ مما يقطف ويجنى عادة قبل أن ينضج على أمه ، والمصريون يعللون أكلها كذلك بقولهم إن الفواكه إذا قطفت بعد بلوغها النضج كان طعمها تافها

٣ — الترتيب المتبع فى تقديم أصناف الأطعمة

تقدم أصناف الأطعمة متتابعة بعضها تلو بعض . ولا توضع أبدا مع بعضها . ولكنهم لا يتبعون فى هذا الترتيب النظام المرعىّ فى أوربا لتعاقب الأطعمة . فأنهم بعد تعاطي الحساء يبدأون بشواء اللحم ويثنون بأصناف الخضر والفطورات متخللة أصناف اللحم . أما الارز المفلفل فلا يؤكل إلاّ فى ختام الطعام

٤ — المشروبات

لا يشرب المسلمون على الطعام سوى الماء صرفا لان الدين الأسلامى يحرم عليهم خمرة النبيذ كما حرم عليهم جميع الاشربة المسكرة . وهـذا التحريم في الدرجـة القصوى من الصواب والحـكمة بالنظر إلى ان طقسـا كطقـس القطر المصرى يضر شرب المسكرات فيه بالصحة الضرر البالغ

والمسلمون الذين يبيحون لأنفسهم شرب النبيذ أو غيره من المشروبات المتخمرة قليلو العدد وهم الذين وقع الاتصال بينهم وبالأوربيين فنقلوا هذه العادة عنهم . ومن النادر جد أن تجد بين العرب من يتعاطى المسكرات بخلاف العثمانيين ولا سيما الذين أصلهم من تركية أوربا ، فإن تعاطي النبيذ عندهم شائع مألوف

والمتعاطون للخمر من المسلمين لا يتعاطونها باعتبار أنها منشط قد يفيد الشارب فائدة بدنية أو نفسية ، كما هو المشاهد غالبا فى حالة التعاطى باعتدال وقناعة . وما السبب فى ذلك إلا أنهم يلتمسون بتعاطيه فقدان الرشد وضياع العقل بالسكر جاهلين أن الغرض من تعاطى المشروبات لم يكن الحصول على حالة تقف فيها حركة الادراك والمشاعر وتتعطل المواهب النفسية التعطل الذى لو شعر به أوربى لما راق له أبدا

واستعمال العرقى فى مصر أكثر شيوعا وأقل ضررا من استعمال النبيذ . والعرقي الذى ألف الناس شربه فى هذا القطر هو المستخرج من البلح ، ولكنه ردىء النوع . وأجود أنواعه يجلب من بلاد الشام واليونان مصنوعا من العنب ، لأنه يقطر

مرارا ويكتسب قوة عظيمة (تتراوح بين ١٨ الى ٢٥ وأحيانا الى ٣٠ درجة) والذين يقومون باستقطار العرقى نصارى القطر الذين يستنفدون منه مقادير عظيمة جداً

ولدى المصريين نوع من الجعة (البيرة) يسمونه (بالبوظة) وطريقة تحضيرها تقتصر على تخمير الشعير. وهى كثيفة القوام جدا كمدة اللون ذات طعم ردىء فى أفواه الأوروبيين ولذيذ جدا في حلوق أبناء البلاد

٥ — قهوة البن

قهوة البن هى الشراب المختار من المصريين وضرورته لهم كضرورة النبيذ للأوربيين لأنهم إذا تذوقوه شعروا ببواعث الارتياح والسعادة والهناءة وتلذذوا بطعمه رويدا متمطقين . والأغنياء والفقراء منهم سواء فى المحافظة على تعاطيها صباحا وبعد كل طعام وأصحاب اليسار منهم يشربون في خلال النهار خمسة عشر فنجانا بل وعشرين فنجانا

وصنف البن الذى يهيئون به قهوتهم فى غاية الجودة لأنهم يجلبونه من مخا (ببلاد اليمن) ويحمصونه كما نحمصه نحن

تقريبا ولكنهم يختلفون عنا فى كونهم لا يسحقونه بالطاحون بل يدقونه فى الهاون زاعمين أنهم بدقه يستخرجون منه الزيت الذى هو الأصل الفعال فيه

وطريقتهم فى تهيئة القهوة بسيطة جداً اذ تقتصر على وضع الماء على النار فى إناء القهوة (التنكة) فادا مابدأ الغليان رفعوا الأناء وأسقطوا فيه المقدار اللازم من دقيق البن وحركوه فى الماء ثم أعادوه الى النار مع استمرار التحريك فاذا غلا الماء وفار رفعوا الإناء نهائيا وترك زمنا ريثمايتم امتزاج الماء بالبن ثم يفرق على الفناجين . وقهوة البن مجهزة على هذا المثال لاشك فى لذتها وجودة صنعها حتى أن كثيرين من المغرمين بشرب القهوة يفضلونها على المصنوعة منها بحسب الاسلوب الأوربى

أما أنا فأنى مقتنع بأن فى الاستطاعة إذا اتبعنا فى تهيئة القهوة الطريقة التى استنبطها (دوبلوا) أن تكون القهوة أحسن بكثير من التى تصنع على الطريقهالشرقية

٦ — الشربات

تعاطي المشروبات المرطبة المعروفة بالشربات كثير الشيوع

فى مصر .ويقدم غالبا بعد تعاطى القهوة أو قبله. وهذه المشروبات أنواع كثيرة أبسطها الماء المحلى بالسكر والمضاف اليه ماء الورد أو ماء زهر البرتقال (ماء زهر) أو عصير البرتقال أو الليمون ويتعاطى المصريون أيضا شراب اللوز أو بذور الشمام والبطيخ والقرع الخ . ويشربون غالبا فى نهاية كل طعام الخشاف وهو ماء محلى بالسكر غلى فيه من قبل الزبيب والكراز وعطر بماء الورد . وأعظم أنواع المشروبات المرطبة اعتبارا فى نظر المصريين شراب البنفسج ، وطريقة عمله أن يجرد زهر البنفسج من سوقه ويعجن بالسكر ثم يجفف . وبعد جفاف العجينة يدق دقاً ناعماً جداً ثم يذاب فى الماء عند الاستعمال . ويباع فى الطرقات برسم العامة من الشعب منقوع عرق السوس أو الخرنوب (الخروب)

٧ — الحشيش

نرى من المناسب هنا الكلام على مجهز مخدّر قد كلف بتعاطيه الشعب المصرى . هذا المجهز هو الحشيش المستخرج من القنّب المصرى . وطريقة استخراجه ان تسحق ثمار هذا النبات حتى تصير الى عجينة ثم تطبخ بالعسل والفلفل وجوز

الطيب وخلاصات الروائح العطرية . وبعد طبخها تصنع منها اقراص صغيرة ضاربة اللون الى الخضرة تافهة الطعم قليلا عند المذاق . ويكفي للمرء ان يبتلع منه قطعة بحجم البندقه ليشعر في الحال بنتائج تأثيرها . وفى بعض الأحيان يجهز الحشيش سائلا كالشراب وعلى هذه الصورة يستعمله الفقراء . وفى الغالب يتخذ منه مسحوق يدخن ضمن مايحرق فى نوع من الشيشة يسمى الجوزة . وهو فى هذه الاحوال المختلفة يحدث عند من يستعمله غيبوبة غريبة لاتلبث أن تحول الى أقوال وأفعال شاذة

واستعمال المجهز المسكر المتخذ من القنب قديم جدا وكان شائعا فى الأقطار الهندية منذ الأعصر الموغلة فى القدم. وروى المؤرخ (هيرودتس) فى الفصل الخامس والسبعين من المجلد الرابع من تاريخه أن الحيثيين كانوا يستعملونه فى حفلاتهم الدينية . وقد ذكره أيضا الحكيم(جالينوس) وشاع فى بلاد الفرس على أثر اتصالهم بالهنود فانتقل من هناك أثناء القرون الوسطى الى بلاد الشام ومصر حيث شاع بين مسلميها . والمحتمل أن الشيع المتعصبة التى زلزلت بفعالها أركان الشرق على عهد الحروب الصليبية تحت قيادة زعيم أطلق عليه اسم شيخ الجبل إنما كانت

تعمل تحت تأثير الحشيش ومن ثمّ سموا بالحشاشين ، وهو اللفظ الذى حرفه مؤرخو الفرنجة بلفظة (أساسين) التى أطلقوها على أولئك الأقوام ولا تزال موجودة فى معجم لغتنا حتى اليوم .
وفى أيامنا هذه يقتصر تجهيز القنب حشيشا على عامة الشعب ، فهو محصور بينهم كما قدمنا يأكلونه ويشربونه ويدخنونه فى القهاوى العامة وفى حوانيت خاصة به تسمى (المحاشش) وكلمة حشاش التى تطلق للدلالة على متعاطي الحشيش تستعمل أيضا في لغة القوم للسباب والشتم

والحشيش يؤثر فى الجهاز العصبي تأثيراً بالغاً منء الشـدة والقوة الغـاية القصوى . والظاهر أنه يكسب التصور قوة وحركة فائقتين فيصبح مخّ من يتعاطاه ويلتمس منـه الغيبوبة والخدر مركز ازدواج أفكار غريبة بأحلام خياليـة مضطربة . وبالجملة فأن الحشيش يحدث تأثيراً يشعر صاحبه بشيء من الهناءة ونعيم البال يزداد ويتسع نطاقه إلى أن يبلغ درجة الهذى والاختلال والشذوذ . وهو يثير الشهية إلى الطعام ، ويدعو عند انتهاء التهيج المخى ، إلى النوم الذى تخالطه الأحلام السعيدة . على أنه لا يصيب الرأس بصداع ما ولا التنفس بشيء من الصـعوبة

والعناء وهو كجميع المشروبات التى تزعزع أركان المجموع العصبي بصيب متعاطيه بالجمود الذى يجعله إلى الحيوانات العجم أقرب منه إلى بنى الأنسان

٨ - الافيون

الأفيون نادر الاستعمال فى القطر المصرى ولكنه شائع بين الأتراك الذين يميلون إلى التخدر به . وهو فى الحقيقة أليق بهم بالنظر إلى مافطروا عليه من حب السكون والميل إلى التأمل أما الحشيش فالمصريون أميل إليه من غيرهم لأن التأثير الملازم له يتفق مع ماجبلوا عليه من حدة التصور وسهولة الاختراع وقوة الحركة والميل الى كل مدهش أومستغرب

٩ — وجبات الطعام

للمصريين وجبتان فى كل يوم الأولى قبل الظهر بساعة والثانية قبل غروب الشمس بساعة ، مهما يكن اختلاف الفصول أما الأولى فيسمونها « الغداء » والثانية «العشاء» . والعشاء هو الوجبة الأساسية . وهـذا هو سرّ العادة الشائعة عنـدهم من

طهي الطعام بعد الظهر . وإذا لم يكن عندهم مدعوون لتناول الطعام فأنهم يحفظون مايبقى بعد العشاء من الطعام لاستنفاده فى صباح اليوم التالى . والعادة المتبعة فى الطبقة الراقية من الأمة أن لايأكل رب البيت أبدا مع نسائه وأولاده

ولما لم يكن فى استطاعة المسلمين أثناء شهر رمضان أن يتعاطوا شيئاً ما خلال النهار فأنهم لايتناولون طعاما إلاّ فى الليل فأذا غربت الشمس وأذن المؤذن لصلاة المغرب انتهي الصوم وبدأوا بتناول طعام الأفطار . وقبيل نصف الليل يستأنفون كرة الأكل ثم يتناولون طعام السحور قبل شروق الشمس . والأغنياء والفقراء منهم سواء فى اختيار أحسن مايروق فى الاذواق من شهيّ الأطعمة

١٠ — الآنية والأوعية المستعملة فى الطعام

قبل أن يجلس المسلمون الى موائد الطعام يغسلون أيديهم وفى بعض الأحيان أفواههم بالماء والصابون . وذلك بأن يتقدم أحد الخدم اليهم ومعه طست وابريق من النحاس أو القصدير أو الفضة ، إذا كانوا أغنياء . وللطست غطاء مثقب ترتفع فى

وسطه هنة تشبه الحوض الصغير . وهي مثقبة أيضا وفيها توضع قطعة الصابون . فأذا سكب الخادم الماء من الأبريق على يدى المخدوم مر من ثقوب الغطاء وسقط فى قاع الطست بحيث إذا تقدم الخادم الى مخدوم آخر ليغسل يديه لايقع نظر هذا الأخير على أثر مامن الماء الذى غسل سابقه به يديه

وتختلف مناديل الطعام (الفوطة) عما نستعمله نحن فى صيانة ثيابنا بكونه مستطيلا لامربعا ونسيجه من القطن وسطحه مغطى بوبر كوبر المخمل قبل قطعه وتسويته . وهو فى بيوت المثرين مزركش إما بالحرير أو القصب . وقد تبلغ قيمة الواحد منه مايعدل ثلاثمائة الى اربعمائة فرنك . والعادة أثناء الطعام أن يوضع منديل على الفخذين ويحمل آخر على الكتف بحيث يلتقى طرفاه على الصدر فيكون أشبه شيء بالوشاح وهذا تكون الزركشة فيه أكثر منها فى الأول ويكون بالتالى أغلى منه ثمنا . وأغلب استعمال المناديل على هذا المثال عند العثمانيين لاعند المصريين

والمشارقة البدويو الأصل من أهل العصر ما برحوا محتفظين فيما يتعلق بالطعام والمائدة بما تلقوه بالتسلسل عن أجدادهم من

العادة التى تنحصر فى البساطة ومتانة الأوعية .ولا يزال المصريون الى عهدنا يتوخون هـذه الخصائص فى طعامهم وموائدهم كما يظهر لك من اقتصارهم فى ذلك على صينية من النحاس أو غيره من المعادن يختلف طول قطرها من قدمين الى ثلاثه أقدام وكرسى بارتفاع قدم ونصف توضع هذه الصينية عليه واجتماع هاتين الأداتين يتألف منه مايسمونه « السفرة » التى يجلس الآكلون حولها على المخـدات المحشوة أو على السـجاجيد وتوضع أمام كل آكل قطعة من الخبز وملعقة

والشرقيون لايستخدمون الشوكة فى تناول الاطعمـة . وملاعقهم على ثلاثة أصناف ،صنف لتماطى الحساء والأرز وكل طعام سائل القوام . وهو من الخشب المعتاد فى الأسر الفقـيرة ومن خشب الآبنوس المزخرف بالكهرمان أو المرجان بل والأحجار الكريمة فى الأسر الغنية . وشكل الملعقة المصرية يخالف شكل الملعقة الأوربيـة من جهة أنها بدلا من أن تضيق شيئا فشيئا حتى تنتهى بطرف مدبب، تعرض شيئا فشيئا حتى يكون طرفها على شكل قوس . وللحلوى والقشدة وما شابههما عندهم ملعقة خاصة . وهناك شىء ثالث من الملاعق اكثر

تجوفا من الصنفين السابقين يصنع من الباغةويشبه قعبا صغيرا وهو خاص بتعاطى الخشاف

ولا يتخذ الشرقيون لتناول الطعام صحافا خاصة بكل منهم بل يأخذون من الصحفة العامة حصتهم من الطعام وليست هذه الصحاف من الخزف الصينى بل من النحاس وهى على شيء من العمق ولها غطاء تغطى به

والأوعية المستعملة للشراب هي آنيـة الماء أولا . وهي نوعان عريض الفتحة ويسمى بالقلة وضيقها ويسمى بالدورق . وتصنع القلل من صلصال واسع المسام يجفف بحرارة الشمس وخصيتها حفظ برودة الماء بالتبخر حتى فى وقت القيظ الشديد ويعطر داخلها عادة بخور الأخشاب الصمغية العطرية الرائحة وبالمصطكى المجلوبة من البلاد اليونانية . ولها أغطية من الفضة أو النحاس أو القصدير أو الخشب أو ورق النخل وتوضع فى صينية من المعدن تتلقى الماء الذى يرتشح منها . والقلل في مصر يقابلها فى البلاد الأسبانية الجرازا (الخرزة) . وفى بلاد الشرق لا يستعملون الكوب لشرب الماء بل يشربون من فم تلك الآنية ممسكين برقابها ، على أن أصحاب اليسار يشربون في

أكواب (طاسات) من النحاس أو الفضة المذهبة أو الذهب

١١ — آداب الطعام

ذكرت فيما تقدم أن الآكلين يقعدون القرفصاء حول السفرة . وهم إذا اجلسوا كذلك أمكن ان يحيط بها منهم سبعة أو ثمانية . ونادرا ماتحتوى المآدب الشرقية مدعوين يربون على هذا العدد . فأذا تجاوزوه أقيم من الموائد بقدر مايكفى لجلوسهم وحصول كل منهم على مكانه حولها . وقبل أن يتناول المسلمون الطعام يبسملون بقولهم : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهم لايستعملون الشوك فى تناوله ورفعه الى الفم بل يأخذون مايلزمهم منه بين أصابعهم في الصحفة العامة الموضوعة وسط الصينية . وطريقة الأكل على هذا النمط ألطف مما يخطر ببال الاروبيين الذين يسمعون هذا الوصف . ذلك لأن جميع الآكلين يغسلون أيديهم قبل الجلوس على الطعام وينظفونها بعناية عظيمة

ثم إن الطعام يقسم قبل وضعه على المائدة أجزاء صغيرة إما بقدر عدد الآكلين أو زيادة عليه ، بحيث أن كلا منهم يستطيع أن يصيب منه كفايته بدون تكبد عناء ومن غير أن

يلوث القطع الأخرى . ولا يشترك من أصابع اليد فى هذه العملية سوى الأبهام والسبابة والوسطى من اليد اليمنى . وكيفية استخراج القطعة أن تؤخذ كسرة من الخبز وتجعل لفقين وتوضع بين الاصابع الثلاثة المتقدمة للقبض عليها واستخراجها من الصحفة بنظافة تامة وبشيء من اللطف والرشاقة .

وصاحب البيت أو الداعي ينبغي ان يكون أول من يمد يده الى الطعام فأذا لم تكن له رغبة فى اللون الذى وضع أمام الآكلين فآداب الأكل تقضي عليه بأن يمسه إما بطرف إصبعه أو بواسطة قطعة من الخبز وبعد ذلك يتناول كل من المدعوين مايطيب له من الطعام

وفى المآدب الكبرى التى يستدعي عدد المدعوين اليها إقامة عدة من الموائد تنقل الاطعمة من مائدة الى أخرى . وجرت العادة بأن تكون ألوان الطعام كثيرة جدا قد يبلغ عددها الأربعين الى الخمسين لونا أحيانا ، ولكنها غير وافية المقدار ، فيتمتع الآكلون على هذا المثال بلذة التنقل من طعام الى طعام من غير كبير كلفة.وتصلح فضلات الطعام غذاء للخدم

ويلزم المصريون الصمت على الطعام . ومع اسراعهم فى تناوله فأنهم يراعون القناعة ويلتزمون الاعتدال ، إذ من الخطايا الغليظة فى نظر المسلمين أن يدأب المرء على الأكل ، وقد بلغ حد الشبع . وتبلغ مدة مكثهم على الطعام نحو ثلث ساعة فأذا اطالوا المكث فقلما تجاوز هذه المدة نصف الساعة . ومتى انتهي الطعام بادر الآكلون بالقيام محمدلين بقولهم : « الحمد لله » واعتنوا بغسل أيديهم وافواههم كما فعلوا قبل الجلوس الى الموائد ورب البيت مضطر الى التخلف على المائدة حتى ينصرف عنها جميع الآكلين . فاذا أكلوا وغسلوا أيديهم برحها ليغسل يديه كذلك ثم يجلس المدعوون على الدواوين لتدخين التبغ وشرب القهوة

١٢ — الاقتداء بالأوربيين فى تناول الطعام

همّ بعض الذوات والأعيان منذ زمن بتقليد الأوربيين فى طريقة طعامهم فاقتنوا صحافا كصحافنا واستعملوا لتناول الطعام منها الشوك والمدى وقرنوها بالأكواب لتعاطى الماء . غير أن الاسلوب الأوربى في هذا الموضوع يلتى من الصعوبات مايحول

دون انتشاره وذيوعه بين سائر الطبقات وكل مابذل من المساعي فى هذا السبيل حتى الآن كانت نتيجته التقليد الأعمى الذى ينافى الطبع والذوق . ذلك لأن الشرقيين ، إذا هموا بتقليد غيرهم ، أظهروا فى الغالب الغباوة والغشم . فلقد شهدت بعينى رأسى جماعة منهم اقتنوا أفخر مايكون من الآنية الخزفية يشربون الحساء فى الصحاف الفرطاحة الصغيرة الخاصة بتناول الحلوى والعكس بالعكس ، وشهدت غيرهم يشربون النبيذ المعتاد في أقداح الشمبانيا وغيرهم يجمعون بين النمطين الشرقى والغربى فى تناول الطعام فيمسكون اللحم فى الصحفة بأصابعهم ثم يرفعونه الى أفواههم بالشوكة بعد طعنهم إياه باسنانها . وكثيرا مايحدث فى المأدبة التى تقام على النمط الفرنسى أن المصرى الذى تقدم اليه الصحفة ليأخذ منها كفايته يتناولها من يد مقدمها ويضعها أمامه ليختص نفسه بكل ماتحتويه . وخدام السماط الموكلون بتفريق الطعام على الآكلين لايدركون حقيقة واجباتهم فى مثل هذه الظروف ، دع أنه بسبب مايصيب الآنية من التلف والعطب لغباوتهم وسوء خدمهم ، يصبح من المتعذر الاستعاضة عنها بغيرها

١٣ — طعام الفلاحين

عرف الفلاحون بالقناعة في المأكل والمشرب والاكتفاء منها بما يسد الرمق وخبز الذرة قاعدة غذائهم بل وكثيرا مايكون الغذاء الوحيد الذى يعتمدون عليه . ويحدث أن يضيفوا اليه ، إذا استطاعوا ، الفول المدمس الموضوع فيه بعض السمن والملح ، أو الأرز أو البلح أو الخيار أو الشمام أو الكرنب أو البسلة أو الجبن المالح أو اللبن المخضود أو الفسيخ أو لحم الجاموس الخ ولا يتعاطون من السوائل سوى الماء القراح وقهوة البن

٣
الآثاث

ملحوظات عامة — المنظرة : الدركة والليوان والديوان — زخرفة الجدران والسقف — الرفارف والبراويز الحائطية — زجاج النافذات وحديدها والفرش — مفروشات الفقراء

١٤ — ملحوظات عامة

ترى فى غضون تفاصيل الحياة الداخلية المنزلية للعرب

والأتراك آثارا تدل على أصولهم البدوية ويتبين منها أن احتفاظهم بالتقاليد كان من الشدة بحيث لم تؤثر معيشتهم الحضرية منذ بضعة قرون في شكل الأمتعة التي يؤثثون بها منازلهم . فأن الناظر إلى آثاثهم أول مايخطر بباله أنهم مابرحوا على الاستعداد التام للرحيل ، كما لو كانت المنازل التي يسكنونها أقل استقرارا وثبوتا من الخيام التي سرعان ماتقوّض لتضرب فى مكان آخر

ومعنى هذا أنهم يربأون بأنفسهم عن اقتناء الآثاث والأمتعة الثقيلة المتعذرة النقل التي يؤثث الغربيون بها منازلهم ويظهر منها أنهم أخذوا على الزمن عهدا ببقائهم فيها طول المدى. فأنك لاترى فى حجراتهم لامكاتب للكتابة ولا مناضد ولا خزانات للثياب ولا ماجرى مجراها من الآثاث التي تأتلف مزية الانتفاع فيها بالأسراف فى الزخرفة والتنميق ، والمرايا الصافية الأديم والأرائك الناعمة ، والزرابىّ المبثوثة ، والكراسى المصفوفة ، والتماثيل المتقنة ، والساعات الدقيقة الصنع الخ . بل أن متاعهم روعى فيه الاقلال مع البساطة فلم يعد شاملا لشيء سوى حصر السمار والسجاجيد والطراحات . فالشرق لم يكن المكان الذي ينبغي أن يقصد اليه الانسان للبحث

عن تحف البذخ وطرف الرفاهة والنعيم التى تفنن الغربيون وحدهم فى أساليب ابتكارها ويرجع فضل تحقيقها وإيجادها الى عبقرية العلماء والفنانين منا ومهارة عمالنا وجودة صناعتهم . والواقع أن الشرقىّ الذى يلذ لبعض الشعراء الخياليين تصويره فى قصره أو داخل حرمه متقلباً فى الهناءة والنعيم وسط مايعجز القلم عن وصفه من مظاهر الأبهة والجلال يعيش فى قصارى مايخطر بالبال من وسائل البساطة والتقشف والقناعة بالقليل

١٥ — المنظرة والدركة

لا يلفت النظر من حجرات البيوت المصرية كالمنظرة أى غرفة استقبال الرجال . والمنظرة غرفة مربعة أو مستطيلة تحتوى نافذة أو نافذتين تطلان على صحن الدار . وجزء من الارض الممتدة بين باب المنظرة والجدار المقابل ينخفض بمقدار خمسة ابهامات أو ستة عن بقيتها ويسمى «الدركه» . والعادة فى منازل الأغنياء أو الأسرياء أن توجد بوسطه فسقية ينبثق الماء منها على الدوام وأن تبلط بالبلاط المختلف الألوان على أشكال هندسية جميلة .

وبأحد طرفيها المقابل للباب قاعـدة مبنية بالحجر ومستندة الى الجـدار بارتفاع ثلاث أقـدام أو أربع ذات أقواس وحنيات محمولة على اعمدة صغيرة وتسمى «الصفة»

والغرض من الصفة احتواء آنية الطيب والبخور وأدوات غسل اليدين قبل الطعام وبعده والوضوء وقالى الماء وصينية القهوة الحاملة للظروف والفناجين الخ . وفى المنازل المنجدة المنمقة تحلى حنيات الصفة وأقواسها والبناء الذى تحمله بالغضائر القاشانى

١٦ — الليوان

يسمى الجزء المرتفع من أرض المنظرة بالليوان وهي كلمة معناها المكان المرتفع . ويبلط الليوان عادة بالبلاط المعتاد لأنهم يفرشونه في الصيف بحصر السمار وفي الشتاء بالسجاجيد وحول الجدران الثلاثة المحيطة بالليوان تمتد الدواوين (الكنبات)

١٧ — الديوان

تطلق لفظة الديوان من جهة عامة على الحجرة برمتها ومن جهة خاصة على صفف مؤلفة من طراحات طويلة أو قصيرة يبلغ

عرضها عادة قدمين ونصفا وسمكها من أربعة ابهامات الى خمسة . وهذه الطراحات تفرش إما على وجه الأرض مباشرة وإما على دكاكين من الحجارة أو ألواح مرتفعة من الخشب أو أقفاص متخذة من سعف (جريد) النخل بحيث يبلغ ارتفاعها من خمسة ابهامات إلى ستة وتكون بما عليها فى ارتفاع الكراسى المعتادة تقريبا . والطراحات تتخذ من القماش وتحشى إما بالقطن وإما بالاسطبة فى الأسر الفقيرة . وهناك مساند يبلغ ارتفاعها قدما ونصفا فى ضعف هذا العرض طولا تصف مستندة الى الجدار في وضع عمودى على الطراحات لكى يستند الجالسون اليها . وتكسى الطراحات عادة بالجوخ إذا كانت معدة لجلوس الرجال وبالقماش الهندى (الشيت) أو الحرير المزركش بأسلاك الذهب إذا كانت معدة لجلوس النساء . وتنتهي هذه الأغطية سواء كانت جوخا أو قماشا في أطرافها السابلة الى أسفل مقدمة الديوان بالرفرف أى السجق . أما المساند فيغطى وجهها الظاهر فقط بقماش من نوع الذى غطيت به الطراحات وغالبا مايكون هذا القماش موشي بالطرازات المختلفة الأشكال والألوان من الحرير

١٨ — زخرفة الجدران والسقوف

لاتغطى الجدران في مصر بالقماش وإنما تبيض بالجير فى منازل الفقراء وتطلى بالزيت فى دور الأغنياء. ولما كان الشرقيون لايمارسون التصوير لما ورد فى الشريعة من النصوص القاضية بتحريم تمثيل الصور البشرية فأن ماتخطه أقلام الفنانين منهم فى الزخرفة لم يكن إلا رسما غليظا لاأثر فيه لأصول الفن ودقائقه فأنهم إذا تصدوا لرسم شيء لايراعون فيه نواميس الضوء ولا أحكام المنظور ولا مقتضيات الذوق. وكل ماتتناوله أقلامهم بالتصوير رسم القصور والمآذن و الاشجار والحدائق والفساقى الخ وكلها لاأثر فيه، كما قلنا، من طلاوة الفن وحسنه. على أنهم يبرعون بتفوّق عظيم فى الرسوم العجيبة المؤلفة من الخطوط والزوايا والدوائر ويجمعون فيها كل ما ابتكرته عبقرية العرب في فن التصوير الهندسى. ويجعلون السقوف من الخشب عادة تذرعا الى تصوير تلك الرسوم عليها

١٩ – الرفارف والبراويز

القاعدة العامة فى النظام الهندسى للدواوين أن تتخلل آجدرانها الرفارف والدواليب الصغيرة . ويصفون على الأولى * نيـة الخزف الصينىوعلى الثانية أدوات المائدة . وأخشاب هذه الرفارف والدواليب تتألف ، كما يشاهد في جميع البيوت تقريبا ، من قطع صغيرة متعاشقة بعضها فى بعض ومنسقة بحيث تتكون منها رسوم تشبه ماتحتويه منها الغضائر القاشانى . وهناك سببان لصناعة الآثاث المصرية على هذا المثال أحدهما قلة الخشب فى القطر المصرى فتراهم يتوخون هذه الطريقـة للانتفاع بالقطع الصغيرة منـه والثانى أن حرارة الجو تدعو الى انشقاق القطع الكبيرة من الخشب كالألواح الكبيرة التى ، إذا استعملت ، لاتلبث أن يصيبها هذا الطارىء

٢٠ — زجاج الشبابيك والمفروشات

ذكرت خلال وصفى للمنازل المصرية بعض الشىء عن الشبابيك . وأضيف الآن الى ماذكرته عنها أن ليس لها دفتان

كما هو الحال فى أغلبها عندنا . فان حلوقها تنقسم الى قسمين أحدهما وهو الأعلى يظل ثابتا لايتحرك والآخر وهو الأسفل تحرك بحركة رأسية صعوداً وهبوطاً . والزجاج المركب فيها ردىء الصنع مهمل الشأن إذ يحدث أن ألواح الزجاج في بيت أصبح عتيقا لاتكون قد غسلت مرة واحدة منذ تركيبها فى مكانها . وهى إذا انكسرت بباعث ما ، قلما يفكر فى الاستعاضة عنها بغيرها ، لأن الخشب المركبة فيه مصنوع بحيث تستلزم عملية وضع الزجاج الجديد تفكيك أجزاء الشباك برمته . وقد اعتاد المصريون أن يعلقوا أمام نافذاتهم قطعة من قماش الشيت أوالقماش الهندى ، وفى النادر قطعة من الحرير بمثابة ستار لايتجاوز طوله طول النافذة . ولا يحلى بشىء ما من الرفارف (السجق) أو غيرها مما اعتيد زخرفة الأستار وتنميقها به

٢١ — الادوات الاخرى لتأثيث المنازل

رأينا فيما سبق أن الشرقيين لايستعملون الأسرة لنومهم ، وذكرنا كيف ينامون وأن ليس للنوم عندهم غرف خاصة . ونقول الآن إنهم لقضاء ليلهم ، إذكان الفصل صيفا ، يضعون

الطراحات على الدواوين ثم يرقدون فوقها. واذا كان شتاء يبسطون هذه الفرش في غرفة صغيرة تسمى بالخزانة تكون عادة من الغرف الملحقة بالمنظرة. ولانتشار الحشرات فى مصر ترى الأغنياء وأصحاب اليسار يتقون شرها بالكلل (الناموسيات) المتخذة من القماش أو الحرير الموصلين أوالجز أو أى نسيج آخر دقيق السلك. وبواسطة هذه الأقمشة يضربون الكلل فوق الطراحات فتكون بمثابة الظلة لها ويثبتونها من زواياها الأربع بحبال دقيقة تناط بحلقات موضوعة بأربعة جدران الغرفة

وتبلغ الكال أحيانا من العظم مايجعلها تشغل الديوان كله تقريبا وتحمى من البعوض أسرة برمتها. وفى بيوت الأغنياء تزخرف الكلل بالنقوش ومتى انقضى الليل واستيقظ النائمون نزعت من مكانها وطويت لتنشر مرة أخرى قبيل الرقاد

وليس لدى الشرقيين دواليب لحفظ الثياب لأنهم يكتفون فى صيانتها، بجعلها صرراً تحيط بها مناديل كبيرة تسمى (البقجة) ويتخذون لكل نوع من الثياب بقجة خاصة به. ولما كانت المجاسد أى الثياب التحتية لاتكوى ولا تثنى بواسطة النار فى مصر، وكان استعمال القبعات والمثقبات (الدانتلا) مجهولا من نسائها

فأن هذه الثياب نلبس غير معرضة لعبث العابثين بها ، فضلا عن أن صرّها فى البقج يجعلها أيسر حملا وأسهل استعمالا عند الحاجة

ولا تقع عين الناظر بمصر من المرايا إلا على الصنف الردىء الرخيص الثمن الوارد من مدينة البندقية . وهذا لاينفى أن هناك عددا من المرايا الجميلة التى أخذ بعض العظماء وذوى الحيثيات يستوردونها من البلاد الأوربيــة

ولدى أصحاب الوجاهة والثروة من الأهالى ساعات حائطية آلاتها من الخشب أو النحاس وهي مما تصنعه المانيا برسم التصدير الى الشرق الأدنى . والمصريون مغرمون باقتناء هذا النوع من الساعات حتى أنك لتجد فى الحجرة الواحدة ساعتين وفى بعض الاحيان ثلاث ساعات من هذا النوع

ولقد سبق لنا الكلام على الصينية التى يتناول المصريون حولها الطعام كما تكلمنا على الأشياء المختلفة التى تصلح لهذا الغرض ، فلا حاجة اذاً الى استئناف الكلام عليها

أما الشمعدانات فمن النحاس بوجه عام . وليس فى مصر شيء من المصابيح التى نراها فى غرف الاستقبال الكبيرة عندنا

تفيض النور على جوانبها فتجعلها ساطعة الضياء . لأن الشرقيين مابرحوا عاكفين على استعمال المصابيح الغليظة التى كان يستصبح بها أجدادنا منذ بضعة قرون . ويستعملون أيضا للاستصباح شمعا من الدهن ردىء الصنع جدا غير أن لدى الأغنياء ثريات من زجاج البندقية

وقد أدخلت الي مصر وفى السنوات الأخيرة أشياء كثيرة مما تؤثث به المنازل عندنا فى بيوت العظماء والأسرياء.ولست أذكر بهذه المناسبة قصور أصحاب السمو التى بما احتوته من نفيس الرياش وفاخر الآثاث تعدّ مستكملة لحاجيات الحضارة الاوروبية

٢٢ — آثاث الفقراء

أما الطبقة الدنيا فليس لديها من الآثاث بالطبع مثل مالدى أصحاب اليسار ، وإن يكن فى حد ذاته على شيء كثير من البساطة والسذاجة . ذلك لاقتصار الفقراء ، فى تأثيث بيوتهم ، على حصيرة سمار وسجادة وطراحة وبعض مساند أو مخدات . أما الفلاحون فيقتنون حصيرة واحدة ويتخذونها

فراشا لنومهم وكرسيا لجلوسهم ، ومائدة لطعامهم

وليس عندهم من الأوعية إلا بعض آنية من الصلصال وهاون لصحن البن وتنكة لعمل القهوة وشبك للتدخين . ذاك كل مايتألف منه أثاثهم . وليس في الأمر مايستغرب لأن هذا الأثاث أوفق مايكون لحالة الأكواخ التى اتخذوها مساكن لهم

٣

آداب الاجتماع

بيانات عامة — التحية — القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان أى مكان الجلوس — القهوة — الشبك

٣ — بيانات عامة

تنزل آداب الاجتماع من أمة بمنزلة الحركات والأشارات والأوضاع من الفرد . فآداب الاجتماع حالات تكشف النقاب عن حقيقة أمة بأسرها بل هى ، فى يد الباحث الراغب في تصوير حضارة أمة من الأمم ، القلم الذى لاينبغى له أن

يطرحه لأنه خير مايبلغ به الى غايته فى تشكيل كيانها

وثمة اعتبارات لاشك فى أنها أقل مما تقدم ارتباطا بالفلسفة ، ولكنها ترمى الى غرض المنفعة ، تدعونى فى هذا المقام الى سرد بعض القواعد والأصول التى تنظم المعيشة اليومية للوطنيين المصريين . وسيسر الرحالون الذين يطوفون فى الشرق ، قبل أن يلموا مقدما ببعض أخلاقه وعاداته ، أن يجدوا في البيانات المبسوطة فى هذا الفصل متنا وجيزاً لقواعد آداب الاجتماع الشرقية . وبتلاوتهم هذا المتن وإلمامهم بما يحتويه يألفون شيئا فشيئا الآداب المرعية عند المسلمين ولا ينتابهم من الحيرة والاضطراب ماينتاب الذين يختلطون بأمة دون العلم بشىء من عاداتها وأخلاقها . وأية حيرة للرحالة الأجنبي من أن يجد نفسه تجاه أخلاق وعادات لايفهم منها شيئا . ألا يكون شأنه وهذه حالته شأن من يحتاج الى درس لغة جديدة للتفاهم مع أبنائها ؛ أما إذا ألمّ بما يجهله من أمرها فأنه يسهل عليه تبين حقيقة مدنيتها فيجتهد فى التوفيق بين سلوكه وعاداتها وأخلاقها

٢٤ — التحية

فى الغرب ، إذا ساقت المصادفة شخصين الى الالتقاء فى الطريق ، فأنا نرى الذى يستشعر منهما بسمو الآخر عليه في الوجاهة أو العلم أو الثروة يبتدره بالسلام . أما فى الشرق فصاحب المرتبة العليا هو الذى يفاتح صاحب المرتبة الدنيا به

فبين التحيات عند الشرقيين تفاوت يرتبط ارتباطا وثيقا بمراتب الذين يتبادلون التحية . فالنظيران إذا التقيا مثلا سلم كلاهما على الآخر بيده اليمنى رافعاً إياها الى الفم ثم منه الى جانب الرأس فاذا لم يكن التساوى بينهما تاما ، كأن كان هناك تفاوت يميز أحدهما على الآخر،فالأرفع درجة من الاثنين هو الذى يجب عليه أدبا أداء التحية بالوصف الذى أوردناه . ولكن يجب على من يتلقى التحية فى هذه الحالة أن يردها بمثلها أو أحسن منها ، وذلك بأن يحنى رأسه وجسمه إحناء خفيفا . أما إذا أريد تحية شخص من الطبقة الدنيا فالعادة الاقتصار فيها على رفع اليد الى الصدر . وفى هذه الحالة يجب على من يتلقى التحية أن ينحنى انحناء محسوسا ويرسل يده اليمنى الى أسفل لكى

يرفعها بعد ذلك الى الرأس . وإذا كان أحد أفراد الطبقة الدنيا في حضرة أمير أو كبير فقد وجب عليه تأدية التحية على المثال المتقدم بكلتا يديه ..

وفى تحية النظير للنظير يستمر الاثنان على السير فى طريقها . فأذا كان هناك فرق فى المراتب ، فالواجب على الأدنى مرتبة أن يقف ويواجه الذى يجب عليه ردّ التحية اليه

وتصحب التحية التى تعبر عنها الأشارة بكلمة (صباح الخير) أو (مساء الخير) أو (نهاركم سعيد)

وإذا التقى اثنان في طريق تساءلا عن أحوالهما الصحية وعن كيفهما ومزاجهما . وأبناء الطبقة الدنيا يكررون هذا السؤال بتكرار الكلمات الآتية (إزيك) (طيبين) الخ . مع التصافح باليدين من غير ضغط ورفعها الى الفم فى كل مرة يوجهون فيها السؤال

ونادراً مايستفهم من الشخص المسلم عليه عن أخبار أفراد أسرته وخصوصا النساء منهم . فان الآداب الاسلامية تستدعي إمساك الرجل عن توجيه التحية اليهن . ولا شيء يخالف مقتضى الآداب الأوربية من تلك الآداب الاسلامية كالعمل

بهذه القاعدة . حقا إنه ليتعذر جدا تمييز النساء بعضهن عن بعض وهن مؤتزرات بذلك الأزار الذى لا يرى من خلاله شىء يعرفن به ، ولكن الواجب بحسب تلك الآداب ، حتى فى حالة العلم بهن التظاهر بجهلهن ، وإلا عد ذلك من المخالفات التى لا تتفق مع أصول الحشمة والصيانة . ثم إن النساء لا يسلمن بعضهن على بعض في الطريق

٢٥ — القواعد المرعية فى الاستقبال بالديوان

الديوان هو البهو المخصص لاستقبال الرجال . وقد ذكرت فيما تقدم وصف ترتيبه وتأثيثه ، وأذكر الآن أن الواجب على من يغشى هذا المجلس أن يترك حذاءه عند الباب أو فى الجزء الواطىء من البهو « الدركة » حتى لا تتسخ الحصر والسجاجيد بالقذر أو يصيبها شىء من الدنس الذى لا يتفق مع القيام بفرض الصلاة عند المسلمين . وليس على من يغشى المجلس أن يوجه التحية الى الحاضرين ، كلا بل أن رب البيت هو الذى ينهض واقفا عند دخوله إذا كان من أهل مرتبته ودرجته . فأذا كان أعلى منه مرتبة ودرجة أقبل عليه وتنحي له عن مجلسه . أما إذا

كان أحط منه مرتبة فليس على رب المنزل إلا أن يتحرك حركة يوهم بها أنه يهمّ بالوقوف ، ولكنه يبقى مستقرا فى مكانه ثم يشير اليه بالجلوس فيجلس على الحصير أو السجادة أو بحافة الديوان معلقاً احدى ساقيه وثانيا الأخرى تحته تبعا لما يريد أن يظهره من التوقير والاحترام لرب البيت . وإنما يجب عليه فى هذه الاوضاع المختلفة ان يجعل يديه مشتبكتين على أسفل البطن . أما رجال الجندية فيضعون يدهم اليسرى على مقابض سيوفهم

وفى مجلس سمو والى مصر يظل الحاضرون جميعاً وقوفا على أقدامهم ، حاشا الأمراء من أعضاء الأسرة الحاكمة والباشاوات وأكابر رجال الدين . ولم يتبع سموه هذه العادة مع الأجانب ولا سيما الأوروبيين منهم فأنه يدعو الى الجلوس جميع الأجانب الذين يقدمون اليه

أما الأفرنج الذين فى خدمة مصر ، فانه يطلب منهم مراعاة عادات الشرقيين فى كل أمر

ولكبار الضباط فى دار الوزير حق الجلوس على الديوان كما أن اضباطهم حق الجلوس فى حضرتهم وهكذا بحسب

ترتيب الدرجات فى هيئة الاجتماع العسكري

ويجلس الذين يغشون مجالس سمو الوالى بعضهم الى جانب بعض بحيث يكون أسماهم مرتبة وأعلاهم مقاما أدناهم منه . على أن هذه القاعدة الأدبية غير مرعية دواماً فقد شوهد سمو الوالى وكثير من العظماء يهملونها فى بعض ظروف معيشتهم حتى أنك لتجد الأمير فى بعض الأحيان يلعب الشطرنج مع أحد خدمه ويأذن له بالجلوس على الديوان من أجل ذلك

ومتى انتهى المجلس يقوم الحاضرون بدون أن يفوه أحدهم بكلمة ويتراجعون الى الخلف صارفين وجوههم نحو صاحب الدار حتى لايولوه أدبارهم أو أكتافهم . وعليه فى هذه الحالة أن يحييهم وهم يجاوبون على تحيته وينصرفون تباعا . وقد ينهض رب البيت واقفا أو يصحب بعض الزائرين الى الباب ، إذا اقتضى أحد هذين الأمرين مكان الزائر المنصرف ورفعة قدره

والسيدات تتبعن بينهن هذه القواعد وتعملن بها فى استقبال الزائرات . وهذه العادات الأهلية التى حفظتها التقاليد وجعلتها راسخة ثابتة رسوخ الحضارة التى اشتقت هى منها معروفة ومرعية من الجميع والكل مجمعون على ضرورة

الاحتفاظ بها واستدامة وجودها بالحرص على اتباعها حرصا يكاد يكون ايمانا أو يقيناً دينياً .

٢٦ — قهوة البن

مما لايختلف فيه اثنان شيوع تعاطي قهوة البن فى أنحاء بلاد الشرق . فأن الشرقيين يقدمونها إلى جميع الذين يحق لهم الحضور فى مجالسهم . فالباشا الذى يتلقى فى دار حكومته أميراً خطيراً أو عظيما من العظماء أو قاضيا جليلا يقوم نحوهم بهذا الواجب الأدبى ويكفى أن يلفظ بكلمة القهوة ليكرر أحد كبار الخدمة هذه اللفظة خارج الغرفة بصوت جهورى مستطيل . وفى هذا النداء دلالة على الاحترام العظيم لشخص الزائر

أما إذا كان المزور أقل من ذلك شأنًا وأحط رتبة فليقتصر على طلب القهوة بنفسه واصفاً إياها بوصف الجودة

وتشرب القهوة فى آنية صغيرة من الخزف الصينى تسمى بالفناجين ، وهي تشبه قشر البيضة مقطوعة نصفين من وسطها وتوضع الفناجين فى قوائم يسمونها بالظروف وهى أشبه شيء

بالآنية التى يوضع فيها البيض النمبرشت . والظروف تصنع عادة من الفضة أو الذهب أو المينا ، وترصع أحياناً بالأحجار الكريمة . وعند الفقراء يكون الفنجان من الخزف الصينىّ والظرف من النحاس وتصف عشرة فناجين الى اثنى عشر فنجانا وقدر هذا العدد من الظروف على محيط صينية من النحاس أو الفضة ترتفع بوسطها تنكة القهوة التي تتخذ من أحد تلك المعادن وتغطى الصينية عادة بقطعة مستديرة من القماش المزركش بالذهب أو بغيره بحسب مقدرة رب المنزل

ويقوم الخدم أو العبيد بصب القهوة فى الفناجين ثم بتقديمها الى الحاضرين ممسكين الظرف من أسفله بأطراف الأصابع فيتلقى الزائر الفنجان بالقبض على الظرف بالأبهام والثلاثه الأصابع التالية له من اليد اليمني . وتقدم القهوة فى أول الأمر الى الشخص الذى يؤهله مقامه أو رتبته أو ثروته لأن يحوز شرف الأسبقية على غيره في الخدمة فأذا وجد بين الحاضرين أكثر من واحد يستحقون هذا الاعتبار فأن فناجين القهوة تقدم اليهم فى آن واحد وعليهم قبل تناول الفنجان الذى يقدم اليهم أن يحيوا بعضهم بعضا . أما إذا كان الزئرون أحط مرتبة

من المزور فلا يصح تقديم القهوة اليهم إلاّ بعده بحسب ترتيب مجالسهم منه والواجب عليهم فى هذه الحالة أن يحيوا صاحب البيت بالأشارة قبل تناول الفنجان .وكلما تلقى تحية أجاب عليها برفع فنجانه الى مؤازاة وجهه . وعلى أثر هذه المظاهر الأدبية يشرب كلٌ القهوة التى قدمت اليه

ولاينبغى فى شرب القهوة أن تشرب إلا مصاً بطرف الشفتين ومن غير إمالة الفنجان ومن يريد من الحاضرين إظهار الاحترام للمزور باعتبار كونه أرفع منه شأناً فعليه أن يحول برأسه عنه تحولا خفيفاً وأن لايشرب من القهوة إلا الشيء اليسير منها

وقد سرى قانون الآداب الأسلامية حتى على الكيفية التى ينبغى أن يردّ الفنجان بمقتضاها الى من قدمه .فأنه يقتضى فى في حالة ابتعاد الذراع عن الجسم لرده الفنجان أن يكون هذا الابتعاد خفيفاً وأن لايصحبه كلام مع الخادم وانه متي تناوله هذا الأخير منه يؤدى إشارة التحية كما أداها وقتما قدم اليه

وقد ألف الخدم فى أخذ الفنجان عادات وطرائق تشبه التى يقدمونه بمقتضاها رقة وأدبا . ذلك لأن الفنجان لايحتوى

على بروز خارجى بانه حينما يتلقاه يفعل ذلك بحركة لطيفة بوضعه يده اليمنى على فتحة الفنجان وتركيزه قاعدة الظرف على يده اليسرى

ولا يجوز التحدث مع رب البيت فى عمل إلا بعـد شرب القهوة . فأذا ابتدره الزائر بالحديث فى المصلحة التى ساقته اليـه قبل ذلك كانت هـذه المسارعة تهجماً لامبرر له بل مسلكا لا يليق بالمتأدبين . وهذه العادة يستند البعض اليها فى إقامة الدليل على كسل الشرقيين ودعتهم وتهاونهم والتى يبدو «أول وهلة» أنها مضيعة للوقت فيما لا جدوى منه ترتجى لاتخلو من الفوائد والمزايا . لأنها تفتح للزائر والمزور معاً طريقاً للانتقال الصالح من المشاغل التى كان خاطرهما مشتغلا بها قبل الزيارة والتى سيشتغلان بها فى خلالها . وبهذه المثابة لايحسب المزور أن الزائر أخذه ، بزيارته إياه فى الوقت الغير الملائم أو فى الأوان الذى كان لايتوقع فيه زيارته ، على غرة منه . لأنه بما ينقضي من الوقت أثناء تعاطى القهوة يكون قد أخذ الأهبة للمفاوضة في الموضوع الذى يعرف أن زائره جاء من أجله واستعد له استعداداً فكرياً

ومن جهة أخرى فأن الزائر نفسه يجد ، أثناء تعاطيه القهوة ، فسحة من الوقت للتمعن فيما سيلقيه من القول على المزور وتنسيقه على الوجه الذى يراه أسهل تناولا على الفهم أو أبلغ فى الأقناع بالحجة . وإذا فرض أن أحدهما أو كلاهما كان حينما وقع نظره على صاحبه قد ثارت فى نفسه ثائرة الغضب أو اعتراه الحياء أو تملكته إحدى العواطف المؤثرة فى النفس فأن الوقت الذى ينقضي في تبادل التحيات والتسليمات وشرب القهوة يمهد للغاضب سبيل الفيئة إلى السكون والحلم اللذين لا بد منهما فى كل مفاوضة أو مناقشة

٢٧ — الشبك

ليس فى استطاعتنا ، إذا كنا فى أوروبا ، أن نصور لنفسنا منظر تركى وليس بيده شبك يستثير الدخان منه . وما من أحد فى الشرق إلا وهو مغرم بتدخين التبغ إلا أن القوم يسلكون فى تدخينه مسلكا يدل على تفوقهم فى سلامة الذوق ورشاقة الحركة وما إلى غيرهما من المظاهر التى يندر أن يتصف بهما المدخنون عندنا

والشبك أداة يستجلب الشرقيون بواسطتها لذة تحولت فى نفوسهم ، كعادات كثيرة غيرها ، إلى طبيعة ثانية . وللطرق المستحدثة والثروة تأثير في الشبك باعتبار كونه إحدى الأدوات المنزلية التى يفضلها المدخن على غيرها . والأجزاء الثلاثة التى يتألف الشبك منها هى : الفم والأنبوبة والجوزة أو الحجر

فالفم ويسمى أيضاً التركيب هو الجزء الذى يوضع بين الشفتين لاستنشاق الدخان ويكون عادة من الكهرمان رفيعاً أو غليظاً قصيراً أو طويلا . وعلى كل حال مناسباً لطول الأنبوبة مع اختلاف فى الشكل والزخرف اختلافاً يوافق مزاج صاحبه وميله . ويبلغ ثمن الفم عادة ، إذا كان من الكهرمان ، من خمسين فرنكا إلى خمسمائة فرنك . ومن الأفمام ما يتجاوز ثمنه هذا الحد ويكون مزخرفاً بالمينا أو مرصعاً بالأحجار الكريمة . ويقتصر الفقراء على اتخاذ أفمامهم من القرن أو سن الفيل

ويختلف طول الأنبوبة من قدمين إلى ستة أقدام وتصنع إما من أعواد شجر الكراز أو الياسمين أو أى خشب سواهما وتكسى بالحرير . وإذا كان صاحبه من ذوى اليسر والقدرة كسا طرفيها ، بطول أربعة إبهامات أو خمسة ، بالفضة أو الذهب أو

المينا وربما رصعها بالأحجار الكريمة . أما الفقراء فيقتصرون على الخشب المعتاد فى صناعة الأنابيب لشبكاتهم وربما اكتفوا بقطعة من البوص لهذا الغرض

أما حجر الشبك فلا يكون من غير الصلصال المحروق وله أحجام مختلفة ويحلى بنقوش على النمط العربى وتختلف الأحجار عن بعضها بحسن رونقها وجمال نقوشها ليس إلا

ولم يكن التلهى وقطع الوقت بتدخين الشبك وقفاً على الرجال فقط . فأن النساء يقطعن فراغ وقتهن أيضاً بتدخينه داخل الحرم . وهذه العادة أقل شيوعاً بينهن منها بين الرجال . ثم إن النساء لايجهرن بالتدخين ، وإنما يدخنّ في حجراتهن بعيداً عن الأعين ، وشبكاتهن أجمل رونقاً من شبكات الرجال لكثرة مافيها من الزخرفة والتنميق لأن حب الزخرفة عند النساء الحاسة السادسة بعد حواسهن الخمس

ويستعمل المسلمون للتدخين أجود أصناف التبغ ويعطرونه أحياناً بماء الورد وبقطع صغيرة من العنبر يخلطونه بها فيكون الدخان الذى يستنشقونه عطرى الرائحة محبوبا فى الشم . ويتخذون أثناء التدخين أوضاعاً تنم على الوقار والهيبة من جهة وعلى الدعة

والسكون من جهة أخرى ، دع أنها تساعد على المضى فى التأمل والسبح فى أجواء التصور . وجلال تلك الأوضاع مضافاً إلى أطوال الشبكات وسُحب الدخان العطرى المتصاعدة أكاليل بعضها تلو بعض والظروف والأحوال التفصيلية الأخرى ، لما يساعد على تحبيذ تلك العادة التي تبدو لنظر الأوربيين مجردة من مظاهر الرقة ومنافية للذوق السليم

وكان لابد للشبك أن يدخل ، وله ماذكرنا من الشأن والمكانة ، فى دائرة الآداب الاجتماعية . غير أن استعماله أقل شيوعا من استعمال القهوة ولهذا كانت القواعد المرعية بشأنه مقتصرة على انه لايقدم عادة إلا من المرؤوس لرئيسه أومن النظير لنظيره . فمن النادر إذاً أن يقدمه الرئيس لمرؤوسه ، وإذا قدمهفلا يكون ذلك إلا لقصر مدىالتفاوت بينهما فى الدرجات. وشكل الشبك وحليته يدلان على درجة الاحترام الذى يستحقه من يقدم اليه . ومن ثم كان للشبك درجات تبلغ الخمس أوالست بينها من التفاوت والاختلاف مايجعلها منطبقة على أقدار الذين تقدم اليهم

ثم إن الاحتفال بتقديم الشبك ينبغى أن يتفق مع

الأساليب الأسلامية الممتازة بالرقة فى الأدب . فأن الخادم المكلف بتقديمه لايمسك به إلا من أسفل الأنبوبة فى النقطة المتوسطة من طولها . ويكون إمساكه بثلاثة من أصابع اليد اليمني فقط كما يمسك قلم الكتابة مع العناية بجعل الحجر الى الأمام . فأذا ماوصل تجاه الشخص الذى يراد تقديمه اليه أسند الحجر الى الأرض بعد أن يكون قد قاس بنظره المسافة الفاصلة بينه وبين هذا الشخص بحيث يجعل أنبوبة الشبك ، بعد ارتكاز الحجر على الأرض ، تحرك حركة يرسم الفم فيها ربع دائرة يلتقى فى نهايتها بنقطة فى متناول فم الضيف الذى يقدم اليه .

ويقدم الشبك كما تقدم القهوة الى الذين يحلون المكان الأول من مجلس صاحب البيت ثم الى الذين يلونهم يمنة ويسرة وهكذا على حسب ترتيب المواضع . والواجب فى هذه الحالة على من يقدم اليهم الشبك أن يتلقوه بالتحية لرب البيت . وإذا كان على الزائر للمزور فروض احترام وتعظيم إما لجاهه أووجاهته أو ثروته أو غير ذلك فمن الأدب المستحسن أن يعنى بأبعاد طرف الأنبوبة التى فيها الحجر عن مجاورته . لأن ترك هذا الطرف بالقرب منه يشير إلى أن الكلفة مرفوعة من بينهما ويكون الزائر

قد أتى ، فى هذه الحالة ، أمرا لا يتفق مع حسن الشمائل وكرم الأخلاق . وواجب الزائر حيال المزور الذى هذا شأنه أن يترك الطرف الأعلى من الشبك مستندا الى ركبته ، وأن يستنشق منه بين حين وآخر نفسا خفيفا لا يزفره إلا وهو محول رأسه عن ناحية المزور . والحذر كل الحذر من انبعاث صوت ما بين الشفتين أو البصق في منديل أو غيره

وإذا أراد الزائر مزايلة المكان بعد انقضاء الزيارة ، فعليه أن يكف عن التدخين بأن يرفع بيده الطرف المشتمل على الفم (المبسم) فأذن الخادم لا يلبث أن يتقدم نحوه ليرفع الشبك . فأذا فرض ولم يكن هناك خادم ولم يتقدم أحد فله أن يسند هذا الطرف الى ديوان الجلوس

٤

الختان أو الطهارة

قدم هذه العادة — الاحتفال بها

٢٨ — قدم عادة الختان

كان الختان عند قدماء المصريين إحدى الوسائل الصحية

التى تقضى بها القوانين المدنية وأول من استن هذه السنة ابراهيم (عليه السلام) فصارت عند الأمة اليهودية فرضا من فروضها الدينية وأعفى المسيحيين منها القديس (مار بولص) ولكن المسلمين فرضوها على أنفسهم احتفاظا بالتقاليد التى وضع ذلك النبي العبرى أساسها . ولم تكن معتبرة فى نظر المسلمين كافة كأنها فرض من فروض ديانتهم فمتبعو مذهب الأمام أبى حنيفة يحكمون بفائدة هذه العملية ووجوب إجرائها إذا لم تكن هناك يسباب وجيهة تمنعها ، غير أنه لايغير من إسلامية المرء شيئاً أن أبقى بلا ختان

واذا حافظ المصريون على عادة الختان فما هو إلا لما ثبت عندهم من فائدته وحسن أثره من الوجهة الصحية . لأنه ، بقطع النظر عما يتطلبه الدين الاسلامى من تكرار الوضوءوالاستحمام، من أنجع الوسائل لوقاية أعضاء التناسل من الأمراض الكثيرة التى يكون القذر سببا لها

٢٩ — الاحتفال بالختانه

جرت العادة بأن يكون ختان الأطفال فى السابعة أو

الثامنة أو التاسعة من أعمارهم . نعم إن السنّ التى يقام فيها الاحتفال بالختان تحدد على وجه الصراحه غير أنه يجب الشروع فى إجراء عملية الختان والاحتفال بها قبل مناهزة الغلام سن الحلم، لأنه يعتبر في هذه السن مكلفا بأداء فرض الصلاة.فأذا لم يكن قد اختتن فلا يعتبر حائزا على شروط الطهر والنظافة التى تقتضيها الشرع

والمألوف عند ذوى اليسار والبسطة فى المال ان يبالغوا فى تنميق الاحتفال بمناسبة ختان ابنائهم . فأنهم يؤلفون لهذا الغرض موكبا يجتمع فيه الاصدقاء والمحبون ويتقدمه رجال الموسيقى ثم يطوفون بالشوارع والأحياء القريبة من مساكنهم

أما الغلام المراد اختتانه فيمتطى جوادا مطهما بعد أن يفرغ عليه ثوب فاخر ويعمم بعمامة من الكشمير الأحمر . وقد يتزيا بزى فتاة صغيرة فيفرغ على جسمه اليلك والسلطة والكور والصوفة ويضع على فمه بيده اليمنى منديلا مزركشا بالقصب . وعند تحرك الموكب به يتقدمه صبىّ الحلاق الذى نيطت به عملية الختان ممسكا بيده الجلم وهو صندوق يحتوى عدة معلمه

وأدواته . يراد بجعله فى المقدمة الرمز الى الغرض من الاحتفال ثم يتلوه رجال الموسيقي بزمورهم وطبولهم ثم الغلام يتبعه أهله وأصدقاء أسرته

وإذا كان أهله من أصحاب الثروة الواسعة والجاه العريض فأنهم يذهبون الى أبعد مما تقدم فى جلال الموكب ومظاهر أبهته وجماله . ولاسيما اذا قصد بالغلام الى المسجد فأنهم ، في هذه الحالة ، يحضرون زملاءه فى المدرسة أو انداده فى السن من أبناء الجيران والأصدقاء والمعارف وبأيديهم المباخر يحرقون فيها الجاوى والصندل . وبعد أن يقضى الموكب فى المسجد حصة من الزمن بين الظهر والعصر ، يدعون الى الله متوسلين اليه بنبيه أن يحفظ « المطاهر » ويحرسه لأهله ثم يقيمون مأدبة كبرى يتناول الطعام عليها جميع من رافقوه من الاطفال وغيرهم

والعادة ان تتم عملية الختان عقب هذه المأدبة بأن يأخذ الحلاق الطفل الى أبعد حجرة من المنزل فيقطع له الحشفة بالموسي ويوقف بأحد المساحيق القابضة نزيف الدم . ثم يتقدم أغلب المدعوين لتهنئة المطاهر واتحافه بالهدايا الجميلة . وبعد أسبوع من العملية يؤخذ الى الحمام

والختان فى نظر المسلمين الحد الفاصل بين دورين من أدوار حياة الطفل المختتن . فأن الناس ينظرون اليه بعد الختان باعتبار أنه قد ترك دور الطفولة ليدخل فى دور الرجلة . ومن هذا الحين يلقن قواعد الصلاة وأركان الدين . وإذا كان غنيا عنى بتربيته وتعليمه تعليما واسع النطاق. أما إذا كان فقيرا فأنه يساعد اهله على معاشهم بممارسته معهم الحرفة التى يزاولونها

٥

الزواج

ميل المصريين الي الزواج — السن المعينة للزواج — الزواج المحرم — مقدمات الزواج — حفلات الزواج — ازالة البكارة

٣٠ — ميل المصريين الى الزواج

يرى المسلمون فى الزواج أنه من الفروض التى لا يحسن بالمرء محاولة التنصل من القيام بها . فهم يريدون من الرجل الاقتران بالمرأة متى بلغ السن الملائمة لذلك ولم يحل دون إتمام هذا الأمر حائل لاقبل لأحد على دفعه . وبلغت شدة الوهم بهم فى هذا الموضوع الى حد لايمكن لأحد معه السكني بأحد

الأحياء فى بيت خاص به مالم يكن متزوجاً أو عنده فى خدمته جارية أو جملة من الجوارى . فالعزب مضطر إذاً إلى السكنى في الوكائل أى الفنادق العامة المعدة لأقامة الغرباء

ويريد الآباء لأبنائهم مايريدونه لأنفسهم من الحصول على النسل . وهذه الرغبة أساس الحياة الزوجية عندهم فتراهم لهذا السبب يعجلون بتزويجهم وهم فى مقتبل العمر . وكثيراً مايخطبون لهم العرائس وهم فى طفولتهم الأولى فيحتفظون بهن الى أن يبلغوا سنّ الحلم فيتم زفافهم بعضهم على بعض

٣١ — السن المعينة للزواج

الحقيقة أن لا سنّ معينة للزواج عند المصريين ، لذا تراهم يذهبون فى هذا الأمر الى حد العبث والأخلال بالصواب . فأن منهم من يزوجون بناتهم فى التاسعة والعاشرة من عمرهن ، أى فى الوقت الذى لم يتوافر للمرأة فيه من النمو البدنى والأدبى مايجعلها أهلا للتزوج

وكثيرا مايرى المرء رجالا فى الثلاثين أو الأربعين من أعمارهم ، وقد تزوجوا بفتيات صغيرات يصح أن يكونوا لمثلهن

آباء أو أجدادا . وهو الدليل على أنهم لا يلتمســون من الزواج سوى شفاء الغليل من الشهوات البدنية وعلى أن الدافع لهم الى عقد عقدة الزواج لم يكن العقل ولا العاطفة

٣٢ — الزواج المحرّم

ليس لمسلم أن يتزوج بأبنته أو أخته اوبنت الأخ أوبنت الأخت أو الأخت فى الرضاع أو أخت الزوجة مالم تكن قد توفيت أو طلقت ، وفيما عدا هذا من طبقـات القرابة يبـاح الزواج . والشريعة الأسلامية لاتحرم زواج المسلم بالنساء من من أهل الكتاب أى اليهوديات والمسـيحيات ولـكنها تحرمه بالمشركة من أديان أخر غير هذين الدينين . ومما يكاد يدخل في حكم العدم أن مسلما يستفيد بهذه الأباحة فيـتزوج بمسيحية أو يهودية

٣٣ -- مقدمات الزواج

إذا طلب رجل التزوج من امرأة ورضى والدها بالشروط المقترحة فى حالة عدم بلوغها أو وافقت بنفسها عليها بعد بلوغها

الحلم جاز تحرير عقد النكاح

وللزواج في مصر اتفاق خاص لايحتاج فيه الى مصادقة من السلطة الدينية ولا الى إجراءات مامن جانب السلطة المدنية . فاجتماع الزوجين هناك يتم بتبادل الرضى والقبول من الزوجين امام شاهدين وتعلن الزوجة رضاها وقبولها فى هذا التعاقد بلسان وكيل تختاره بنفسها إذا كانت بالغا أو بلسان والدها أو وصيها إذا لم تكن كذلك . فالذى يؤدى الوكالة عنها يخاطب الخطيب المتقدم للزواج بقوله « زوجتك إياها » فيجاوب هذا : « قبلت » . وكثيراً مايتفق أن يقصد المسلمون الراغبون في الزواج الى القاضى فيفضيان اليه بهذا الرضي والقبول . ومنهم من يستغنون عن هذه الصيغة الرسمية

وبتمام الرضى والقبول يشرع فى الكلام على المهر . وليست المرأة فى مصر هي الملزمة بآدائه الى الرجل ، لأن الشريعة الأسلامية تلزم الرجل بدفع الصداق الى المرأة . وهذا الألزام غاية فى السداد والعدل فى هيئة اجتماعية تجيز الطلاق لأن الصداق ، فى هذه الحالة يكون نوعا من التعويض للزوجة المطلقة

ويقدر الصداق عادة بالريالات . والريال نقد صورى ينقسم الى ٩٠ بارة ويساوى ٥٠ سنتيما ففى الأسر المتوسطة الحال يبلغ الصداق عادة الى الف ريال وأحيانا لايتجاوز نصف هذا المبلغ . أما الأغنياء فيقدرونه بالكيس والكيس يعدل مائة وخمسة وعشرين فرنكا . ويبلغ عندهم عادة الى عشرة أكياس ، وربما تجاوزها الى مافوق . ومما يشترط فى عقد الزواج أن تقبض العروس من المهر عاجله أى الثلثين من مجموعه ولها أن تتصرف فى هذا المعجل على مرادها وبدون أن يحاسبها زوجها عليه . أما الثلث الباقى وهو الآجل فيبقى فى ذمته كمال احتياطي لها يلزم بأدائه فى حالة طلاقه إياها

٣٤ -- حفلات الزفاف

تقام حفلات الزواج بعد تبادل القبول والرضى من الخطيبين بقليل وعلى كل حال فالمدة التى تنقضى بين تحرير العقد وحفلة الزفاف لاتتجاوز ثمانية أيام إلى عشرة يقوم أهل العروس خلالها بتجهيز شوارها . وقد يقدم العريس اليها بعض الهدايا أثناء ذلك . والأيام السعيدة الطالع الموافقة للاحتفال بالزفاف

هي الأثنين والجمعة على الأخص .

وأفضل أوقات السنة للزواج هى المنحصرة بين فيضان النيل وشهر رمضان . وفي الليلتين السابقتين على يوم الزفاف أو الثلاث الليالى السابقة تضاء الأنوار والمصابيح فى بيت العريس والمسالك المؤدية اليه من الحيّ الذى يسكنه ، وتقام المآدب يختلف اليها أقرباؤه وأصدقاؤه .

أما بيت العروس فيكون أثناء ذلك مظهرا لحفلات باهرة وأفراح عظيمة يشترك فيها النساء من أهلها وقريباتها وجاراتها

ويعد من الأعياد الكبيرة وبواعث السرور والابتهاج اليوم المعين لذهاب العروس إلى الحمام حيث تمشط وتضمخ بالروائح العطرية ويزال شعر بدنها للمرة الأولى فى حياتها . ويرافقها إلى الحمام عادة قريباتها وصديقاتها . ويكون الذهاب إليه قبل الزفاف بيومين مجملة بأحسن ماتتجمل به امرأة من ضروب الزينة والبهرج ومتوجة بتاج جميل تحت ظلة يرفع قوائمها أربعة من أشداء الرجال ويتقدمها الموسيقيون والراقصات والعالمات . وقبيل المساء تعود إلى بيت أهلها فى مثل هذا الموكب الجميل . أما العريس فيقصد إلى الحمام العام أيضاً فى مثل

هذا المظهر ويقضى به يوما بأكمله مع لفيف من أخص أصدقائه.
وفى اليوم الذى يذهب فيه العروسان الى الحمام يخصص هذا المكان لهما بالأجرة فلا يغشاه أحد من جمهور الناس

ومتى أقبل اليوم الموعود للزفاف ، سارت العروس الى بيت عريسها فى موكب حافل يشبه الذى سارت فيه يوم ذهابها الى الحمام . وتسير فيه أيضا جواريها بعضهن حاملات أوعية تتضمن أدوات زينتها وبهرجها ومصوغاتها ، والبعض الآخر تقمن بأحراق البخور فى المباخر ، بينما تبث نساء غيرهن في الفضاء صيحات حادة تسمى بالزغاريد . ويوالى الموكب السير على هذا النظام متمهلا متوخيا أبعد السبل عن بيت العرس لأذاعة خبر الزفاف وإشراك الجمهور في بهجة احتفاله

ولدى عودة العروس الى الحرم المعدّ لأقامتها تجد فيه مائدة فخمة جمعت الصنوف العديدة من شهىّ الطعام فتجلس اليها للأكل مع صويحباتها قريبات وجارات . أما العريس فلا يحضر هذه المائدة بل يقصد مع بعض أفرد أسرته وأصدقائه الى المسجد لأداء الصلاة ثم يعودون جميعا الى المنزل لتناول الطعام معا .
وبعد الطعام يستأذن منهم فى الانصراف ليدخل على عروسه

فى حجرتها .

عنـدئذ يرفع النقاب عن وجه هذه العروس التى لم يكن قد رآها من قبل . وهذه الآونة من الظروف الرئيسية البالة في حيـاة الأنسان . لأنه يتأكد بعينى رأسـه إذا كانت الأحلام التى ما فتئت تناوشه وتداعبه ، منذ تحرير عقد القران ، فيما يختص بمحاسن عروسه قد تحققت أو لم تحقق . وعقب رفع النقاب يباشر بنفسـه العملية التى يقوم بها الدليـل على بكورة عروسه من عدمها

٣٥ — فضّ البكارة

يتم الزواج بمصر في ظروف خاصة جدا ، وخاصة الى حد أرى معه ضرورة الكلام عليها . نعم إن من المهمات العسرة معالجة موضوع بلغ فى الدقة الى هذا المبلغ ، ولكننى سأجتهد فى القيام بهـذا الواجب مع الاحـتراز بقدر الأمكان عن إيذاء سمع ذوى الحشمة والوقار

إن الغرض الأول بل الوحيد الذى يقصد من الفتاة التى تتزوج هو البكورة ، إذ يرى أهلها أن شرفهم منوط بها كما يرى

العريس أن هناك مايدعوه الى التحقق منها . فمن الواجب المحتوم على العروس أن تكون بحالة تستطيع فيها إقامة الدليل ، لالزوجها وأهلها بل لأصدقاء الفريقين ومعارفهم أيضا ، على أن درّة البكورة لبثت مصونة ولم تعبث بها يد الثاقب

لهذا كان المصريون يرون فى إزالة البكارة أن الحاجة لم تكن ماسة الى احاطتها بالأسرار المبنية على الحشمة والحياء وأن لامانع ، بناء على ذلك ، من الاستشهاد عليها بدعوة الناس الى الحضور لشهود النتيجة المنتظرة من وجودها أو عدمه

وتجرى هذه العملية عادة على مشهد من الأمهات وبعض كبار السيدات . ومؤداها أن يقوم العريس بأزالة بكارة عروسه بالسبابة من أصابع يده اليمنى بعد تغليفها بغشاء من الحرير الأبيض . وهو ، فى قيامه بهذه العملية ، يبدى الشيء الكثير من الخشونة والفظاظة اللتين يستمدهما من الغيرة المخجلة التى ملأ بها فؤاده قبل أن يستجلى وجه عروسه . أما المنديل الحريرى فيعرض على الأهل والأقارب مخضبا بالدم فيهمون بتهنئة العروس ويسترسلون فى مظاهر الفرح والسرور . ثم يعرض أيضا هذا الدليل الدموى على عفاف العروس وطهارة ذيلها ، على

المدعوين . وفى اليوم الثانى تطوف به أم العروس أو أختها أو إحدى قريباتها في الحيّ برمته لتطلع سكانه عليه

والغاية مما تقدم أنه إذا اتفق أن عروسا وقعت فى خطيئة قبل زفافها أو كان بها مرض أو نقص فى التكوين الجثمانى يحول دون اتيانها بذلك الدليل فأن للعريس أن يطلقها من ساعته . وفى مثل هذه الحالة غالبا ماتكون العروس عرضة لانتقام أهلها الذين لايزعهم من الرحمة والتبصر وازع عن قتلها ذبحا وإلقاء جثتها فى النيل للتخلص من عارها . وقد تكون عفيفة طاهرة الذيل لأحد الاسباب المتقدمة

والأحوال التى لاتستطيع العروس فيها اثبات عفافها نادرة جدا لحسن حظ الفتيات . لاسيما وأن من السهل ، ببعض الحيل الصناعية التى يعرف أسرارها بعض العجائز ، اثبات وجود البكارة مع أنها غير موجوده لحادث ما . هذا ولا يباح الاتصال للزوجين إلا بعد سبعة أيام من إزالة البكارة على الوجه المتقدم

٦

الوفاة والجنازة

الوفاة ـ حزن الاهل ـ الكفن ـ القبور والمقابر ـ احترام المسلمين للموتى ـ الحداد

٣٦ — الوفاة

يحترم المسلمون موتاهم ويعظمون سيرتهم ، ولهذا كانت الجنازات عندهم من أهم المظاهر الدينية . غير أن هذه المظاهر لاتنهض فى هذا الأمر ، كما في كثير من الأمور غيره ، دليلا على الشعور الحقيق بالحزن والتأسى . لأن الدين الأسلامىّ يدعو أهله الى التلطيف من الحزن على موتاهم باعتبار أن الموت قضاء ساقه الله وإرادة لارادّ لها وحكم يجب الانقياد اليه والرضى به . فأذا استسلموا الى الحزن وبالغوا فيه أتوا مايخالف أوامر الله وذهبوا الى عكس مشيئته . وهذا هو السر فى قولهم أثناء كلامهم على موتاهم ، متى هدأت نار حزنهم الأول ، إن الله عز وجل قد اختارهم لجواره ودعاهم اليه فلبوا دعوته وأنهم انتقلوا من دار الشقاء الى دار البقاء الخ

والذين يحضرهم الموت من المسلمين ويوقنون أن مآلهم اليه يظهرون التوكل العظيم على جانب الله وقوته فيقولون : « لاحول ولا قوة إلا بالله ، إنا لله وإنا اليه راجعون » ويقولون لمن يجيء لعيادتهم والاستفسار عن حالتهم : « الحمد لله،هو أرحم الراحمين » وإذا أنسوا في أنفسهم بعض القوة هموا بالوضوء كما كانوا يفعلون قبل كل صلاة ، ليكونوا فى انتقالهم من الحياة الدنيا الى الحياة الأخرى ، على طهارة تامة . فأذا أشرفوا على الموت وجهوا صوب القبلة

٣٧ — حزن الاهل

إن اللحظة التي يلفظ المسلم فيها النفس الأخير تتلوها فى العادة مناظر غريبة طالما وقع نظرى عليها واستقصيتها من أولها إلى آخرها . فأن النواح والولولة وغيرهما من مظاهر الحزن تبتدىء عادة منذ ساعة الاحتضار . ولكن المسلمين على خلاف ذلك فأنه مادام بالمحتضر رمق من الحياة يظل الحاضرون حوله من أهله وذوى قرابته ملازمين للسكون ومتمسكين بأهداب الصبر . ومهما أقنعهم الأطباء الأوربيون به من

قرب الوفاة وأنها لا بد تالية لحالة الاحتضار ، فقلما يتحرك لهم ساكن أو يأخذون بمثل هذا التأكيد قائلين : « إن الحياة والموت بيد الله ، وأن ليس لأحد من البشر أن يخبر عن شخص لا تزال الأنفاس تتردد في صدره ، انه لا محالة مائت » ولكنه متى لفظ النفس الأخير ولبي نداء ربه ، سرعان ما يأخذهم الانزعاج وينتابهم الحزن والأسى فيصيحون ويبكون وترى النساء يضربن صدورهن ويخمشن وجوههن ويجذبن شعورهن ويحثين التراب على رؤوسهن ويولولن بأصوات محزنة على إيقاع معلوم منهن . وإذا كان المتوفى رب الأسرة انبعثت من صدورهن ألفاظ تدل على مبلغ الحزن والأسى لوفاته من نفوسهن فيقلن : « ياسيدى ! ياجملى ! أنت الذى كان يحمي بقوتنا ! أنت الذى كان يحمل عبء حياتنا ! ياسبعي ! يا ركني ! ياعزيزى : ياوحيدى ! وامصيبتاه ! لماذا تركتنا ! ماذا كان ينقصك بيننا ! أما كانت طاعتنا لك لا حد لها ! أما أحس قلبك بحبنا واحترامنا ! » الخ ما هنالك من عبارات الشجو وصيحات الحزن

وما يكاد ينتشر خبر الوفاة حتى تقبل نساء الجيران على بيت المتوفى ويضفن صراخهن وعويلهن إلى صراخ صاحباتهن

وعويلهن . وغالبا مايدعين اليهن الندابات الضاربات على الأطارات ويصحن صيحات يتكلفن فيها إظهار الحزن واليأس ويعددن صفات الفقيد الجثمانية ومناقبه النفسية متوخيات فى إيرادها المبالغة التى لامعنى لها .وفى المصريين كثيرون ينتقدون عادة الاستعانة بالندابات على إقامة الأحزان ويقبحونها ويدعون إلى هجرها والتنصل منها

ذلك شأن النساء فى المآتم . أما الرجال فيحتفظون غالباً فيها وفى الحوادث المكدرة والكوارث النازلة بالسكون والجلد والصبر وقلة الاكتراث ، ويحرصون كل الحرص على كتمان شعور الألم والحزن الذى يحسون به شديداً فى قلوبهم ، ويتحامون إظهار شىء من العلامات والأشارات التى تنم على ماينتابهم من ذلك وغاية مايشاهد منهم حب الانزواء والانجماع عن الناس ، كأنهم يودون الانفراد بالحزن بدون أن يشاركهم أحد فيه . وهذا ولا شك أحد مظاهر فضيلة الصبر عندهم فى الشدائد والمحن

٣٨ — الكفن

لاقانون عند المسلمين يعين المدة التى ينبغى انقضاؤها بين الوفاة والدفن . والمجمع عليه بمقتضى نصوص الدين التعجيل بتجهيز الميت وتشييع جنازته ودفنه . وهم يعجلون بذلك حتى أنه ليحدث أحياناً أن تنقل الجثة إلى القبر بعد الوفاة بنصف ساعة أوساعة، ونادراً تمتد هذه المدة الى بضع ساعات . والمقصود بهذه العجلة التى أوصى الشارع بها منع التأذى من تعفن الرمة السريع الحصول فى الأقاليم الحارة . وفى يقيننا أن تلك العجلة ربما أفضت إلى أكثر من حادث محزن موجب للأسف والندم

وتشييع الجنازات فى النهار عادة فأذا توفى الميت ليلا فأنه لايكفن إلا بعد شروق الشمس ، ولذلك يبيت أهله فى بكاء وعويل لايكفون عنهما إلا بعد زمن طويل تفنى فيه قواهم وتبح أصواتهم . وبمجرد أن تغمض عينا المحتضر وينبعث النفس الأخير من صدره يذهب بعض أهله في طلب المغسلين والحانوطيين الذكور منهم للذكور والأناث للأناث . وبعد غسل الجثة فوق لوحة الغسل يزال شعره وتسد فتحات جسمه

جميعاً لصيانته من التدنس بالمواد التى لا يبعد أن تسيل من باطنه بعد غسله ثم يلف فى كفن من قماش جديد

ويعلق المسلمون أهمية كبرى على الكفن حتى أنهم إذا خرجوا ، لسفر طويل أو قتال مع العدو ، أخذوا أكفانهم معهم . وبعد ادراج الموتى فى أكفانهم يوضعون فى نعش يغطي بقطعة من القماش الفاخر أو المزخرف بالوشى

وليس محتما أن تكون نعوش الرجال شبيهة بالصناديق المقفلة . ولكن الشريعة الأسلامية التى تلاحق النساء بعواطف الغيرة عليهن ، تقضى بأن لاتكون نعوشهن بعد موتهن إلا على الشكل المتقدم الذكر

وبعد إيداع الجثة النعش ، تحمل إلى أحد المساجد بحيث تكون الرأس فى المقدمة بالنسبة لوضعها منه . والمسلمون لا يأذنون للمسيحيين بحمل جثث موتاهم على هذا الاتجاه : بل يلزمونهم بجعلها على عكس هذا الوضع أى بتقديم القدمين على الرأس . ويتقدم مشهد الجنازة طائفة من العميان يسيرون على ثلاثة صفوف صائحين صيحات موزونة مشجية ناطقين بالشهادتين وهما : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم يليهم

خدم الفقيد فالنادبات مرتديات بأردية طويلة زرقاء ومؤتزرات بأزار أبيض فالأربعة الرجال الذين يحملون النعش على أعناقهم فأعضاء أسرة الفقيد فشيوخ المساجد يتبعهم ،فى بعض الاحيان، جماعة من عامة الشعب

وبعد نقل النعش في المسجد يتقدم أحد رجال الدين فيصلى عليه ويستأنف مشهد الجنازة بعد ذلك سيره الى المقبرة وفيها يستخرج الميت ليغيب فى القبر الذى أعد له متجه الرأس نحو الشرق . أما المشيعون الذين تألفت منهم الجنازة فيتناولون الطعام حول حفرة الميت ويعود الأهل والأقارب مع الندابات إلى بيت الفقيد حيث يقمن أياما لآداء وظيفتهن الجنازية ألا وهى إذكاء نار الحزن على الفقيد فى قلوب أفراد أسرته(١)

٣٩ — القبور والمقابر

إن قبور المصريين عبارة عن أقبية مستطيلة مبنية أو محفورة بحيث يتمكن الموتى الذين يودعونها من القيام لتلقى

---

(١) ان عادة الندابات عادة خاصة بمصر . وقدجاءفى مؤلفات هيرودتس وديودوروس الصقلى مايؤخذ منه ان هذه العادة كانت فاشية فى الازمان القديمة . وقد حرمها الدين الاسلامى ولكن هذا التحريم لم يأت بثمرة فى مصر نظرا لتأصل تلك العادة وقدمها

سؤال الملكين منكر ونكير والأجابة عليه . وأحد وجهى القبر يكون باتجاه الجنوب الشرقى أى صوب مكة والوجه الآخر المقابل له فى المدخل يحميه مربع صغير من البناء ويمكن أن يحتوى كل قبو أربع جثث لا أكثر . ومن النادر أن تدفن النساء فى نفس القبر الذى يدفن الرجال فيه . وفوق القبو الذى يكون سطحه الأعلى بمستوى سطح الأرض يقام أثر مستطيل مكعب الشكل يثبت بطرفيه لوحان من الحجر يعلوهما شكل قلنسوة تدل على ما إذا كان القبر مخصصاً لدفن الرجال أو النساء . وبالرغم من أن الدين الأسلامى لا يبيح وضع النقوش بآيات القرآن على القبور فأنه لا يكاد يخلو قبر منها . ومع تحريمه صراحة العلو ببناء القبور والأضرحة وتحتيمه الاقتصار فى بنائها على الطوب النيء فأن الأغنياء والعظماء يشيدون لأنفسهم أضرحة من الرخام المنقوش بالكتابات والرسوم الجميلة بل أن منهم من يبنون المساجد الفخمة ليجعلوا فيها أضرحتهم . فلا جرم إذا كانت قبور الخلفاء والأمراء والمماليك من أنفس تحف الهندسة العربية وأجل آثارها

وموقع مقابر المصريين من المدن داخلها أو ضاحيتها

القريبة ويتحرون لها الأماكن الرملية المرتفعة ونادراما يقع النظر فيها على النباتات إلا مايكون من بعض أشجار الجميز التى تنشر ظلالها الوارفة على قبر ، أو بعض شجيرات الأزهار نامية حوله يتعهدها من آن الى آن قريب حزين أو صديق حميم

٤٠ — احترام المسلمين للموتى

يعني المسلمون أثناء انتشار الاوبئة بتكفين موتاهم ودفنهم على المثال المتقدم . ولا يظنن أحد أن الأوبئة تلقى فى أفئدتهم الروع الذى تلقيه فى أفئدة الأوربيين . كلا فأنهم لايتنحون أبداً عن موتاهم الذين يموتون بالطاعون . وهذا هو شأنهم أيضاً فى الحروب ، فأنهم يرون من الفروض الدينية أخذ قتلاهم معهم ليتمكنوا من القيام نحوهم بما يفرضه الدين . وإذا كانوا يخترقون الصحراء فى سفر طويل ثم أعياهم السير وأمضهم طول الشقة وأدركوا أنهم مائتون لامحالة ، حفروا قبورهم بأيديهم ورقدوا فيها الى أن يدركهم الموت

٤١ — الحداد

لايحمل المسلمون الحداد كما نحمله نحن ، إلا أن منهم من يصبغون أيديهم بالنيلة أو بالسواد ولا يزيلونهما إلا إذا زالا بنفسهما . وإذا توفى الأزواج صبغ النساء بالنيلة أيديهن وسواعدهن إلى المرافق وفعلن مثل ذلك بثيابهن وقناعهن وتركوا شعورهن شعثة وعطلوا أنفسهن من الحلى وفي حالة وفاة رب المنزل قلبوا الحصر والسجاجيدوالمساند وأغطية المفروشات ظهراً لبطن

٧

الاعتقادات الباطلة

الجن — الاولياء — الدراويش — العين الحاسدة — الشعوذه — الاحلام — أيام السعود والنحوس — التنبوء بالمستقبل — السحر — التنجيم — الكيمياء — أصحاب الفأل — حواة الثعابين — الاعتقاد فى الخرافات — المرأة التى تنبأت بالمستقبل لمحمد على

إن الشعب الجاهل الذى أخذت الاعتقادات الدينية من نفسه مغرساً عميقاً يكون ميالا فى العادة الى العقائد الباطلة

والخزعبلات الفاسدة . وهذا هو شأن المصريين الذين عرفوا بالميل الشديد إلى العجائب والغرائب وإحاطة جميع الشؤون والظروف المعيشية بها

٤٢ — الجن

من الاعتقادات الباطلة الكثيرة الانتشار في مصر الاعتقاد بالجن . والجن في نظر المصريين وسط بين الملائكة والبشر وقد خلقوا قبل آدم وكان خلقهم من النار . وأطال الله في حياتهم فحياتهم تدوم قروناً طويلة . ولهم سلطان على جميع العناصر وخاصية التشكل بما يروق لهم من الأشكال فأذا شاءوا كانوا بشراً أو حيواناً وإذا شاءوا كانوا حجارة أو نباتاً وإذا أرادوا خفوا على الأنظار فلا تدركهم الأبصار . أما مساكنهم ففي جبال قاف التي يعتقد الأميون من المسلمين أنها تحيط بالأرض من جميع جهاتها على اعتبار كونها سطحاً مستوياً لا كروياً

ومن الجن رهط يميلون إلى الخير ورهط ينزعون إلى الشر والمسلمون يوقرون الأولين ويحبونهم ويخشون بأس الآخرين

ويعقتونهم . وكلما هموا بأداء عمل ولو بسيط كسكب قليـل من الماء أو إضرام نار الخ فاهوا بكلام يستأذنون فيه من الجن آداء هذه الأعمال . ويعتقدون أن هذه الكائنات أرواح بخارية تسكن الخرائب والأطلال وتختلف الى الحمـامات والآبار والمراحيض . وأهل القاهرة مقتنعون بأن كل حى من أحيائهـا موكولة حراسته إلى نفر من الجن الميالين إلى الخير وأنهم يتشكلون بشكل الثعابين

أما شرار الجن المعروفين بالعفاريت، فما من عبث أو فساد يقع فى الأرض إلا وينسب إليهم فعله . فهم الذين يقضون فراغ وقتهم ، أثناء وجودهم بسطوح المساكن أو نافذاتها ، فى إلقـاء الأحجار والطوب على المارة ويتخيرون لسكناهم المقابر والهياكل والقصور والآثار القديمة . ويعتقدون أن الله يمنع أذاهم عن الناس فى شهر رمضان بحبسه إياهم ومنعه لهم من الانبثاث بين الناس . وإذا حدث أن هبت الرياح وأثارت الرمال أو التراب إعصاراً قالوا فى تفسير هذه الآثار والظواهر إن بعض الجن الميالين إلى الشر أفلتوا وعاثوا فى الأرض فساداً . وإذا سقطت الرجوم من السموات قالوا إنها شهب أرسلها الله ليصيب بهـا

العفاريت الذين يسترقون السمع ومتى رأوها تخترق كبد الفضاء سألوا الله أن يصيب بها عدوّ الدين في قولهم : « سهم الله فى عدوّ الدين »

٤٣ — الأولياء

ليس فى الدين الأسلامى مايقضى بتقديس الأولياء. ولكن المسلمين بوجه عام والمصريون منهم على الأخص يعتقدون فى بعض الأولياء ، بناء على ماتناهى اليهم من إجماع الرأى العام على تقديسهم . وقد يكون الرأى العام فى ذلك مخدوعاً بخدعة مازح أو ماكر . وهم لايقتصرون على تكريمهم بعد وفاتهم بل يجعلونهم موضوع احترامهم وتوقيرهم أثناء حياتهم

ويرى المسلمون في المجاذيب والمجانين الذين لايضرون الناس أنهم قوم أتاهم الله من فضله وخصهم بعنايته وأودع فيهم أسرار الطهارة والقداسة . وقد يكون أولئك المجاذيب والمجانين فى حالة من ضعف العقل وقلة الفهم تحرمهم الحرمان الكلي من المواهب التى يسمو الأنسان بها على سائر الحيوانات ، ولكن عامة الشعب يعللون إجلالهم إياهم أن روحانيتهم اللطيفة عرجت

إلى السماء ولم يبق من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها . ومن ثمّ تراهم يغضون الطرف على فعال أولئك الأولياء الذين تستدعى حالتهم العجب والدهش . فأنهم لا يأبهون بهم إذا برزوا فى الطريق وليس عليهم من الثياب حتى ما يستر عوراتهم . وقد يكون منهم من يتهتكون فى كل لحظة ستار الفضيلة ولا يرعون حرمة الآداب والدين ، ومع هذا فلست ترى أحداً يتأفف من عملهم أو يرى فيه مخزاة تستوجب الفضيحة والعار . وسبب هذه الغفلة اعتقادهم أنه إذا كان أولئك الأولياء قد تركوا جسومهم ماضية فى تيار الشهوات البهيمية ومنطلقة بلا عنان فى ميدان الملاذ المادية، فما ذلك إلا لاستغراق روحانيتهم في التأملات الربانية وانصرافها عن أمور الحياة فى هذا الكون السفلى . ويعرف سواد أولئك المجاذيب بقذارة أبدانهم وما يتشحون به من أطمار بالية . وهم يصرفون نظر الناس إلى ذواتهم بما يأتونه من شاذّ الفعال وغريبها ويعيشون من الصدقات التى يتهافت الناس على أدائها اليهم من غير سؤال فى غالب الأحيان

ومن لم يصابوا من المشائخ بالبله أو الجنون يطلق عليهم اسم الأولياء . ولكل من هؤلاء طريقة يتصنعها فى إظهار ولايته .

بعضهم يحركون على الدوام رؤوسهم فى اتجاهات مختلفة ويكرر البعض الآخر بلا انقطاع كلمات معينة حفظوها عن ظهر قلب، وغير هؤلاء يلزمون الصمت العميق فلا يفوهون بكلمة وإنما يبدون في مقابل ذلك من فاضح الأشارات ماينديء منه الجبين. وهناك فريق لاشغل له إلا الرقص والغناء، وفريق غيره لاعمل له إلا إذاقة نفسه صنوف الشدائد والحرمان كما يقع من أمثالهم فى الصين والهند، وجماعة آخرون يأكلون كل ما يقع فى أيديهم أو يكبلون أنفسهم بالأغلال والسلاسل ويقضون السنوات العديدة فى هذه الحالة. وشوهدت طائفة أخرى يلبث رجالها واقفين ليل نهار لاينامون إلا مستندين إلى أحد الجدران

وليست ثياب هذه الطوائف أقل غرابة من فعالها المتقدمة، فأن منها من لايغطون رؤوسهم بالقلانس بل يتركون شعورهم تنمو حتى تبلغ من الطول مبلغاً عظيما ويرسلونها من ورائهم وعلى أكتافهم إما شعثاً وإما ممتشطاً. وكثير منهم يجوبون الطرقات والميادين ويندسون بين السابلة لايستر أبدانهم شيء ما من الثياب مكتفين من المتاع بجلد ماعز أو ضأن أو غزال يحملونه على أكتافهم. ومنهم من يتعملون الحياء ويتكلفون السمت

والوقار فيسترون أجسامهم بقميص أبيض طويل أو مرقعية متكونة من قطع صغيرة مختلفة الألوان

وشهرة الأولياء بأتيان المغرب والمعجب من الأعمال غنية عن البيان ومثلها الاعتقاد السائد على العامة أن أحد الأولياء يسمو على الآخرين بالفضل والورع والعلم فيتولى رياستهم باسم القطب أى المحور الذى يدور الأوليـاء حوله . وهو يبرز إلى الناس ويختلط بهم، ولكن ليس فى قدرة أحدهم أن يتبين حقيقتهأو يعرف أنه هو ذاك الذى امتاز على أقرانه بتلك الخلال الجليلة والصفات العالية . وسبب جهل الكافة بحقيقة أمره ، اذا ظهر بينهم ،تحريه التواضع والخشوع فى مظهره والحسنىوالمعروف فى معاملته الناس كى يتمكن من اقناع المخالفين لأوامر الدين والمتغافلين عنالعمل بنواهيه بالفيئة الى طريق الحق والرجوع الى الصراط المستقيم . والمعروف عندهم أنه يفضل الأقامة على سطح الكعبة ويصيح من أعـلاها مع اختفائه عن الأنظار مرتين في منتصف كل ليلة قائلا : « ياأرحم الراحمين ارحمنا » وله فى القطر المصرى جهات يقف بها ، منها باب زويلة بالقاهرة ومقام سيدى أحمد البدوى بطنطا ومقامات أخر ومعاهد للدين غيره . ومما

لايختلفون فيه أن فى قدرته الانتقال فى لمح البصر من القاهرة المحروسة الى مكة المكرمة

والموالد لتكريم الأولياء وإحياء ذكراهم تقام عادة بعد وفاتهم. وقد أنشئت المساجد الجميلة على قبور البعض منهم وأقيمت الأضرحة في المدن والأرياف تعلوها القباب على أجداثهم إجلالا لكراماتهم، وجرت العادة بغرس شجرة جميز بجوار كل قبة لتظلها أغصانها بظلالها الوارفة. وأهل البلدان القريبة يقصدون هذه الأضرحة إما لتلاوة الدعوات على الضريح أو التوسل بصاحبه في التماس الشفاء لمريض أو قضاء مطلب

وفى بعض الأحيان تحفر بالقرب من الضريح بئر لكى، إذا وصل اليه أحد السابلة، يتيسر له الارتواء بمائها ويلتمس الراحة من عناء السفر بالجلوس فى ظل تلك الأشجار الباسقة. أما الأضرحة التى لا آبار بجوارها فلا تخلو على كل حال من وجود المياه بها لشرب السابلة. لأن كثيرين من أهل الخير يتبرعون بجعل جرار الماء والقلل فيها ويتعهدونها على الدوام لأرواء العطاشى من أبناء السبيل أو المسافرين. وربما وضعوا بالقرب منها بعض الخبز أو النقود ليلتمسها ذوو الحاجات وينتفعون بها

فى سد جوعة أو قضاء حاجة . والفلاحون ينذرون النذور لأضرحة الأولياء فأذا قضيت حاجاتهم وفوا بها فنهم من إذا نذر رأسا من ماعز أو ضأن أوماشية ذبحه وطبخه ومد الأسمطة تدعو اليها الفقراء فيفدون زرافات وشتى لتناولها وإشباع البطون منها

ويحتفل المصريون احتفالا باهرا بمولد الأولياء المشهورين فى القطر المصرى

٤٤ — الدراويش

الدراويش فرقة من المسلمين شديدة التمسك بالصلاح والورع تفوق فيهما أبناء الفرق الدينية الأخرى . وهم كثيرو العدد فى القطر المصرى وينقسمون الى فرق وأحزاب وطرق شتى يمتاز بعضها عن بعض بألوان أعلامهم وعماماتهم وأشكال قلانسهم . ويقيمون الدليل على ولايتهم بألف وسيلة ليس منها واحدة إلا وتستوجب العجب والدهش أكثر من أختها . فأنهم مثلا يأكلون الأحجار والزجاج والمعادن ، ويزعمون أن بقدرتهم ثقب أجسامهم من أحد الجانبين الى الآخر دون أن يشعروا بألم

أو يظهر فيهم أثر لجرح ، ويروّضون الأفاعى والعقارب حتى تأنس بهم ، ويضعون النار متلظية تحت آباطهم بدون أن ينالهم منها أقل أذى الخ

وهم فى هذا العهد أقل إسرافا في الشموخ والازدهاء بهذه الخصيات العجيبة التى امتازوا بها على جميع الناس

ومن أغرب حفلات الدراويش حفلة الذكر الذى يتلخص فى تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكا متصلا غير منقطع . وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض ، وقد احتقنت وجوههم ، وسال اللعاب من أفواههم كما يسيل من أفواه المتشنجين وبدت عليهم علامات الآخذة . وفى هذه الآونة التى يبلغ الهياج فى نفوسهم أثناءها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الأيذاء والتمثيل . وربما نجم عن فعالهم موت البعض منهم فيذهبون فريسة الجهل والضلال

ويحضر الدراويش معا الحفلات الدينيـة ويسـيرون فى مواكبها ويمارس فريقهـم الأكبر بعض الصناعات ، والفريق الآخر لامهنة له سوى تلاوة القرآن والأنشاد فى الجنازات

ويطلق الناس عليهم اسم « الفقراء » الذى يطلق عادة على عامة المساكين والزهاد المتعبدين . أما الفريق الآخر فيعيش بما يغدق عليه من الصدقات والمبرات . وفى مصر دراويش كثيرون متشردين وأصلهم من بلاد الترك والعجم

٤٥ — الحسد او النظر او العين

يعتقد المسلمون فى الحسد أو النظر أو العين . وهم يخشونها ويتخذون الوسائل الكثيرة . للوقاية منها فأذا رأوا أحداً يغالى فى الأعجاب بشىء يملكونه أيقنوا أنه قد حسده وأصابه بعينه ولهذا السبب تراهم ، إذا أرادوا الاعراب عن أعجابهم بشيء ، يراعون القصد فى الألفاظ الدالة على ذلك . وعندهم لايليق بأحدهم أن يقول فى خلال كلامه عن شيء يملكه أنه جميل أو مليح من غير أن يقرن الأعجاب به بجملة « ماشاء الله » التي تشير الى الطاعة للمشيئة الربانية واحترامها . واذا بدرت من أحد كلمة تعجب أو استغراب من شيء فالذى يحب من السامعين . لها اتقاء مايضمره المتعجب من الحسد ان يواجهه بقوله : « صل وبارك على سيدنا محمد » فأذا أجاب على هذه الكلمات بقوله « اللهم

صل وبارك عليه » فليس له أن يخاف ما كان يتوقعه من حسد

ويعلل المسلمون ماينزل بهم من المصائب الطرآنيـة بسوء الحظ وقلة البخت وعدم موافقة الطالع . ويعتمدون فى النفاثات فى العقد . ويسندون ماهم فيه من العجز وقلة الحول الى التأثير السارى اليهم من أعين الحاسدين

٤٦ — الاحجبة

وهم يوقون أنفسهم هذا الشر الذى يتعذر النجاة فى الحقيقة من عواقبه بالطلسمات والأحجبة فيحملون الحجاب الواقي من الشر مخيطا بثيابهم . وأحسن الأحجبة ، فى نظرهم وأقواها فعلا وأشـدها تأثيراً ما كان عبارة عن بعض آى القرآن تكتب فى رقعة وتوضع ، بعد ان تغلف فى قطعة من الحرير ، تحت الأبط اليسرى . ومن الناس من يكتفون بالآية الآتية : « إن الله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » أو أسماء الله الحسـنى أو أسماء النبي

ويسند المسلمون الى الشب فضيلة كبرى فى مقاومة العين فأن النساء يعلقن أهميـة عظمى فى ذلك على خليط من العقاقير

والمواد يجهز ويباع فى العشرة الأيام الأولى فقط من شهر المحرم يسمينه بخور عاشوراء أو الملح المبارك . ومما ذاع الاعتقاد بصدق تأثيره من الطلّسمات الغبار الذى يجمع من فوق قبر النبي والماء المستنبط من بئر زمزم الموجود بداخل الحرم المكى وبعض القطع من كسوة الكعبة

ومن عادة تجار القاهرة أن يعلقوا في مقدمة حوانيتهم كتابات تفيد وضعهم هذه المحال تحت الحماية الربانية كأن يكتبوا مثلا شهادة أن « لاإله الا الله محمد رسول الله » أو بعض آيات القرآن مثل « انا فتحنا لك فتحا مبينا » أو بعض الأدعية مثل « يامفتح الأبواب افتح لنا خير باب » الى غير ذلك من الاقوال والعبارات التى اعتاد التجار تكرارها أثناء فتحهم لحوانيتهم

وغالبا ماتوضع المنازل أيضا تحت الرعاية الربانية بما ينقش على أبوابها من الالفاظ مثل « ياألله » « الخالق الدايم » وفوق الباب يعلقون فى بعض الأحيان احدى شجيرات الصبار الذى يعزون اليه تأثيراً فى دفع العين وضررها

٤٧ — الاحلام

يقرأ المصريون في صفحات أحلامهم مايستنبئون به المستقبل ويستطلعون مكنون أسرار الغيب . واذا قال أحدهم لآخر إنى رأيت مناماً . أجابه السامع حالا بقوله « خير إن شاء الله »

٤٨ — أيام السعود والنحوس

والأيام عندهم قسمان أيام سعود وأيام نحوس فأيام النحوس هي الأحد وليلة الأثنين التى توفى فيها النبي ويوم الثلاثاء ويسمى يوم الدم لأن كثيرين من شهداء المسلمين استشهدوا فيه ويوم السبت وهو أنحس الأيام جميعاً . أما أيام السعود فيوم الأثنين ويخصص للزواج ويوم الخميس ويصفونه بالمبارك ويوم الجمعة وهو أول الأيام لأنه عند المسلمين بمنزلة السبت عند اليهود . وهم يفضلونه لأتمام الزواج ويصفونه بالفضل فيقولون يوم الجمعة الفضيلة

ومن أيام السنة ماهو أيام سعود ومنها ماهو أيام نحوس .

وشر أيام النحوس الأربعاء الأخير من شهر صفر ، وفى هذا اليوم يهجر الناس مساكنهم تقية الأصابة بالأمراض الكثيرة التى تنصب فيه على بني الانسان

٢٩ — التنبؤ بالمستقبل

إذا تحير المسلمون فى أمر ولم يهتدوا الى وجه الصواب فيه اعتمدوا فى تبينه على أمور ترجع الى الخزعبلات المبنية على فساد الاعتقاد . فمن ذلك التجاؤهم فى إصابة هذا الغرض الى مايسمونه بالزايرجة . والزايرجة هذه عبارة عن شيء يشبه جدول الضرب يحتوى مائة خانة فى كل خانة حرف من حروف الابجدية العربية وطريقة استعمالها أن يقرأ المرء فاتحة الكتاب . ثم الآية الآتية من سورة الأنعام وهى : « وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »

ويضع أصبعه على الجدول مغمض العينين ثم يفتحهما وبعد أن يقرأ الحرف الذى سقط إصبعه عليه يكتبه فى ورقة ويكرر

هذه العملية بطريقة معينة على الحروف المرتبة على عمود رأسى واحد ثم على الحروف التي يحتويها العمود الخامس الى يمين العمود الذى أرشد إليه الحظ والجزاف أول مرة . فأن اجتماع هذه الأحرف يؤلف كلمات يتضمن مجموعها نصيحة أو حكمة. والمشتغلون بالزايرجة كافة يرتبون حروفهم فيها بحيث تعطي أربعة أجوبة سلبية فى مقابل جواب واحد موجب

ومن الناس من يستخيرون القرآن ويلتمسون منه النبوءة القاطعة فيما يحبون استطلاعه من أحوالهم . وذلك بأن يجعلوه فى موضع بحيث إذا سقط منه انفتح أمامهم بحكم المصادفة فيعمدون إلى السطر السابع من الصحيفة اليمنى ويقرأونه فأذا كان معناه يفيد السكون والسلم والخير كان الجواب موجباً بخلاف ما إذا أفاد السخط الألهى أو اللعنة فأن الجواب يكون سلبياً

وكثيرون من المسلمين يستفسرون المستقبل بأن يحركوا بين أصابعهم حبوب السبحة التى بيدهم قائلين عند تحريك الحبة الأولى : « سبحان الله » وعند تحريك الحبة الثانية : « الحمدلله» وعند تحريك الثالثة : « لا إله إلا الله » . ثم يكررون هذه الأدعية بحسب ترتيبها كلما حركوا حبة حتى يبلغوا الحبة

الأخيرة فأذا كانت الاستخارة التى قيلت فى الحبة الأولى تصادف الحبة الأخيرة فأن الأجابة تكون موافقة أى موجبة وإذا كانت الثالثة كانت الأجابة لازمة أى لاموجبة ولا سالبة وإذا كانت الثالثة كانت الأجابة سالبة

يفهم مما ذكر أن الشعب المصرى الذى يبنى فعاله وتصرفاته على القضاء والقدر لشعب خؤوف يهاب تحكيم الضمير والعقل اللذين وهبهما الله للأنسان وميزه بهما على سائر الحيوان ويتنصل من مسئولية تصرفاته فعلا وقولا ملقيا حبل أموره على غارب الجزاف والاتكال الأعمى راضيا بما تفضي اليه من النتائج ولوساءت مستسلما لها باعتباره أنه الأرادة الربانية بلا نزاع ولا جدال ومن ذا الذى يعلم كم من الحوادث العظام والوقائع التى روعت العالم انما كان الاقرار على أسبابها نتيجة حكم حبوب من السبحة أخذت تجرى بين أصابع وزير من الوزراء الذين امتلأت أدمغتهم بالوساوس ومن ذا الذى يعلم كم مرة عبثت أيدى السلاطين بحظوظ الرجال بل والدول على أثر التجائهم الى الاستخارة أثناء تحرك تلك الحبوب فى أيديهم

٥٠ — السحر

ان مصر بلد السحر ولا فخر ولعل القارىء يذكر السحرة الذين كانوا فى خدمة الفراعنة ومنهم أولئك الذين جىء بهم لمباراة موسى بسحرهم ومن المؤكد أن خلفاءهم الحاليين لم يرثوا شيئا من قوتهم ونفوذهم لأن السحر اليوم ينحصر فيما يسمونه الآن بالنكرومانسيا إذ أن السحرة رجالا ونساء يقتصرون تقريبا على التنبؤ من باب الحذر والتخمين اللذين يصيبان أحيانا ويخطئان غالبا . وهم ، فى بعض الأحيان ، يستحضرون الموتى والأحياء ويطلعون الناس عليهم فى مرآة سحرية مؤلفة من بقعة حبر على مربع من الورق يقوم بعملها طفل صغير تحضر له هذه التجربة مقدما . فأن الطفل يرسم صور الأشخاص الذين تسوقهم قوة الساحر الى المرور أمامه . ومما لاشك فيه أن بعض الذين يعجلون بتصديق مايقع تحت انظارهم من الحوادث بدون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة تمحيصها يؤكدون مطابقة الوصف الذى يصفه الغلام شفويا لحقيقة الواقع . ومن الأوربيين الذين تستميلهم هذه الخزعبلات

الفاسدة ، وعلى الخصوص الأنكليز ، من يصدقون بهذه التجارب ويقصدون بها كما لو كانت تجارب فى المغنطيسية مثلا.

فقد وصف المستر م. و. لان فى كتابه « عادات وملابس المصريين فى هذا العصر » الوسائل والطرق التى يستعملها أولئك المصريون بدون أن يبدى ذرة من الشك فى صحة نتائجها

ومسلمو مصر يعتقدون أن بالامكان القيام بالأجراءات السحرية بحسب مبادىء الخير أو الشر . وتسمى نظريتهم فى الحالة الأولى بالعلم الروحانى ، وفى الحالة الثانية بالعلم الشيطانى . فالسحر الروحانى وهو موضوع ذلك العلم يعمل بقصد محمود لأنه يعتمد فيه على الوسائل غير المنافية للدّين ، أما السحر الشيطانى فيستعان فيه بالارواح الشريرة والشياطين لغرض سيء وقصد خبيث

٥١ — التنجيم

لعلم التنجيم أنصار وتلاميذ كثيرون بين المصريين الذين يسمونه أيضا بعلم النجوم ، ويتبعون فيه القواعد والأصول التى يقصد بها استخراج الطوالع وتعيين الأوقات الموافقة للمشروعات ،

واستنباء فلك البروج بحسب التأثير الذى يكون الانسان تحت سلطانه . ويزعم المنجمون أنهم ، برسمهم على الرمل صورا وأشكالا لايعرف أسرارها إلا هم ، يستطيعون الوقوف على أحوال الماضي والحاضر والمستقبل

علم الكيمياء

وفى مصر جم غفير أيضا من المشتغلين بالكيمياء ، يقضون حياتهم وينفقون أموالهم مع حياة وأموال بعض السذج والبلهاء فى البحث عن الحجر الفلسفى الذى يقولون إن الجواهر الخبيثة تستحيل بواسطته الى الجوهر الكريم وهو الذهب . والعرب أول من اشتغل بهذا العلم وانكب على تجاريبه العقيمة النتائج . غير أنهم بما بذلوه من الجهود فى هذا السبيل ، توصلوا الى تقرير كثير من المبادىء الصحيحة والاصول النافعة فى علم الكيمياء الحقيقية

والمصريون المشتغلون باستكشاف ذلك الحجر واثقون بأن مساعيهم فى هذا السبيل تكلل بالنجاح التام ، إذا استطاعوا ان يقضوا سبعة أيام بلياليها من غير نوم مطلقا . ومفهوم أنه لم يستطع

أحد ولن يستطيع أن يتغلب أبدا على حاجة النوم التى تدعو اليها الطبيعة ولا يتيسر لأحد الاستغناء عنها

٥٣ — البوهيميون أو الغجر

إن لجنس البوهيميين ، وهو الجنس الغريب الخفي الأسرار المتشرد في طول أوربا وعرضها ، فروعا منبثة فى ضفاف النيل . ولكنهم في مصر تتألف منهم طبقة مستقلة لاخلطة لها مع بقية السكان . وشكل سحنتهم يميزهم عن غيرهم فأن لون بشرتهم أشد سمرة من لون المصريين ؛ وكلامهم لغة تخالف اللغة العربية . ومع أنهم ينتحلون الأسلام ديناً لهم فأنهم لا يؤدون فرضا مامن فروضه ، ويهيمون على وجوههم من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية ، متفرقين أو مجتمعين . ويشتغل الرجال منهم عامة بأساليب الشعوذة والحيل . أما النساء ،ويعرفن بملابسهن الغريبة ، فيزاولن حرفة النظر فى البخت والأنباء بالمستقبل ، ويخترقن الأرياف والمدن حاملات على أكتافهن أخراجاً من جلد الماعز أو الغزلان محتويةً الأصناف الكثيرة من الأحجبة والتمائم والأدوية والتعابين ، ويصفن الدواء

للأمراض كافة ، ويدعين أن عندهن السر الذى يمنع عقم النساء ، ويخبرن الجمهور فى ندائهن المتكرر بما لديهن من الأسرار العجيبة والكنوز النافعة

٥٤ — حواة الثعابين

اشتهر حواة الثعابين بمصر فى كل زمان . وقد ذكرهم المؤرخ (استرابون) وقال (بروسبير ألپان) أنه شهد بنفسه غرائب تأثير حرفتهم . وأغلب السياح الذين زاروا مصر حديثاً يعربون عن استغرابهم سهولة تصرف أولئك القوم فى الأفاعي والحيوانات السامة . ويطوف حواة الثعابين بالمنازل ويتنقلون من مكان إلى مكان يرتلون من الأقوال ما يسحرون به الثعابين التى تحتويها . وهم يزعمون أنهم يجذبونها إليهم بتأثير سرّ لا يعرفه سواهم . ويمسكون عادة بقضيب صغير من الخشب فيدخلون الغرفة التى يراد تطهيرها من الثعابين ويتمطقون بلسانهم ثم يتفلون على الأرض وينطقون بمعنى الجملة الآتية : « أستحلفك بالله إن كنت بالخارج أو الداخل أن تبرح مكانك وتجيء إلىّ واستحلفك بالاسم الأكبر أن تظهر لى إن كنت

طائعاً . أما إذا لم تطع فلتمت ولتمت ولتمت » فأذا كان الثعبان طيعاً للأمر خرج من مكمنه لى الفعتور ويكون خروجه عادة من ثلمة فى الجدار أو فى الارض

ومع أن الكثيرين من المتنورين يذهبون الى أن فعل الحواة هذا حيلة مدبرة فلست أتمالك من الاعتراف بأننى ، وقد شهدت تجاربهم مراراً ، لم اقتنع تمام الاقتناع بصدقهم بل كنت أشك دائماً فى أمانتهم وصدق شعوذتهم . فقد ثبت لى أنهم كانوا يحتالون ، فى أحيان كثيرة ، على إدخال الثعابين إلى المكان الذى يعرفون أنهم سيدعون إلى استخراجها منه . ولما كانت الثعابين تخشى ضوء النهار ، فأنهم يخبئون عنها فى الأماكن المظلمة حيث يستطيعون ، بلا خوف من الأعين الرقيبة وفى مأمن من نقد الناقدين ، تنفيذ مادبروه من الحيل للتغرير بالناس . ومن عادتهم للوصول إلى هذا الغرض إخفاء الثعابين تحت أبطهم . وبما اعتادوه من الخفة والرشاقة في الحركة لايسع الناظرين إلا الأعجاب بفعالهم وتجنب إساءة الظن فيهم

ثم إنه لايوجد في مصر من الثعابين السامة إلا النزر اليسير، ومن عادة الحواة استئصال أسنانها . ومن الحيل التى يخدعون بها

العامة وضعهم العقارب على رؤوسهم المحلوقة تحت الطواقى التى يغطونها بها . ولكنهم لا يقدمون على هذا الفعل إلا بعد استئصالهم الأعضاء الضارة منها حتى لا يصيبهم أذاها

٥٥ — الاعتقادات الباطلة والخزعبلات

لم يكن العامة فقط هم الذين استحوذت الاعتقادات الباطلة والأوهام على عقولهم ، بل يشاركهم فيها الخاصة على اختلاف مذاهبهم

ولقد أتفق لى يوماً ، وأنا ذاهب الى قصر ابراهيم باشا فى صحبة جملة من القواد المصريين ، أن مدحت لأحدهم الجواد الذى يحمله . فتلقى راكب الجواد هذه الكلمات بشيء من الاحتياط وعدم التصديق .وما تقدمنا إلى الأمام بضع خطوات حتى كبا الجواد الذى أسأت ولا شك بمدحه . فسارعت الى التوجه نحو الفارس الذى كان قد سقط عن جواده لمعاونته وإسعافه، وسألت منه عن سبب كبوة جواده . فأجاب مبتسما ابتسامة تشف عما فى قلبه من الغيظ : « لا بأس والسبب وإن خفى معلوم عندى » فأدركت من إجابته هذه أننى قدمت له

دليلا جديداً يؤيد الاعتقاد فى الحسد والأصابة بالعين

وكان محمد بك أول ناظر للحرب فى حكم سمو الوالى ، وهو من فحول الرجال إذ اشتهر بمرافقة محمد على ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه فى جلائل اعماله ، يأوى عنده رجلا من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربة وأحوالهم الشاذة تدعو الناس الى وصفهم بالولاية . وكان يعتنى بأمره ويظهر له جزيل احترامه . وسبب معرفته بهذا الولى المسمى بالشيخ يوسف ، أنه بدر منه مرة مادعاه الى حبسه فى سجن مظلم فبينا كان موقنا بأن الشيخ مابرح فى غيابة السجن إذا به قد رآه يجوب طرقات القاهرة كأنه لم يقبض عليه ولم يودع سجنا . فلم يسعه إلاّ أن يعتبر هذه النادرة كرامة من كراماته ودليلا صادقا على ولايته . فدأب منذ هذا الحين على احترامه وإجلاله وتقريبه إياه من مجلسه ومؤاكلته مع السماح له بكل مايخطر بباله من الأعمال

وكان من لازمة ذلك الولىّ اعتراضه الناس جميعاً فى الطريق وطلبه من كل منهم خمس بارات ، فأذا أبوا عليه دفعها لطمهم على وجوههم . وكان يقطع البارات التى تعطى اليه قطعا صغيرة ويفرق أجزاءها على الخدم والفقراء . وقد أنشأ محمد بك ضريحا

له بجوار ضريحه ولا تزال رفاته تظللها نفس القبة التي تظلل رفات هـذا الـكيخياء العظيم الذى كان وكيلا لمحمد على فى إدارة شؤون البلاد

وقد بلغ من تأثر المسيحيين واليهود الوطنيين بالاعتقادات الباطـلة الشائعـة بين مواطنيهم المسلمين أنهم اعتقدوا بما يعزى للأولياء من القدرة العجيبة . فأن الجهلاء منهم يتوسلون بهم كما لو كانوا قد بلغوا درجة الولاية بمزاولة العبـادة على الطقوس المسـيحية أو العبرية

٥٦ — المرأة المتنبئة ومحمد على

لقد أقام سمو الوالى الدليل على حـدة ذكائه وصدق نظره وأصالة رأيه . فلقد توصـل فى ظروف كثيرة الى كسر قيود الاعتقادات الباطلة التى يذعن لهـا أبناء دينه ويرضخون لحكمها رضوخ الأسـير المغـلوب على أمره . وسأذكر على قبيل المثال حادثة لايخلو إيرادها من الفائدة . وبيانها أنه قـد ظهر بالقاهرة فى إبان حكمه ، أى في الوقت الذى لم تكن قواعد سلطانه قد رست على الآساس الوطيدة ، امرأة تزعم القدرة على الأنباء

بالغيب فالتف الناس حولها وأصبح الكثيرون منهم من مريديها . وكانوا يقولون إنها تستخدم الجن وأنهم طوع إشارتها تطلب أحدهم ان يبرز فيسارع الى إجابة طلبها وتجعل الناس يلمسون فى الظلام يده ويسمعون صوته

وكان السواد الاعظم من أنصارها ومريديها أنفار الجند ورؤساءهم ، حتى لقد استفحل امرها وارتفع شأنها . فلما علم محمد على بأمرها ، وكان يريد استكناه سر هذه الساحرة التى أصبح يخشى خطر نفوذها ، استدعاها الى قصره وأعرب لها عن رغبته فى الحديث مع جنيها . فرضيت أن تطلعه على ماخصت به من قوة وسلطان . وكان الوقت ليلا ، فأطفئت أنوار المنظرة التى كان ضباط الجند مجتمعين بها . وكان محمد على قد أمر أتباعه أن يوافوه بالمصباح بمجرد طلبه منهم . فلما دعت المتنبئة الجنى أجابها على سؤالها بمايشبه الصوت المنبعث من داخل المغارة أو من باطن الذين يتكلمون من بطونهم ، حتى لقد وقع فى وهم السامعين أنهم يسمعون صوتا منبعثا من الجدار . ثم قدم يده لكي يلثمها الباشا ولكن لم يكد محمد على يقبض عليها حتى صاح بالخدم أن يوافوه بالشموع فلما أضاء المكان إذا باليد يد المرأة نفسها .وحينما

رأت انكشاف حيلتها وانهتاك سترها توسلت اليه أن يعفو عنها

أما الحاضرون فقد أدهشتهم هذه الجرأة من سمو الوالى وحكموا أنها خروج على الدين وتحقير لمبادئه ، وأخذوا يزمرون مستائين ، فخطب سمو الوالى فيهم مبينا لهم خطأهم فى سرعة اعتقادهم بمالم يكن صحيحا ثم أمر بالقاء المرأة فى النيل فأراد الضباط ممانعته فيما أمر به . ولكن محمدا عليا تغلب عليهم بقوة الحجة قائلا لهم إنه لو كان أحد الجن فى خدمتها ، كما تزعم باطلا وبهتانا ، فلن يتركها تذهب ضياعا فى النيل . أما إذا لم يكن لها صاحب من الجن ، فأن مالقيته من الهلاك الجزاء الحق لاجترائها على التغرير بالناس من غير خوف ولا حياء

٨

الآداب اللغوية

الآداب العربية — قصة أبي زيد الهلالي — المحدثون — الشعر — القصص الخرافية المصرية

٥٧ — الآداب اللغوية العربية

إذا كان لابد من ذكر الآداب العربية بمناسبة

الكلام على آداب المصريين اللغوية ، فأن هذا الموضوع من تشعب الفروع وترامى الأطراف بحيث يتعذر علىّ تناوله بالبحث . وغاية مايمكننى قوله فيه إن آداب اللغة العربية لمن أوسع الآداب اللغوية فى العالم نطاقاً وأكرمها جوهراً وأحسنها حلاوة وطلاوة . ولكن دولتها قد دالت وانقضى عهد مجدها وعزها . وساغ لنا أن نقول فيها إنها أصبحت عداد الآداب الفانية

نعم إن اللغة العربية عاشت بعد اندثار تلك الآداب ولم تتقوض معالمها ، غير أن الضعف والجهل قد غشيا الشعوب الناطقة بها . فبعد أن كانت من الأمم المتسلطة صاحبة الغلبة والحكم فقدت استقلالها وأضاعت معه المواهب العالية التى كان أبناؤها يبتكرون بها أسمى الأفكار معنى وأجلها مغزى ، وتبث فيهم العواطف الكريمة وتكسبهم الجلال والهيبة

وتقتصر الآداب اللغوية العربية الآن على بعض القصص التى يحلو للعامة سماعها واستيعاب حوادثها . ويتناقل الحافظون لها وقائعها العجيبة المختلفة بعضهم عن بعض بطريق الرواية . وهم لايملون سماعها ولا يضجرون من تكرار روايتها . والغالب فيها

أن تكون من حيث الوضع خليطاً من النثر والشعر ، ومن حيث الموضوع وصفاً مستفاضاً لما كان العرب عليه فى معيشتهم وما كان يقع من الحوادث فى الصحراء لقبائلهم . ومن ثم كانت تلك القصص من أوثق مايستدل به على أخلاق هذه القبائل التى لاتزال على فطرتها الأولى من الشغف بالتنقل فى الصحارى القاحلة وما كان يقع بينها من قتال لاتحوم أسبابه في الغالب إلا حول مكيدة غرامية يرصعونها بالحوادث الآخذة بالألباب لغرابتها

— ٥٨ قصة أبى زيد

من أهم تلك القصص وأحبها الى الجمهور قصة أبى زيد الهلالى. وإنا لموردون هنا تحليلا وجيزاً لها فى الأسطر الآتية :

تزوج رزق أحد أمراء العرب بعشر نساء فلم يرزق منهن بغير غلام واحد لاذراعين له ولا ساقين . فلما يئس من إنجابهن غلاماً كامل الخلقة تزوج من امرأة أخرى غيرهن تسمى قُدرَة . فلم يمض بعد الزواج زمن حتى ظهرت عليها علامات الحمل . واتفق ، ذات يوم ، أن خرجت مع بعض خادماتها تتريض

تنزه النفس . فرأت طيراً أسود اللون انقضّ على سرب من طيور أخر وقتل منها بعضها وشتت البعض الآخر . فأخذتها من هذا المنظر روعة ودعت الى الله تعالى أن يرزقها بغلام يكون كذلك الطير فى قوته وشدة بأسه ، ولو كان أسود اللون مثله . فأجاب الله دعاءها ، فلما ولد الغلام وقرت بمولده عينا والده جمع نفراً من أخص أصدقائه ليحتفل معهم بميلاده . وفى اليوم السابع من ميلاده عرض الولد عليهم مغتبطا به . فما كادت تقع عليه أنظارهم حتى طلبوا منه أن يطلق امرأته لوضعها غلاماً لا يشبهه ولأن لونه الأسود ينهض دليلا على فجورها ودنس ذيلها . فعمل الأمير بنصيحتهم هذه مكرهاً ، لأنه كان شغوفاً بامرأته ومقيما على حبها وعهد الولاء لها . وكان لايشك من جهة أخرى فى أن الولد ولده

عادت قدرة إلى بيت أبيها مكتئبة حزينة كاسفة البال . ولقد روت قصتها على أحد الامراء فترفق لها وآلى على نفسه أن يأويها وابنها عنده ، وأن يربى هذا الوليد مع أبنائه كأنه أحدهم وأسماه بركات . فانقضى زمن شبّ الغلام فيه وترعرع ولاحت عليه لوائح الشجاعة وأمارات الفتوة والقوة وشدة

البأس . فلما ناهز الحلم أخذ يحارب القبائل المعادية لقبيلته ويظفر بها ويأتى من ضروب البسالة فى القتال ماسارت بذكره الركبان وعلمه الخاص والعام في كل مكان

وفي ذات يوم عنّ له أن يستطلع من أمه حقيقة خبره وماضى أمره . فأثار هذا السؤال فى نفسها الميل الى الانتقام من زوجها الذى طردها ظلماً وعدواناً من بيته ، ولوث سيرتها إذ رماها بشر مارمي المحصنات به من التهم . فقالت لولدها إن رزقاً هو السبب فيما يراه من عنائها وتتكبده من بلائها ، وأنه القاتل لأبيها والمناوىء لقبيلتها . فاستشاط الفتى غيظا وأقسم إلا أن يأخذ بالثأر وخرج لوقته رجاء الالتقاء به وقتاله . فقاتله وتغلب عليه وكاد يودى بحياته لولا أن تداخلت قدرة فى الأمر لتحول دون قتل الولد والده على جهل منه بحقيقة الصلة بينهما ، وأطلعته على سر الأمر قائلة إن الذى ظفرت به وكدت توردة موارد الهلاك إنما هو أبوك بلا نزاع . فتعرف الخصمان على بعضهما وكان ذلك سبباً لرضاء الزوج عن زوجته وعودتها مع ابنها إلى داره حيث عاش معها في سلام ووئام وأحاطها بمظاهر الأجلال والأعظام وخصها بالحب الخالص والولاء التام وسمي

بركات بأبي زيد وهو الاسم الذى كان قد أطلق عليه حين ولادته

ذاك هو ملخص الواقعة الأولى من وقائع قصة أبى زيد فيها من جم الحوادث وغريبها وطرف النوادر وطليها مالا يتسع المقام لأيراده ولا للاشارة إليه . والمفهوم أن قصة أبى زيد هذه كتبت في القرن العاشر من الميلاد المسيحي

وهناك قصص أخرى يميل العامة اليها ويحرصون على سماعها ، منها قصة عنترة العبسى وغيرها . وقد ترجمت قصة عنترة كبير أبطال العرب إلى اللغات الافرنجية، وهى ذائعة الشهرة فى أوربا وأورد المسيو (دى لامارتين) نتفاً منها فى غضون كتاب رحلته بالشرق

٥٩ — المحدثون

المحدثون طائفة خاصة من الناس يروون تلك القصص على مسامع الجمهور ، وهم ينقسمون إلى أقسام أو فرق تختص كل فرقة برواية قصة واحدة ، فلا يفتأت محدثو إحدى الفرق على نظرائهم من الفرقة الأخرى بسرد حوادث قصصهم على السامعين . وأكثر تلك الفرق عدداً الفرقة المتفق على تسمية

أعضائها بالشعراء. فقد احتكر هؤلاء إلقاء قصة أبي زيد في المجتمعات العامة

وفي القاهرة وحدها الآن خمسون شاعراً من تلك الفرقة، وتليهم الفرقة الخاصة بقصة الظاهر ويسمي أعضاؤها بالمحدثين ثم الفرقة المحتكرة لقصة عنترة العبسي ويسمي رجالها بالعنترية

والعادة المتبعة أن يجلس الرواة من المحدثين والشعراء والعنترية وغيرهم على أبواب القهوات الكبرى في كل ليلة ولا سيما في ليالي الأعياد والحفلات. وقد أعدت لجلوسهم صفة مرتفعة يستطيعون من أعلاها إبلاغ أصواتهم إلى مسامع الجميع موزونة الأنغام، فيما يلقونه من القطع الشعرية، بأداة موسيقية ذات وتر واحد تسمى الربابة. ويجلس السامعون أمامه صفوفاً متوازية وكل منهم منصت لما يسمعه من القول ومدخن للشبك أو متذوّق طعم قهوة البن تبدو على وجهه علامات السرور والاغتباط بما يسمعه من غريب الحوادث التي يضاعف اهتمامه بسماعها أسلوب إلقائها. فأن الرواة يلقونها بأصوات حماسية مقرونة بالاشارات التمثيلية والحركات التي من شأنها أن تستثير الهمم من مكامنها وتوقظ النشاط من سباته. وكلما ازدحم المكان

بالسامعين كانت رواية حوادث القصة أفعل في نفوسهم بما يأتيه الراوى من التفنن فى الأساليب التى تشحذ العواطف . وكثيرا مايستفزهم ذلك الى ابتكار حوادث وأقوال من عندياتهم يضيفونها الى الأصل ، التماسَ المبالغة فى تحريك النفوس واستثارتها

وعند ماينتهى الرواة من سرد حكاياتهم يوافيهم صاحب القهوة بيسير من المال أجرة لهم ،وهذا غير مايجمع برسمهم من السامعين . على أنه لاأحد من هؤلاء بملزم فى الحقيقة بدفع أى مبلغ اليه بمثابة أجر له ، ولكنهم لا يضنون عادة بشىء من المال كل بقدر همته وبحسب ماتكون القصة قدأحدثته في نفسه من السرور والارتياح والنشاط

٦٠ — الشعر

إن وزن الكلام وتقفيته سليقة فى العرب . فأنهم يميلون بفطرتهم الى النظم والتقفية الى حد سهل معه عليهم ارتجال الشعر. وقد بلغ عدد الشعراء المرتجلين منهم مبلغا عظيما

وقد انتشرت فى مصر الأغانى العامية الشبيهة بما نسميه

عنـدنا بالرومانس . وينقسم الى مقـاطيع تنتهى عادة بقافيـه واحدة .

وأغانيهم تختم فى الغالب بقولهم « ياليل ! ياليل ! » وبعض هذه الأغانى يرمى الى الهجو ويباح فيه ذكر ما لا يباح عادة من القول ، إلا أن أغلبـه يستشعر منه الحزن العميق والشـجو يتضمنه وصف متاعب المحبين بنغمة رثائيـة واحتوائه من التشبيهات الشعرية ماهومستمد من أخلاق الأمة والصفات التى اختصت البلاد بها

والشعراء المصريون يميلون كل الميل الى تشبيه وجه المحبوبة بالقمر . ومما يذكرونه فى معاريض شعرهم شذا الياسمين ولون الورد وصبر الجمل وبأس الأسد وشوكته وجلاله ورشاقة الغزال وخفته وحور عينيه وسكون الليل الخ الخ . ويجدون فى لغتهم الغنية بالألفاظ ومطاوعتها لأداء المعانى المطلوبة مايمهد لهم التعبير عما يخالج الفؤاد من الاحساسات المختلفة والعواطف المتباينة

٦١ — الاناشيد المصرية

بالقاهرة شعراء كثيرون اعتادوا نظم الأغانى والأناشيد

مرة فى كل شهر وهذه القطع الشعرية تتغنى بها العوالم فى الأعياد العامة والأفراح الخاصة ولا تلبث أن تنبث بين الأهلين جميعاً فيحفظونها عن ظهر قلب ويتغنون بها فى أوقات بسطهم وانشراحهم

ولكي نزجي الى ذهن القارىء فكرة عن طبيعة القطع الشعرية المصرية نورد فيما يأتى بعض الأناشيد التى ترجمها الى اللغة الفرنسية العلامة سيلفستر دوساسى وأضيف اليها أغنية شاع التغنى بها بين العساكر ومنها ينكشف للقارىء مبلغ القدرة على الهجو والتهكم عند المصريين(١)

---

(١) لم نعثر على الأصل العربى لهذه الأناشيد والأغانى التى أوردها المؤلف نقلا عن العلامة « سيلفستر دوساسى » رغم مابذلناه من الجهود فى البحث عنها . وهى كالأغانى التى ينظمها الناظمون فى هذه الايام وتتداولها الالسن زمنا ثم لاتلبث أن تندثر وتنسى لاسيما اذا لم يعن أحد بتقييد أوابدها خصوصا فى مثل ذلك العهد الذى لم تكن المطابع فيه منتشرة انتشارها الآن . ولهذا قد ضربنا عن ذكرها صفحا الآن حتى اذا أعثرنا استمرار البحث عليها ادرجناها بآخر هذه المجلد

٩

الموسيقى

الموسيقى العربية — استعداد المصريين للموسيقي — آلاتهم الموسيقية — ادخال الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى

٦٢ — الموسيقى العربية

يميل المصريون ميلا شديدا الى الموسيقى . ولكنهم يرون أنه مما لايليق برجل الجد والعمل أن يخصص بعض وقته لدرسها والتدرّب عليها . وقد ذمها النبي محمد فى أقواله ونهي عنها ، ولكنهم لميلهم الغريزى اليها تجاوزوا هذا النهى فتراهم جميعا من رجال ونساء وأطفال يتلهون بها فى أوقات فراغهم أو أثناء ممارستهم لأعمالهم . وبلغ من شدة ميلهم اليها أنهم يعلمون فى المدارس ترتيل الآيات القرآنية بأنغام محدودة وأوزان معينة

ومعلوم أن العرب تلقوا عن الأقدمين ماقرروه من القواعد والأساليب فى الموسيقي وزادوا عليه زيادة كبيرة . ولم يطلقوا على هذا الفن اسما من الفاظ لغتهم ، بل احتفظوا للدلالة على أصله اليونانى بلفظ الموسيقي الذى مابرحوا يسمونه به حتى الآن .

وقد لوحظ أنهم أخذوا عن الهنود والفرس جملة من الاصطلاحات الفنية فى الموسيقى كما لوحظ أن بين الأغانى العامة فى مصر والأغانى الشائعة فى اسبانيا مشابهة فى كثير منها . ذلك لأن العرب احتلوا البلاد الأسبانية زمنا طويلا فكانت تلك الأغانى الشبيهة بالأغانى المصرية بعض ما تركوه من آثارهم قبل رحيلهم عنها . والعرب هم الذين اخترعوا الطبل والأرغن

أما الموسيقى المصرية الحالية فلم تكن إلا فنًّا من الموسيقى العربية طرأ عليه الفساد . وهى تمتاز بتقسيم الصوت الى أقسام والاقسام الى أجزاء صغيرة ، كما تمتاز باختلاف مقامها عن مقام الموسيقى الافرنجية ، ولا سيما من جهة عدم وجود المفاتيح فيها بالمرة . ومع هذا فأن العرب يصمون تقسيمنا لمقام الصوت بوصمة النقص والعيب ويحللونه هم إلى أثلاث وأرباع وأثمان . وهذه المسافات من الصغر والدقة بحيث يتعذر على السمع تقديرها . ولدقة تدرج هذا التقسيم يتعذر بل يستحيل على الأوربيين تقليد الموسيقى المصرية ، وإن يكن أهل البلاد يدركونها ويلتقطونها بسهولة تامة .

والأوربيون ، إذا سمعوا الموسيقى العربية ، لايشعرون

بشيء غير ذلك الشعور الذى يبث في نفوسهم الحزن والشجو .
على أن اتصافها بهذا الوصف الخاص ، مضافاً إلى بساطة الأنغام
التى تتألف من مقـامات صغيرة العدد جداً ، للدلالة على بضعة
أسطر من الغناء ، يعطيها فى الغالب حلاوة تستهوى الأسماع .
ومهما يكن من آراء الغربيين فى محاسن الموسيقى العربية أو
مقابحها ، فمن المجمع عليه الاعتراف بما فى أصوات المؤذنين من
خصائص الجمال والجلال ، أثناء دعوتهم الناس من أعلى المآذن
إلى أداء الصلاة .

أما المصريون فسريعو التـأثر بأصوات المطربين منهم
بالأغانى والأناشيد . وهم يشجعونهم على الأحسان ويستفزونهم
الى الأجادة بما يوجهونه اليهم من عبارات الاستحسان والتحبيذ
التى يعبرون بها عن شعورهم ، إذ يصيحون بلفظ الجلاله قائلين
« الله ! » كلما بلغ الطرب منهم قصاراه . فكأنهم يقصدون بأيراد
ذلك اللفظ المعني الآتى مقدراً : « أحسنت أحسن الله اليك ! »
أو : « صوتك رخيم حفـظ الله صوتك ! »

٦٣ — استعداد المصريين لسماع الموسيقى

يميل المصريون الى سماع الموسيقى منذ قديم الزمان . وما برح هذا الاستعداد الفطرى باقيا فيهم حتى الآن . فانسجام الأنغام واتزانها وضبط قوافيها سليقة فيهم ، حتى أنك ترى الناس إذا ارادوا التعاون على أداء عمل ، قاموا به على أحسن مايراد بفضل ذلك الاستعداد الفطرى الذى ينظم حركاتهم أثناء عملهم فيعاونهم نظاما على أدائه مع الأتقان والسرعة . ويتمكنون فى الأعمال التى يستدعى أداؤها اشتراك الأيدى العاملة اشتراكا مقرونا بالأجماع المنظم ، من الحصول على هذا الأجماع بالتغنى جميعاً بصوت واحد

ولبعض الصناعات عندهم أغانى خاصة يقصد بالتغنى بها التعاون على إنجازها بالسرعة والدقة . فللمراكبية أغانيهم وأناشيدهم التى إذا تغنوا بها أو أنشدوها مهدت لهم القيام بمهمة جر المراكب باللبان فى الأوقات التى لاتكون فيها الرياح موافقة ، وللسقايين من هذه الأغانى والأناشيد ما يساعدهم على ملء قربهم بالماء وحملها وتفريغها ، وهكذا بالنسبة لكل

صنعة وحرفة . وإذا تذكرنا أن بعض شعراء الأعصر القديمة مثل (إيشيل) و (مارسيال) و (أوفيدس) قد استرسلوا فى وصف محاسن الأغانى النيلية ، استطعنا أن نسلم ، على سبيل الترجيح ، بأن الاغانى التى مابرح نوتية نهر النيل يتغنون بها أثناء تسييرهم السفن فيه ، هى عين الأغانى التى كانت ضفتاه ترجمان صداها قبل بضعة ألوف من السنين . ولكل طبقة من الأمة أغانيها الخاصة بها . أما أغانى طبقة العلماء فتستروح منها رائحة الجد والوقار والشدة ، لأن أغانى الغرام وأناشيد الحب والهيام لاتوافق بالطبع أمزجتهم ولا تتفق مع هيبتهم وكرامة مركزهم

٦٤ — الآلات الموسيقية عند المصريين

لدى المصريين آلات موسيقية كثيرة خاصة بهم هي من أبسط ماعرف من الآلات وأوفقها للحالة الفطرية . نذكر منها الطبل البلدى وهو من النحاس ويشبه المرجل (الدست) غطيت فتحته بالرق ، والنقاقير وتستعمل فى المواكب ، والكاسات وتستعمل فيها أيضاً ، ثم الصنوج (الساجات) وهى أشبه شيء

بكاسات صغيرة من النحاس توقع الراقصات عليها حركات رقصهن ، والدُفّ (الطار) ويشبه طبل البشكنس ، والدربكة وهي طبل مخروطي الشكل ينتهي بأنبوبة مجوفة ، وتمسك بأحدى اليدين بينما تدق اليد الأخرى على الرق الممدود فوق فتحتها . وبالجملة فشكلها يشبه شكل القمع الكبير ، وهى كثيرة الشيوع فى القطر المصرى . والمصريون يستخرجون منها أصوات مقبولة فى السمع ويمزجون أنغامها مزجاً غريبا

ومن آلاتهم الموسيقية الهوائية الناى والصفارة والزمارة التى يميل نوتية النيل إلى الزمر بها

أما الآلات الوترية فأبسطها تلك الآلة ذات الوتر الواحد المعروفة بالربابة . وهى التى يوقع المحدثون والشعراء عليها أنغامهم أثناء روايتهم للقصص . والربابة آلة جديرة بالذكر فأنها عبارة عن كنجة لاتجويف لها يستخرج المصريون منها أنغاما شجية يخيل لسامعها أنها أصوات بشرية . واستخراج الأصوات منها بواسطة القوس . والآلات الأخرى التى من هذا القبيل هى الكمنجة وهي ذات وترين يتألف كلاهما من كثر من خمسين شعرة من شعر الخيل منضمة إلى بعضها . إذ

أن تجويفها عبارة عن ثلاثة أرباع جوزة هند مثقوبة بثقوب صغيرة ، والقيثارة الحبشية وتشبه العود القديم ، والقانون ، والعود وهو قيثارة ذات سبعة أوتار تهتز بفعل ريشة تمسك باليد

٦٥ — المغنون المصريون

المغنون الذين صناعتهم الغناء يسمون بالآلاتية ، مفرده آلاتى . وتتألف منهم فى مصر طبقة محتقرة فاسدة الأخلاق . إذا جيء بهم إلى أحد منازل الخاصة تقاضوا أجرا لايتجاوز ما يعدل ثلاثة فرنكات إلى أربعة عن الليلة الواحدة . والمدعوون لسماعهم يغدقون عليهم عادة ، من محض كرمهم ، شيئا من المال يضاف إلى تلك الأجرة الزهيدة . وتقدم اليهم أثناء الغناء المشروبات الخمرية كالعرقى وغيره وهم يفرطون فى شربها إذ يحدث أحيانا وقد لعبت الخمر بعقولهم ، أن يفقدوا رشدهم ويسقطوا على الأرض

وفى مصر مغنيات يسمين بالعوالم ، مفرده عالمة . وهى كلمة أطلقها الاوربيون على جميع الراقصات من غير تمييز ولا استثناء ، مع أنه ليس فى هذا الأطلاق شيء من الصواب .

ويقدر المصريون كثيراً مهارة العوالم وحذقهن فى صناعتهن ، واعتاد نساء الأغنياء أن يأتين بهن إلى داخل حرمهن ليسمعوهن أغانيهن المقترنة بدقات الطار والدربكة ، بينما يكون رب المنزل وأصدقاؤه من المدعوين مجتمعين بصحن الدار ليشنفوا أسماعهم بتلك الأنغام . والعوالم الشهيرات بالحذق والبراعة فى صناعتهن تدفع لهن الأجور العالية وتقدم الهدايا النفيسة

وأغانى العوالم شديدة التشابه والتجانس لاتلبث الأذن أن تمل لهذا السبب سماعها . ومن هذا الوجه لامحل للمقارنة بينهن ومغنياتنا اللائى يتميزن بفخامة الصوت ونعومته ورنينه . ومن المغنيين من لاخلاف فى جمال أصواتهم وحسنها . وهم يتوخون من مقامات الصوت ، الجهير الكروانى وبالجملة الأصوات الحادة ، حتى تراهم وقد انتفخت أوداجهم لهذا الغرض وتكلفوا مافوق طاقتهم للمحافظة على المقامات العالية من الصوت أطول ما استطاعوا من الزمن . وهيئتهم فى هذه الحالة لمن أغرب ماتقع عليه الأبصار ، لأنهم عقب هذا الانتفاخ يطرقون برؤوسهم ويضعون أصابعهم فى آذانهم ويحيطونها

بتجويف كفوفهم ويخرجون الأصوات من حلوقهم بأقصى مجهودهم

٦٦ — الموسيقى الأوروبية فى الجيش المصرى

لما تم تنظيم الجيش المصرى ، وكانت الحكومة المصرية تعلم أن لكل أورطة فى الجيوش الأوروبية موسيقى خاصة بها ، أرادت هذه الحكومة أن لاتكون من هذه الجهة دون غيرها من حكومات الغرب فاستدعت الى مصر طائفة من الموسيقيين الفرنسيين عهدت رياستها الى مؤلف حاذق من مشاهير المؤلفين الأسبانيين في الفنون الموسيقية . فأنشأ هذا الأستاذ ببلدة الخانقاه ، حيث كان ميدان تعليم الجيش واركان الحرب ، معهدا للموسيقى جمع بين جدرانه مائتى تلميذ . فتعلم هؤلاء الطلبة الموسيقى الأوروبية الصوتية وتدربوا على الضرب بآلاتنا . وكما أنهم استعاروا منا آلاتنا الموسيقية ، كذلك أخذوا عنا أدوارنا الحربية وأغانينا العسكرية

وفى هذا المقام لايسعنى إلا الاعتراف بانى بالرغم من سرورى واغتباطى بسماع أنغامنا الوطنية وأناشيدنا العسكرية

ترددها الأجواء على مقتضى إيقاع تلك الأنغام والأناشيد ، الى غايات الفوز والفخار فى المكان الذى سار أبطالنا فيه قبل ثلاثين عاما ، لم أشعر قط بمثل ذلك الاغتباط والسرور لمناسبة استعادة المصريين لها منا ، ونقلهم إياها عنا من غير تحوير ولا تبديل . فأن موسيقانا لاتؤثر بالمرة فى المصريين ، حتى أن أنشودة المارسيليز الوطنية التى يعرفونها من قبل ويميزونها على غيرها من الأناشيد الفرنسوية ويسمونها بأنشودة بونابرته لاتهز وترا واحدا من أوتار أفئدتهم ، ولا تنشرح لها صدورهم ، ولا تميل الى التقاطها أسماعهم . دع أن مطالبة المصريين باستعمال آلاتنا الموسيقية والتغنى بأناشيدنا الخاصة لم يتوافر معه الغرض المطلوب من الموسيقي العسكرية فأن حكومات أوربا لما انشأت كل منها موسيقاها العسكرية كانت لاترمى إلا إلى غرض واحد وهو التأثير في العساكر بقوة تبث فيهم النشاط والحماس والهمة

ولا مشاحة فى أن الموسيقى لغة ، ولغة فصيحة تؤثر فى مجاميع الناس وطوائفهم تأثيراً عظيما ، ولكن إرغام المصريين على سماع أدوارنا الموسيقية وأدائها بالآت غير التى ألفوها قد

أوقع الذين أرادوا هذا الأصلاح المعكوس وقاموا به ، فى عين الخطأ الذى وقع فيه من يريد تحريك شعب بأرغامه على حفظ عبارات فصيحة نخمة بلغة لايفهمونها لأنها غير لغتهم .وعلى هذا فالمصريون الذين يغمى عليهم سروراً إذا سمعوا أغانى المغنين والآلاتيـة منهم ، وهى على ماعرفت من التجانس والتشـابه الباعثين على الملل ، لايشعرون حين سماعهم الآلات والأدوار الموسيقية الأوروبية إلا بالملل وانحراف المزاج . وإذا كان من الآلات الأوربية مايلتذون بسماعه وتحسن فى نظرهم رؤيته فهو الطبل الكبير . أما الآلات الأخرى فأصواتها فى حكمهم خليط لايستحق الاهتمام والاعتبار

وكان الواجب والصواب في آن واحد ، أن يستدعي الى مصر فريق من الفنانين فى الموسيقى القادرين على إدراك مغازى الموسيقى العربية وعبقريتها ليركبوا منها موسيقى خاصة يكون للآلات الموسيقية الوطنية نصيب من مجموعة آلاتها . وبهذه الوسيلة كان يمكن التأثير في نفوس الجنود المصريين تأثيراً موسيقيا لاريب فيه

وبدهي أنهما كان لموسيقانا أن تجد ، بين أناس لايهتمون

تها ولا يخفق لهم قلب عند سماعها ، أن تؤدى أداء حسنا بمعرفتهم .
فلم يكن من الغريب اذاً أن تقرر الحكومة ماقررته من إلغاء
معهد الخانقاه الموسيقي الذى كان ، بالرغم من الموانع والصعوبات
السالفة ، ينشىء عدداً لا بأس به من الموسيقيين الاكفاء
القادرين . وقد استعاضوا عنه بأن جعلوا في كل اورطة من
الجيش معلماً أوربيا للموسيقى ، ولكن ما كان بميسور لمعلم واحد
أن يحرز ذهنه نظرية الآلات المراد استعمالها جميعا ولا طريقة
استخراج الأصوات منها . لذا كان متعذرا على الموسيقي
العسكرية المصرية أن تجارى الموسيقى الأوربية . ولو ترك
المصريون وشأنهم في تطبيق الموسيقى الأوربية . على حاجاتهم
لتطرق اليها الفساد والاختلال بلا ريب

١٠

الرقص

الرقص المصرى — الرقاصات والعوالم — الرقاصون

٦٧ — الرقص المصرى

لاوجه بالمرة من وجوه الشبه بين رقص الشرقيين ورقص

الغربيين . فعندنا ينظر الي الرقص بوجه عام من حيث كونه أحدى وسائل الابتهاج والسرور بين طائفتين من الجنسين اللطيف والخشن . أما فى الشرق فمحال أن ترقص امرأة مع رجل . والرقص فى أوربا رياضه عملية تتلخص فى أداء أشواط من الحركات موقعة إيقاعا متناسقا وتحريك الساقين تحريكا تراعى فيه الاقتران والتوفيق على وجه الدقة والضبط

أما فى مصر فما هو إلا تتابع أوضاع وتعاقب حركات يلتوى الجسم فيها تارة وينعطف أخرى . يرمى بذلك الى غرض واحد هو استثارة كوامن الشوق الى الملاذ الشهوية

والمفهوم أن الرقص المصرى وجد بنوعه وشكله منذ الأعصر الموغلة فى القدم . فقد رأيت فى النقوش الهيروغليفية بمعابد طيبة والقرنة وغيرها مناظر مما يقع داخل البيوت كمناظر الراقصات فى ثياب كالتى يلبسنها الآن وأوضاع وحركات لاتختلف فى شيء عن أوضاعهن وحركاتهن اليوم

ثم إن هناك تشابها عظيما بين رقص الراقصات الهنديات والعوالم المصريات . وليس هذا وحده وجه الشبه بين الفريقين فأن رقص الراقصات الاسبانيات من نوع الرقص المصرى

وهو مطبوع بالطابع العربى . ولكنه ، والحق يقال ، أخف من الرقص المصرى وأرشق وأدق وأطبق على المعانى الشعرية

والغرائز فى مصر ، من حيث ارتباطها بالآداب النفسية ، أكثر انفعالا بعوامل الفساد منها فى سائر اقطار المملكة العثمانية . فأن الرقص ، مع أنه غير مباح فى الديانة الاسلامية ، مسموح به للغوازى (الراقصات العموميات) اللائى لا يقتصرن فى عرض حركاتهن الشهوية على المنازل الخاصة بل يتجاوزنها الى الطرقات والميادين العامة على ملأ من الجمهور . ومنذ سنوات قليلة صدرت أوامر الشرطة فى مصر بمنع تلك الراقصات من التجوال فى طرقات القاهرة والاسكندرية

ولا يدخل الرقص فى برنامج الدروس التي تعلم للبنات ، ولكن البعض منهن يتدربن على أداء حركات العوالم ورقصهن . ومع أن هذه الحركات فى غاية القبح وسوء الأدب فأن الأهلين لا يستقبحونها ولا يتضجرون منها . والمحقق أن النساء المحصنات العفيفات اللذين لا يجرأن على الرقص إلاّ فى داخل منازلهن بين صويحباتهن ، ولكنهن لا يأتينه على مشهد من آبائهن أو أمهاتهن أو أزواجهن . ولما كان الرقص من وسائل التسلي والابتهاج التى

تروق السيدات كثيرا ، فقد اعتاد العظماء والأسرياء اتخاذ الراقصات فى منازلهم من الجوارى لأدخال السرور على زوجاتهم برقصهن وشرح صدورهن بحركاتهن

ومن النادر جداً أن يدعو المسلمون الغوازى إلى منازلهم . فأذا وجد من بين سكان مصر من يجيز لنفسه هذا الترخص فأنما هم اليهود والأوربيون . وإذا اتفق وجود الغوازى فى منازل المسلمين برسم الرقص فأنهن لا يرقصن إلا على مشهد من الرجال وحدهم أو من النساء بمعزل عن الرجال . وسواء أكان الرقص لهذا الفريق أم لذاك فأنه يحصل فى بهو الاستقبال . والراقصات إذا رقصن فيه برسم الرجال جيء بالنوبة أى طائفة آلات الطرب وبيد كل من رجالها إحدى الآلات التى سبق وصفها ، لأيقاع الحركات على مقتضى الأنغام . ويبلغ شعور الراقصات بالحاجة إلى الأيقاع والتناسق فى الحركات إلى حد أننى شهدت بنفسى البعض منهن لا يستطعن القيام بأداء حركاتهن ، إذا قصرت الموسيقى عن آداء الأنغام بحسب الوزن المطلوب

والعادة أن يجلس الموسيقيون فى ركن من اركان البهو وأن

يشغل الراقصات المكان المعروف بالدركة وأن يجلس المدعوون فى سكون تام على الدواوين يتمتعون بهذا المرأى الشهوى وهم يدخنون الشبكات . ويطاف على الراقصات والموسيقيين ، من آن الى آخر ، بأقداح العرقى الذى يستفزهم بالتدريج الى الأمعان فى الرقص والغناء . ولكنه كثيرا مايفقدهم الصواب ويلقيهم فى وهدة السكر جميعاً فلا يفيقون من سكرتهم إلا بعد ساعات طويلة . أما اذا كان الرقص فى الحرم فأن الموسيقيين لايحضرون مجلسه . وفى هذه الحالة توزن حركات الراقصات بالطار والدربكة اللذين ينقر عليهما جماعة النساء من حاشية ربة البيت

٦٨ — الراقصات

السواد الأعظم من العوالم فى مقتبل العمر وعلى حصة وافية من الجمال والحسن . لأنهن يجمعن الى فن الرقص مزية الاتصال مع الرجال بالروابط التى تربط الخليلة عادة بخليلها . وملابسهن تشبه على وجه التقريب ملابس السيدات المتأنقات في ثيابهن اللائى وصفناهن فى غير هذا الموضع ، ولكنها

تختلف في مظهرها الخارجي عن ملابس الحلائل الطاهرات الذيل.
فمن ذلك أنها تضغط على جسومهن فتصفها أكثر مما تصف
ثياب الحلائل جسومهن : دع أنهن يكشفن عن نحورهن
وسواعدهن ؛ ويتوخين الزخرف والزينة فى ثيابهن وحليهن
ويتخذن هذه الثياب من فاخر الأقمشه ويتحلين بالكثير من
المصوغات والجواهر

وإذا رقصن يرقصن إما مثنى وإما رباعا . ومع كونهن
يتحرين التوفيق أحيانا بين حركاتهن ، فأنهن لا يأتين بأوضاع
منتظمة كالتى تتراءى لنا فى الصور أو على مراسح التمثيل

وطبيعة رقصهن من مخالفة الآداب والأخلاق بما يمنعنى
عن التصدر لأيراد تفاصيله ووصف أجزائه .لذا أكتفى بوصفه
وصفا سطحيا يصور للقارىء شيئا من حقيقته . وأنهن إذا
اصطففن في الدركة تقدمن بضع خطوات ضاربات بالصنوج
(الساجات) المثبتة بأطراف أصابعهن (الأبهام والسبابة) محركات
أيديهن فوق رؤوسهن وحول جسومهن ، فيؤدين هذه الحركات
أداء جميلا للغاية وبعد هذه المقدمة يبتدىء الرقص الذى يتلخص
وصفه فى احتفاظ الساقين والجذع من الجسم بسكونها مع تحرك

الذراعين والتقائهما بحيث يتكون منهما مايشبه الحلقة ثم انخفاضهما تارة وارتفاعهما أخرى بحسب الأطوار المختلفة للشعور الشهوى الذى يستثيرهذه الحركات فيهن

وترى أجسامهن مضطربة على الدوام اضطرابا يشتد أحيانا بما يبذلنه من النشاط ويضعف أحيانا أخرى لتكاف الكلال والملال وما يستتبعانه من الفتور والدلال . وقد تضطرب أعضاء من الجسم دون غيرها وتنعطف وتنثنى فتنحط بفعلها الحرقفتان تارة وترتفعان طوراً آخر وتنطبع هذه الحركات كلها بطابع يجعلها منافية للحياء والحشمة لدلالتها على المقاصد الشهوية بالغة أقصى حدتها

ورقص الغوازى على صنوف متنوعة أولها ، وهو أدلها على ما هنالك من الجرأة فى أداء تلك الحركات ، مصرى الابتكار . وثانيها خليط من الرقصين المصرى واليونانى إذ يتخلله التنقل بالخطوات . وثالثها الرقص المعروف برقص النحلة . ومؤداه أن يتصنع العوالم حالة من تلسعه النحلة ، فيأخذن بالبحث عنها فى فى ثيابهن صائحات : « النحل أوه ! النحل أوه : » ولكى يقبضن على هذه الحشرة التى لاوجود لها إلا فى مخيلتهن يتجردن

شيئاً فشيئاً من ثيابهن حتى لا يبقى على أجسادهن سوى غلالة شفافة تخفق بشدة حركاتهن حول جسومهن ، ويفتحنها من آن إلى آن ثم يضممنها بمقتضى الأيقاع النغمي

وإني أترك للقارىء الحكم على تأثير هذا المنظر المحرك لكوامن الشهوات حتى فى العواطف الجامدة

ومتي بلغ الرقص من مداه حداً تثور فيه الأشواق الشهوية ، تلجأ الراقصات إلى الراحة وتختلطن بالمتفرجين لمداكستهم ومناوشتهم . وأغلب مايوجهن دعابتهن الى زعيم المدعوين وعظيمهم . ولست بحاجة إلى القول بأنه لا يتمالك نفسه من الاسترسال معهن فى هذه الدعابة . ومن مزاحهن فى هذه الفرصة جلوسهن فى حجر من يقصدنه بملاطفتهن وتقبيلهن أو معانقتهن إياه . وبالجملة فأنهن يتطوحن معه فى أساليب من المداعبة والمطايبة ينفر منها من لم يعتدها . والأوربيون يخجلون طبعاً من نظرها أو سماعها . أما بقية المدعوين فيظهرون للراقصات ارتياحهم منهن وإعجابهم بحسن أسلوبهن فى الرقص ثم يخصوهن بالتحف والهدايا يقدمونها إليهن على شكل يدعو إلى الاستغراب إذ غالباً ماتكون هذه الهدايا قطعاً صغيرة

من النقود الذهبيــة يرقونها بلعابهم ثم يلصقونها على جباههن ونحورهن وسواعدهن الخ

وأجمل العوالم وأبرعهن فى استمالة الرجال اليهن يحرزن في الغالب جانباً لا بأس به من الثروة والنفوذ والدالة ، وتتـألف منهن فى الأمة المصرية طبقة خاصـة تعيش فى معزل عن سـائر الطبقات . فهن من هذا الوجه أشبه بطبقة (الجيتانو) بأوروبا .

وغير خاف أن الغوازى يرجع تاريخ وجودهن إلى الأعصر الموغلة في القـدم أى إلى العصر الذى ابتكرت فيـه حركات الرقص الشهوية التى كان الفراعنة الأولون يتاهون بمشاهدتهـا بدليـل ماهو منقوش من صور تلك الراقصات فى قبورهم منـذ آلاف السنين

٦٩ — الراقصون

معلوم أن فى الرقص المصرى شيئاً يخالف المألوف ويستفز العجب . ولكن من المرغوب فيه أن يستبدل هذا الرقص بما يكون أوفق لمقتضى الآداب والأخلاق الفاضلة . وعلى كل حال فالرقص كما يشاهد الآن من الوجهة العامة أفضـل بكثير من

الحركات السخيفة السافلة التي يقوم بها الراقصون في مصر

ومع أنه من المقرر فى الدين الأسلامى أن لايباح للرجل مشاهدة رقص النساء فأن من الرجال فى مصر طائفة تحترف الرقص وتعرف فيها باسم « الخولات »

والخولات يتزيون عادة بزى النساء. وإذا كان الرجل الذى يرقص عندنا قليلا ما ينال من الرائى استحسان رقصه فأن الخول المصرى ، إذا رقص ، لايترك في نفس من يشاهده إلا التقزز والاستنكار . وحينئذ فما يعتبره الناقدون غير ملائم للأدب فى رقص العوالم يصير ممقوتاً ومخجلا فى رقص الخولات

ومنذ صدرت الأوامر بمنع رقص النساء على قوارع الطرقات ازداد عدد أولئك الراقصين المخنثين زيادة يندى منها جبين الأدب ويحمر وجه الأنسانية. وكان من أثر ذلك المنع أن حل مكان فسادٍ فسادٌ أسوأ وأفظع منه. وإنى لأرجو من الحكومة المصرية أن تعجل باقتلاع جذور هذا الخزى الذى يدنس أرض مصر أو احتمال الخفيف الضرر منه من باب التفضيل على مالا قبل لأحد بضرره وشره

١١

الالعاب والرياضات والمشعوذون

اليانصيب — الالعاب الحسابية — الرياضة البدنية — ركوب الخيل — الحواة والمشعوذون

٧٠ — اليانصيب

كان حتما أن يميل العرب ، مع مايؤثر عنهم من حدة الذكاء وصفاء الذهن ، إلى اللعب والمقامرة لهذا جاءت أوامر الدين الأسلامي ونواهيه صريحة فى منع المقامرة ولكن المصريين الذين يميزهم عن مسلمي الأقطار الأخرى عدم الاكتراث بأوامر الدين ونواهيه أباحوا لأنفسهم مخالفتها والعمل على ضد ماترمى إليه . فأن القمار من الألعاب التي يتلهون بها ويعتمدون فى قطع الوقت عليها . وعامة الشعب شديدو الشغف بالخاساة أى المقامرة بالفرد والزوج

٧١ — الالعاب الحسابية

أكثر الألعاب موافقة لطبيعة الدعة والسكون في

المصريين وأوفقها لميولهم وأذواقهم الألعاب الحسابية التي نذكر منها الدامة والطاولة والشطرنج . ولهم بهذه اللعب ولع شديد إذ كثيرا مايرى اللاعبون بها يقضون النهار برمته فى نقـل قطعها على الرقع . وصناعة هذه القطع لا أثر فيهـا للدقة . وهي برسم الكبراء والأسرياء تصنع من الأخشاب الثمينة أو سن الفيل

أما لعبة الورق (الكتشينة) فالأقبال عليها قليل ولذا ترى المصريين يجهلون الألعاب التى تبنى عليها وتسـتنبط منها ولا سيما لعبة القمار التى مدارها ربح المال وخسارته

وهناك ألعاب أخر خاصة بمصر والشرق يطول بنا الشرح إذا تصدينا لبيانهافى هذا المقام، وإنما نذكر منهالعبة المنقلة وهي تلعب من اثنين على لوحة من الخشب حفر فى اتجاههـا الطولى إلى كل جانب من جانبيها سـتة تجاويف يتألف منها صـفان متوازيان وتوضع فيها قطع صـغيرة من الأحجار أو أصـداف بحرية بقصد ضمها جميعاً بتدبير اللعب وسياسته فى تجويف معين من قبل . ثم لعبة الطابة وهى عظيمة الانتشار شديدة الالتباك وبينها وبين لعبة الطاولة بعض المشابهة . أما لعبةالسيجا فأكثر الناس إقبالا عليها هم الفلاحون، وتشبه من وجوه كثيرة لعبة

الدائمة . واللعب بهذه الأدوات تجرى أدواره إما بالمنازل أو بالقهوات العامـة وفى النادر يكون النقد موضوع المراهنة إذ لا يتعدى موضوعها بوجه عام بعض الفناجين من القهوة

٧٢ - الرياضة البدنية

مما يجعل المصريين غير صالحين للقيام بالتمرينات الرياضية البدنيـة التى تتطلب ممن يؤديها الرشاقة والقوة والحيلة سرعة وقوع الوجل في قلوبهم أمام مايحسبونه خطرا على حياتهم وضنهم بأرواحهم أن تتجشم المتاعب والمصاعب . لهـذا لم تقع الأنظار عليهم متنافسين فى إحراز قصب السبق فى الركض أو المصارعة أو غيرهما من ضروب الرياضة التى تبث فى الجسم النشاط والهمة وتكسب الأعضاء اللين والمرونة . نعم إن الفلاحين اعتادوا المنازلة أحيانًا فى الأعياد والحفلات العـامة بالعصى الطويلة المسماة بالنبابيت التى مدار الفوز بها محاولة إصابة الخصم فى رأسه ولكنهم ،إذا هموا باللعب، يحملون على بعضهم البعض بالضربات أو يتقونها بهمـة فاترة ولين وتقصف لا أثر فيه من البسـالة والأقدام

وعلى كل حال فمنازلتهم بعضهم البعض على الوجه المتقدم لاتنهض دليلا على أن فيها شيئاً من البراعة والحذق . وهم يباشرون المصارعة أيضاً ، والمصارعون يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقي نصف أجسامهم عارياً . وهم يدلكون هذا الجزء بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بصرعه على الأرض . ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها ويعتقدون توافر هذه المزايا فى المصارعين الأوربيين لايسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين الازدراء والتهكم والاحتقار

٧٣ — ركوب الخيل

ركوب الخيل أو الفروسية من الرياضات المنظور إليها فى الشرق بعين الأجلال والاحترام . والشرقيون يعتبرونها من أشرف ضروب الرياضة وأسماها قدرا ، ولا يكادون يتجاوزون طور الطفولة حتى يتفرغوا للتدرب عليها ولاسيما إذا كانوا من البيوتات الكريمة أو الأسر المعروفة بسعة العيش وكثرة المال . ولدربتهم على الفروسية وبراعتهم فيها تراهم يركبون أشد

الخيل جموحاً وأكثرها شموساً بهيئة تدل على الوقار وحسن السمت وجلال الهيبة . ويقومون وهم ركوب عليها بصنوف كثيرة من الحركات التى من شأنها توثيق قوتهم وفتح أبواب الحيل أمامهم وتنمية البداهة فيهم حتى يصير حضور الذهن من أخص صفاتهم . ولقد كان المماليك فى الزمن السابق متفوقين فى هذا النوع من الرياضات وأفضى تفننهم في الخطران بالسلاح ، وهم على متون الجياد وترويضهم الخيل على أداء أسرع الحركات وأصعبها ، إلى وصف فرق الخيالة وشراذمها منهم بأنهم أحسن الفرسان طراً على وجه الأرض

وكان من أخص رياضاتهم التى بقيت بعد انثلال عرشهم وانقراض ذريتهم من مصر الرياضة المعروفة بالجريد . وهى مما يذكرنا ببراجسنا القديمة أيام انكباب الناس في فرنسا على الفروسية واشتغالهم بالرياضات البدنية على متون الخيل . ومؤدى تلك اللعبة أن يركض فارسان عدواً من جانبين متقابلين ليلتقيا ببعضهما . ففي أثناء هذه الحملة يقذف أحد الفارسين بأقصى مافى ساعده من القوة والشدة عصى من جريد النخل يختلف طولها من أربع أقدام إلى ست يقصد بها إصابة

الفارس الآخر. فاذا أصابه بها فقد يحدث به جرحاً بالغاً ربما يلقى بسببه حتفه ، وهذا لا يكون طبعاً إلا إذا أنفق من قوته الكثير في إلقاء تلك العصى على نظيره. ولكن وجه الحيلة فى تلك اللعبة أن يستطيع الفارس المراد إصابته بالجريدة اتقاءها بل واختطافها بيده وهي تخترق الجو مصوبة اليه. وقبل أن يبرز فرسان العرب لأداء هذه اللعبة العسكرية يقضون زمنا طويلا فى التمرن على إصابة غرض ثابت معين بالعصى من الجريد

على أن هذه التمارين الرياضية لن تقرب من نظائرها التى تشاهد فى ملاعب الخيل بأوروبا ولن تعدلها

٧٤ — الحواة والمشعوذون

الحواة منتشرون كثيراً فى شوارع القاهرة وميادينها وهم يقدمون أدوارهم التمثيلية وسط حلقة من المتفرجين الذين سرعان مايتواردون من كل جهة للتفرج على هذه المناظر. وهم يقومون بعدد عظيم من الأدوار ويكسبون استحسان الجمهور المتفرج وما يقدمه إليهم من العطايا الصغيرة بما يبذلونه من الكلمات ويبدونه من الحركات التي لا تتفق ومكارم الأخلاق. وللحواة

عادةً عون أو عونان من الأطفال فيوهمون المتفرجين أنهم يغرزون في جسم أحدهم نصلا أو رمحاً من الحديد لايمس الطفل بضرر ما فى الحقيقة ، لأن هذا السلاح إنما يغيب فى قراب من الخشب . وقد يطرح الطفل أرضاً ويستعمل الطريقة عينها . وهماً الناظرين أنه يغرز في أنفه نصل مطوى أو مدية صغيرة . وفى أحيان أخر يفتح شدقه ثم يمسك بخديه داخلا وخارجاً لينفذ منه قفلا لايلبث أن يقفله بالمفتاح فيظل هذا القفل معلقا بوجه الطفل المسكين ، والحقيقة ان شيئا من هذا القفل لم ينفذ من خد الطفل الذى يظن المتفرجون أنه يقاسى من العذاب ألوانا

وبالجملة فأغلب أدوار الحواة المصريين تشبه من وجوه كثيرة أدوار الحواة المتنقلين فى أوربا . ومن أخص أدوارهم دور الأكواب التي يحولون البيض فيها الى كتاكيت ويصبغون بالألوان المختلفة قطع الورق الأبيض الخ . ومن أدوارهم أيضا إيهامهم الناظرين أنهم يبتلعون الخام من القطن أو الصوف ثم يستخرجونهما من أفواههم مغزولين وملونين بمختلف الألوان ، ومنها أنهم يلقون التراب في إناء ممتلىء ماء ثم يستخرجونه فأذا به جافا ، ويتفننون فى أشباه هذه الحيل التى لايحصيها العد بين

استحسان المتفرجين وتصفيقاتهم الحادة

وفى أيام الأعياد والحفلات يقوم الجميدية المضحكون بتمثيل نوع من المناظر المضحكة فى الطرقات والميادين لأدخال السرور على العامة . ولدى المصريين وسيلة للهو يقوم بالتمثيل فيها تماثيل صغيرة على شبه الانسان وتسمى بالأراجوز . والممثل الذى يحرك التماثيل يستتر عن انظار المتفرجين في مربع من الألواح الخشبية ثم يحرك تلك التماثيل بخيوط يمسك بأطرافها ويقرن حركاتها بأقوال يفوه بها فيخيل للسامع أنها أقوال تلك التماثيل وألفاظها

وهناك طائفة من ممثلى الروايات المضحكة تؤدى أدوارها في منازل الخاصة ولا يدخل في تضاعيفها من الحوادث مايستمد من الحيل والدسائس أو يشير الى أنها جاءت عفواً ومن غير تكلف أو قامت على أساس من الذكاء والعقل .وبالجملة فأن مصر مهد لفرع من فن الروايات لايزال على فطرته الأولى مجرداً مما تحسن فى السمع أو البصر

وهناك طوائف وفرق من البوهيميين « الغجر » يمثلون أمام الجمهور بعض أدوار القوة والصلابة البدنية ، فيرقصون على

الحبال المشدودة أو يطوفون على الناس بقرودهم وكلابهم وغيرها من الحيوانات المعروفة بالذكاء فيجعلونها ترقص أمامهم أو تأتى من الحركات المضحكة مايدخل السرور عليهم

١٢

الاعياد والحفلات العمومية

٧٥ — اذا استثنينا حفلة قطع الخليج ، وهي الحفلة العامة التى حرص المصريون بحكم التقاليد على إقامتها احتفاء بوفاء النيل منذ الالوف العديدة من السنين ، فأنا نجد الاعياد والحفلات الأخرى كلها ذات صبغة دينية لامراء فيها

والذى يمر بخاطر الناظر فى هذا الأمر والباحث عن أسبابه ، أول وهلة ، أن الشريعة الأسلامية لم تترك جهداً إلا وبذلته لتمييزهم على غيرهم من معتنقى الديانات والعقائد الأخرى . فهي فى دعوتهم إلى أداء فرض الصلاة بالمساجد لم تتخذ النفير الذى ينفخ العبرانيون فيه لهذا الغرض ، ولا الأجراس التى تدقها المسيحيون له ، بل قضت بان يكون الأذان هو النداء الداعى الى الصلاة

والعادة ، إذا دخل الأسرائيليون معابدهم ، أن يدخلوها لابسى أحذيتهم غير مكشوفة رؤوسهم . كما أن عادة المسيحيين، إذا غشوا الكنائس ، أن يكشفوا عن رؤوسهم

أما المسلمون فأنهم إذا دخلوا مساجدهم أبقوا عمائمهم على رؤوسهم وخلعوا نعالهم . وحتى لاتكون هناك قدوة باليهود والمسيحيين فى راحتهم الأسبوعية لم تتخذ الشريعة الأسلامية أحد يومى السبت والأحد لالتماس الراحة من عناء العمل ، بل اتخذت له يوم الجمعة الذى لم يكن المقصود به ، بمقتضى الشريعة الأسلامية ، الأمساك عن العمل لطلب الراحة بل أداء صلاة الجمعة . ولهذا ترى المسلمين ، بعد قيامهم بهذه الفريضة الدينية ، ينصرفون إلى ممارسة أعمالهم كما اعتادوا مزاولتها فى بقية أيام الأسبوع بلا فارق أبداً

أما الأعياد العامة التى يحتم عليهم الاحتفال بها فتنحصر فى عيدى الفطر والأضحى . وليست الأعياد الدينية الأخرى التى سأسردها فيما بعد، إلزامية كذينك العيدين

فالسنة الهجرية من هذه الأعياد ، تبتدىء بشهر محرم الحرام لأن العشرة الأيام الأولى من هذا الشهر تعد من

الأيام المباركة ، ويرتبط بها كثير من الأوهام الباطلة التى يسلم العامة بصحتها . ويسمى اليوم العاشر منها بعاشوراء ويحتفل به احتفال يشترك فيه معظم الأهالى لاعتقادهم أنه اليوم الذى التقى آدم فيه بحواء بعد خروجهما من الجنة والذى نزل نوح فيه من الفلك . ويحتفلون فى عاشوراء بذكرى وفاة الحسين شهيداً فى واقعة كربلاء

وفى صفر تبدو بين الناس حركة عظيمة سببها الاهتمام بالاستعداد لعودة المحمل الشريف من مكة الى مصر

ومنذ الشهر الثالث من السنة الهجرية تعد المعدات العظيمة للاحتفال بمولد النبى وإقامته فى ميدان الأزبكية بمظاهر الأبهة والجلال . والدراويش السعدية المحور الأكبر الذى يدور عليه هذا الاحتفال العظيم . فأنهم يجتمعون طوائف كثيرة ويعكفون على الأذكار التى سبق لى وصفها فى إحدى الفقرات المتقدمة . والعادة أن يبقى الشيخ البكرى ، شيخ سجادتهم ، بميدان الأزبكية . فاذا أقبل ذلك اليوم عاد فى موكب جليل من المسجد إلى داره . وقبل أن يصل اليها بقليل يقف فى الطريق حيث تقام بحضوره الحفلة المعروفة بالدوسة

وبيان هذه الحفلة أن ينكب نحو مائة من الدراويش أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتتكون من أجسامهم سجادة بشرية لايلبث الشيخ الجليل أن يسير عليها ممتطياً جواده ، يتبعه بعض مريديه سائرين عليها حفاة الأقدام . والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنابك الجواد لم تصبهم بألم ما وأن هذا ينهض دليلا على ولايته

وتقام حفلات عديدة بمناسبة موالد بعض الأولياء أشهرها مولد الحسنين ثم مولد السيدة زينب . وليلة السابع والعشرين من شهر رجب الأصب تعد من الليالى المباركة التى ينبغى احياؤها بالحفلات لأنها ليلة المعراج التى عرج النبى فيها إلى السماء .

وقد ذكرت فيما تقدم أن شهر رمضان وعيد الفطر الذى يتلو ختامه وعيد الأضحى الذى يطابق وصول الحجاج إلى مكة من الأعياد التى تقام الحفلات العامة برسمها . ففى هذه الأعياد وفى ليالى رمضان كلها يقوم المغنون والمحدثون والشعراء والحواة والراقصات والموسيقيون بأدخال السرور على الجمهور فى الشوارع . وكلها مما يسهل على الباحث فى أحوال مصر وعادات

أهلها الوقوف على مايمتاز به الشعب المصرى من الأخلاق الغريبة والعادات العجيبة

١٣

بيانات تفصيلية عن الاخلاق

٧٦ — الشحاذة

بالرغم من أن أهالى مصر يرزحون تحت أعباء الفقر ويرسفون فى أغلال العوز والفاقة ، فأن الشحاذة لم تكن فاشية فيهم بنسبة فقرهم وعوزهم . وسبب ذلك أن احتياجات المصريين تنحصر فى دائرة ضيقة تجعل مداركتها أمراً ميسورا عليهم . بل أن مداركتها من السهولة بحيث يندر أن يوجد فى القطر المصرى كله رجل واحد يعجز عن كسب قوته بنفسه

ويتقي المصرى برد الشتاء بقميص بسيط لأن الشتاء فى مصر لم يكن زمهريراً، ولا يرهب حرارة الشمس وقيظ الهاجرة لاعتياده إياها منذ نعومة أظفاره . وإذا لم يكن مالكا ما يسد به الرمق من القوت فأنه يثق بحصوله على شيء من الخبز

والأدم من أى كان من أبناء جلدته يواجهه فى طلب إسعافه ، فالمصرى الفقير لايموت بالجوع أبداً

وكان بعاصمة القطر المصرى فى زمن مضي جماعة من الشحاذين يتجرون بالعواطف التى يستفزها الأسلام فى نفوس المسلمين بما فرضه عليهم من الزكاة والأحسان ، حتى اقتنوا من المال شيئاً كثيراً من تلك الطريق بألحاحهم وإلحافهم فى السؤال. وكان سوادهم الأعظم ينفقون هذا المال فى ملاذهم ، ولا سيما في تدخين الحشيش . فيصور لهم الخيال أثناء تخدرهم بهذه المادة أنهم أسعد الناس حظاً فى هذا العالم وأن مايشعرون به من الملذات الخيالية لايختلف فى شىء عن الملاذ الحقيقية التي يحس غيرهم بها فى عالم الحقيقة . ومنذ بضع سنوات أنشأ محمد على مستودعاً للشحاذين جمع فيه أكثر من أربعمائة شحاذ رجالا ونساء وأطفالا

٧٧ — اللصوص

كان انتشار الفوضى في مصر ، قبل أن يتسنم محمد على ذروة الحكم ، من بواعث اختلال الأمن واضطراب حبل النظام

وتألف عصابات اللصوص فى كل مكان ، وعلى الخصوص فى الوجه البحرى . وقد اختص لفيف منهم بالقرصنة على نهر النيل إذ كانوا يلاحقون القوارب سباحة لسرقة ماتحمله ويتخيرون الليل لارتكاب جرائمهم

وتدور على ألسنة الناس قصص عن مهارتهم وجرأتهم تكاد لاتصدق . ولكنهم كانوا مع ذلك فى غاية الجبن إذ كانوا يخشون بأس الأوربيين ويفرون من أمامهم إذا وقفوا لهم وقفة الجادّ لا المازح وكشروا عن أنيابهم

ولقد استأصل محمد على شأفة أولئك اللصوص وتمكن بعزمه الماضى وبأسه الشديد من القضاء على القرصنة فى النيل واللصوصية التى تخذها العربان حرفة لهم ، وألزم سكان القرى جميعاً الذين تقع فى دائرتهم التعديات على عابرى السبيل بتبعة ما يقع منها من دفع التعويض الوافى متضامنين لمن يصيبهم الضرر من جرائها . فصاروا لهذا السبب يهتمون بالمحافظة على النظام ويؤدون وظيفة الشرطة متطوعين مع السهر على حفظ الأمن والسكينة فى نواحيهم

ومع هذا فحوادث السرقات بمصر أقل منها بأوروبا وعلى

الخصوص الحوادث المصحوبة بالظروف المضاعفة للعقوبة كأن تكون السرقة سطواً استعمل فيه السلاح أو الكسر الخ

٧٨ — المحكوم عليهم بالليمان

منـذ أنشئت ترسانة الأسكندرية ابتكرت للمجرمين عقوبة جديدة قصد بها إفادة هذا المصنع العظيم ببعض الأيدى العاملة وصرف أصحابها عن الأذى وتعويدهم العمل الصالح. فالمجرمون الذين ارتكبوا جرائم معينة يحكم عليهم الآن بالأشغال الشاقة المؤقتة لمدد طويلة أو قصيرة. وهـذه العقوبة فى مصر لاتسوىء سمعة المحكوم عليهم بها ولا تحط من أقدارهم، إذ كثيراً ما شوهدوا بعـد انقضاء مدة العقوبة وانقلابهم إلى أهليهم وهم يحلون محلهم القديم في المجتمع الأنسانى ويتحلون بالرتب والامتيازات التى كانت لهم قبل الحكم عليهم. ولوحظ في حالة ميلهم إلى الزواج أن لا أسرة من الأسر التى طمح فى الارتباط معها بآخيـة المصاهرة رأت فى سعيه لديهـا مايلوث شهرتها أو يذهب برونقها أو يحط من مكانتها بين الناس. يدعو الي ذلك أن المسلم لا يرى فى العقوبة التى يقضى بهـا الشرع ماينافى

شرفه وكرامته أو يصمه طول عمره بوصمة الخزى والعار

٧٩ — القتل

إذا كانت حوادث القتل فاشية عند الأمم المتمدينة فأنها فى بلاد الشرق نادرة الوقوع جداً . أما ماقد يحدث أحياناً فى هذه البلاد من جرائم التعدى على النفس فتعليله لا يرجع إلى مثل مايعلل القتل به فى أوربا من الشهوات الدنيئة والأهواء السافلة والغرائز الوحشية الخ مايدعو عامة المجرمين بأوروبا إلى إزهاق النفوس البريئة

نعم إن التعصب الدينى هو الذى أغرى سليمان الحلبي بقتل الجنرال كليبر ، وأنه هو الذى حمل أيضا أحد المصريين من طلبة مدرسة الطب على طعن ناظر هـذه المدرسة ، فى أبى زعبل ، مرتين بالسكين . ولكن هـذه الحوادث وأشباهها ليس فيها مايستغرب ، فلقد جبل الناس فى أوقات الفتن والثورات العامة على الأفراط ومجاوزة الطور فى الافتيات والعـدوان . وما الثورات التى تتابعت بالقاهرة على عهد الحملة الفرنسية إلا أمثال رهيبة لما ترتكبه الأمم من الفظائع وتأتيه من العسف إذا ثار

ثائرها وتحرك غضبها . والواقع أن المصرى قد فطر ، فى الأحوال العادية ، على دعة الجانب ودماثة الخلق والنزوع الى الطاعة . وليس من الممكن ، وهو فى هذه الحالة ، أن يقصد ارتكاب جريمة تفضى الى إراقة الدماء أو يصر على أى جرم من هذا القبيل ، فانما تلك نزعته الطبيعية الى السكون والهوادة في معاملاته

٨٠ – الشغب والفتنة

إن ماذكرناه من انفطار الأمة المصرية على السكون والهدوء وحبها العيش فى ظلال الأمن والسلام يقعدان بها عن رفع لواء العصيان والخروج على أولياء الأمور. نعم إن الفلاحين ينزعون أحيانا الى الشغب واضرام نارالفتنة . ولكنهم لا يلبثون ان يفيئوا الى الطاعة ويخلدوا الى السكينة قبل أن تحول تلك النزعة فى نفوسهم من التردد الى اليقين . وهذا فضلا عن أنه لا يدور بخلد مصرى ولا يخالط مزاجه شيء من البواعث التى توطن العزم على الثورة كالتروى فى عواقبها والاحتياط لها بالوسائل العملية كالمثابرة والهمة واليقظة . إذ كثيرا مايحدث أن

تجمهر الفلاحون وتحتشد حشودهم وتثير التراب فى الهواء وتصيح قائلة : هلموا ! هلموا ! (يلا ! يلا !) فأذا حان وقت العمل لا يلبثون أن يسكن الروع قلوبهم وأن يخشوا عاقبة طيشهم وغرورهم . وربما كان الباعث لهم على ذلك يقينهم أنهم عزل من السلاح وأن لا خطة للعمل مرسومة عندهم ولا رئيس يشرف على تنفيذها

وقبل أن تتوثق أركان حكومة محمد على وتشتد مقاومها ، كانت الفتن والمشاغب متواترة الوقوع فى القاهرة . وكان رجال الدين يعززون جانبها بتأييدهم ويعضدونها باشتراكهم فيها من شيوخ وعلماء . والتعصب الدينى وحده هو الذى يستفز المصريين الى العصيان، كما يدل عليه ما لا يزال حاضرا فى الاذهان لقرب عهده من توصل الكذابين ، وفى مقدمتهم المهدى ، الى جمع شتات بعض الألوف من الفلاحين أيام الحملة الفرنسية لأغرائهم بجيوشنا وتحريضهم على النكاية برجالها

وفى سنة ١٨٢٤ احتدمت فى الوجه القبلى نار الثورة فالتهمت ما بين اسنا واسوان ، لاشتغال الحكومة بتكوين الجيش على النسق الجديد . وكان زعيمها ومذكى ضرامها شيخا

ممن يدعون أنهم مهبط الوحي الألهي . وكانت في تلك الأرجاء شرذمة من جنود الأورطة الأولى فتفرقوا أيدي سبا ولم يبق في الصفوف منهم إلاّ العدد الكافي لأخماد تلك الثورة التي لو حدث مثلها في بلد آخر لاتسع نطاقها وخيفت مغبتها

٨١ — تنفيذ أحكام الاعدام

اعتاد المجرمون المحكوم عليهم بالأعدام الرضى والتسليم بما ساقه اليهم القدر . وكل مايتذرعون به من وسائل الدفاع أثناء سوقهم الى ساحة الاعدام تكرارهم الجملة الآتية : « هذا ما أراده الله . هذا ماكتب في لوح القدر » . ولاعتقادهم بأن هناك قوة فوق الطبيعة تحركهم على مشيئتها وتسيرهم الى حيث تريد ، يتحملون بالصبر والسكون وعدم الاكتراث عاقبة خطيئتهم . وانك لتعتقد ، إذا رأيتهم ، أنهم ليسوا المقصودين بتنفيذ الحكم الذي سيطوى حياتهم طي السجل للكتاب

ولقد شهدت مراراً حوادث الأعدام ، فكنت أرى المحكوم عليهم يسيرون نحو آلة التنفيذ من غير اكتراث

وبدون أن تبدو على وجوههم علامات الانفعال أو الذعر ، بل ويتحدثون بسكون مع الحراس الذين يقودونهم إليها . أما جماهير الناس فقلما تسوقهم الرغبة إلى ذلك المكان لمشاهدة التنفيذ أو يتحلبون إليه من كل فج وحدب كما تفعل الجماهير عندنا كلما سيق مجرم إلى ساحة الأعدام

والعادة المألوفة أن يكون التنفيذ في الساحة التى تقام فيها الأسواق . فأذا سيق مجرم إلى هذا المكان فقلما ترى ممن اجتمعوا فيه من قبل للبيع والشراء اهتماماً بغير أعمالهم التى جاءوا من أجلها، إذ يعكفون على مساوماتهم وبيعهم وشرائهم بدون أن يولوا وجوههم شطر الرواية المحزنة التى تمثل على مقربة منهم . ويصعد المحكوم عليهم بالأعدام فى سلم آلة التنفيذ بغير تردد وبعد أن ينطقوا بالشهادتين يمدون عنقهم اما الى آخية حبل المشنقة وإما الى سنان سيف الجلاد ، بدون أن يبدو على وجوههم أثرما من آثار الخوف حتى ان المتفرس فيهم لايفرق بين حالتهم فى موقفهم أمام الموت وحالتهم العادية قبله

٨٢ — الانتحار

حوادث الانتحار فى مصر أندر من حوادث القتل لأن ذلك الوباء الأدبى لايفتك إلا بالجماعات التى انطفأ نور الأيمان من قلوبها ، ولا ينزل إلا حيث يصطدم العزاء الذى يبثه فى النفس الاعتقاد بالحياة الأخرى والاستسلام لقضاء الله وقدره ، بمذهب الشك الذى لم يذر من دعائم الأيمان سوى الاعتقاد بالحزن والألم . ولكن الدين الاسلامى يبث فى قلوب ذويه جذورا قوية من الأيمان لاتلبث أن تتأصل فيها. لذلك كانوا فى طليعة الذين يدركون حقيقة معنى الانقياد لطاعة الله والخضوع لأرادته الظاهر أثرها فى الحوادث كلها صغيرها وكبيرها . ولا شىء فى العالم يزعزع هذه العقيدة فى نفوسهم لأنهم يرون أن ماقدر عليهم مكتوب منذ الأزل فى اللوح المحفوظ ، وأن أوامر الله ونواهيه لامعقب عليها . فالمسلم ، لاستقرار هذه العقيدة فى نفسه ، من أسرع الناس الى التعزى والسلوان عما ينزل به من بوائق الدهر . فتراه ، إذا جاءه نبأ بخسارة مال أو فقدان مظهر ، يتلقى هذا النبأ بالصبر والسكون فلا يسقط في يده ولا يضطرب

جأشه ولا يختلج فؤاده . وهذه حالته أيضا إذا فقد أعز الأشياء عليه كزوجته أو أولاده أو سائر أفراد أسرته

ومهما تكن الدرجة التي يهبط اليها في سلم الهيئة الاجتماعية على أثر كارثة حاقت به ، لا يعتقد أن في هذا الهبوط مايحط من كرامته أو يقلل من شأنه . فلا غرو ، وهذه قوة اتكاله ووطود إيمانه ، أن يكون من اليأس وخور العزيمة مناط الثريا وأن لا يفكر أبدا في الانتحار ولا يخطر له مثل هذا الفعل على بال. ولو كان في وسعنا أن نذكر أمثلة على عكس هذا للزمنا أن نتحراها في طبقة المسلمين الذين انغمسوا في رذائل الحضارة الأوربية ومخازيها . ذلك لأن الشرقيين لا يأخذون في الغالب عن أخلاقنا ، كلما أختلطوا بنا ، سوى ما كان منها سيء العاقبة بعيدا عن الصواب

٨٣ — المبارزة

إن المبارزة ، وهي تلك العادة التي اتصلت بنا منذ عصر المروءة القديمة والتي تدعو اليها في أوربا عزة النفس والحاجة الى صون الكرامة والذود عن الشرف ، مجهولة عند الامم

الشرقيه . وبلغ من جهلهم بها أنه لاتوجد فى لغاتهم كلمات للدلالة على ذلك الشعور الكريم الذى ينزل عندنا في منزلة الأيمان الحقيقى ،بالرغم من أن المسلمين يتعلمون ضروب القتال ويواصلون الليل بالنهار في التدرب على استعمال السلاح . ولقد رأينا فيما سبق كيف انهم يتابعون بعضهم البعض على الخيل وبأيديهم الجريد يتراشقون به . ولكنهم لايناز لون عادة سوى المستظهرين بالعداوة لهم من أعداء دينهم أو وطنهم

الباب السابع

نظرة في العناصر الأخرى

من سكان مصر

١

العربان

قبائل العربان — شغف العربان بالصحراء — صفاتهم وطباعهم — قناعتهم — مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم — تربيتهم ونظامهم — حروبهم — حريتهم الدينية — تربيتهم العقلية — الأدلاء من العربان — سرقات العربان وقطعهم الطريق — مكافحة محمد على لهذه النزعة — تنظيم فرسان العربان على هيئة جيوش غير نظامية — فضائل العرب الرحل

١ — قبائل العربان

يطلق اسم العربان أو البدو على القبائل الرحالة العائشة فى الصحراء . وكانت القبائل التابعة لمصر أيام الحملة الفرنسية ستين قبيلة عدد أفرادها مائة الف نفس منهم ثمانيـة عشر ألفاً إلى عشرين ألف فارس . وهذا الأحصاء التقريبي لم يتغير منذ ذلك

الوقت ، إلا قليلا . ومن أشد تلك القبائل بأساً وأبعدها شهرة الهوارة والعبابدة والهنادى والهدندوه بالوجه القبلى ، والمعازة بمصر الوسطى والطرابين والقطاوية والكبابيش وأولاد على الخ بالوجه البحرى

٢ — شغف العربان بالصحراء

اخترقت الصحراء المترامية الأطراف إلى أبعد مدى مرات كثيرة فأدركت السر فى تعلق العربان بها ، واستكشفت سبب نظرهم الينا بعين الاحتقار ، نحن الذين كدستنا الحضارة فى آفاق ضيقة الحلقات . وقد بلغ ذاك التعلق وهذا الاحتقار من نفوسهم مبلغاً جعلهم لايطيقون سكنى الحضر إلا بعد معالجة طويلة لاعتيادها وتوطين النفس عليها

ولقد تعرفت بشيخ من أغنياء العربان كان لايميل بفطرته إلا إلى الصحراء ثم تغلب على هذا الميل باعتياده الأقامة فى الحاضرة حيث تسلم مقاليد الحكم على أحدى المقاطعات . ولقد طلب ، وهو فى مركزه هذا ، مصاهرة أحد مشائخ القبائل العربية فرفض طلبه بحجة أنه بتطوره بطور الحضارة وإيثاره

المعيشة فى المنازل المنجدة عليها فى بيوت الشعر ، وطلبه خصب العيش فى ظل الدعة والراحة والسكون ، فقد خشونة البداوة وضعفت فيه العصبية والبسالة فأصبح غير أهل لأن يختلط نسبه بنسبه

٣ — صفاتهم وطباعهم

احتفظ العرب الرحل بحسن شكلهم الأول وبساطته . فالناظر اليهم يخيل له أن نفوسهم لا تنفعل إلا بالعواطف السامية والأحساسات الشريفة ، وأن الفضائل العالية خلق فيهم وسجية . فمن محض الخطأ إذا تخيلناهم فى صفة المتوحشين وثوب الهمج وأسأنا الظن فيهم بذلك . نعم لا تخلو الحال من قبائل بدوية تدهورت فى الدرك الأسفل من حضيض الرذائل ، إذ جعلوا همهم اللصوصية والدعارة ، ولكنها لا تخالف فى ذلك شأن قبائل كثيرة اشتهرت بعراقة الأصل وإكرام النزيل وبسطة الكف . ومن أخص صفات البدوى ومميزاته ولعه بالحرية والاستقلال إلى حد يخيل معه للناظر أن لوائح هاتين الصفتين مرتسمتان فى وجهه . فلا يدهشك إذاً أن تراه مفاخراً على الدوام

بأصله ، معالياً الشعوب الأخرى بصراحة نسبه العربى الذى لم يعرف فيه الشوب وأنه ما رئم قط للمذلة. وما أجمل منظره ، إذا غشى مجلس عظيم أو ديوان سرى ، متدثراً بردائه ومتشحاً ببندقته ورافعاً رمحه بلا تعمل ولا معاناة خيلاء ، لا يرضخ للنظم المرعية فى الاجتماع ولا يأبه بالآداب المسنونة له ، فجسمه مستعص على الحركات التى يراد بها الاحترام وإظهار شعائر الخضوع . وإذا خاطب عظيما ولو كان سمو الوالى نفسه أو سمو ابراهيم باشا ،خاطبه بجرأة وسهولة وصراحة لا أثر فيها للتكاف ، مخاطبة النظير لنظيره . فأذا واجه سمو الوالى أو ابنه خاطبهما بالكاف قائلا : « كيف الحال يا محمداً علياً وكيف مزاجك يا إبراهيم » . وهذه سجيته دواماً في الأسئلة التى يروم بها فتح باب الكلام مع سيد مصر وصاحبها وأكبر قائد فى المملكة العثمانية كلها

٤ — قناعتهم

اشتهر البدو بشدة القناعة ، فقليل من لبن النياق وبعض التمر يكفيان الواحد منهم غذاء طول النهار . وهم لا يعولون على

أكل اللحوم إلا فى الأعياد والحفلات الكبيرة حيث يذبحون رؤوس الضأن الكبيرة أو الصغيرة ويشوونها على الطريقة التى كانت معروفة على عهد (هوميرس) الشاعر اليونانى . وغالباً ما يقع النظر على نسائهن وهن مشتغلات على متون الهجن ، بأدارة الرحى لطحن الحبوب واتخاذ الخبز من دقيقها عجنا ثم إنضاجاً على ألواح حديد ، يوقدون النار من تحتها كلما حطت القبيلة رحالها فى مكان . وهم فى الشراب أشد قناعة منهم فى الغذاء ، أما النبيذ فلا يشربونه أبداً وهكذا شأنهم في سائر الخمور . وبفضل تقشفهم في معيشتهم واعتدالهم فى طعامهم يقل فيهم المرضى ويزداد عدد المعمرين

٥ — مكارم أخلاقهم وجميل عاداتهم

المعيشة في الصحراء تصون الأخلاق من الدنس وتربأ بها عن المخازى ، فمكارم أخلاق العرب وجميل عاداتهم أمر لا يختلف فيه اثنان . وهم كغيرهم من مخلوقات الله تتأثر أفئدتهم بعوامل الغرام ، إلا أنهم يجهلون التسرى ويمقتون الزنا إلى حد أن الفتاة عندهم يستحيل على رب الحيلة اغواؤها . وذلك لأن احترام

الرابطة الزوجية والاحتفاظ بالشرف والكرامة أصبحا من غرائزهم وسجاياهم المخالطة لدمائهم . والذين يجرأون منهم على انتهاك الحرمات ويخالفون ما ألفته القبائل من العفة والنزاهة والطهر يعرضون حياتهم لخطر الموت . ومع شدة غيرتهم على الأعراض تراهم يمنحون نساءهم من الحريه أكثر مما يمنحه لهن غيرهم من المسلمين . فأنهن يبرزن سافرات الوجوه ، ولا يتنقبن إذا وقعت عليهن أنظار الرجال . ولما كانت تربيتهن تقرب من تربية الرجال ، فأنهن يتشبهن منذ الطفولة بعادات هؤلاء ويتخلقن بأخلاقهم

٦ — تربيتهم ونظامهم

إذا تجمع البدو فى طلب الكلأ ونزلوا ، جعلوا خيامهم على استقامة خط واحد . وهذه الخيام أو البيوت تصنع من الأوبار السوداء أو السمراء ، أو من جلود الماعز والجمال . وخيمة شيخهم أو زعيمهم تمتاز على ماسواها ببياض لونها . وتحتوى كل خيمة أسرة واحدة ، وتنقسم بفاصل من القماش الى قسمين ، أحدهما خاص بالنساء . وإذا كانت القبائل لاتستطيع المعيشة

متضامة إلى بعضها فأنها تنقسم إلى شعب متفرقة تسمي كل شعبة منها بالفريق وتتألف من أربعين إلى مائة خيمة . ويختار كل فريق شيخاً له من رؤساء الأسر وعظمائها . وتنتخب الفرق مجتمعة شيخاً كبيراً تجعله الرئيس الأعلى لها . وسلطة الشيوخ محدودة فى دائرة ضيقة جداً ، إذ فى الأمكان عزلهم من منصبهم بصوت الأغلبية التى أفضت بالرئاسة اليهم من قبل . على أنهم يحتفظون بحقوق وامتيازات لاينازعهم عليها أحد ،بعد اعتزالهم العمل فى المشيخة . ولكل قبيلة راية ترفع أمام خيمة شيخها ، وفيها يكرم مثوى الغرباء وتطرح الآراء وتدور المناقشات فى شؤون القبيلة لتقرير ما يتفق مع مصلحتها . وتحصل المفاوضات فى الصلح والحرب . دع أن شيوخ القبائل هم الذين يقودون التجريدات الحربية ويسوسون المقاتلة في ساحات الوغى

٧ — حدودها

لكل قبيلة نصيب من الصحراء وحدودها التى تنتهى اليها مراعيها الخصبة . ومفهوم أن من المتعذر تعيين هذه الحدود بالدقة فى أرض تنطمس معالمها بهبوب الرياح فى كل حين . فلا عجب

إذا نجمت المنازعات بين القبائل المتجاورة على حدود أراضيها وسرعان مايتحول الكلام فيها الى خصام فقتال بين الفريقين . وكثيراً ماتستمر الحروب بينها زمناً طويلا بل ربما لاتجد حداً تقف عنده . وربما كان الباعث على انحلال عقدة السلم وقوع الحيف بأحد الناس أو شكوى أحد العربان من سوء معاملته فيكون هذا السبب الفردى أو ذاك ، من بواعث التناحر بين الجماعات . وقد ألف البدو الصدق والشهامة فى حروبهم . فأنهم، قبل مفاتحة أعدائهم بالخصومة ، ينذرونهم بها ويطلبونهم إلى منازلتهم . وهم فى قتالهم يتبارون فى إظهار الشجاعة والأقدام . ونظامهم في القتال يلفت النظر ببساطته ويذكر بأساليب القتال في العصور الأولى . إذ يجعلون مصافهم للقتال على الترتيب الآتى : الصف الأول للشبان صفوة أهل القبيلة فى الفتوة والحماس وسرعة النجدة ، فأن هؤلاء المقاتلة الطامحين الى الظهور والشهرة يطلبون بعضهم البعض إلى المبارزة ويتلاقون مراراً فى ساحة النزال . أما الصف الثانى فخاص بأرباب الأسر الذين بلغوا سن الكهولة . ويقف خلفهم فى الصف الثالث ذوو الأسنان من الرجال والنساء . وحكمة وجود هاته النسوة فى

ساحة القتال واختلاطهن بالرجال أنهن يحثثن المقاتلة ويشجعنهم بالأغانى والطبول وارتجال الأناشيد الحربية . أما الفتيات المخطوبات للزواج فيستنهضن همم خطبائهن ويعدنهم بقرب الزواج مكافأة لهم على انتصارهم المأمول . وأما النساء المتزوجات والأمهات فيذكرن أزواجهن بالروابط المقدسة التى تربطهم بهن ويمثلن لهم حالة الأبناء والأسرات إذا لم يعودوا مكللين بغار الانتصار . وتحرض أجمل بنات القبيلة الشبان المحاربين واعدة إياهم جميعاً بأن تهب نفسها لمن يحرز منهم فى القتال أوفى قسط من المجد والفخار

٨ — حريتهم الدينية

يحمل أهل الحضر من العرب نيرين : نير الاستعباد السياسى ونير الاستعباد الدينى ، بخلاف أهل البادية الذين يجهلون النير الأول جهلا تاماً ويلمون بطرائق تحرير أنفسهم من النير الثانى وإلقائه عن أعناقهم . وغنى عن البيان أنهم مسلمون كغيرهم من أهل الأسلام، ولكن إسلاميتهم لاتزال على فطرتها الأولى من الصراحة والسذاجة ، إذ لم يدخلها شوب

التعاليم الدقيقة ومذاهب أهل الكلام ومختلف آراء الأئمة .لهذا تراهم يتنصلون بمهارة وحذق من تبعة مخالفاتهم لقواعد الدين ونصوص الشرع فيقولون مثلا : « إذا لم نؤد فرض الصلاة فلأن الماء ينقصنا للوضوء ، وإذا لم نتصدق فلأننا فقراء أحق بالزكاة من غيرنا ، وإذا لم نصم شهر رمضان فلأننا نصوم من الجوع طول السنة ، وإذا لم نحج إلى بيت الله الحرام فلأن بيت الله الحرام حيث يصلى الأنسان »

٩ - تربيتهم العقلية

لغة أهل البادية مبنية فى الغالب على التشبيه . وهم فى شعرهم يستعيرون تشبيهاتهم مما تقع عليه أنظارهم فيما حولهم كعيون الغزلان وسرعة الفرس وصبر الجمل وقناعته وفوائد الصحراء وصفاتها المميزة . وليس في أذهانهم أثر من العلوم ، بل أن السواد الأعظم من مشائخهم أميون لا يقرأون حرفاً ولا يكتبون ، ولكن مواهبهم العقلية بالغة أقصى مبلغ من الاتساع معززة الجانب بالمواهب الجثمانية التى تقويها الرياضة البدنية واستنشاق النسيم النقى من الشوائب

١٠ — السنيوره

أتيح لى مراراً البحث فى عادات البـدو وأخلاقهم خلال رحلاتى العـديدة الطويلة فى الصحراء . ومما عرض لى فيهـا من الحوادث الجديرة بالذكر الحادثة التى أسوقها فيما يلى الى القراء:

لما شرع الفرنسـيون فى الجلاء عن مصر ، هاجم البـدو التابعون لقبيلة الزعيم الشـهير المعروف بأبى قوره ، وهو الزعيم الذى طالما قاوم المماليـك ونافسهم على السـلطة حتى حصلت له السيادة على إقليم المنصورة ، حاميتهم فى هذه المدينة . وكان مقره قرية (ميت العامل) على مسافة ستة فراسخ من الجنوب الغربى لها . فلمـا احتدمت نار المعركة سبى العربان امرأة فرنسـية فى ريعان الشباب وأخذوها إلى زعيمهم الذى لم يلبث أن تزوج بها. ولقد اشتهر أمرها فى تلك الجهات وأطلق عليها اسم «السنيورة» لجمالهـا

وكثيراً ماذكر أمرها على مسمع منى فوددت التعرف عليها واعتزمت اللقاء بهـا . فلما كانت سنة ١٨٣٤ ذهبت الى مديرية الشرقية ومررت بالقرية التى قيل لى أنها تسكنها ونزلتُ

بدارها فأذا بها قصراً فسيح الجنبات قائماً بالقرب من مساكن العرب . وقد أحسن أحد أبنائها لقائى وأكرم مثواى . وما عرف أننى فرنسى الجنس حتى ذكر لى والدته وقال إنها كذلك. فأعربت له عن رغبتى في لقائها وكانت الذريعة الوحيدة الى ذلك مهنة الطب التى أقوم بها .فلماوصلت إلى خدرهاتلقتنى محيية باللغة الفرنسية ، ولكننى سرعان ماتبينت أنها إيطالية الجنس وعلمت منها فعلا أنها ولدت بمدينة البندقية ، وأن والدها كان تاجر قبعات ، اسمه بارتولى ،وأن والدتها كانت تسمي مرجريت ، وأن اسمها هي جوليا ،وأن العربان سبوها وهى خارجة من المنصورة إذ أركبوها جواداً وانطلقوا يطوون بها الفدافد والسباسب حتى بلغوا بها فى المساء داراً كبيرة التقت فيها برجل يغطيه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض ، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف والميل ما لا يوصف ، وأنه جردها من ثيابها الأوربية ليلبسها بدلا منها ثوباً شرقياً واسعاً ، ثم سلمها من الحلى والجواهر ماقيمته ستمائة كيس أى مايعدل مائة الف فرنك تقريباً ، وجعل فى خدمتها عدداً كبيراً من العبيد والجوارى . ذلك الرجل هو الزعيم (أبو قوره) الذى كان مشهوراً بالشوكة

والجاه الطويل ، ولكن هذا الالتفات وهـذا العطف كانا يضجرانها ، فكانت لاتكف عن البكاء وتعرب بالقول والاشارة والصياح عن رغبتها فى العودة إلى ذويها . ومع هـذا فلم ينقض أحد عشر شـهراً حتى رزقت غلاماً ، فهدأ شعورها الأمي نحو وليدها ثائرة التذمر والاستياء ولطف من أسرها فى هذا المكان فلم يسعها إلا احتماله والرضاء به

ولما مات زوجها وكانت توليه الحب الصادق وتعيش معـه فى بحبوحة الهناء والنعيم ، أكرهت على التزوج بأخيه فلم تجد منه ما كانت تلقيه فى أخيـه المرحوم من حسن الرعاية وجميـل العطف . وبعد انقضاء أربع سنوات فى هذه الحال ، توفى هـذا الزوج تاركا لها ابنة فى الثانية من عمرها تسمى (حفيظة) وجنيناً فى بطنها سمي بعد ميلاده بعلي . ومع أنهـا كانت لاتزال بعـد ميلاد هذا الابن تكابد من زوجها صنوف العسف والعنف، فأنها خسرت بموته خير معوان وأقوى سند لها فى الملمات . ذلك لأن الشره أغرى أقاربه بالاسـتفادة من ضـعفها على أثر وفاته ، فنصبوا المكائد ودسوا الدسائس التى توصلوا بها إلى اغتصاب الشطر الأكبر من ثروة هذه الأسرة التى كانت قد اعتورها

النقص بامتداد أيدى السلبة اليها

وكان منصور ابنها البكرى لا يزال فى مقتبل العمر وعاجزا عن الدفاع عن تراث أبيه . فأصابه غمّ شديد من رؤية تلك الثروة تحول من يده إلى أيدى الأغيار . ولم يلبث هذا الغم أن انقلب معه إلى جنون . أما أخوه علىّ ، فهو الآن عماد بيت أبيه وسنده الوحيد ، هذا البيت الذى كان فيما سبق رفيع العماد ومرموقاً من الرواد والقصاد ، إذ كان يملك زعيمه أربعاً وأربعين قرية وبضعة آلاف من الجمال وقطعاناً لاعداد لها من الأغنام وأكثر من خمسمائة عبد وجارية من الأرقاء، فلم يبق من هذه الثروة الطائلة إلا فضلات يسيرة تكاد لاتفى بقضاء حاجاتها ولا تكفي لأعالتها بما اعتادته من السعة والخصب والنعيم

ومنذ الأربعة والثلاثين عاماً التى قضتها السنيورة فى هذه الدار لم تبرحها قط ، بل لم تر رجلا من الأجانب سواى . ولقد أثار وجودى فى نفسها بواعث الانفعال والتأثر ، فتبينت من حالها أن عوامل الشوق إلى وطنها والرغبة فى استنشاق نسيم الحرية لم تنطفىء نارها بعد فى فؤادها . وعندما انصرفت من حضرتها كانت تشيعني بنظرات العطف والمودة . ولقد برحت

دارها وقلبي يحفز تأثراً بما رأيته وسمعته فى هذه المقابلة ، ولا سيما بما أفهمتنيه من أنها لم يصل اليها منذ وقعت سبية فى أيدى العربان ، خبر ما عن أسرتها ولا عن زوجها الضابط (ديڤو) الذي لاتدرى أقتل في معركة المنصورة أم بقى على قيد الحياة

ولقيت فى دار السنيورة كل مايؤثر عن العرب فى ضيافتهم للأجانب من مظاهر الحفاوة والأكرام ، فلقد تناولت الطعام فيها مرتين على مائدة كبيرة مستديرة كانوا يضعون فى وسطها ، عند كل وجبة ، خروفاً بأكمله ويصفون على حافتها كثيراً من الصحاف الصغيرة ، فينتابها أولاً أفراد الأسرة والأعيان من أهل القرية ، وكنا نأكل جلوساً على السجاجيد ونمزق اللحم بأصابعنا وبها كنا نتناول الأرز مطبوخاً على الطريقة العربية . وبعد أن نأكل كلّ على قدر همته ، ينتاب المائدة بعدنا غيرنا من المدعوين ثم يحيط بها بعدهم الخدم والفقراء . ولقد أحصيت عدد هؤلاء فأذا بهم يبلغون الستين

ومما ضاعف دهشتي احتفاء رب الدار بالآكلين وملاطفته لهم وأنسه بهم إلى نهاية الطعام . وكان يبدو على وجوه أولئك الفقراء الذين يقريهم رب الدار كل ليلة على هـذا المثال ، أثر

السرور من تلك الملاطفة التى تمحو فى نفوسهم أثر الفوارق بينهم وسائر الضيوف . خصوصاً وأنهم يعتقدون أن مايجدونه من حسن القرى لم يكن الباعث عليه الرياء وحب الظهور والخيلاء، لأن أهل البيت يكرمون زائريهم فى كل يوم على هذا المثال السابق

١١ — العربان الأدلاء

يعتمد السياح والمسافرون الذين يقصدون اختراق الصحراء على البدو فى الاهتداء والوصول الى مقاصدهم . ويسترشد العربان في قطع الطريق الذى يسيرون فيه ويقدرون أبعاد ما اجتاوزه وما يتبقي عليهم اجتيازه منه تقديرا دقيقا مبنيا على صدق النظر . والأدلاء من قبيلة بيزار (؟) أهدى من غيرهم فى مسالك الصحارى الشرقية الى جبل طورسيناء أما قبيلة أولاد على فمنها الأدلاء العارفون بأسرار صحراء ليبية وهكذا قبيلة العبابدة بالنسبة لبلاد النوبة وقبيلة العوازم بالنسبة للصحارى الممتدة بين النيل والبحر الأحمر فيما بين القصير وبرانيس القديمة ، وبالنظر الى حذقهم فى الصيد والقنص ترى أنهم من أنفع العربان للباحثين في الشؤون

الطبيعية الخاصة بالمواليد الثلاثة

١٢ — سرقات العربان وقطعهم الطريق

إن العربان كقطعة النقد التي اذا سرّك منها منظر أحد وجهيها ساءك منظر الوجه الآخر . لأن محامد الخلال ومحاسن الخصال لاتوجد، عند جميع القبائل على السواء، خالية من الشوب . وربما لم يكن ماوصفتهم به من كريم الشيم متوافراً فيها جميعا فأن منها قبائل لاتستطيع مقاومة ميلها الفطرى إلى النهب والسلب .فكان اعتيادها قطع الطريق على السابلة واعتقادها أن الحكومة لن تنزل بها العقاب على سوء فعلها ،من بواعث خوف المسافرين على حياتهم . ومع ماتقدم فليس من العدل تعليل تلك النزعة فى العربان الى ارتكاب الشرور بسوء الغرائز ورداءة الطبائع وفساد النفس ، فأن أهل البادية والمعتصمين بأوعار الجبال من شعوب العربان وقبائلها يرون أنهم في حرب لاتخمد ضرامها مع أهل الحضر ، فهم يبيحون لانفسهم كل مايبيح العدو لنفسه مع عدوه من ضروب التعدى والسلب والنهب . وكان هذا على الدوام شأنهم معهم إذ يرون أن مايسلبونهم إياه إنما هو من

من الغنائم الشرعية والفيوء التى لم يحرمها الله فى كتابه

وغنى عن البيان أن العربان أزعجوا طويلا جيش الحملة الفرنسية بمصر بما تراءى للجنرال بونابرته معه أن يشكل لقتالهم وكبح جماحهم فرقة من الهجانة كان كل هجين فيها يحمل رجلين. ومما ذكره نابليون فى مذكراته عن ذلك ما يأتى : « إذا كان موقع مصر الغريب ، وهى البلد الذى يستمد ثروته من اتساع نطاق الفيضان يقتضى حسن الأدارة لانتظام شؤونها واستقامة أحوالها ، فأن ضرورة كبح جماح عشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً من اللصوص المعتصمين بفسيح الصحراء حيث لاتنالهم ضربات العدل تدعو إلى أن تكون تلك الأدارة من مضاء العزيمة ومتانة القوة بحيث توقع رهبتها فى افئدة أولئك الأشرار فلا يعيثون فساداً فى تلك الأقطار »

ولقد بلغت بهم الجرأة ، فى العهد الأخير ، إلى التعدى على قرى الفلاحين بدون أن يطاردهم أحد أو ينكل بهم ، عقاباً لهم على سوء فعلهم . ولكن ما كاد الفرنسيون يحتلون القطر المصرى حتى كسروا شكيمتهم وقبضوا على ناصيتهم ، فلم يتمادوا فى باطلهم . ولقد حذا محمد علىّ حذوهم فى معاملته لهم فردهم ،

بأدارته الحازمة ، عن بغيهم وألزمهم الوقوف عنـد أفقهم

١٣ — مطاردة محمد على لهم

فى الوقت الذى تسلم محمد على فيه زمام مصر ،كان العربان قد بلغوا من الجبروت وشدة البأس النهاية . فقد كانوا يفرضون الأتاوات على سكان مصر ويضربون الفدية لا يزعهم عن ذلك وازع . بل كان لا يصـدهم أحد عن الزحف على مدينة القاهرة ودخولها دخول الفاتح لسبي النساء وخطف الأطفال ونهب الأموال . وكان لا يجرأ أحد على زيارة الأهرام بغير رضائهم وأمرهم . وكانت القوافل التى تجتـاز برزخ السويس تدفع لهم الفرض الفادحة من المال

فلما وقف محمـد علىّ على حقيقة هـذه الحال ، قرر أن يمد رواق سلطته المطلقة على الصحارى كما نشر لواها على الأرياف ، مقتدياً فى ذلك (بسكست كنت) الذى يؤثر عنه قوله : « من أحب الأمور الىّ أن يستطيع الناس فى مملـكتى حمل أموالهم فى أيديهم وترك أبوابهم مفتوحة على أعقابها طول الليل بدون أن يتعرض لهم أحد بأذى أو يسطو عليهم فى مأمنهم » . ولعل

الوالى ، حينما تسلم زمام الأمر ، جرى فى خاطره ماينطبق على قول ذلك الملك ، فهمّ بالعمل على تحقيقه إذ سلك مع العربان مسلك المهادن المسالم ، فعقد الاتفاقيات مع قبائلهم . ولكنهم لم يعتموا أن هتكوا ستارها وخاسوا بعهودهم غير مبالين ولا هيابين . وأيقن محمد على لهذا السبب أن لامناص له من الاعتماد على القوة فى قمعهم وتأديبهم فعول على قتالهم وسير لمطاردتهم فرقاً من الفرسان المتحركة انطلقت تناوشهم وتأخذ الآفاق عليهم وتسد السبل ،حتى اضطرتهم إلى التماس الصلح واستمناح العفو . ومنذ هذا الوقت ثابوا إلى الطاعة لوالى مصر وأقسموا بالولاء له . ولقد اشترط فى عقد الصلح معهم أن يسكن كبار زعمائهم وشيوخهم مدينة القاهرة ليكونوا رهناً عنده على طاعتهم وضمانة لوفائهم بعهودهم ، ولتقع على عواهنهم تبعة ما يرتكبه رجالهم من الجرائم ضد النظام والأمن . وزاد على ذلك أن أجرى عليهم الارزاق والمرتبات لمعاشهم

وفي رأيي أن هذه الطريقة التى ابتكرها محمد على فى معاملة العربان ينبغى تطبيق مثلها على قبائل العربان فى بلاد الجزائر الملحقة بأملاكنا ، فأنها خير وسيلة لكبح جماح أمة قال

البحاثة الكاتب (بلانكى) عنها : « أنها لاتفهم معنى العقاب إلا إذا برز لها محسوساً فى صورة الضرب بالسوط أو إعدام الحياة»

١٤ — تنظيم جيوش فرسان العرب بهيئة جيوش غير نظامية .

وبعد مضى زمن من تقرير أحوال العربان على النمط المتقدم، عرض محمد على عليهم تشكيل جيوش منهم للعمل فى جيشه واقترح أن يدفع لهم الأجور فى مقابل خدمتهم، على شرط أن يأتى كل منهم بفرسه وبندقته . ولقد أفادت هذه الفرق المساعدة محمداً علياً فوائد جليلة إذ اشتركت فى حروبه بالسودان وسنار وجزيرة العرب وبلاد الشام كافة . وكانت منزلتهم من الجيش ، من الوجهة العسكرية ، كمنزلة القوزاق غير المنتظمين من بعض الجيوش الأوربية . وكان عليهم القيام بمهمة الاستطلاع أثناء زحف الجيوش ومطاردة العدو أثناء الهزيمة أو مناوشته ومماكسته أثناء انسحابه . وهم من أصلح مايكون لأداء هذه الأجرياء الحربية

ولا يزال عالقاً بالأذهان أن العربان هم الذين أسروا السر عسكر رشيد باشا قائد قواد الجيش العثمانى فى معركة قونيا

خلال الحملة الأولى على بلاد الشام

١٥ — فضائل العرب الرحل

مما لاريب فيه أن محمداً علياتوخى مع العربان أصوب خطط السياسة وأحكمها ، وجاء من ذلك بما لا يستطيع غيره أن يجيء به لاتقاء شرهم . ولقد عقد على ، بك وهو أحد أمراء المماليك الذى أستقل زمنا ما بالقطر المصرى فى النصف الأخير من القرن الماضى ، النية على إبادة العربان جميعاً للتخلص من شرّهم . وشرع فعلا في تنفيذها ، إذ نكل ببعض القبائل وقضى عليها واضطر غيرها الى التراجع فى الصحراء فرارا من المجزرة . وكان هذا العمل منافيا بلا ريب لمقتضى الحكمة السياسية ومضادا للطبيعة الانسانية ، فلا غرو إذا عاد بالوبال والشر على المماليك أنفسهم . وإذا قلنا إنه ما كان لعلى بك أن يعامل تلك القبائل بمثل ما عاملها به من القسوة والقهر ، فما ذلك إلا لما هو ثابت ومستقر فى الأخلاد من فائدة وجودهم . فأنه إذا صح لنا أن نقول إن الجمال سفن الصحراء ، فمن الحق والعدل أن نقول أيضا إن العربان رُبانو هذه السفن وقادتها في ذلك الأوقيانوس

الأرض الذى لا أفق له . فالعربان هم الذين يسهل عليهم دون غيرهم اجتياز تلك الفلوات الرملية المترامية الأطراف الى أقصى مدى والخالية من السكان والكائنات الحية ، وأنهم هم الذين يقدرون دون غيرهم أن يوثقوا عرى المواصلات السريعة بين البلاد التى على حفافها . فالاحتفاظ بهم، وذلك مبلغ أثرهم فى إفادة الأنسانية، يعود عليها بأجل المزايا . واذا كان هنالك مايدعو الى اتخاذ شيء من الوسائل لقمع شرورهم وصد طغيانهم فلا يجوز أن يتعدى حدود التهذيب والتأديب ، لتتم الاستفادة بالمزايا المتوافرة فيهم والتى لايجاريهم فيها مجار من غيرهم

ذلك ما كان ينبغى أن يعامل به العربان لدفع شرهم والانتفاع بمزاياهم وهو ماقام به محمد علىّ على خير ما كان يريده ويتمناه

٢

العثمانلية

أتراك مصر — صفاتهم النفسية — أزدهاؤهم بأنفسهم وكبرياؤهم — شعور الاتراك نحو الأوروبيين — الأسلامبولية — أتراك أوربا والألبانيون والعثمانيون — الاتراك الأسيويون والمماليك

١٦ — أتراك مصر

العثمانلية أجانب عن مصر . وهم يفدون عليها من أنحاء المملكة العثمانية كافة ، يجذبهم اليها فى الغالب اشتهار محمد على بمكارم الأخلاق بين مسلمي الأرض قاطبة .

ويرى الأتراك أنفسهم أنهم يؤلفون فى مصر طبقة ممتازة، أى طبقة الظافرين الفاتحين . وازدهاؤهم شديد بالفارق الذى يتخيلونه فاصلا بينهم والعناصر العربية . لذلك تراهم لا يرتبطون مع المصريين بصلة مبنية على قاعدة المساواة ، ولا يلتحمون معهم بلحمة المصاهرة ، إلا فى النادر الذى لا حكم له . والذين يشغلون منهم المراتب الصغيرة والدرجات الواطئة هم الذين يتحرون مصاهرة المصريين ، وإنما يشترطون فيها أن تكون مع الأسر الوطنية

الممتازة بمركزها فى الهيئة الاجتماعية ، أو المعروفة بسعة الثروة والجاه ، وفى المدن دون الأرياف

ثم إن العثمانلية يترفعون عن تعلم اللغة العربية ، إذ يعتبرونها لغة الأمة المغلوبة على أمرها، ويرون أنهم من سمو المكانة بحيث لايليق بهم علمها ، ناسين أو متناسين أن بها شيدت آثار جليلة فى الآداب اللغوية ستظل باقية أبد الدهر ، وأنهم قد استعاروا منها ثلث كلمات لغتهم التى يتحدثون ويتفاهمون بها ، وأن اللغة العربية هى التى تنزل بها القرآن وهو كتاب المسلمين طراً وفيهم الأتراك. وإذاكان الأتراك لايظهرون نحو المصريين الميل والعطف ، فأن هؤلاء يعاملونهم بمثل معاملتهم ، إذ من النادر أن تجد بينهم من يعرف كلمة واحدة من اللغة التركية

١٧ صفاتهم النفسية

من الحقائق المقررة أن للعثمانليين أخلاقا وعادات وطباعا مغايرة كل المغايرة لما يقابلها عند المصريين . أما صفاتهم النفسية فمن الصفات التى تتصف بها الطبقات الشريفة الراقية. فمن أخص صفات العثمانلى الحزم والثبات والصلابة والمثابرة

والتحفظ وبعد النظر فى المستقبل . وطالما لاتعترضه الوساوس الناشئة عن التنطع فى الدين ، فأنه يمتاز بسلامة القلب وسلاسة الخلق وبالشهامة والمروءة فى صلاته الاجتماعية . والناظر اليه يخيل له أن آدابه السامية غريزة فيه . وهو شديد الشعور بكرامة الذات . ومع أنه لايفوق المصرى فى حدة ذكائه وصفاء ذهنه، فأنه يسمو عليه في العلم بأساليب التسلط والحكم والأدارة

١٨ — ازدهاؤهم بانفسهم وصلفهم

هذه الصفة من صفاتهم النفسية منبثة فيهم انبثاثاً يكاد يكون نقيصة ورذيلة . فأن الأتراك متكبرون إلى أقصى حد . ومن مظاهر كبريائهم وصلفهم أنهم لايترددون في أمر ما ، ولا يتراجعون عن انجاز ما يعنّ لهم من عمل ، ويعتقدون فى أنفسهم القدرة على القيام بجميع الأعمال على حد سواء . وهذا الصلف البالغ من مدادفيهم إلى الحد الأقصى ، كان من أقوى أسباب سقوط الدولة التركية ، لأننا طالما رأينا الوصوليين الذين لا يعرف لهم أصل ولا فرع قد ترقوا فى هذه الدولة وبلغوا من مراتبها إلى الدرجة العليا لمجرد عطف السلطان عليهم . وبما أظهروه من

دلائل العجز في المناصب الخطيرة التى أسندت اليهم ، أوردوا الحكومة العثمانية شر الموارد وأوقفوها على شفا جرف هار من هاوية الهلاك

يكون أحدهم بالأمس خادما لخادم ، فاذا هو اليوم قائداً لجيش عرم . وما هى إلا لفتة من لفتات المولى المعظم ،فى ساعة من ساعات رضائه ، حتى يصير فى الغد أميرا للبحر أو فى منصب قبطان باشا . فمجرد هوى السلطان ومطلق إرادته يغنيانه من شهادة الفضل تليداً أو طارفاً ، أو من تزكية العلم معقولا كان أو منقولا ، أو من الفوق على الأقران بالأخصاء فى فرع من فروع المعلومات البشرية . وبالجملة فتلك الارادة ، إذا انصرفت إليه أو رمقته بعين عنايتها ،كانت بمثابة الشهادة له بالكفاءة التى لاتبارى فى علم كل شيء . ومن مدهشات الأمور أن يتجرد المحسوب الذى يؤاتيه الحظ بمثل هذه السعادة الفجائية ، من مزية الاعتراف بعدم كفاءته . فأنه سواء أكان قائد الجيش أم أمير الاسطول ، يعتقد أنه القابض دواماً على ناصية الفوز والمتصرف فى أطوار الانتصار

وإذا كان إدراك الأتراك وفطنتهم قد بلغ الفساد منهما

هـذا المبلغ ، فمن أين لهم أن يتمالكوا أنفسـهم عن التـدفع والتـدهور مع دولتهم على المنحدر السريع الذى زلت فيـه أقدامهم ، نحو مهواة الفناء والهلاك ؟

ومما لا بد لنا من الاعتراف به فى هذا المقام ، بالرغم مما أوردناه من عيوب الأتراك ونقائصهم، أنهم أقل من العرب طمعاً فى عرض الدنيا وحرصاً على حطامها الفانى . لذا يمكننا القول بأنهم كرماء وأنهم يذهبون فى الكرم إلى حد الإسراف وأنهم مولعون بالسعة فى النفقة والأخذ بمذاهب الترف والنعيم فى الحيـاة

وبدهيّ أن هذا الميل الطبيعى يسوق أصحاب المناصب فى الحكومة الى ارتكاب الرشوة ، ليستطيعوا قضاء مطالب النفس من وسائل البذخ والعيش فى ظل الهناء والسعادة

ولقد قلت إن كرامة النفس غريزة فيهم ، وأقول الآن إن من أخص صفاتهم وأوجبها للعجب ، مايجدونه من السهولة كلما أرادوا اتخاذ الأصوات أو الأوضاع التى تلقي فى يقـين السامع أو الناظر معنى العظمة والأبهة والجلال . وهم من الثقة بنفوسهم والاعتـداد بذاتيتهم بحيث إذا فجأهم الحظ بمال أو منصب ، لا

تعتريهم دهشة ولا يأخذهم من ذلك ما يحمل الناظر على الحكم بأنهم دونها. ثم هم ينتقلون بالسهولة التامة من صوت الجبروت وأوضاع العظمة والعزة، إلى المل من الطرائق التى يلجئهم الى اتباعها حب التزلف إلى الذين يسمون عليهم فى المراتب ورفعة الشأن. وكثيراً ماتقضى فجأة هذا التنقل الى التناقض، فبينما ترى كبار الضباط يتظاهرون أمام الوزير بالطاعة والانقياد ويؤدون الى مقامه اشارات الاحترام المقرونة بمظاهر الاتضاع، إذا بهم متى برحوا ديوان هذا الوزير وغشوا مجلساً أو مكانا اجتمع فيه أناس أحط منهم درجة فى سلم الاجتماع، قد رفعوا عقيرتهم، وقوّموا من منحنى صالبهم، وأكسبوا سحنتهم وحركاتهم وأوضاع أجسامهم سمات العزة وإباء الضيم. ومن ثم ترى ذاك الرقيق الذى رأيناه محتقراً مرذولا وقد صار فى لحظة واحدة مولى عظيماً يتوخى فى حركاته وإشاراته الصفات الارستقراطية المبنية على النهي والأمر

١٩ — شعور الاتراك نحو الاوربيين

للعثمانليين فى حكمهم على الاوربيين أفكار مستغربة

ومذاهب لامثيل لها . فهم يعتقدون مثلا أننا اذا أشهرنا الحرب عليهم فانما نشهرها على ديانتهم، وأن الغرض الذى نرمى اليه هو إزالة معالمها من عالم الوجود ، وأننا إذا كنا لانستولى على بلادهم فما هو إلا لضعف جانبنا وفتور عزيمتنا. ولطالما عانيت الكثير من المشاق فى تفهيم بعضهم مانحن عليه من التسامح الدينى وأن تفاوت وجهات النظر فى السياسة كان السياج الوحيد الذى وقى كيان الدولة العثمانية من خطر الزوال حتى الآن .وقليل من يستطيع منهم تكوين فكرة واضحة عن مركز تركيا حيال أوربا ، كأنهم لايذكرون شيئا من فشل الدولة العثمانية المتكرر فى العهد الأخير أثناء حروبها مع الروسيا . وأعرف من بينهم فريقا لا يتزعزع يقينه فى أن أوربا تدفع الجزية ، وهى صاغرة ، الى السلطان المعظم

نعم إن الأتراك يضطرون ، فى مسائل كثيرة ، إلى الاعتراف بتفوّق الأوربيين عليهم،ولكنهم لايكفون عن النظر الى هؤلاء بعين العطف الممزوج بالاحتقار . وغنى عن البيان أنه مادامت عقيدتهم الدينية متأصلة فى نفوسهم، فلن نكون فى نظرهم إلا كفاراً مشركين (جاور) ونذكر بهذه المناسبة أسلوبهم

في استقبال الأوربي من ذوى المكانة والنفوذ ، فأنه مما يؤيد الرأى الذى أسلفناه . وبيان ذلك أنهم ، مع استقبالهم إياه بشيء من مظاهر الأدب والاحترام التى كثيراً ماينخدع بها الجاهلون بحقيقة العادات المرعية فى المراسم الشرقية ، لايقومون إجلالا له عند دخوله بهو الاستقبال. وغاية الأمر أنهم يتحركون ، وهم فى مكانهم ، حركة خفيفة . فأذا كانوا ممن يحبون أن لايتهمهم أحد فى أدبهم فلا يكون هذا عادة إلا إذا علموا أن زائرهم الأوربى من أفاضل الرجال وأعاظمهم الجديرين بالاحتفاء والأجلال،إذ يكلفون خدمهم عندئذ بأنبائهم بوصول هذا الذات. فأذاماوافاهم النبأ على لسانهم قاموا واقفين قبل دخوله حتى لا يظهر له أن قيامهم كان من أجله . وإن ننس لاننس أخبار الخلاف الذى ثار ثائره فى هذه المسألة بين سفراء الدول والباب العالى ، فقد كانت العادة أن يحتاط الصدر الأعظم لمقابلاتهم بأن يدخل معهم بهو الاستقبال فى آن واحد ، حتى لا يتكلف القيام خصيصاً لهم إذا دخلوا عليه وهو فيه .

وفى ظروف كثيرة قامت الأدلة على هذا الصلف المستمد من التعصب الديني الذميم . وآخر دليل منها ماحدث ، منذ زمن

قريب فى الديار المصرية ، من رفض أحد جهلاء الضباط المتغشمرين ، وهو برتبة أميرالاى ، المرور بألايه على مشهد من الدبق (دى راجوز) الذى دعاه سمو الوالى الى شهود عرض جزء من الجيش أمامه

أما سمو محمد على ، فقد ربأ بنفسه عن الانغماس في هذه الأوهام الفاسدة وسما فوق خرافات العوام والمتعصبين ، إذ أقام الدليل القاطع على رجاحة عقله وحسن تسامحه وجم أدبه . فانه يتلقي الأجانب دواما بما جبل عليه من الأنس والرقة وحسن التعهد ، ولا يكف أبدا عن ضرب الأمثال لضباطه وحضهم على الاقتداء به فى حسن معاملتهم إياهم وسلوكهم معهم بما يقتضيه الأدب وواجب المجاملة . ولطالما تعرض بسبب ذلك للتهم التى رماه بها أفراد رعيته ، يتهمونه فيها بقلة الأيمان ، فكان يغتنم هذه الفرص ليشرح لهم تفوق الأوروبيين على الوطنيين في العلوم والمعارف ويتخذ الوسائل لحمل هؤلاء على احترامهم وإجلالهم . وفى وسعى أن أذكر فى هذا المقام طائفة من الحكايات الغريبة في هذا الموضوع ، ولكننى اجتزىء منها بحكاية واحدة تكفى لأثبات ماذكرته الآن

جاء بعض ذوى الحيثيات من الأجانب يوماً، لزيارة الوالى فتلقاهم سموه فى الديوان . وما استقر بهم المقام ، حتى أمر محمد على بأحضار القهوة . فما هي إلا برهة حتى تقدم الأعوان المكلفون بها لتوزيعها عليهم ، فكانوا يقدمونها بأيديهم اليسرى. ولم يلتفت الزائرون الى هـذا الأمر ولا فطنوا للسبب الباعث عليه ، جهلا منهم بتفاصيل الآداب المرعية فى الشرق . والذين فطنوا منهم للأمر ، لم يذهب سوء الظن بهم إلى الحـكم بما فى تقديم القهوة على هذا الوجه من سوء الأدب وقلة الاكتراث بالضيوف. إذ لايخفى أن المسلمين يرون فى اليد اليسرى أنهـا خلقت للدنس ، فهم لايسـتعملونها إلا فى الأعمال التى يصـح وصفها بهذا الوصف . وما كاد الزائرون ينصرفون من حضرة الوالى الذى لم تفته ملاحظة ما أتاه خدمـه من سوء الأدب فى حق زائريه ، حتى استدعاهم اليه . وبعد أن بالغ في تأنيبهم أمرهم بلبس الثياب البيضاء والسفر فوراً الى مكة ليكونوا ضمن خدم الـكعبة . ثم قال لهم : « إذا بلغ بكم التعصب الذميم الى حد تعمد سوء الأدب مع أناس يشرفنى لقاؤهم والاجتماع بهم ، فأولى لـكم أن تقطنوا المدينة التى لايوجـد بها أوروبى واحـد

تسوءكم رؤيته والتى لاتستطيعون أن تعرضونى فيها الى الخجل من قبيح فعالكم وسوء اخلاقكم »

٢٠ — الاسلامبولية وأتراك أوربا والارنؤود والعثمانيون والاسيويون والمماليك

إن الخلال التى استدللت عليها بالحادثة السابقة غير شائعة بدرجة واحدة بين العثمانلية . بل أن هنالك فوارق تترتب على اختلاف أنحاء السلطنة العثمانية التى توافدوا منها على مصر

فالاسلامبولية مثلا جبلوا على البشاشه واللطف ، وربما بالغوا فيهما إلى حد التصنع . وكثيرا مايقولون عن غيرهم من الأتراك أنهم ريفيون وأنهم لايجارونهم فى سمو الأدب ورقة الأخلاق وسلامة الذوق وغيرها من الصفات التى يمتاز بها أهل العواصم والحواضر على أهل الأرياف والبوادى . ومنهم من يميلون إلى الازدهاء بأنفسهم ويتطوحون فى الغرور إلى حد يجر اليهم السخرية والاستهزاء . أما أتراك أوربا واليونان ومقدونيا ، فلاعتيادهم مخالطة الأوربيين فقدوا بعض سماتهم الأصلية المميزه لهم على غيرهم ، حتى أن منهم من يجهلون اللغة

التركية ولا يتكلمون إلا بلغة الوسط الذى يعيشون فيه

وإذا نظرنا إلى الأرنؤود من هذا الوجه فلا نلبث أن نرى أنهم جنس مستقل بذاته وذرية لاتمت إلى الأتراك بحبل القرابة . وهم مشهورون بالبسالة والولع بالقتال ، وهذا هو سبب إقبالهم على التطوع فى خدمة الولاة . وإذا انتظموا في سلك الجيش تفوقوا على غيرهم فى الصفات المطلوبة من الجندى . وإنما عيبهم الوحيد العناد والنزوع إلى الثورة والشغب ولهم حرص شديد على المال وغرام بجمعه الى حد يمكن القول معه بأن جميع حوادث الاضطراب ترجع غالباً الى النزاع على المال . وسواد الأتراك الموجودين بمصر من أصل أرنؤودى أو أوربى . أما الأتراك الأسيويون فقد احتفظوا بالصفات المميزة لجنسهم إذ لم يطرأ عليهم تغيير كالذى ذكرناه

أما المماليك فيحتفظون بأصولهم بدليل مايبدو عليهم من سماتها الخاصة بها . وهذا بالرغم من تطبعهم بالعادات والأخلاق التى يقتضيها نوع التربية المعطاة لهم . ومع أن الكثيرين منهم مسيحيو الأصل ، وإنما اعتنقوا الأسلام فى نعومة أظفارهم ، فأن التعصب الديني تأصل فى نفوسهم إلى حد جعلهم من ألد

خصوم الديانة المسيحيه . وهم ، بوجه عام ، لايمتازون بشيء من الذكاء والعقل . وكل مايميزهم عن غيرهم ، ويعتبر الصفة الخاصة بهم والفطرة التي فطروا عليها دون غيرهم ، التصلب والعناد . وأعرف منهم فريقا لا أرتاب في سمو مكانتهم من العقل ونباهة الذكر . وفى تاريخ الدور الخطير الذى قاموا بتمثيله على مرسح الديار المصرية إلى أوائل هذا القرن أمثله لاعداد لها على خيانتهم وغدرهم ، فالأمانةلم تكن إذاً من الفضائل الشائعة بينهم . وليس هذا مما يستغرب إذا نظرنا الى أصل نشأتهم ، وعلمنا أنهم فى طفوليتهم الأولى حرموا لذة الحب العائلى ولم يتذوقوا لها طعما ، وانتقلوا بغتة من بيئاتهم التى نشأوا فيها إلى وسط اجتماعى لا تلحمهم بآله لحمة قرابة ولا يعطف عليهم إحساس الشفقة الوالدية . فهذا الحرمان محا من أفئدتهم العواطف الطاهرة والخلال الكريمة والصفات التى يحول دون انبثاثها فيهم شبوبهم ، منذ المهد ، فى ضيق اليتم وذل الاغتراب

ولم أستطع ، فى هذه النبذة الموجزة ، أن أذكر من طباع العثمانليين إلا البارز المشهود . وليس هو في الحقيقة مما يجوز فيه الأطلاق ، فأن بينهم كثيرين اكتسبوا بتأثير التربيـة القويمة

والعلم الصحيح ، منذ جلس محمد عليّ على أريكة ولاية مصر ، من الآداب العاليـة ماجعلهم أهلا للاجلال والتوقير ، نخص منهم بالذكر جميع أفراد الأسرة المحمدية العلوية وأكابر رجال معيتها

٣

الاقباط

نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الاقباط — طباع الاقباط وأخلاقهم — ملابسهم — عقيدتهم الدينية — كنائسهم — حجهم الي بيت المقدس — اكليروسهم — الزواج وتشييع الجنازات — صناعات الاقباط وحرفهم

٢١ — نتائج فتح المسلمين لمصر وتأثيرها في حالة الاقباط

الاقباط أقدم سكان القطر المصرى والاختلاف طفيف بينهم والعرب الذين يعيشون ، منذ الفتح الاسلامي ، مختلطين بهم . وأغلب هؤلاء العرب سلالة المصريين الذين اعتنقوا الدين الاسلامى ، على تعاقب الأجيال . ولقد تأثرت طباع الأقباط بما ظلوا يعانونه من الاضطهاد والظلم مدة اثني عشر قرناً . وغنى عن البيان انهم ، حينما نادوا بالمسلمين لاستنقاذهم من ربقة الحكم اليونانى والتنكيل بدولة الروم لما بينها والمصريين

من الاختلافات الدينية ، كانوا بحيث لايقدرون عواقب هذه الخيانة المخزية وسوء تأثيرها فى مستقبلهم . فلقد ظنوا أنهم يحصلون بمعاهدة يبرمونها معهم ، على كثير من الضمانات والحقوق والمزايا . ولكن ما كاد فاتحو مصر يستولون عليها ويستتب لهم الأمر فيها حتى نقضوا عهدهم وأخلفوا مع الاقباط وعدهم وأبهظوا عواهنهم بنير مضاعف من السياسة والدين . فكان ماحاق بهم من ذلك، جزاء إيثارهم أعداء المسيحية على أبناء دينهم ، من أروام القسطنطينية ، فى تولى أمورهم . ولقد دفع الأبناء والأحفاد ثمن غلطة الآباء فاحشا جدا بتنكسهم في حضيض المذلة والمقت أجيالا متعاقبة

٢٢ — طباعهم واخلاقهم

طباع الأقباط وأخلاقهم ليست مما يستهوى الأوربيين الى محبتهم والعطف عليهم . فأنك تراهم في وجوم دائم وا كتئاب ملازم ، كأن الحزن لاينفك عنهم . وسبب ظهورهم فى هذا المظهر الشدة المرغبه فى تربيتهم والطرائق والأساليب المتبعة فى قيامهم بفروض دينهم . والأقباط كغيرهم من الشعوب التى

عاشت تحت ضغط الاستبداد ، على شيء كثير من الخبث والدهاء . فأنك تراهم يتسفلون ويتمسحون أمام من يهمهم أن يداروه أو يداهنوه لسمو مركزه أو شدة بطشه أو سعة ثروته ، ثم لا يلبثون أن تنتفخ أوداجهم صلفاً مع من هم أقل درجة منهم في ذلك ويعاملونهم بمنتهى القسوة والشدة . ويمتازون بأهلية خاصة للقيام بأعمال الحساب على أنواعها ومسك الدفاتر . وهذا هو السبب الذى جعل المماليك ، وهم أولئك الفرسان الشجعان الذين لا يقدرون من العلوم والفنون إلا ماتعلق منها بالحرب وحمل السلاح ، يتخذون من الأقباط القومة على إدارة شؤونهم المنزلية ، خصوصاً وأنهم من دون عامة المصريين أصحاب الدراية ببعض المعلومات

وقد نجم عن تولى الأقباط بعض المناصب الأدارية ، لما اضطرت الحاجة المماليك إلى التنازل لهم عنها ، أن توافرت لديهم الوسائل للأخذ بالثأر من جراء مالحق بهم من المظالم والاضطهادات على يد المتسلطين . فأنه لما عهدت اليهم مساحة الأرض وإدارة الأموال رأوا من إستنامة الرؤساء اليهم واعتماد أرباب الأموال عليهم خير فرصة للغش والابتزاز .

وكانوا يرتكبون هـذه الجرائم غير مبالين بذمة ولا ضـمير ، لاعتبارهم أنفسـهم أصحاب مصر الشرعيين وسـادتها الحقيقيين ، ونظرهم إلى المسلمين بوصف كونهم الفاتحين الغاصبين . فكأنى بأولئك المسـيحيين قد نسوا كلمـة اليسوع : « رد الى قيصر ماالقيصر » . وكانوا كلما اختلسوا الأموال الموكولة إلي عهدتهم، زعموا أنهم يستردون حقوقهم المسلوبة منهم حيث يجدونها

٢٣ — ملابسهم

يلبس الأقباط مثل مايلبسه المسلمون من الثياب ، وإنما يفضلون منها ما كان قاتم اللون . وإذا كانوا من سكان المدن ، آثروا من الثـياب مايكون أسود اللون أو أزرقه أو رماديه ، ذريعة إلى التميز بينهم والمسلمين . وجعلوا عمائمهم بأحد هـذه الألوان . أما نسـاؤهم فيتنقبن حتى لا يرى شيء من وجوههن سواء خارج منازلهم أم داخلها ، وفى حضرة أقرب الناس اليهن

٢٤ — إيمانهم الديني

الأقباط شديدو التمسك بعقيدتهم ، ولهم فى أداء فروضها

أساليب فى الغاية القصوى من الشدة والصرامة . فمن ذلك أنهم يقومون بالصيام مراعين فى أداء فرضه منتهى الصلابة والدقة . والصوم عندهم صومان يسبق أحدهما عيد الفصح بأسبوع ويسمى صوم (يونان) ومدته ثلاثة أيام وصيامه تذكار لصوم نينوى الذى سببه نبوءة النبي يونس . وأكثر الأقباط تشدداً فى رعاية هذا الصوم يمسكون عن كل طعام مدة الثلاثة الأيام ولياليها . أما الثانى فيسمى عندهم بالصوم الكبير وكان فى الزمن السابق ، لا تزيد مدته على أربعين يوماً . ولكن أقطاب الدين زادوا فيه زيادات متوالية حتى أبلغوه الى خمسة وخمسين يوماً . وهم فى هذه المدة يمسكون عن تعاطي الأطعمة الحيوانية الأصل ومنها اللبن والبيض والزبدة والجبن ، ويقتصرون فى القوت على النباتات والبقول . ويحتفلون بـ « قبل المجيء » أى مدة التجهز لعيد الميلاد والأربعة الآحاد السابقة عليه . وهناك صوم آخر يدعونه صوم الرسل وهو يشمل المدة بين عيد الصعود والخامس من شهر أبيب . ويقومون أيضاً بالصوم الذى قام به الرسل بعد موت المسيح

وهناك صوم غير ماتقدم يسمونه صوم العذراء ويقع فى

الثلاثة الأيام السابقة على عيد صعود العذراء ، وصوم يومى الجمعة والسبت من كل أسبوع وما يقع من هذين اليومين في غضون الخمسين يوما الفاصلة بين عيد الفصح وعيد العنصرة أى « حلول روح القدس على التلاميذ » . أما الأعياد الكثيرة التي يقيمونها بهذه المناسبات فأضرب عن ذكرها صفحا دفعاً للتطويل

٢٥ — كنائسهم

سبق لنا القول فى الجزء الأول بأن للأقباط عددا عظيما من الكنائس والأديرة . ولنذكر الآن أن الكنائس عندهم تنقسم عادة الى أربعة أقسام أو خمسه : القسم الأعلى أو الفوقي والهيكل ويحتوى المذبح وهذا القسم ينفصل عن بقية الكنيسة بحاجز من الخشب يتوسطه باب ينسدل عليه ستار رسم فوقه صليب كبير . والقسم الذى يلى هذا الحاجز خاص بالقساوسة والشمامسة والمرتلين وكبار أعضاء الطائفة . وهذا القسم أيضا يفصله عن الأقسام التالية المخصصة لعامة المصلين حاجز من الخشب . وأرض الكنيسة تفرش عادة بحصير السمار وعلى الجدران

صور غليظة تمثل القديسين وعلى الأخص القديس الذى نسبت اليه الكنيسة . أما التماثيل فممنوعة من الكنائس القبطية

وعادة الأقباط عند دخولهم الكنيسة أن ينزعوا الأحذية كالمسلمين إذا غشوا مساجدهم ، حتى لاتتلوث الارض بلوثها

٢٦ — الحج الى بيت المقدس

من جوامع الشبه بين الأقباط ومواطنيهم المسلمين ، اهتمامهم بالحج إلى بيت المقدس . والمسيحيون الوطنيون من أهل الممالك العثمانية يقتدون بالمسلمين في الطموح إلى التحلي بلقب (الحاج) فتراهم يتهافتون على زيارة الأماكن المقدسة ؛ ويرون فى هذه الزيارة فضلا كبيراً ومزية عظمى . وهم يؤلفون القوافل العديدة لهذا الغرض ويسيرون بحيث يدركون المدينة المقدسة فى أسبوع الصلبوت «الآلام» وأعياد الفصح . وعقب الاسبوع المقدس بثلاثة أيام يقصدون نهر الأردن للاستحمام بمياهه

٢٧ — الاكليروس القبطى

يقوم بالخدمة الدينيـة فى الكنائس القبطية الرهبان والشمامسة الانجيليون والكهنة ورؤساء الكهنة والأساقفة الذين يخضعون لسلطة أحد البطارقة . ولا يجوز عند الأقباط أن يترشح أحدهم للانتظام فى سلك الأكليروس إلا إذا كان متزوجاً. فأذا وافته المنية وهو قائم بوظيفته الكهنوتية، فالواجب أن تقضى أرملته بقية حياتها فى العزوبة . وكذا الحال بالنسبة له إذا توفيت زوجتـه ، فأنه لايجوز له أن يتزوج مرة أخرى . ويشترط فى قبوله بالاكليروس أن يكون خالياً من العيوب الجثمانية وأن لا يقل عمره عن ثلاثة وثلاثين عاماً . وعليـه أن يعيش من ثمار الحرفة التى يحترفها ، ويتلقى الصفة الكهنوتيـة المقدسة إما من يد البطريق وإما من يد أحد الأساقفة

أما الرهبان فتحتم عليهم العزوبة ويتتلمذون قبـل قبولهم ليمتحنوا فى الصبر والتقوى ، وذلك بأن يرسلوا الى أحد الأديرة الواقعة فى وسط الصحراء ويستخدموا فى الأعمـال الحقيرة المزرية فأذا ظلوا بعد هذه التجربة مصرّين على عزيمتهم ، قبلم

اندراجهم فى سلك الكهنوت . وتقرأ عليهم صلوات الموتى فى حفلة تكريسهم لتمثيل موت الأنسان وفنائه فى الحياة الدنيا . والرهبان كثيرو العدد جداً ويعيشون عيشة أساسها الزهد والتقشف ، فلا يحملون من الثياب إلا الصوف ، ويميزون عن غيرهم بشريط من الصوف الأزرق سابل حول القلنسوة

وللأقباط فى القطر المصرى اثنى عشر أسقفا ينتخبون عادة من بين الرهبان أو القساوسة العزب ، ويظلون طول مدة أسقفيتهم محافظين على الأساليب الصارمة لمعيشة الرهبان

أما البطريق فهو رئيس الكنيسة الجالس على كرسى مار مرقص الذى يقول الأقباط إنه تولى تحويل المصريين من عقيدتهم الأولى الى الديانة المسيحية . ويلقبونه ببطريرق الاسكندرية ، وان يكن مقيما بالقاهرة . وينتخب عادة من رهبان دير مار أنطونيوس القريب من البحر الأحمر . ويجوز أن يكون تعيين البطريق بمعرفة سلفه ولكن القاعدة المرعية بوجه عام فى اختياره ، أن يكون بواسطة الاقتراع

وطريقة ذلك أنه إذا خلا الكرسىّ المرقصىّ انتخب رئيس دير مار أنطونيوس عشرة رهبان أو اثنى عشر راهبا من

المعروفين بالنسك والزهد والأهلية لحلول ذلك المركز السامى ، ويكتب أسماءهم في قطع صغيرة من الورق يلقيها فى كيس بعد أن يجعلها فى شكل الأنابيب . ثم تخلط الأوراق بعضها ببعض خلطاً جيداً ، ويدخل أحد القسوس يده في الكيس ويأخذ ورقة منها ، فالذى يوجد اسمه مكتوباً فيها ينصب بطريقاً ويمهد اليه الكرسى البطريرقى . وينبغى أن تكون عمامته أكبر من عمامة أهل ملته أجمعين ، وأن يلبس من الملابس أخرها . على أنه يبقى خاضعاً لقواعد نظامية في غاية الصرامة والشدة منها أنه لاينام إلا إذا أوقظ مرة فى كل ربع ساعة والبطارقة تأثير كبير فى الأمة القبطية وسلطتهم محترمة منها وهي ترجع اليهم غالباً فى حسم منازعاتها وحل مشكلاتها

٢٨ — الزواج وتشييع الجنازات

يحصر الأقباط الزواج فى دائرتهم بحيث لايتعدى قط أفقها ، فهو بينهم وأهل الديانات الأخرى محرم قطعاً . ويحتفلون به على الطريقة التى يتبعها المسلمون . وعندهم أن من بواعث العار والخزى أن تكون المرأة مصابة بالعقم

أما الجنازات فليس فيها مايستوقف النظر وغاية الأمر أنهم ، كالمسلمين ، يستأجرون فيها المعددات والندابات . والمرأة التى توفى زوجها تحمل الحداد عاما بخلافه إذا توفيت زوجته ، فأنه يحمل حدادها نصف هذه المدة . والزوج الذى يعيش بعد وفاة زوجته لايجوز له التزوج ثانيا خلال مدة الحداد

٢٩ — صناعات الاقباط وحرفهم

للأقباط مدارس كثيرة ، ولكنها مقتصرة على الأطفال فالنساء اللواتى يعرفن القراءة والكتابة قليلات العدد جدا فى الطائفة القبطية : والدروس التى تعلم للاولاد فى هذه المدارس هى مزامير داوود (الزبور) والاناجيل ورسائل الرسل . ويتكلم الأقباط باللغة العربية وبها يتفاهمون . أما لغة أجدادهم فلا يدرون منها شيئاً ، خصوصاً فى الوجه البحرى . ولا يزال الكثيرون منهم ، كما كانوا فى عهد المماليك ، يشغلون وظائف الأدارة والمساحة وجباية الأموال . أما فى المدن فيباشرون الحرف المختلفة ، وفى القاهرة يزاولون الصياغة والتطريز ، وفى مديرية منوف يصنعون حصر السمار ، وفى مديرية الفيوم

يستقطرون ماء الورد ، وفى أسيوط ينسجون الكتان . ويزاولون فيما عدا هذه الصنائع ما يزاوله بقية المصريين من أعمال الزراعة وما يرتبط بها

٤

اليهود والارمن واليونان والسوريون

الفقر الظاهرى لليهود ــ أخلاقهم ــ بغض المسلمين لليهود واحتقارهم اياهم ــ يهود دمشق ــ الصناعات التى يمارسها اليهود ــ الارمن ــ اليونان ــ السوريون

٣٠ — الفقر الظاهرى لليهود

يسكن السواد الأعظم من يهود القطر المصرى مدينة القاهرة . ولهم فيها حي خاص بهم ضيق الطرقات مظلمها قذر بلوث الوساخات المختلفة . وله أبواب خاصة يغلق بها فيحبس اليهود أنفسهم فيه ، كلما أرادوا ذلك ، ليكونوا فى معزل عن بقية سكان المدينة . ومنازلهم متلاحمة متراكنة الى بعضها ، رديئة التقسيم زرية الشكل. واختلاف يهود مصر عن بقية سكانها من حيث السحنة والملامح ، أقل منه فى اوروبا بينهم والأقوام التي يساكنونها . ومن عاداتهم لبس الثياب الرثة والأطمار

البالية ، وقد جمدوا على هذه العادة الى درجة يخيل للناظر معها انهم يزدهون بما هم متمرغون فيه من ذل الفاقة والمتربة . أما وجوههم فشاحبة اللون ، والمجمع عليه أن هذا العارض المرضي فيهم سببه الافراط من أكل زيت السمسم المعروف بالسيرج أو الشيرج

٣١ — اخلاقهم

تلاقت في يهود الشرق الادنى الطباع والغرائز التي جعلتهم ، في القرون الوسطى مبغضين في أوربا وممقوتين من الناس طراً . وهم ما برحوا الى اليوم على مافطروا عليه من الجشع والشح ، إذ تراهم يجتهدون في ستر مالديهم من الثروة عن الانظار ، بتصنعهم مظاهر الفقر والفاقة . والغالب على اليهود الجهل مع التدين ، والتشيع للدين تشيعاً يزيده حدة توالى وقوع المظالم والاضطهاد من كل نوع عليهم حتى في أيامنا هذه

ورغم ذلك فانهم يمتازون بالنشاط والملاينة والمداهنة ومعالجة الصناعات المختلفة . ولا يترفعون عن الوسائل أياً كانت مادامت تكفل لهم الربح ، قل أو كثر . أما أخلاقهم وعاداتهم

فمبنية على الشدة والصرامة ، لذلك كانت بعيدة عن مظنة الدنس والشوب

ونساء اليهود تحجبن كالمسلمات والقبطيات تحجباً تاماً . ولا سبيل إلى اتهامهن بما تتهم به المرأة التى تفرط فى عفتها مع الرجل ولا تساومه على شرفها

٣٢ — بغض المسلمين لليهود واحتقارهم لهم

المسلمون من أكثر أهل الديانات الأخرى بغضاً واحتقاراً لليهود . يرجع ذلك إلى ماوقر فى نفوسهم من أن اليهود أكثر حقداً على الأسلام وكراهة له . فقد ورد فى القرآن (المائدة) : « لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى،ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون »

ومن عادة المسلمين إذا حدثوا عن عدو لدود لهم ، قالوا : « إنه يبغضنى بغض اليهود للمسلمين » . وكثيراً ما كان يحدث ، في القرن الأخير ، أن يساق اليهودى ليذوق الموت بمجرد توجيه التهمة اليه ، صدقاً أو كذباً ، بأنه طعن فى القرآن وفاه

فى حقه بكلمات تشف عن عدم الاحترام . فليس من الغريب إذاً أن تجتمع فى طائفة اليهود الشرقيين، وقد نزل بهم من الحيف والظلم ماسبقت لنا الأشارة إليه ، العيوب والنقائص الباعثة على احتقارهم وكراهة الناس لهم

٣٠ — يهود دمشق

ولقد شملهم سمو الوالى الآن بنعمة تسامحه وكرمه ، كما فعل مع أهل الديانات الأخرى . فهم يتمتعون الآن فى ظلال حكومة محمد على ، بأكثر مما يتمتع به أهل ملتهم من الحرية الصحيحة والحماية الفعلية ، فى سائر أجزاء السلطنة العثمانية . ومن الدلائل البينة والبراهين الساطعة على مالقيه اليهود من العناية والرعاية فى عهد محمد على ، حادثة يهود دمشق ؛ وهي الحادثة التعسة التى دوى رنينها فى أصقاع أوربا كافة . ولسامع هذا القول أن يعرب عن دهشته واستغرابه ويجنح إلى عدم التصديق به ، ولكننى أقول لمن لايؤمن بقولى إن مدينة دمشق تأصلت فيها جذور التعصب للدين وفشت الضراوة بمخالفيه .فلو أن تهمة كالتى وجهت الى اليهود من أهلها بحق أو بغير حق ، وجهت

قبل فتح البلاد السورية بالجنود المصرية ، لأفضت بلا ريب إلى إنزال النقمة بالأمة الأسرائيلية فيها وتسلط الناس عليها بالتخريب المتلف

ولنفرض أن مدينة دمشق الآن فى قبضة والٍ كأحمد باشا الجزار أو عبد الله باشا أو غيرهما ممن لا يكترثون بحياة الرعية، فأنه ما كان من المأمول ، حتى مع طول التروى وإمعان النظر فى القضية التى تورط اليوم فيها جملة من يهود الشام ، الوصول إلى حلها حلا عادلا . أما الآن . وقد أحاط الوالى هذه القضية بجميع الضمانات الكفيلة بالعدل وعدم التحيز وأصبحت إدارته الحكيمة فى بلاد الشام بعيدة عن مزالق الانتقاد ، فقد أقام الدليل الساطع على أنه يعمل بمحض الميل لخير الأنسانية

٣٤ – الصناعات التى يمارسها اليهود

يعالج اليهود من الصناعات ما يتطلب أداؤها أكثر ما يكون من النشاط والحركة . وتكون أرباحها محفوفة بالمصاعب والأخطار . فأغنياؤهم يسلفون النقود بالربا الفاحش ، وغيرهم يزاولون بيع الأمتعة القديمة أو يتداخلون بين الباعة والمشترين

لأداء مهمة السمسرة ، أو يحترفون بالصياغة الخ . ومن اليهود فريق كبير يعانون الفقر ولا يعيشون إلا من الصدقات التى يتبرع لهم بها ذوو اليسر من أبناء دينهم

٣٥ — الأرمن

الأرمن قليلو العدد فى مصر ، والأسر الأرمنية المقيمة بها الآن هاجرت اليها مع الفاتحين العثمانيين . ولسنا بحاجة الى ذكر التأثير العظيم الذى نتج عن مداخلة الأرمن ، وهم على ما هو معروف من اقتدارهم ونفوذهم بالأستانة ، فى أعمال الحكومة العثمانية ، وكيف استطاعوا بما احتازوه من الثروة وقدموه من الخدم المأجورة للباشوات : التسلط على إدارة الأقاليم . والباحث فى أحوال بلاد الدولة العلية يخيل له أن السلطنة العثمانية أصبحت بين الأتراك والأرمن ، ملكا مشاعاً يستقل هؤلاء بالنصف من خيراتها . ومن عادتهم التى درجوا عليها أن يتعقبوا العثمانيين فى تنقلاتهم من بلد إلى آخر فوصلوا بهذه الوسيلة إلى مصر واستوطنوها

وليس للأرمن فى القاهرة حيّ خاص بهم . وقد درجوا على

أن ينظروا إلى الوطنيين بالعين التي ينظر الأتراك اليهم بها ، فهم يعاملونهم بالعجرفة والصلف ويبرزون لهم فى مظاهر الكبرياء والسمو ، وبلغ من أمرهم فى ذلك أنهم يتحاشون مخالطتهم ويتقون لقاءهم . والغالب عليهم اليسر وسعة الحال ، لأنهم يعالجون صنوف التجارة ويشتغلون باستثمار الأموال . والعظماء الأذكياء منهم هم الصرافون ، كما أن أغلبهم يتجرون بالجواهر وصنع الثياب وكرا كى السمور وشغل الحديد . ويبدون الكثير من النشاط والهمة والأهلية فى أداء هذه الأعمال التى زاولوها مزاولة تعلم وتدرب منذ نعومة أظفارهم

٣٦ — اليونانيون

فى مصر طبقتان مختلفان من الأغريق لم تختلطا حتى الآن ببعضهما . الطبقة الأولى منهما سلالة الأغريق الذين كانوا يسكنون القطر المصرى قبل الفتح الأسلامى ، وقد احتفظ هؤلاء بشيء كثير من السمات المميزة لأصلهم . ولا يتكلمون اليونانية وإنما لغتهم العربيـة ، ويزاولون من الصـناعات النجارة والتطريز ويتجرون بالقطاعى فى كل شيء . أما الطبقة الأخرى

فتشمل اليونان الذين هاجروا إلى مصر منذ فتحها العثمانيون وجميعهم تقريباً يشتغلون بالتجارة

ويقطن اليونان فى القاهرة حيين متباعدين : الحي الأول سمى أرض الروم (لعلها حارة الروم) ، والآخر الحي المعروف بالجوانية . وهناك طائفة منهم تسكن مصر العتيقة ، وسوادهم الأعظم على المذهب اليونانى المبتدع . ولهم ثلاثة معاهد دينية كبرى وهي: كنيسة مار نيقولاوس التى يباشر شؤونها بطريرق الأروام ، ودير القديسة كاترينه فى الجوانية ، ودير مار جرجس فى مصر العتيقة . وهذا الدير موضع احترام الأروام وتبجيلهم . وهو عبارة عن قصر حصين يتعذر الوالوج فيه من مدخله وفيه كنيسة يصعد اليها بسلم ضيق مركب فى جدار سميك جدا . وفى الكنيسة برج مرتفع يشرف الواقف بأعلاه على الأراضى الخلوية المحيطة به . وقد اعتاد المسلمون والمسيحيون الذهاب بالمتوهين والمجانين إلى هذا الدير لالتماس الشفاء لهم من القديس الذى أطلق اسمه عليه

هذا وقد أسر عدد من الشبان اليونانيين خلال الحرب فى شبه جزيرة موره . فلما جيء بهم إلى مصر بيعوا بيع الارقاء ثم

اعتنقوا الديانة الاسلامية فتوصل بعضهم بذلك الى أسمى المناصب فى الأدارة والجيش

٣٧ - السوريون

بدأ السوريون بالهجرة إلى مصر منذ قرن تقريباً ، وكانت تدعوهم اليها الروابط العديدة التى تربط بلادهم بالقطر المصرى. ولقد عالجوا فيه التجارة فلم يلبثوا أن أحرزوا منها الثروة الواسعة ، ولا يزال أعقابهم يسيرون على النهج الذى سلكه أجدادهم فآباؤهم

والسوريون كاثوليكيون على المذهب اليونانى ، وقد حاول بطارقة المذهب المبتدع استدراجهم الى الاندماج فى طائفتهم ، واتخذوا التدابير المختلفة لحملهم على ذلك . فلكى يوقوا أنفسهم عاقبة اضطهادهم تعهدوا بأن يدفعوا اليهم فى كل سنة إتاوة من المال قدرها ثلاثة آلاف قرش

وبالقاهرة نحو ثلاثة آلاف مسيحي من أهل سوريا وخمسمائة إلى ستمائة بدمياط ، ومائتان إلى ثلاثمائة بالاسكندرية ورشيد. ويحرصون على جنسهم من اختلاط الانساب وتداخل

الشعوب فبقيت عاداتهم وأخلاقهم مصونة لهذا السبب وبعيدة عن شوب الالتحام بالعناصر الغريبة

٥

الحالة السياسية للرعية

٣٨ — يطلقون اسم « الرعية » على الأهالى الوطنيين الذين لايدينون بالأسلام . والرعية فى تركية أوروبا شطر الأمة الأكبر ، أما فى مصر فلا يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا من النفوس . وهو مايؤخذ منه أن حالتهم السياسية فى القطر المصرى لاتؤثر تأثيراً كبيرا فى أعمال الحكومة ، حاضرة أو مستقبلة ، كما هو الشأن فى بقية بلاد الدولة العثمانية

ومما يلفت نظر الباحث ويستدعى دهشته طابع التطور الذى رسم به الأتراك كل شيء فى أنظمتهم السياسية . ولقد مضي زمن طويل قيل فيه أن الأتراك لاعمل لهم إلاّ التنقل بخيلهم ورجلهم فى فسيح أملاكهم ولكننا رأينا ، أثناء الكلام على عادات المسلمين وأخلاقهم ، أن هذا القول لايزال صحيحا فى مدلوله الخاص به

فأن العثمانيين لم يلقحوا المملكة التى أسسوها بشىء من عنصر البقاء ولقاح الحيــاة بل تركوا للمصادفة العمياء أو لحكم القوة والجبروت تدبير أنظمتهم الأ دارية والعسكرية ، إذا صح أن نسمى بهذا الاسم النظام الفظ الغليظ الذى تخبطوا فى وضعه تخبط من به مس . فانهم لم يدركوا قط أن الاستقرار في البلاد المفتوحة حديثا لا يستدعى احتلال أراضيها فقط ، بل أيضا إفناء سكانها فى ذواتهم بما يتفرغون لتحقيقه من مزج الأ ديان والأ نظمة والأجنـاس بعضها ببعض . ولقد تحول البرابرة المتوحشون الذين أغاروا على أوربا ، إبان سقوط الدولة الرومانية ، عن عقيدتهم الدينية ليعتنقوا عقيدة الأمم المغلوبة بهم ، ويتخذوا دينها دينا لهم ، وجعلوا قوانينها شريعة لهم ولغتها اللغة التى يتفاهمون بها . ومن هذا الاختلاط الذى بث فيه احتضان الزمن له روح الحيـاة تولد ، مع حالتنا الاجتماعيــة الحاضرة ، ماهو مشاهد من آثار التقدمات الحديثة في الأمم الاوروبية جميعا

أما العثمانيون فقد ساروا ، بالنظر الى ازدهائهم برفعة عقيــدتهم وسموها على سائر العقائد ، على عكس الخطة المتقدمة فلم يمنحوا المغلوبين ميزة ولا أتحفوهم بعطاء ، بل أقصــوهم عنهم

وعوملوا بالقهر وسيموا بالمذلة فلم يتوافر في المملكة العثمانية ، لهذا الباعث ، اتحاد أو امتزاج ما بين عنصر القوة والنشاط الحيوىّ اللذين يحملها الفاتحون الى المغاوبين كوثيقة تتضمن وعودهم للمستقبل،وعنصر المدنية الذىهو تراث الماضىمصونا بيد المغاوبن . ولم يتم فى تركيا ماتم بأوروبا في القرون الوسطى من تلقيح الجسم الذىأخذت تتلاشى حياته،بدم جديدكريم توافر فيه مايحتاجه هذا الجسم الآيل الى الفناء من عناصر القوة والتجديد . وكل ماحصل هناك تراكم العنصر المتوحش المتمرغ فى خيلاء جهله تراكما عقيما على أنقاض هيئة اجتماعية ألقاها الانحطاط فى هاوية الانقراض والفناء أجيالا متعاقبة

قامت الدولة العثمانية على هذا الأساس فأوصدت فى وجه نفسها كل باب للتقدم والنجاح ، ولم تحصل من الزمن على ضمانة بالبقاء، إذكانت مؤلفة من أمتين إحداهما واقفةحيال الأخرى ومتصلة بها اتصالا لاانقطاع له ، مع تناقض مصالحهما وتعاكس أخلاقهما وتباين عاداتهما وانفراج أفكارهما وخواطرهما وشعور كلاهما للآخر فى نفسه بالازدراء والبغضاء

فلم يكن يوجد فى أفق السلطنة العثمانية أمة واحدة بل

أمتان لا لأحداهما على الاخرى انتفوق فى العدد ، وإن لم تكن قابضة على ناصية الشوكة والحكم فى الحال والحقيقة اتى لا ريب فيها أن وحدة الأمة شرط أساسى لا مفرّ منه لشباب الدول وحياتها ولا مستقبل لها من غيره

ومما أدهش ذوى العقول الراجحة ما يمكن أن يفضى اليه من النتائج انقسام شعوب تركيا الى شطرين كبيرين . فقد قال أوركارت فى كتابه الموسوم (تركيا ووسائلها) : « أن للرعية من المكانة والشوكة ماتستطيع به تعطيل إصلاح الدولة العثمانية وإعادتها الى نشأتها الاولى »

وليلاحظ ماهنالك من الفرق المشهود : من هذه الوجهة ، بين مصر وبقية أملاك الدولة العثمانية . فأن مصر لا تخشى تفشى المنازعات الداخليـة فيها ، وكل ماتخشـاه أن ترى النصف من سكانها يستصرخون بالأجانب ويدعونهم الى قاب النصف الآخر والتحكم فى أهله بالغلبة والقهر . ولنفرض جدلا أن هنالك أسباباً لتقليل انهم التى يوجهها خصوم مصر إلى حالتها الحاضرة. ولكننى أود أن يعترف هؤلاء الخصوم بأنها جزء من أملاك الدولة العلية مخالف بالمرة لسائر الأجزاء ، بتوافر الدلائل

الراجحة فيه على حسن مستقبله ، لتحقق معني الوحدة الجنسية فيه بحذافيرها

والرعية التابعون للدولة العثمانية لا يساهمون المسلمين فيما هو مفروض عليهم من الكلف والرسوم ، ولا فيما هو ممنوح لهم من المزايا والخصائص في السياسة . فمن ذلك أنهم غير مطالبين بالتجند للدفاع عن حوزة الوطن ، غير أنهم محرومون إزاء ذلك، من مساواتهم فى الحقوق المدنية ، فضلا عن آدائهم إلى الخزينة ضرائب خاصة بهم الخ . فالتقريب بين الرعية والمسلمين بازالة الفوارق القائمة بينهما ومساواة أحدهما بالآخر فى الحقوق هما الغرضان اللذان يجب أن ترمى اليهما ، في تركيا ، كل سياسة رشيدة تتمنى من قلب سليم تجديد الدولة العثمانية وإعادتها سيرتها الأولى .والظاهر أن إلى هذه النتيجة تشرئب أعناق مستشارى السلطان ، وفى طليعتهم رشيد باشا الممتاز عليهم جميعاً بصراحة الأفكار وحريتها وصدق الميول إلى ناحية الخير . وأتمنى من صميم فؤادى أن يوفق لتنفيذ المشاريع الكريمة التى تضمنها الخط الشريف (خط كلخانه) الذى صدر أخيراً

وإذا أتيح لى أن أزجي إلى سمو والى مصر رأياً فأنما أول

ما أشير به عليه إقامة المساواة فى الحقوق المدنية بين المسلمين ورعاياه المسيحيين (الرعية) . وبدهي أن هذا العمل لايكبده من الصعوبة والحيرة مايكبد الباب العالى منهما ، لأن الرعية فى حكومته أقل نفراً وأضعف شوكة منهم في بلاد الدولة العلية . وإذا سعى سعيه فى هذا السبيل ، عادسعيه بالنفع الجزيل والخير الوفير على اعتبار أن هذا العمل لم يكن إلا تجربة ضيقة النطاق، فإذا أفلح ، وهو المرجو ، هيأت هذه التجربة سائر بلاد الدولة العثمانية لثورة يكون من صالح هذه البلاد أن تتقلب فى أطوارها على عجل حتى تستقصيها كلها. وفى هذه الحالة يكون بإمكان محمد على البدء بتنفيذ وسيلة من وسائل التقدم والاصلاح التى يعد العمل بمقتضاها فاتحة خير للحكومة العثمانية نفسها . فإذا أتم ذلك بمعرفته فإننا نتم عملا بدأ به ، فقد رأينا أنه قام بأعمال كثيرة لتحرير الرعية من ربقة الاستعباد بقبولهم فى المناصب الكبرى الادارية واختيار المحافظين والمديرين منهم

٦

الفرنجة

القناصل — التجار — الصنائع — مستخدمو الحكومة — اخلاق الافرنج وطباعهم — المسافرون والرحالة — شعور المسافرين — مايستحقونه من اللوم — نصائح

فى جميع بلدان الشرق ، يطلق اسم الفرنجة أو الأفرنج على جميع الرعايا التابعين للشعوب المسيحية وجميع الذين يحملون الثياب الأوروبيه . وقد رأينا ، فى غضون الكلام على سكان القطر المصرى ، أن عدد الأفرنج فيه ستة آلاف نسمة تقريباً

ومن هؤلاء السكان تتألف عدة طبقات تختلف عن بعضها. وسأتناولها كلها بالبحث طبقة تلو طبقة

٣٩ — القناصل

الطبقة الأولى جماعة القناصل والقنشليرية والأعوان المرتبطون بالقنصليات على اختلافهم . وأهل هذه الطبقة حائزون على احترام الوطنيين وتوقيرهم

وفى مصر قناصل جنرالية يقيمون بالاسكندرية . والدول

الأوروبية التي ينوبون عنها هي فرنسا والروسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا واسبانيا والسويد وصقلية وسردينيا وهولانده وبلجيكا والدنمرك وتوسكانا

والقائمون بتلك المناصب السياسية الكبيرة يعلقون على أبواب دورهم شارات حكوماتهم ويرفعون أعلامها خفاقة على أرفع نقطة منها

أما القاهرة فالمباشرون لشؤون الأجانب فيها وكلاء بدرجة (فيس قنصل) ،فى حين تتطلب أهميةهذه المدينة أن يكون بها لفرنسا قنصل من الدرجة الأولى لما يوجبه ارتفاع مرتبة الوكيل عن هذه الدولة فيها من احترام الوطنيين لها . فانهم لايحترمون الحكومات الأجنبية ووكلاءها ، إلا بقدر مايكون لها من جلال المظهر وحسن الهيئة . وللدول السالفة الذكر وكلاء فى دمياط ورشيد والسويس وقنا والقصير تختزنهم عادة بين أهالى القطر الذين يدينون بالنصرانية

وعلى القناصل فى بلاد الشرق أداء مهمة غيرالتى يقوم بها أمثالهم في أوربا . فأنه لما أبرمت الامتيازات المنظمة لعلاقاتنا مع الدولة العثمانية ، كان الاختلاف بين اخلاق الأتراك

وأنظمتهم وبينها عند الأمم الأوروبية عظيما الى حد استدعى سن قوانين خاصة لمعاملة الافرنج بمقتضاها ، وتوسيع نطاق اختصاصات القناصل ، وجعلهم الرؤساء على أبناء وطنهم والمكلفين بالسهر على تنفيذ القوانين الصادرة من حكوماتهم والمنوطين بحمايتهم ،على وجه يستدعى دوام رعايتهم أكثر مما لو كانوا في أى بلد غير تلك البلاد . وسبب ذلك أن الأتراك ، لما فطروا عليه من التوحش والهمجية ،كانوا لا يكفون عن اعتبادهم بوسائل القهر والاذلال ، فكان التصدى لدفع هذا البلاء يقتضى من القناصل همة لاتنى ويقظة لاتنقطع . فكان فرضا محتوما أن تحتفظ قنصليات الدول الأوربية في الشرق بمثل تلك الصبغة الخاصة ، الى ان تصبح الأخلاق والأنظمة فى الدولة العثمانية متفقة مع نظائرها فى الديار الغربية

ويمتاز القناصل الجنراليون للدول فى الاسكندرية ، على زملائهم فى سائر بلاد الشرق الأدنى ، ويسمون عليهم فى رفعة القدر . لأن الدرجة التى بلغت مصر اليها فى العالم السياسى ، منذ قبض محمد عليّ على زمام شؤونها ، أفضت بحكم التبعية الى رفع القنصل الجنرال لدولة عظمى لدى حكومة الوالى إلى مكانة

تتناسب مع مركزه الذى أصبح أرفع شأناً وأعظم حظوة مما كان . ومن الحقائق الثابتة أن قناصل فرنسا وانكلترا والروسيا والنمسا الجنراليين يؤدون وظيفة السفراء ، لأنهم لا يقتصرون على حياطة المصالح التجارية أو المدنية الخاصة بأبناء وطنهم بما تستدعيه من وسائل الحماية والرعاية بل يتصلون بسمو الوالى اتصالا مستمراً ليرفعوا اليه بلاغات حكوماتهم ويعالجوا معه المسائل السياسية البالغة أقصى حد من الخطورة والصعوبة . فالشأن الخاص الذى صار للقنصل الجنرال فى الاسكندرية منذ بضع سنوات يتطلب اذاً تحويل هذا المنصب الى مركز سياسى بحت بأن تعهد مصالحنا السياسية فى القطر المصرى الى معتمد سياسى

ولكل من انكلترا والروسيا وكيل خاص عهد اليه النظر فى الشؤون السياسية . فخليق بالدولة الفرنسية أن ترتفع الى مستوى هاتين الدولتين لا سيما وأن اهتمامها المتواصل بشؤون مصر وتأييدها محمداً علياً فيما يبذله من الجهود الجليلة لما يدل دلالة واضحة على أنها بأنابتها أحد المعتمدين السياسيين عنها فى القطر المصرى تريد أن يرى الملاء فيه والياً عظيما لا باشا من مطلق

الباشوات الكثيرين

ثم إنه لمن الواجب على فرنسا الاقتداء بانكلترا فى الفصل بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات التجارية فى منصب القنصل الجنرال، وذلك بأن تعهد الاختصاصات الأخيرة الى قنصل خاص بها . وغير خاف ما للشؤون التجارية من الاهمية العظمى ، فأذا اعتبرنا الاحوال الحاضرة فان القنصل الجنرال الذى يكلف بالنظر فيها سيكون العمل لديه كثيراً والمشاغل عظيمة بالنسبة الى اضطراره من جهة أخرى للنظر فى شؤون القنصليات التابعة له بالقطرين المصرى والسورى . فاذا ظل قائماً معها بالشؤون السياسية كان ذلك ضغثاً على إبالة

يتولى القنصل الجنرال أمور الجالية من أبناء وطنه المقيمين بدائرة سلطته وهو يدبرها بمقتضى الأوامر والقوانين المعمول بها فى أساكل الشرق ، ويصدر أحكامه بمساعدة نواب الأمة المنتخبين من الاعيان فى القضايا المدنية والجنائية ، ويبرز في الجمهور بالزى الخاص بمنصبه يحف به النواب المنتخبون كلما اقتضت الظروف ذلك

وللقنصل الجنرال ، فضلا عما تقدم ، الحق فى حماية جميع

الأديرة الكائنة بالاراضي المقدسة . أما معاهد نشر الديانة المسيحية ، فحمايتها من حق القنصل النمسوى وهى داخلة فى دائرة اختصاصه .

ومن المهم لرفع مقام قناصلنا في المملكة العثمانية واعلاء شأنهم توفير ما ينبغى من الوسائل لقيامهم بالمهمة الموكولة اليهم ليكونوا أهلا للثقة التى وضعتها فيهم حكوماتهم . ومن المرغوب فيه أيضاً تزويد السلطة القنصلية بالقوة الكافية ، وأن لا يسمح بوجه ما لأحد من أبناء وطننا التنصل من الطاعة لهذه السلطة أو امتهانها . والواجب على قناصلنا أن يكونوا بحيث يستطيعون المحافظة على النظام بين أفراد التبعة الفرنسية وتطهيرها ، مادام النظر فى شؤونها موكولا اليهم ، من أدران المحتالين والدساسين الذين لا إلّ لهم ولا ذمة ، الذين يلوثون سمعة أمتهم باغتنامهم فرصة جهل الشعب المصرى وسذاجته واستنامته اليهم لابتزاز أمواله وانتحالهم ما ليس لهم من الألقاب والصفات للتغرير بهم . وواجب أيضاً إلزام السياح والمسافرين باحترام سلطة القنصل وتبجيل ذاته

٤٠ — التجار بالجملة

الطبقة الثانية من الافرنج تتألف من كبار التجار . وهم يقيمون غالباً فى الاسكندرية وعددهم الآن أربعون ، يقيم بعضهم بالبلاد مع أسرهم منذ سنوات عديده . ولا يتضمن عددهم طبعا التجار بالقطاعى ، وإنما ينبغى أن يضاف إليهم الوكلاء التجاريون الذين يقيمون بمنازل رؤسائهم التجار

٤١ — المتسببون او التجار بالقطاعى

الطبقة الثالثة منهم تتألف من التجار بالتجزئة . وبالاسكندرية نحو مائة حانوت للتجار الأوربيين يباع فى بعضها القماش وفى البعض الآخر الزجاج او الجواهر او الأزياء الحديثة الخ . وجملة من هذه الحوانيت مملوءة بالبضائع على اختلاف أصنافها . أما مخازن الازياء المستحدثة فأنها من استجماع أسباب النظام والكمال بحيث تستطيع إيقاف زبائنها على حركة الازياء المستحدثة بأوروبا

وتحتوى الاسكندرية ثمانية مطاعم أو عشرة للفرنسيين

والانكليز والايطاليين على مايرام من النظام ، وقهوات جميلة تقدم فيها الشكولاتا على الطريقة الأوربية ، وفى فصل الصيف أنواع الجليد المحلى الذى يرد الثلج اللازم لتبريده من بلاد كرامانيا. وللفطاطرية الأفرنج بالاسكندرية زبائن كثيرون يترددون عليهم وهم يربحون ربحا لا بأس به . وفى القاهرة مطاعم عديدة على الطراز الأوربى

٤٢ — ارباب الصنائع والحرف

أما طبقة الصناع فتتألف من النجارين والبنائين وصانعى الأقفال والكوالين والسمكرية والنحاسين وصانعي المركبات والصياغ والجوهرية والساعاتية وصانعى الأحذية والقبعات والخياطين وأصحاب الأزياء الحديثة للسيدات.

٤٣ — موظفو الحكومة

تتألف من الأوربيين المنتظمين فى خدمة الحكومة طبقة مستقلة ليست من كثرة العدد كما يتبادر الى الذهن ، أول وهلة ومن أفرادها مائتا طبيب وصيدلى وعشرون معلما فى الجيش

هذا كل عددهم الذى يتوهمون بأروبا أنه يتجاوز بضع المئات بل بضعة الألوف ، ولقد كانوا أيام تشكيل الجيوش والبحرية بمقتضى النظام الجديد اكثر عددا منهم الآن ، ولكن عددهم قلَّ كثيرا منذ تدريب الجنود المصرية ولم تعد الحاجة ماسة إلى الأوروبيين في تعليمها الفنون العسكرية . أما المدارس ففيها نحو العشرين الى الخمسة والعشرين أستاذا اوروبيا أغلبهم من الفرنسيين وأما مصانع الحكومة وفاوريقاتها فبها جملة من الفرنسيين والانكليز والايطاليين يزاولون أعمالهم بمثابة مديرين لحركتها أو كصناع فيها . وبين موظفي الادارة بعض الافرنج يؤخذ من احصائهم والاحصاء المتقدم أن عدد الأروبيين الذين فى خدمة سمو الوالى لم يكن من الكثرة بما ذهب اليه الظن واتجه الخاطر . ولاجرم فأن بدهيا أن يكون اهتمام محمد على منصرفا الى استخدام أكبر عدد ممكن من أفراد رعيته ، وأن يتخلص من الوصاية التى كان لابد لمصر أن ترزح تحت أعبائها لو تمادت فى استمداد أروبا والاستعانة بها على كل أمر من أمورها . وهى نزعة وطنية محمودة العقبي ، غير أني ألاحظ أن فيها مبالغة وشططا . إذ لا يخفى أن الانظمة الجديدة تحتاج في حفظ كيانها

الى الحرص على ثمراتها والضن بنتائجها أن تذهب ضياعاً حتى يتيسر اطراد السير فى سبيل التقدم والفلاح وهذا يستدعي الاستمرار على طلب المعونة من الأوروبيين والاسترشاد بهم

٤٤ — طباع الافرنج واخلاقهم

إن الأوروبيين الذين ذكرت نتفا من أحوال طبقاتهم ، تتألف منهم مستعمرة يلمّ شتاتها أحياء خاصة بهم . ومما يؤثر عنها التشدد فى رعاية التفاوت بين المراتب والدرجات فيها ، والحرص على الآداب والاصطلاحات الرسمية مع المبالغة فى تطبيقها . فأن أفراد كل طبقة من طبقاتها الاجتماعية لايجوز لهم أن يتعدوا فى علائقهم وروابطهم ببقية الطبقات الحدود المرسومة بمقتضى وظائفهم أو حرفهم أو ثروتهم . ويمتاز أهل الطبقة العليا بالتوسع فى الانفاق على ماهو مألوف فى الهيئات الاجتماعية الاستعمارية ، وتحرّى البذخ والأبهة في الأثاث والرياش والثياب ، وتعقب الأزياء الباريسية فيما يطرأ عليها من التغير والتطور . وهى شغوفة بأقامة الأفراح والأعياد لكل مناسبة والحضور فيها . وغالبا ماتقيم الحفلات الليلية الفخمة وتعدّ المعدات

الباهرة لأقامة المراقص التى تحف بها مظاهر البذخ وتشف عن سلامة الذوق في التنميق والتنسيق . وفى الاسكندرية مهدان صغيران فى الغاية القصوى من إحكام الترتيب وجمال الزخرف لتمثيل الروايات على اختلاف موضوعها ، وقد خص أحدهما بتمثيل الروايات الفرنسية والآخر بتمثيل القطع الايطالية . وكان بناؤها على نفقة بعض هواة الفن الذين يقومون الآن على إدارتهما واستغلالهما . والمعهود فى إفرنج القطر المصرى الأنس بالغريب وإكرامه والرقة فى المودة رقة مقرونة بمظاهر الأدب وإكرام مثوى الزائرين وبسط الكف بالمال لذوى الحاجة ، حتى أنهم كثيرا مايوافون البائسين بمساعدات تبلغ الثلاثمائة فرنك الى الخمسمائة . ويتعهدون دائما الفقراء من أبناء وطنهم فيكتتبون لمساعدتهم بالأموال التى كثيرا ما تبلغ مبلغا عظيما . وقد أنشأوا بالاسكندرية مستشفى يتولون الأنفاق عليه من صفوة مالهم ، ويعالجون فيه الصناع والبحرية وسائر الافرنج الذين تنقصهم وسائل العناية بشؤونهم فى منازلهم ، أثناء علاجهم

ومما يؤسفني ذكره هنا ما لاحظته في الأخلاق والآداب،

بين الجاليـة الأفرنجيـة ، من التجوز والترخص . فخيل الغرام ودسائسه من الحوادث الشائعة المألوفة ، ولـكن هذا الانحلال الخلـقيّ لاينفى وجود أشـخاص وأسرات على غاية مايراد من العفة واستقامة الأحوال والمحافظة على نواميس الأدب والتدقيق فى رعاية مايليق وما لا يليق . وهؤلاء خير قدوة لمن يحب أن يستن بسنتهم فى الفضائل ومكارم الأخلاق

٢٥ — الرحالة والمسافرون

يوجد بمصر دواما ، فيما عـدا طبقات الأوربيين الذين سبق الـكلام عليهم ، عدد غير معين من المسافرين يقضى البحث فى طباعهم وأخلاقهم وأعمالهم ومشروعاتهم الى الانتقاد القارص

إن الأسباب التى يستند الأوربيون اليها فى اعتزام زيارة القطر المصرى كثيرة ومختلفة . فبعضهم وهم الرحالة الحقيقيون يقصـدون بزيارتهم الانتفاع فى أوقات فراغهم بعلم ما يجهلونه ، فهم كالنحل يتنقلون من زهرة الى زهرة لاجتناء مايطمحون اليه من ثمرات العلوم والفنون ، والبعض الآخر وهم لفيف الفنانين والـكتاب يقصدون بالزيارة حل رموز العلم وتلقى آيات الوحي

فى أقدم معهد للفنون بل فى الأرض التى أغدقت عليها الطبيعة نعمها الجزيلة وزينتها بالطرف النادرة واللطائف المستملحة ، وتحوم فى جوها ذكريات ترجع فى القدم الى بضعة آلاف السنين.

وهناك فريق ثالث يشخص الى مصر فى طلب المال ، وسوادهم الأعظم من رجال العسكرية والتجار والأطباء والمهندسين وذوى الابتكار للمشروعات والواقفين على الأسرار العجيبة وغيرهم ممن رفضت اختراعاتهم واستكشافاتهم في أروبا ، فهبطوا مصر ليضعوا غراسها فى أرضها العذراء وليجدوا بها أفهاماً يسهل عليهم بواسطتها التصرف فيها بحسب أهوائهم وشهواتهم

وممن يحضرون الى مصر التماس النزهة وتمتيع النفس أصحاب المقامات العالية والمراتب الخطيرة . وهؤلاء يعاملون بما هم أهل له من الاكبار والاجلال، إذ يحتفي سمو الوالى بلقائهم ويكرم مثواهم ويبذل المستطاع فى العناية بهم وحسن الالتفات اليهم . وكثيراً ما يخصص لنزولهم أحد قصوره الباذخة أو ينزلهم دور العظماء من رجال دولته .وإنا لنذكر بهذه المناسبة الحفاوة الباهرة التى لقيها (الدوق دى راجوز) و (البرنس بوكلر مسكو) وحديثا (البرنس لويس) شقيق ملك نابولى

أما السياح الذين لا ألقاب لهم ولا شهرة ، وإنما هم على شيء من الغنى واليسر ، فيجوبون القطر المصري في أمن وسلام ويتمتعون بكل ما يستطيع أحدهم أن يتمتع به من الطيبات . وذلك باستصدارهم من الوالى فرمانا [1] أي نوعاً من جواز المرور يتيسر الحصول عليه بواسطة قناصل الدول التى هم تابعون اليهـا .

٤٦ — تأثير الزيارة فى نفوس السياح

التأثيرات التي تتركها مصر فى نفوس السياح كثيرة التباين والاختلاف . واختلافهـا تابع لغرائزهم وأمزجتهم ، فأن

---

(١) كان هذا الفرمان يكتب كما يلى :

من ديواننا فى سنة ٠٠٠٠ من الهجرة

ان صديقنا القديم الحميم المسيو ن . (تذكر هنا الجنسية) جاء الي أملاكنا ليزور المعاهد الاثريه وغيرها من الاماكن المفيدة له فى ابحاثه . وقد قدمه الينا جناب قنصله . فبناء عليه قد سلمناه فرماننا هذا لينتفع ويستظهر به أثناء رحلته فى طول أملاكنـا وعرضها :

فعلى المديرين والمامورين وارباب الحل والعقد ملكيين وعسكريين وبالجملة كل من يقدم اليهم هذا الفرمان ان يعنوا بامره ويهتموا باداء الخدم التى يروم منهم قضاءها حتى لا ترفع الينا منه شكوى فيما بعد

ونوصيكم بعمل ما يلزم كيلا يلحقه حيف أو يوجه اليه شتم من الفلاحين أو غيرهم وأن تبادروا بموافاته بكل ما يحتاج اليه وأن لا يدفع ثمنا عنه الا ما يطابق السعر الجارى فى البلاد وذلك فيما يختص باجر ركوب الدواب والمراكب وثمن الاغذية الخ وانى اعتبر أن الخدمات التي ستؤدونها اليه كأنها أديت الينا بالذات

بعضهم يصلون الى ضفاف النيل وأدمغتهم ملأى بما تراكم فيها من الخواطر والهواجس قبل تحركهم للرحيل من بلادهم، فاستقر فى أخلادهم أنهم سيجدون بمصر، فيما عـدا الوسائل الحديثة لتوفير أسباب الراحة والهنـاءة والمزايا المادية التى هى ثمرة الحضارة والآثار القديمة الغريبة، عادات واخلاقاً تبعث على الدهشة والاستغراب فكانوا يعللون أنفسهم بالسرور الشديد أثناء ملاحظتهم إياها وبحثهم فيها ولكنهم متى استقر فى أخلادهم أن بلد الأهرام وابى الهول والمسلات ليس فيها من تلك الوسائل ما يسهل السفر ويذهب بمشقاته كما هو فى أوربا، بل متى علموا أنهـم لا يستطيعون الذهاب إلى الأهرام فى السكة الحديدية وأن ليس هنـاك طريق سلطانى أو إقليمي أو زراعي يصل الاسكندريه أو القاهرة بأطلال الـكرنك والأقصر الضخمة الفخمة، لا تلبث هذه الخيبة أن تحول عندهم إلى شكوى مرة أو كراهة بالغـة أوغيرهما مما يجعلهم يرون الأشخاص والأشياء فى غير مظهرها الحقيقى، فيؤدى خطأ الحس حتما الى خطأ الحكم والمبنى على الفاسد فاسد بطبيعته .

ولا يهمهم من الأمر أن يكون الجو معتدلا، والسماء

صافية الأديم، ماداموا يشعرون بأن الشمس محرقة وأن حرارتها لا تطاق . ومن أين لهم ، وهذه حالتهم النفسية ، التمتع بسكون الليل وصفائه اللذين يبثان فى الجسم والنفس نشوة السرور والفرح ، بل إذا كانت أنظارهم تقع على ماتثيره الرياح من الأعصار فيكفى هذا لأن يتأهبوا لالقاء يوم عبوس قمطرير . ومع اعترافهم بخصوبة الأرض ، تراهم يقولون إن مناظر البلاد وما يحيط بها من المزروعات تبث اليأس والقنوط فى النفوس لتجانسها وسذاجتها ، دع أنهم لايهمهم خصوبة أرض مصر مادام أن هذه الأرض لاتعدو كونها شريطا ممتدا وسط الصحراء القاحلة . ويضيفون الى ماتقدم قولهم إن الآثار القديمة ضخمة جليلة وأن ماتثيره من جليل الذكرى يتجه الى خاطر الرائى ويناجي فؤاده ، غير أن المدن الحالية قبيحة المنظر زرية الشكل وسكانها رجالا ونساء لايستر أجسادهم من الثياب البالية سوى قميص واحد . أما الأطفال فمجردون من الثياب بالمرة ، تبدو على وجوههم وأجسامهم أعراض الأمراض المختلفة ، وأن كل شيء تنبو عنه الأنظار لقبحه وبشاعته . يضاف الى ماتقدم كله مايستشعر الغريب به من القلق

والانزعاج وسط قوم يتكلمون بلغة غريبة صعبة ، ينشأ عن عدم العلم بها من الصعوبات والموانع مايبعث على الضجر والملل فى كل آن .

لهذه الأسباب ترى أولئك السياح الذين خابت آمالهم واضطربت أمزجتهم حتى رأوا كل شىء سواداً ، لا يتنفسون الصعداء إلا إذا توارت أرض مصر خلف مؤخر السفينة التى تنزح بهم عنها وتوقيهم بابتعادها رؤية تلك البلاد البغيضة اللعينة . فإذا ما عادوا إلى مواطنهم واستقر بهم النوى ، وكبر تأثر نفوسهم مما أصابهم من الفشل والخيبة فى رحلتهم ، أطلقوا لألسنتهم العنان فى ميدان ذم مصر والطعن فى أهلها ، كلما سنحت لهم فرصة . وإذا عمدوا إلى تدوين رحلتهم أبرزوها فى ثوب مبرقش بألوان لاتطابق الحق والعدل فى شىء

وهناك فريق آخر من السياح يذهبون مذهب الغلو فى عكس ماشرحناه من الشعور والتأثر . فأنهم لأعجابهم بكل جديد وتحمسهم له وشرههم إلى استطلاع مايدعوهم إلى العجب والدهش ، لا يستثنون من إعجابهم ودهشهم شيئاً مما تقع عليه أبصارهم . ففى نظر هذا الفريق ، ينبغى أن يشمل إعجابهم

واستحسانهم المرئيات التى تلفت أنظارهم سواء فى ذلك المنظر الخاص للقطر أو الشكل الغريب لمدنه أو أحوال سكانه الخ

لهذا السبب تراهم يسارعون إلى تقليد طرائق المسلمين فى المعيشة فيلبسون مثل ثيابهم ، حتى لقد صار من التقليد الشائع بين الذين يصلون حديثاً من الأفرنج ، أن يكتسوا في أقرب وقت بالثياب الشرقية . ومع أن الذين يلبسون الملابس الأوربية لا ينقص احترامهم فى نظر الناس بسبب لبسهم إياها بل يزيد ، فأن أولئك المقلدين يبررون فعلهم بأن الباعث عليه مجاملة أهل الوسط الذى نزلوا فيه ، بينما هم لا يقصدون فى الحقيقة إلا قضاء حاجة فى نفس يعقوب. فيكون من أشهى الأشياء اليهم أن يروا أنفسهم وقد لبسوا الثياب العريضة وتعمموا بالعمائم وحملوا إلى جانبهم سيفاً محدودبا . والذين يزعمون أنهم من الفنانين والعارفين بأسرار الثياب ، يفرطون من التشيع للثياب الأسلامية القديمة بما يدعو الناس إلى انتقادهم والتهكم عليهم . فأنهم يتعملون الرفق بالشرقيين فيرثون لحال الذين منهم هجروا عاداتهم المحمودة ليستبدلوا منها بعاداتنا .ومع أن استعمال العمة بمثابة لباس للرأس قد أخذ نطاقه يضيق شيئاً فشيئا بحيث أصبح استعمالها

لايتعدى أهل الطبقة الدنيا إلا قليلا ، فلا يزالون يتعممون بها .
كما أنهم يفضلون الآن القيطان الحريرى الذى كان الشرقيون يحملون به السيف قديما على المناطق الجلدية المستعملة عندهم الآن لهذا الغرض

وهناك فريق يطوح بهم حب التقليد الى حد السير على الأرض حفاة الأقدام فيخيل للناظر اليهم أنهم أصبحوا بحيث لايعرفون كيف يجلسون على الكراسي وأنهم ، لكي يوقوا نفوسهم ضرر الجلوس متربعين على الدواوين ؛ لامناص لهم من معاناة بعض الألم . ولكن الطرائق الشرقية لاتخاذ الأوضاع وحمل الثياب تستدعى ، بالرغم من مزاعم أولئك الزاعمين ، الاختبار والدربة . وإنه ليكفى أن يتنبه الانسان لما هنالك من التصنع والكلفة فى اختيار الثياب الشرقية وتسوية بعض أجزائها ، وفى خطأ الحركات والأوضاع في الجلوس والمشي ؛ للتمييز بين الذين اعتادوا ذلك كله بالمران والذين لم يعتادوه ومعرفة المقلدين الأوربيين المتنكرين بالثياب الشرقية بعد اطراحهم الثياب الأفرنجية .على أن هذا لاينفي وجود لفيف من السياح ذوى عقول راجحة ينصفون فى الحكم ويتحامون التحيز

والمتحاشين للغلوّ من يدركون حقيقة مركز الشعوب الشرقية ويقدرون البلاد وسكانها والأشخاص والأشياء حق قدرها ، فلا يأنفون من الرضوخ لمطالب الوسط وحكم العادات ، بل يستطيعون الحكم حكما صائباً على مصر التي أتاح لهم استعدادهم العقلي البحث في شؤونها بحثاً تنتظر منه الفوائد الشاملة والمنافع الجزيلة

٤٧ — أصحاب المشروعات

إن أصحاب المشروعات الذين يصلون أفواجاً الى مصر ، يزودون عادة برسائل التوصية . والمشتغلون منهم بالفنون العسكرية يقترحون على الحكومة المصرية الأساليب المستحدثة لتدبير القتال ، أو المبتكر من الطرائق لتعبئة الجيوش وترتيب أوضاعها في ميدان الحرب . ومنهم خبيرون في الشؤون المدفعية يقدمون اليها قذائف يقولون عنها إنها أصلح مايكون لاحراق المواقع الحصينة وأفتك ماشوهد بالدونمات . ومنهم من يكاشفها بسر تركيب السفن الغواصة أو يقترحون عليها الوسائل المختلفة لرفع الماء مؤكدين بأنها إذا روعيت تجيء بالمعجزات المدهشات ، أو يرفعون اليها مشروعا بصنع آلات يعزون الا قوة عجيبة

وبمناسبة أساليب رفع الماء نذكرهنا على وجه خاص ، أنها جربت مئات المرات وآلافها فأدى الامتحان الى إصابة أصحابها بالفشل والامتهان

ولقد رأينا فيما شهدناه بمصر أطباء من الدجالين يزينون للناس أنهم يملكون من أسرار طرق العلاج مايمتدحون لهم تأثيره الفعال ونتيجته المحققة النفع . وقد جاء أحدهم ، وهو من أهل مذهب الاوميوباتيا فى العلاج ، بدواء خاص أطرى فوائده وقال بصدق تأثيره فى الأمراض الثلاثة الكبرى المتفشية بمصر وهي : الدوسنطاريا والرمد الصديدى والطاعون . واقترح ، تحبيذا لهذا الدواء ، إلغاء النقالات العلاجية إذ قال انه يكفي الطبيب أن يكون فى جيبه علبة صغيرة من الأدوية لمعالجة جميع المرضى فى احدى فرق الجيش أو فى أحد المستشفيات . حقا إنه لم يقل بفائدة طريقته العلاجية في الأمراض التى تستدعي العمليات الجراحية ، بل جهر بأن علاج الجراح المتسببة من الرصاص والسلاح الأبيض تخرج من اختصاصه وأنه يكل العناية بأمرها الى الطب العادى . وشهدت دجالا آخر ذا شهرة واسعة ومزاعم أكثر من مزعم زميله المتقدم ، إذ جعل اختصاصه ادعاء القدرة

على انقاذ مصر كلها من فتكات الرمد الصديدى . ولقد كان هذا الرجل أسعد الأفاكين الذين من ديباجته حظاً وأشدهم دهاء ومكراً إذ استطاع ، زمنا ما ، التغرير بالناس وإدخال الغش عليهم فسهل له ابتزاز أموالهم على وجه فاضح جداً

ومما ينبغى الاعتراف به سرعة انخداع الأوروبيين بتغريرات من لا ذمة لهم من المتشردين والأفاقين على أثر مايظهرونه من المجاملة والتسامح ، بغير روية نحو أفراد هـذه الطبقة . فأنهم يسارعون الى تزويدهم بكتب التوصية على جهل منهم بحقيقة أمرهم وجلية خبرهم . وهو ماجعلهم يلقون من مظاهر الأجلال والتكريم ، لدى وصولهم الى مصر ، ما لا يستقبل بمثله إلا الكبراء والعظماء . وماهم فى الحقيقة الا لصوصاً يتبرأ الرجل الشريف من معرفته بهم

وفى استطاعتى أن أورد هنا حوادث عديدة ليس منها إلاما يدعو إلى العجب والدهشة . ولكننى اجتزىء منها بحادثة البارون (دى ولفنجن) الشهير الذى استقبل استقبال باهر من أهل الطبقات العالية في الاسكندرية إجلالا للقبة الدال على علو القدر ونباهة الذكر وتقديراً لكتب التوصية العديدة التى زود بها .

فقد بدأ هذا الأفاقي الحاذق بالنزول فى دار جليلة تبدو عليها مظاهر الأبهة والبذخ ، وإنفاق المال عن سعة وبذل ، واستقبال الزائرين من أهل البيوتات الكبيرة والأسر الكريمة . وكان لا يدور حديثه معهم إلا عن قصوره الشامخة وأمواله الزاخرة وخيراته الوافرة فكانوا يتسابقون اليه جميعاً رجاء أن يتفضل عليهم بأصدار أمر أو الاعراب عن أمنية ليتباروا فى تحقيقها على الفور ، وما من أحد منهم إلا وتقدم اليه بماله يسأله التعطف عليه بقوله ، وما من حفلة ليلية شائقة الا وأقيمت عنده أو جمعية صفاء وهناء إلا وأخذت مجلسها فى بهوه . واندرع جميع الناس يتفاخرون بأنهم ممن فازوا بحظوة المثول بين يدى البارون الذى كان ، والحق يقال ، من أعرف الناس بأساليب اللطف والأيناس وأوسعهم إلماماً بطرق مقابلتهم ومجاملتهم على ماتقتضيه مراسم الأدب . وما كانت تقع الانظار على ذى حيثية سائرا فى الطريق إلا ويجاوبك على سؤالك إياه : الى أين أنت ذاهب ؟ انى أقصد البارون . يقول ذلك بصوت ينم على شعور الكبرياء والصلف الذى دب فى نفسه ، ولا يحس عادة به سوى من يدعى الى لقاء ملك جليل الشأن .

وما كان أعظم يأس أولئك المغرورين وأشد شعورهم بالفشل حينما حامت الشكوك حول ذلك السرى العظيم وأصبحت يده صفرا من المال ولم تنفعه الحيل الجديدة فى تحصيله . فأنه لم يتمالك أن جبه أولئك الحمق ذات يوم بحقيقة أمره إذ قال : إن أمواله الطائلة وقصوره المشيدة فى المانيا ، لم توجد قط إلا فى مخيلته أثناء حديثه عنها وفى حماقة الذين سلموا اعتباطا بمبالغاته فيها . وقد خسر هؤلاء من جراء سذاجتهم وحسن اعتقادهم في هذا اللص ما لا يقل عن خمسين الف فرنك إلى ستين الفا . ولقد كانت هذه الغلة وافرة بالنظر إلى المدة القصيرة التى أقامها ذلك المحتال بالأسكندرية وهى نحو خمسة عشر شهرا الى ثمانية عشر

٤٨ — لوم يستحقه السياح

كثيرون من السياح الذين يزورون مصر يستحقون اللوم العنيف والتقريع الشديد ، لأنهم متى وصلوا الى هذا القطر ووطأت أقدامهم ثراه أعاروا أسماعهم الى الترهات والأقاويل التى تحملهم على إساءة الظن بالنزلاء الأوربيين والتسليم ، من غير بحث ، بأنهم فى حالة يرثى لها من التأخر ، وأنهم هم الذين يحملون

اليه وحدهم أنوار العلم والعرفان . وترى البعض منهم يصدرون الأحكام الجازمة فى المسائل الأدارية ويرون فيها رأيهم البات قبل أن يلموا بشيء من أحوال الوسط وساكنيه بل ويجرأون على موافاة الوالى بنصائحهم ومشوراتهم عن أعمال حكومته وسيرها ونظامها. وربما بلغ الطيش بهم أحيانا الى اتهام الأوروبيين الموظفين فى حكومته بقلة الكفاءة وشدة الجهل ، لأن بعض ماتم على أيديهم من الأصلاح لم يرق فى نظرهم إما لأنه لايفيد البلاد فائدة مؤكدة وإما لأن تحقيقه قد يعترضه من الموانع ما لا قبل لأحد على دفعه

وخطأ ذلك الفريق أنهم ، قبل رحيلهم الى مصر ، تجهزوا بمعلومات عنها اقتطفوها من مطالعة الكتب . فتوهموا أنهم يعرفون من أمرها مالم يعرفه غيرهم من الأوروبيين الذين يقيمون فيها منذ سنوات طويلة

وثمة فريق آخر منهم يستهجنون عادات البلاد وأخلاق أهلها استهجانا غير لائق بآداب المجاملة ، ويرون أن من بواعث السرور ودواعي الشرف والهمة أن ينتهكوا حرمة تلك العادات والأخلاق وأن يعبثوا بالحرية التى منحها سمو الوالى للأوروبيين

من فيوض مكارمه . فلقد شهدت بعضهم يحاول مخالفة الأوامر العسكرية حين أيقن أن فيها ما يناقض أراءهم ويزعجهم فيما اعتمدوه من قول أو فعل .

ويتبع هذا الفريق فريق آخر يسلكون مع المصريين مسلك الشدة والقسوة ويعاملونهم معاملة لا تليق بالمدنية التي ينتسبون اليها . وذلك لأنهم يعتبرونهم ككائنات حقيرة مرذولة خارجة عن نطاق النوع البشرى ويقولون ، جهاراً نهاراً ، أن ليس من الواجب مخاطبتهم بغير لسان الكرباج . ولأجل هذا تراهم يتزودون عند وصولهم الى مصر بالكرابيج يضربون بها ، من غير رحمة ولا سبب معقول ، الحمالين المكلفين منهم بحمل أمتعتهم وأشيائهم باعتبار أنهم دواب يسامون سوء العذاب ، وكذا يفعلون مع الحمارين والمراكبية الذين ينقلون هذه الأمتعة برسمهم من مكان الى مكان .

وقد عرفنا صرامة العقوبة التي يعاقب بها المسيحيون الذين يقوم الدليل ، في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، على اتصالهم بالنساء المسلمات اتصالا ينافى العفة والصيانة ، وأن المسلمين يعتبرون هذه الجريمة في الدرجة القصوى من الخطورة . وأن الامتيازات

الاجنبية تقضى على مرتكبيها بالأخراج من نطاق حمايتـها .
ثم ذكرنا مافى مصر من انحلال عرى الأخلاق انحلالا أفضى
ببعضهم الى الترخص فى العرض . وقلنا إن ذلك لا يوجد له مثيل
فى بقية الممالك العثمانية ، بمعنى أنه اذا ضبطت رجال الشرطة فى
مصر بعض الأوروبيـين متلبسين بجريمة انتهاك حرمة مسـلمة
وسلب عفتها ، فأن سوادهم الأعظم يطلق سراحهم بناء على ما
ذكر من الاسباب ، ولم تطبق تلك العقوبة عليهم . ولكننى
شهدت فريقا من الأفرنج لم يقدروا هذا التسامح حق قدره بل
عدوه الى مايصح أن يوصف بالعبث الذى لا مسوغ له

٤٩ — نصائح الى الرحالة والمسافرين

يجب على الرحالة والمسافرين الذين يصلون الى الاسكندرية
أن يقصدوا ، بعد نزولهم من السفن مباشرة ، الى دور القناصل
الذين ينتمون الى دولهم كى يحصلوا لهم على الفرمان المؤذن
بتنقلهم فى البلاد وطوافهم فى انحائها وجوبهم أطرافها . فأذا
لم يكونوا مزودين بتوصية خاصة الى واحد من أبناء وطنهم
المستعدين لأيوائهم وإكرام مثواهم ، مدة إقامتهم بذلك الثغر ،

فأنهم يجدون فى هذه المدينة من الفنادق والمطاعم مايليق بنزولهم فيها وأصحابها من جميع الملل والنحل

ويجب عليهم ، إذا هموا بالسفر الى القاهرة ، استئجار قارب أو زورق يصلون به الى النيل عن طريق ترعة المحمودية ، وهذه المسافة تقطع عادة في نحو اثنتي عشرة ساعة أو أربع عشرة . وفى نهاية الترعة ، أى عند مأخذها من النيل بجوار بلدة العطف القريبة من فوة ، ينزل الركاب من ذلك الزورق الى قارب آخر يصعد بهم فى النيل الى مدينة القاهرة، وهذه الرحلة الثانية يطيلها انعطاف النيل والتواء مجراه . فاذا كانت الرياح موافقة ظلت من يومين الى ثلاثة أيام، أما إذا لم تكن موافقة فربما استغرقت ثمانية أيام ، وأحيانا خمسة عشر يوماً ومهما . يكن من مشاق هذه الرحلة الناشئة عن شدة بطئها ، فخير للمسافر التدرع بالصبر لاحتمال مشاقها من اتباع طريق البر ابتغاء الوصول الى القاهرة ، لأن هذا الطريق متعب للغاية لاسيما وأن نظام النقل بين الاسكندرية والقاهرة لم يستتب حتى الآن

وأجرة القوارب للذهاب من الاسكندرية الى القاهرة تبلغ من خمسين فرنكا الى ستين للقوارب العادية وتزيد على ذلك

بحسب سعة المركب الذى يختاره المسافر واستيفائه وسائل الراحة وحسن منظره . وإذا كان المسافرون عديدين فأن الأجرة توزع عليهم فيصيب كلا منهم ما لا يكاد يذكر من المال

والنزول من المراكب ، عند وصولها الى القاهرة ، يكون فى بولاق ، مرفأ هذه العاصمة وموردتها

ويحسن بالمسافر أن يقضى بالقاهرة من ثمانية أيام الى خمسة عشر يوما . والحقيقة أن خمسة أيام منها أو ستة تكفى لزيارة ما يهم الأجانب الاطلاع عليه كالأسواق والمستشفيات ودور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات والمدارس والمقابر وإهرام الجيزة وصقارة

وبعد ذلك يعد معداته للصعود فى الوجه القبلى حيث الآثار التي تلفت أنظار الرحالين . والواجب قبل كل شيء ، فى هذه الحالة ، الحصول على قارب جيد واستئجاره بأجرة تختلف من الف قرش الى الف وثمانمائة شهريا وتتضمن هذه الأجرة النفقات الخاصة بالنوتية من طعام وغيره . والأفضل أن يحرر مع الريس صاحب المركب أو ربانها عقد لابرازه عند الحاجة لدى السلطة المحلية ، خصوصاً اذا لم يف صاحب القارب بوعوده

ولم يقم بعهوده. ومما يفيد المسافرين كثيرا ، أن يكون استئجاره القارب بالشهر لا باليوم ، ويحسن به الاحتياط ، فيأخذ معه بعض ما يلزمه من المؤن كالبن والسكر وغيرهما من الاشياء التي يتعذر الحصول عليها داخل البلاد . أما اللحم والبقول والخضر والفواكه والبيض واللبن الخ . فالحصول عليه ميسور على طول الطريق بأبخس الأثمان

ولا بد ، قبل مبارحة القاهرة ، من استخدام ترجمان من أهل البلاد ليقوم بالترجمة ، ويشترط معه في ذلك أن يكون ملماً باللغتين التركية والعربية . ومن الممكن الحصول على ترجمان جيد بمرتب مئة وخمسين قرشا شهريا . وغنى عن البيان أن التراجمة المصريين لا تتوافر فيهم الشروط المتوافرة فى التراجمة والأدلاء الايطاليين حذقا وإلماماً بالشؤون العامة . فانه اذا كان التراجمة لا يدرون فتيلا من تاريخ الآثار التي اعتزم الرحالة زيارتها ، فلا مناص لهم من محاولة التفاهم بشأنها مع أهل البلاد ، وربما اضطرتهم الضرورة الى مواجهة السلطة المحليه لسؤالها عما يجب الوقوف عليه والالمام به

ولذا كانت الريح موافقة عند السفر من القاهرة ، فمن

الأنسب الصعود فى النيل الى أقصى نقطة منه فى القطر المصرى. ومن ثم يسهل عليهم ، فى أى وقت شاءوا ، العودة من هذه النقطة متجهين نحو الشمال والرسوّ بحسب الأرادة فى الأماكن والبقاع التى يودون زيارتها على الضفتين ، لأن المركب يكون فى هذه الحالة مسوقاً بقوة التيار

٥٠ — صفات أقوام الافرنج وطباعهم

الاروبيون الموجودون بالقطر المصرى ، سواء أكانوا رحالين أو مقيمين به ، تابعون لجميع الملل والجنسيات . فمنهم الفرنسيون والانكليز والألمان ، وعلى الخصوص الايطاليون الذين اضطرتهم حوادث الثورات فى مقاطعتى (بيمونت) و (نابولى) الى التغرب . وجميعهم يحتفظون فى أرض مصر الكريمة بالعلامات المميزة لصفاتهم وسماتهم الجنسية

أما الانجليزى ، فمن أشد الجاليات الاروبية حرصاً على عاداته ، إذ تراه فى القاهرة كما فى لوندرة لا يستطيع الاستغناء عن أكل البيفتيك أو الروزبيف أو جبنة شستر أو المشروبات القوية. ولا أنس له إلا بأبناء جنسه إذ لا يختلط بغيرهم إلا قليلا . وبالنظر

الى صلابة أخلاق الانكليز والتزامهم الوقار فى أساليبهم والجد فى معاملتهم ، تراهم يؤلفون فى الشرق أسمى طبقات الجاليات الأجنبية وأشرفها وأصونها اسكرامتها

أما الفرنسيون الذين يناقضون الانكليز فى طباعهم وميولهم ، فأنهم يسلكون فى مصر كما فى غيرها من البلدان مسلك الطيرورة وسرعة التحمس للشيء ثم التضجر والملال منه . ومع هذه النقائص فالشرقيون يؤثرونهم بمحبتهم لما جبلوا عليه من الأدب الغض والذكاء الحاد وحضور الذهن والبشاشة والكياسة. وهذه الطباع ، إذا أضيفت الى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها تحمل الوطنيين على إيثارهم بميلهم ومحبتهم

أما الألمان فيمتازون بمعروفهم ودماثة أخلاقهم وحسن سريرتهم . والمقيمون منهم بالقطر المصرى قليلو العدد وهم على الغاية من كرامة النفس وشرف الخصال

أما الايطاليون من ذوى الحيثيات ، وعلى الخصوص الذين أصلهم من المقاطعات الشمالية ، فجوامع الشبه بينهم وبين الفرنسيين كثيرة . وفى القطر المصرى إيطاليون كثيرون من أهل الطبقة الوسطى كانت أخلاقهم وعاداتهم سبباً فى إلقاء كثير من التهم ،

الجائرة على أكتاف أمة بأسرها تعُدّ بين بنيها ، كغيرها من الأمم الأخرى ، رجالا جديرين بالاحترام التام لاقتدارهم وسعة معلوماتهم وطهارة أخلاقهم وسمو آدابهم

الباب الثالث
الحكومة والانظمة والسياسة

١

اسباب ظهور الحركة المدنية في الشرق
منذ هذا القرن

١ — لو لم تظهر آيات الحضارة بالقطر المصرى فى هذا الزمن وتتجلّ للأنظار آثار قوة انبعاثها ، لما عرت المسئلة الشرقية التى يعتبرها رجال الصحف وأساطين السياسة كافة أس مسائل السياسة الخارجية التى شب ضرامها فى أوربا منذ سنوات عديدة ، تلك الوجفة التى زلزلت أركان العالم السياسى فى هذه الأيام

ولو لم يستعر الباب العالى من جهة أخرى شيئاً ما من مظاهر حضارتنا ، لما تحركت لأوربا نبض أو اشرأبت لها عنق اهتماماً بأمره

بل لما شك أحد في سقوط تركيا من علوة مجدها السامق

فبدهيّ إذاً أن يتساءل الناس عن الحضارة التى ظهرت فى الشرق آيات حركتها منذ أوائل هذا الجيل

فأذا كان ما نشهده في الشرق من آثار المدنية ثمرة أنضجتها حرارة الزمن والحد الاقصى لشوط التقدم المستمر ، فليس بمستطاع الجواب ، في بضع كلمات ، على هذا السؤال الذى يتطلب موضوعه درساً خاصاً وبحثا عميقا يتناول الدولة التركية فى شؤونها الداخلية كافة

وإنما الحركة الحاضرة إحدى الحركات الطرآنية التى لا يتأتى انبعاثها من جماعات الناس ، بل انبعثت من رجل واحد أو رجلين . فلا بد أن يكون هنا اذاً باعث كبير طرأ،هو الفعل أو رد الفعل الناجمان عن حادث خطير لن يتعذر على أحد استكشافه

وللحوادث العظمى دواما ، على ماهو مقرر ومفهوم ، نتائج لا ينتظر الذين سببوها أو شهدوها رأى العين وقوعها فى الحين الذى تقع فيه . ففى سلسلة الحوادث التى لا يعدو المرء أن يكون فيها مسوقاً بقوة الى غاية يجهلها ، تجلى القوة الألهية المهيمنة على

شؤون البشر جميعا . ولقد فطر الانسان على حب استكشاف الصلة السرية التى تربط الحوادث بعضها ببعض ، وعلى قدر المقدمة يتوقف عادة قدر النتيجة

فمقدمة حركة الحضارة التى بدت آثارها الآن فى الشرق هى الحملة الفرنسية فى مصر

لم يوفق نابليون بونابرته فقط لتحديد مجرى الأحوال فى أوربا والاشاعة باسمه فى طول هذه القارة وعرضها ، بل هزت يده القوية الأساطين التى ظن الشرق القديم أنها دعامة بنائه التى لا يزلزلها الحدثان . ولما رأيت الآثار الجليلة التى خلفها من ورائه لم استطع الجزم فى هل كان أثره فى آسيا أقل من أثره فى بلاد الغرب

أما الحملة الفرنسية التى ساقت الى مصر أشجع فرق الحرب الأيطالية أى الجنود الذين عادوا مكللين بأكاليل المجد والغلبة فى وقائع (لودى) و (أركول) فقد كانت أشبه شىء بصاعقة هوت من السماء على الشرق فأيقظته منزعجا من سباته الطويل . وكانت الأساليب القديمة فيه قد بقيت الى ذلك العهد على حالها لم يتناولها تغيير ولا تعديل . وكانت الدولة العثمانية قائمة بحروب طويلة ضد

الروسيا والنمسا ففازت بالنصر تارة وباءت بالخذلان أخرى . لكن هذه الحروب لم تغير شيئا من أفكارها العتيقة ولا من عقائدها التى أكل الدهر عليها وشرب . ومع هذا فأن الروسيين والنمسويين لم تقتف المدنيـة أثر جيوشهم لأنهم لم تكن لهم مصلحة فى نشر أنوار العلوم والمعارف بين الاتراك . وكانت الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية تعتقد أنها بعيدة المنال على من يرومها بفتح أو قهر، وأنه لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض دولة تبلغ مبلغها عزا ومنعة . ذلك لأن ذكرى فتوحاتها القديمة كانت لاتزال عالقـة بأذهانهم ولأن الدول الأوربية لم تنتزع هـذا الوهم من نفوسهم ولم ترشـدهم الى الصـواب من أمرهم ، بل كانت تزيد تلك الذكرى استقرارا فى نفوسهم بعجزها البين عن القضاء على قرصان المغاربة الذين كانوا ، في ذلك الوقت ، يقاتلون أوربا ويجبهون الدول جمعاء بجرأتهم ويفرضون عليها صنوف الفدى وأنواع الأتاوات

ومن جهة أخرى ، كان المماليك القابضون على زمام الحكم والسيادة فى مصر يعتقدون أنهم فى طليعة جيوش العالم منعة وعزة جانب ، كما تثبته لك النادرة التالية التى تشير من جهة أخرى الى مابلغ اليه أولئك البكوات من الضعف الممزوج بالحمق المضحك

والجهل المزرى بهم :

لما استولى بونابرت على جزيرة مالطة أراد المسيو (روسيتى) قنصل النمسا وبعض الدول الأخرى فى القاهرة وقتئذ وأحد أكابر تجار القاهرة ومعتبريها وصاحب الحول والطول والكلمة المسموعة لدى المماليك ، إذ كان القيم على تدبير شؤونهم والمتعهد بتوريد مايلزم من حاجياتهم ، أن يوافيهم بهذا الخبر ويحذرهم من عاقبته . فبادر بمقابلة مراد بك زعيمهم ، وكاشفه بهواجسه وما وقع فى نفسه من عزم الفرنسيين على النزول الى برمصر ، وألح عليه فى اتخاذ وسائل الحيطة للذود عن حياضها ، فكان جواب مراد بك على هذا التحذير أن قهقه ضحكا حتى كاد يستلقي على قفاه وقال: مامرادك من إخافتنا بالفرنسيين؟ ألم يكونوا أشباه الخواجات — التجار — الذين نراهم بيننا ؟ إنه ليكفينى ، إذا نزلوا الى بر مصر فى مائة ألف من رجالهم ، أن أبعث للقائهم بعض التلاميذ من المماليك ليقطعوا رؤوسهم بحد الركاب (١) . فحاول المسيو روسيتى جهده عندئذ لاقناعه بأن

---

(١) كان المماليك يتخذون في استوائهم على خيلهم ركابا عريضاً قاطما من ضلعيه الأمامى والخلفى وكانوا يستعملونه كسلاح قاطع ضد المشاة والفرسان من العدو بل ضد خيل هؤلاء فيصيبونها بالجراح البالغة

الفرنسيين قد فازوا بالنصر المبين فى إيطاليا وأنهم غير التجار المساكين الذين اعتاد أن يراهم فى أسواق القاهرة . ثم أعاد كرة الألحاح بتحصين الاسكندرية ، فلم يأت تحذيره إياه بفائدة لأنه لم يشأ أن يعمل به وأراد أن يجامله ، فأرسل الى هذا الثغر قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها

وحدث بعد ذلك بقليل أن وصل الفرنسيون الى الاسكندرية ونزلوا الى البر واستولوا عليها ، وانتهى هذا النبأ الى علم مراد بك فاستدعى المسيو (روسيتى) على الفور ، وقال له بصوت المغضب : إن أولئك الفرنسيين الوقحاء اجترأوا على وطأ ثرى بر مصر ، وطلب منه أن يكتب اليهم على لسانه بالمسارعة الى الجلاء فى أقرب وقت . فلاحظ المسيو (روسيتى) قائلا : «ولكنهم يامولاى لم يأتوا الى هنا ليعودوا كما جاءوا عند أول إشارة تصدر اليهم منك » . فقال مراد بك وقد تولاه الجزع الشديد : « وماذا يريد هؤلاء الكفار اذاً ؟ ماذا يبغي هؤلاء المتشردون الذين يموتون جوعاً ؟ إن كانوا طامعين فى مال فارسل اليهم بكذا الفاً من البطاق (أى خمسين الف فرنك تقريباً) وليزايلوا مكانهم . فرد عليه المسيو (روسيتى) قائلا : « ولكن

هذا المبلغ يامولاى لايعدل أجرة شحن أصغر سفينة نقلتهم إلى مصر . والأحرى بكم والأولى من هذا كله أن تأخذوا عدتكم للدفاع »

لم يستطع مراد بك أن يدرك بأكثر مما تقدم معنى جرأة الفرنسيين وإقدامهم على الحضور الى مصر لمنازلته . ذلك لأنه كان مزدهياً بقوته ومغروراً بعلوه إلى حد أنه لم يعبأ بهم ولم يرسل للقائهم بادىء الأمر سوى شرذمة من الجند . ولم يرجع عن غروره وصلفه وفرط اعتداده بنفسه إلا حينما فتك الفرنسيون بهذه الشرذمة فى أول لقاء لهم بها ، وعاد من بقى من رجالها يخبرون مولاهم بأن الفرنسويين لم يكونوا كما توهمه أول وهلة ، ففطن عندئذ لأمره وأدرك حقيقة الخطر المحدق به . وكان أول جرح أصابه فى كبريائه وعزته ، اندحار جيوشه فى معركة (شبراريس) التى لم تنته حتى أعقبها اندحارها فى معركة الاهرام المعروفة

وفى هذه الرواية الصحيحة من كل وجه مايدل على مبلغ ازدهاء المماليك بأنفسهم ، وجهل الذين كانوا فى عهدهم يقبضون على دفة إدارة الحكومة فى الدولة العثمانيه . لأنه إذا كان ذاك

شأن الزعماء والحكام ، فماذا يكون شأن عامة الناس الذين لم يكن لديهم من الوسائل ما يستطيعون به أن يعرفوا شيئاً عن أوروبا وحقيقة أمرها ومحض كيانها ؟ فمن الميسور والحالة هذه تقدير الانقلاب الكبير الذي أحدثه في نفوس الشرقيين ما أحرزته فرنسا من الانتصارات الباهرة ، على مشهد منهم فكان علمهم بها أشبه المرائي بالتجلي الذي يؤتاه المرء على غرة منه . ولا شك أنهم أدركوا أهمية الوقوف على الوسائل الجليلة التي كان من آثار تنفيذها ما افضت اليه معركة عين شمس مثلا من استطاعه جيش لم يتجاوز عدده تسعة آلاف أوربي التغلب على جيش مؤلف من ثمانين الف تركي وأن يمزق شمله ويقضي عليه قضاء مبرما

ولما بهر فوز نابليون أنظار المسلمين وفتن عقولهم انتهى الأمر بهؤلاء ، وقد أيقنوا بالاختبار والعيان أن الغربيين يسمون عليهم سمواً كبيراً في الشئون العسكرية ، الى أن يتمنوا عن طيب نفس لو تمت عندهم الاصلاحات في هذا الباب وان يكون رائدها التجربة التي أظهرت فوائدها المدنيــة الأوروبية

ومن رجال الحرب الذين جاءوا الى مصر لقتال الفرنسيين بطل مقدوني ساقته المصادفة الحسناء اليها ، هو الرجل التي شاءت

القدرة الأزلية أن يستفيد من أعمال حملة بونابرتة بما تركته من الأثر فى أحوال الشرق . ومن محاسن الاتفاق أنه تلقي من فرنسى يدعى المسيو (ليون) من مدينة مرسيليا أول عبارات التشجيع التى نبهت فى نفسه الآمال وأيقظت المطامع فيها من نومتها

بلغ محمد على الى أسمى المراتب فى الحكومة المصرية مجتازاً من الصعوبات مالا حصر له فتغلب عليها ، تارة ببسالته وإقدامه وطوراً بدهائه وصائب رأيه . والحقيقة التى لا مراء فيها أن نابليون أو بعبارة أخرى فرنسا ، هى التى أخذت بيده فى الطريق وفتحت له مغاليق الأبواب ، فنابليون وفرنسا كانا يعدلان فيما أصاب من النجاح نصف طالعه السعيد ، لأنهما بفوزهما على المماليك ، أصحاب السيادة الحقيقية على مصر فى ذلك الوقت ، وانتصارهما عليهم في ثلاث معارك كبيرة ، مهدا له طريق الوصول الى الغاية البعيدة التى كان يرنو اليها

ولا يزال محمد على ، وهو القابض الآن على زمام الحكم ، مؤيد الجانب من الفرنسيين . فلكأن لفظة الفرنسى أصبحت حرزه الحريز وطلسمه الجالب للخير والدافع للشر . وكان فى

القطر المصرى للحكومة الفرنسية قنصل اسمه (دلسبس) كان أول من وافاه بنصائحه ومشوراته. وجاء من بعده المسيو (دروفتى) الذى أحرز عنده نفوذاً كبيرا ومكانة عالية، ليس فقط باعتبار كونه وكيلا لامتنا بل أيضاً باعتبار أنه من البارعين الماهرين فى الفنون العسكرية . وبالجملة ففى عهد قناصلنا الجنراليين الذين تعاقبوا على كرسى القنصلية الفرنسية، مابرحت الروابط بين فرنسا وسمو الوالى وثيقة العرى قائمة على أساس المجاملة وحسن التفاهم

وكان مما يهم محمداً عليا، بعد إذ تسلم أزمة الحكم، الاحتفاظ بها حتى النهاية. فلكى يصل الى هذه الغاية استهدى بخطط نابليون وسياسته مستفيداً من عظات القتال مع الفرنسيين وعبره. وكان يرى أنه لا بدله فى الاحتفاظ بسلطانه، من جيش قوى منظم لا على الأساليب التركية، فيكون جيشاً نزوعاً الى الفتن والاضطرابات متهدداً على الدوام حياة الذين يجرون عليه الأرزاق والأعطيات، بل جيشاً خاضعاً للقوانين والنظام، قادرا على اعتياد التدابير العسكرية ليكون الفوز مكفولا له فى ميادين القتال. فالغرض الأول الذى قرطس محمد على سهمه فيه، انما هو احتياز زمام السلطة والحكم. فلما تم له ذلك رمق

غرضاً ثانياً ألا وهو ضمان بقاء ذلك الزمام بيده . ولقد ظهرت كفاءته واضحة فى أجلى مظاهرها باختياره أنجع الوسائل لأصابة الغرض الآنف الذكر الا وهو تنظيم جيوشه طبقاً للأساليب الحديثة

ولست أدعو أحداً الى اعتبار والى مصر واحداً من رسل الحضارة والمدنية ، بل أدعو الى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين وأنه ، مع كونه لم يعلم شيئاً من شئون الأمة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل ، قد سلك مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم أولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك

وعلى أثر تنظيم الجيش والدونتمة بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين ، وبأنوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم أقيمت معاهـد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام إدارتها والخدمة فيها الى فريق من الفرنسيين . ومن ثم يرى أن الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى ما برحت تسوقها الى الأمام حتى اليوم

غير أنه لا ينبغي أن يخطىء القارىء في الأمر أو يعسر عليه إدراك سره ، فان الذي أثار تلك الحركة ونبهها من خمودها إنما هو ذلك الرجل العظيم ، بما فطر عليه من كرم الشمائل ونبالة المقاصد وأصالة الرأى وبعد النظر . أما الشعب المصرى فلم يساهمه قط في شيء ما من التصميمات التي أقرها، ولا في اختيار الوسائل التي استحسنها لتنفيذها . بل ألقى في طريقه كل ما استطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، وأقام في وجهه الاعتراضات الجمة عليه . ولقد رأى محمد على عندئذ أنه ، لايلاف ذلك الشعب وتعويده الأنس بتلك الأنظمة الجديدة ينبغي العمل لأزالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله الى التشبث والعناد .

ولا يأخذن المصريين أحد بجريرة هذه النزعات ، فأن الروسيين لم يشدوا إزر بطرس الأكبر فيما تصدى لأجرائه من جلائل الأعمال وإدخاله على شؤونهم من نافع الاصلاحات . وتلك شنشنة معروفة عن الأمم في أدوار ارتكاسها وتنكسها . كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها الي الغايات العالية في الحضارة والرفاهية ، تعرضت

له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت في طريقه العقبات والمصاعب

لم يذكر التاريخ مثلا لأمة نهضت بدافع من نفسها ، لبناء صرح المدنية وإقامة معالمه . وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد امتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية ، فدعوا الى مشاركتهم في عملهم أبناء وطنهم . وكثيراً ما لجأوا في تنفيذ مقاصدهم ، إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم ، إلى وسائل العنف والشدة . وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لأمكان تطبيق المنطق عليه . فقد جبل الانسان على أن لا يهتم إلا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه ، وأن لا يتحرى المزايا والفوائد إلا بنسبة أهميتها وضرورتها لشخصه . ولما كانت الشعوب التي على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشيء من الحاجات عادة ، فانها تجهل طبعاً فوائد المدنية ومزاياها ، ولا يتاح لها تقدير أهميتها إلا إذا رضخت لارادة رجل تأججت في صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا في ذلك بتلك الشعوب ذاتها . وإنما عبقرية الرجل العظيم في تقديره أهمية ما يراه من الوسائل محققا لمراده ، ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بعصر هذا ولم يبدأ بتطبيق الاصلاحات الحديثة ، على الطراز

الأوروبى بالأستانة إلا من باب المجاراة والمنافسة لمحمد على . ولعل السلطان محموداً تذكر وقتئذ ما كان من انصراف سلفه السلطان سليم الثالث إلى فرنسا فى أن توافيه ببعض البيانات اللازمة لأدخال النظام والترتيب على جيشه

يؤخذ مما تقدم أن الاصلاحات فى تركيا لم يبدأ بها إلا بعد أن تم فى مصر تنفيذها ، ولم يقصد بها فى الحقيقة سوى مناظرة محمد على كيلا يقال إن المتبوع أصبح ، بالنسبة الى تابعه ، فى طريق التقدم من المتخلفين . وإذا جاء تطبيق الاصلاحات فى مصر مقروناً بالنجاح مكفول الثمرات، فأنما الفضل فى ذلك يرجع الى تأثير الحملة الفرنسية فى شؤون مصر وأحوالها. وهو ما يستخلص منه أن فرنسا ونابوليون كانا سبب حركة الحضارة التى ظهرت فى الشرق ، وتولى محمد على غراسها فى مصر وتعهدها بعنايته حتى أينعت ثمارها على ما هو مشاهد اليوم

٢

الحكومة في مصر

ادارة الأقاليم فى عهد باشوات الباب العالي — آراء محمد على فى الادارة — تشكيل المجالس الخصوصية والدواوين فى مصر

٢ — لقد كان المفهوم أن تدار حكومة مصر ، بالنظر الى كونها إقليما تابعاً للسلطنه العثمانية اسما لا فعلا ، بحسب قوانين هذه السلطنة وانظمتها الأدارية ، إذا صح أن لها قوانين تسير على منهاجها . ولكننا نعرف كيف تشكلت الدولة العثمانيـة وأن خلفـاء عثمان لم يخطر قط ببالهم ، عندما دوخوا الممالك وفتحوا الاقاليم وأخضعوها لسلطانهم ، أن ينظروا فيما إذا كانت هذه الأقطار تتكون منها ، باجتماعها بعضها الى بعض ، حكومة متجانسة العناصر داخلة فى نطاق حدودها الطبيعية

كلا ! لم يفكروا في شيء من ذلك ولم ينظروا فيه ، بل جعلوا مقصدهم الوحيد ، بلا روية ولا تبصر ، ضم بلاد الى بلادهم وإلحاق أرض بأرضهم على طريق الجزاف والمصادفة . وكأننـا بهم وقد استدرجهم الزهو والغرور ، فبدلا من أن ينشئوا ضمن

دائرة محدودة ، وإن تكن كافية ، حكومة منتظمة كان المرجو أن يساعد انتظامها على تنمية قوتها ، بددوا سيادتهم الاسمية فى أقاليم وأقطار سحيقة عن عاصمتهم بطول الشقة وانفراج ما بين الأخلاق والعادات والأجناس واللغات ، منفصلة عنها بذلك أكثر من انفصالها بالمسافات الطويلة والحواجز الطبيعية ، فأضعفوا لهذا السبب أعصاب سلطتهم الحقيقية بقدر ما أعطوا من السعة والامتداد لمظهرها الخيالى . وكانوا غلاظاً فى السياسة فلم يهتموا إلا يسيراً بتفاصيل إدارة الأقاليم التى أرضخوها لحكمهم . وكانت أهمية الولايات (الباشلكيات) تقدر فى نظرهم بما يرد من محصولها وأموالها على الخزانة العامة . وهو مادعاهم الى أن يعهدوا إدارة الولايات الى أقدر الباشوات على تقديم أعظم ما يمكن من أموال الجباية . وكانوا يعطون الأقاليم التى يربو نفوذهم وسلطانهم فيها عليهما فى غيرها ، بطريق الالتزام لمن يقدم أوفر عطاء . بل كانوا يعمدون الى المساومة فى إعطاء هذه الالتزامات كما لو كانت تجارة أو احتكارا ، وكانوا يطلبون من الملتزمين ، اذا شبت الحرب ، إمدادهم بالجنود والسفن ليس إلا . فلم تتعد الروابط السياسية بينهم والولايات التى فتحوها بسلاحهم هذا الحد

وكان أرفع الباشاوات مقاما وأجلهم شأنا في نظر الباب العالى أكثرهم توريدا للأموال . وكان الواجب أن تكون الحالة غير ذلك بالنسبة لتلك الأقاليم ، فأنه بقدر ما كان يناله الوالى من الحظوة والزلفى لدى الديوان بموافاته إياه بأكثر مايكون من المال ، كان يتذرع بسلطته للضغط على الأهلين والسلوك معهم مسلك الجور ، ويبتز مابأيديهم من المال . ومن أين كان له أن يعمل لمحض خير الولاية الموكول أمرها اليه ؟ نعم إن هناك مستثنيات لكل قاعدة ، ولكنني لا أفرض وجودها هنا إلا من باب التجوز والتسامح ، تكريما للفطرة البشرية وحسن ظن بها . وإلا فهل كان مما يسلم به اتفاق مصلحة الولاية ، والأحوال فيها على مارأيت من الظلم والاستبداد ، مع مصلحه الوالى الخاصة ؟ بل هل كان من المستطاع أن يتفق مستقبله مع مستقبل محكوميه ويمتزج به ؟ كلا ! لأنه إذا ترك الجرح الذى أصابهم به ليمتص منه دماءهم ويستلب أموالهم يملأ بها صناديقه ويسدد ديونه ويعمر خزائن حماته والذادة عنه فى الأستانة ، لايلبث أن يصل اليه فرمان الخلع فى الحال أو أنشوطة ينصرم بها مع حبل إدارته حبل عمره أيضا . فمن غير الممكن للوالى في

مناصب الولاية توافر الضمانات الكفيلة له بالترقى والاستمرار على العمل ، مالم يبهظ عواتق محكوميه بمختلف الفرض والجبايات. ثم لاينسى أن له مصلحة كبرى في الضغط على محكوميه ليس فقط بدافع الطمع ، وهو الشعور العام فى بلد يرتفع المرء فيه بالدسائس من أحط الدركات الى أعلى الدرجات ، بل أيضا بسائق قوى من غريزة حفظ الذات ، وهى صوت الطبيعة الآمر ونداؤها الذى لست أظن أن من بين الرجال من يقدر على مقاومته

يفهم مماتقدم أن علائق الولاة مع الديوان كان لامناص من أن تلقى الأمة فى حمأة الهمجية ، وتحول بينها والوثوب فى طريق التقدم والنجاح . دع أنهم كانوا يجعلون استبداد القوة من مظاهر منصب الولاية ، حتى بلغ من أمر هذا الاستبداد أن جميع الحقوق ، إلا ما كان متعلقا منها بالدين ، لم يستطع أحد الجهر بها . وتلك إرادة الولاة وسلطتهم المطلقة وسيرهم بين الناس بالحيف والعسف . ومما لاريب فيه أن هناك أنظمة كثيرة ركنها الاستبداد وقتها التحكم ومطلق التصرف ، ولكن هذا الاستبداد كان شائعاً فى كل أرجاء الدولة العلية إذ كان ينبعث من

المركز متشععاً فيما حوله كما تتشعع أنصاف أقطار الدائرة الى جميع نقط محيطها

أما محمد على فقد عرف كيف يوطد دعائم شوكته ويرسيها على القرار المكين. فهو أول عثمانى استطاع إدراك الافكار النافعة فيما يتعلق بالحكومة والادارة . وهو أيضا أول من أبرزها من حيز العدم الى عالم الوجود

نعم إن سلطته مطلقة ، ولكنه أحكم التدبير بتحاشيه عن الحكم الاستبدادى الذى كان لمثله ، فى شوكته وقدرته ، أن يجرى على خطته إذ شكل لنفسه مجلسا خاصا اعتاد المداولة مع أعضائه فى جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل الشروع فى تنفيذها . وألف لكل فرع من فروع الادارة مجلسا من الاخصائيين ، فكان هناك مجلس للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة وآخر للتعليم وغيره للصحة الخ . وكان هناك مجلس عام فوق هذه المجالس جميعا يدعى بمجلس الحكومة ، من اختصاصه النظر في جميع أقسام الحكومة . وكان إذا عنت الحاجة الى وضع قرارات مهمة فى الزراعة أو الأشغال العامة الخطيرة ، يعقد مجلسا لذلك يجتمع فيه حكام الأقاليم ومديروها

ولقد أدرك ، أول وهلة ، أنه لأجل تسيير الأدارة فى المنهج القويم ، لابد من العناية بتقسيم الحكومة الى فروع مختلفة . وقد شكل فعلا هذه الفروع وجعل على رياستها الوزراء والنظار فأنشئت على التتابع وزارات الداخليه فالحربية فالبحرية فالمعارف العمومية فالمالية فالخارجية فالتجارة

ومن المؤكد أن هذه المعاهد الحكومية لم تبلغ درجة الأتقان والنظام المرجوة من أول أمرها . إلا أن هذا لايخلينا من تبعة الاعتراف بالجهود التى بذلها سمو الوالى فى هذا السبيل ، وبما بثه من النظام وحسن الأساليب فى إدارة الأعمال ، بل بما أظهره من صدق الأرادة بأدخال النظام الأدارى فى بلاده على وجه يثبت تقديره لأهميته ،

ومما لامشاحة فيه أنه إذا توافر عنده الوقت الكافى وانتهى من الأعمال التى يعنى الآن بأنجازها وخرجت المدارس العدد الكافى من الأكفاء ، ستتحلى مصر بحلية نظام دستورى ثابت يكون قد قتله ، من قبل ، فحصا ودرسا ونظر فى وسائل تنفيذه من الوجهة العملية

وعلى كل حال ينبغى لأوربا أن تعلم علم اليقين أنه إذا

اغتصبت من مصر السلطة التي أقام محمد على صرحها لتمطى الى الباب العالى ،فان ذلك القطر لا بد له أن يهوى فى مهواة من التأخر لاقرار لها . واللازم لمصر الآن أن تكون لها حكومة خاصة منظمة تنظيما متينا ، فقد قال نابليون إن للحكومة فيها من التأثير أكثر مما للحكومات الأخرى فى بلادها ، خصوصا إذا كان الغرض المقصود تعزيز ثروتها العامة . وسمو محمد على جدير، ولا شك ، بالمكافأة لأنه أول من أرسى فى مصر قواعد إدارة حكيمة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية للمحافظة على كيانها

٣

الوظائف الادارية الكبرى

التى استحدثها سمو الوالى

الموظفون الجدد : المديرون والمأمورون والنظار ومشايخ البلاد والخولية والصيارفة والشهود — شرطة القاهرة

٣ — الموظفون الجدد

رأينا فيما تقدم أن محمدا عليا غير تقسيمات القطر المصرى

وبدل منها بتقسيمات إدارية تكفل للسلطة حصر الموارد ووحدة العمل . وكيفية ذلك أنه قسم مصر الى سبع حكومات أصلية جعل عليها قومة يسمون بالمديرين . ومن تلك الحكومات اثنتان يتألف الوجه البحرى منهما وواحدة تتألف منها مصر الوسطى وأربع يتألف منها الوجه القبلى . وكل حكومة أومديرية تنقسم الى مراكز والمراكز إلى أخطاط

أما المراكز فرؤساؤها يدعون بالمأمورين ، وأما الاخطاط فرؤساؤها يدعون بالنظار والخط يشمل فى دائرته جملة قرى لكل قرية رئيس يدعى بشيخ البلد

٤ – اختصاصات هؤلاء الموظفين

يتصل شيخ البلد مباشرة بالفلاحين الذين يلجأون الى قراره وحكمه فيما يشجر بينهم من المنازعات . وهو الكفيل للحكومة بدفع الضرائب وأموال الجباية

أما رئيس الخط فيطلب منه الأشراف على العمال المعهود اليه أمرهم فهو الذى يقوم بتوقيع العقوبة عليهم ، إذا أنس منهم إهمالا فى تنفيذ أوامر الحكومة أو إعراضاً عنها

أما المأمور فوظيفته تحديد الأعمال الزراعية ، ويشترك مع المدير فى تقدير عدد الفدادين المخصصة فى كل قرية للزراعات المختلفة بحسب ما تقتضيه طبيعة الأرض . وعليه أيضاً مطالبة الفلاحين بالضرائب ، إما إصنافاً من الحاصلات وإما مالا نقداً وأن يجمع فى الشون بعد الحصاد الحاصلات التى تؤول الى الحكومة . والى المأمور يرجع الأمر فى جمع الأنفار للخدمة العسكرية والأشغال العمومية . وعليه أيضاً مراقبة المعامل والفاوريقات .

أما المدير فمن واجباته تفقد الأقسام والمراكز الداخلة في نطاق اختصاصه والسهر على تنفيذ أوامر الوالى وقرارات المجلس والعناية بترميم الترع والقناطر والجسور

وعلى المآمير والمديرين أن يبعثوا فى نهاية كل اسبوع الى وزارة الداخلية جريدة ببيان تفصيل أعمالهم اليومية والأعمال التى سيقومون بها . وما من مسألة إلا وتدور المناقشة عليها ولا يتقرر شيء فيها إلا بعد إمعان النظر فيها وتدقيق البحث وبعد أن يبدى سمو الوالي رأيه بشأنها

وجميع المآمير الآن من المصريين الوطنيين ، إلا النفر

اليسير منهم . والسبب الذى دعا سمو الوالى إلى أن يعهد اليهم هذه الوظيفة اعتقاده بدرايتهم التامة بأحوال البلاد وخبرتهم الوافية بزراعتها وأنهم أقدر من غيرهم على الألمام بمراكز مواطنيهم واحتياجاتهم وموارده‌م وأنهم أولى بالقيام على شؤون الأدارة من الأجانب الذين لايخلون من نزعات التشيع الجنسى . على أن هذا التسامح لم يأت بكل ما كان ينتظره محمد على من النتائج الحسنة . لأن هؤلاء الموظفين المصريين كانوا يعاملون الأهالين بأقل مما كان يعاملهم به الاتراك من الرفق والرحمة

ولقد أقام الوالى الحجة البالغة على حسن نياته وعظيم تسامحه باختياره بعض المآمير من نصارى البلاد . ومفهوم أنه لم يسبق لمن حكموا مصر من المسلمين أن قلدوا أحد المسيحيين مثل هذا الشرف أو منحوهم مثل هذه الثقة

أما المديرون فهم جميعاً من الجنسية التركية

وفيما عدا مشائخ البلد يوجد بكل قرية رئيس للزراعة ومساح يدعي الخولى وصراف لجباية الأموال وحساب المبالغ التى يسلمها الى المأمور ليتولى تسليمها الى خزينة المدير . وفى كل قرية شاهد ينتدبه القاضى للحكم وتحرير العقود العمومية باعتبار

كونه من المأذونين

يفهم مما تقدم مقدار ماهنالك من التباين بين اختصاصات الموظفين المصريين وصفاتهم في مصر وبينها فى موظفى البلاد الأخرى. فليس للموظفين المصريين فى القطر المصرى تأثير سياسى ما، فهم حكام إداريون لا أكثر تنحصر سلطتهم فى تقدير حاصلات الأرض وتمهد إدارة المصانع والقيام ببيان مواردالبلاد المعهودة الى إدارتهم

ولأولئك الموظفين مرتبات تختلف باختلاف درجاتهم. وقد جعل لهم منذ زمن قليل شوار أى لباس خاص وشارات معينة لتمييزهم بعضهم عن بعض. فمشائخ البلد يعرفون بوساماتهم الفضية والنظار بها ذهبية والمأمورون بها ماسية. ويشغل وظائف المديرين إما البكوات برتبة الميرالاي أو الفريق وإما الباشوات

٥ — البوليس او الشرطة

لايعد ثغرا دمياط ورشيد ولا مدينة القاهرة من البلدان الداخلة فى اختصاص المديرين. فان إدارة هذه المدن الثلاث موكولة الى حكام خصوصيين، ولما كانت العاصمة أكثر سكانا

من غيرها فالحاجة الى حفظ النظام وصون الأمن فيها تستدعي دوام اليقظة والتعهد ، فقد عنى بهذا الفرع من فروع الحكومة وأتقن تنظيمه فيها . ومنذ سنوات قليلة كان يتولى أمره ، وظفان كبيران يسمى أحدهما بالوالى والآخر بالضابط . أما الآن فلا يوجد على إدارته غير موظف واحد هو ثانى الاثنين المذكورين وتحت إمرته ضباط تميزهم شارة خاصة . وهم منتشرون فى أنحاء المدينة تميزهم عن غيرهم علامة خاصة ويصونون ، بمراقبتهم الفعالة ويقظتهم المستمرة ، النظام العام والأمن الخاص بأفراد الناس . ويقومون أثناء الليل بالنوبة ، فأذا مضت ساعة ونصف من غروب الشمس ألقوا القبض فى الطريق على كل شخص لا يحمل بيده مصباحا . وبهذا لا تمر ساعتان أو ثلاث ساعات بعد الغروب حتى تكون الشوارع خالية من السابلة . وفى يقينى أن الأمر القاضى على الذين يخرجون في ظلام الليل من بيوتهم ، وعددهم قليل جداً ، بأن يحملوا المصابيح المنيرة لمن الأوامر الحكيمة فى مدينة كالقاهرة لم ينشأ بها الاستصباح العام . وعادة الشرطة ، فى قيامهم بالنوبة ، أن يوجهوا الى المارة السؤال الآتى باللغة التركية « كيم دورو » ومعناه : « من هذا » فيجاوبون

بقولهم : « ابن البلد » فيصيح العسس عندئذ قائلا له : « وحد الله » فيجاوبه بقوله : « لا إله الا الله »

والمسيحيون ملزمون بالنطق بهذه العبارة كالمسلمين سواء . وسبب ذلك ما وقر في نفوس أهل الملة الاسلامية من أن مرتكب الجريمة أو المعول على ارتكابها بقصد ، لا يجرأ بوجه ما على مجاوبة العسس بالقول المتقدم . ولقد اشتهر الأغاوات بالمهارة والتفنن فى استكشاف اللصوص ، ونقلت عنهم فى ذلك حوادث كثيرة وحكايات نادرة تدل على براعتهم فى اصطياد اللصوص بنفس المكائد التى يحاولون أن يكيدوها للآمنين

٤

الموارد المالية لوالى مصر

٦ — أشرح هنا القواعد التى أقام محمد على عليها بناء شوكته وقدرته ومنها يتبين أن الضرورة القاهرة التى ألجأت سمو الوالى الى إنشاء الحصون والمعاقل للامتناع بها ، قد أرشدته الى الوسائل التى لا يتسنى له تحقيق غرضه بدونها . ولسوف يقتنع المكابرون أنه برضوخ محمد على لقوة الحوادث ومضيه فى تيارها ولبسه

لكل حال لبوسها وضمانته لوجوده السياسى بما وضعته ظروف الزمان والمكان فى يده من وسائل العمل ومقوماته ، قد صنع القالب الذى أراد أن يفرغ لمصر فيه دستورا موافقا لعبقريتها وموفيا بمطالبها وحاجها ، بحيث لا يكون أثراً زائلا لسياسة لا حياة ولا أفق لها . لأن الدستور لا يكون فى هذه الحالة إلا نتيجة طبيعية ترمي اليها مقدمات لا تعدو كونها ماضى أمة قضت ضرورة الحاضر بتعديله على ما يطابق مقتضيات هذا الظرف وبث عنصر الحياة فيه ، تلك الحياة الضمينة بمستقبل ساطع النور لن يقبل إلا فى هيئة هيئة وحشد عظيم من آثار التقدمات الفكرية والاصطلاحات التى أولدتها طبيعة الأشياء والتى سيقوم على تنميتها التدبير والاعتدال .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن ما أنجزه محمد على من الأعمال حتي الآن لم يبلغ درجة الكمال المطلق . ولكن سمو الوالى وصل به فى الظروف الراهنة إلى أسمى ما فى قدرة إنسان أن يبلغه من غايات الكمال . وعلى كل حال فأنه لن يترك بعده عملا مبتورا لا أمل فى بقائه واستقراره . كلا ! لأنه لقح أعماله كلها بلقاح البقاء والاستمرار ، وحسبه هذا فخرا ومجدا . وفطاحل الرجال

لايموتون ، إذا غيبت أجسامهم فى الأجداث ، بل تعيش ذكراهم مؤيدة بما شادوه من الآثار وقاموا به من جلائل الأعمال . فأذا اتسع نطاق المستقبل الذى مهدوا له الطريق فى حياتهم وترامت آفاقه الى أبعد مدى ، تيسرت تنمية التراث الذى تركوه فتنمو بنمائه سيرتهم العطرة وتتسع الاشاعة بها حتى يطبق الخافقين ذكرها ، وقدم الناس إلى عبقريتهم الممثلة فى آثارهم ومآثرهم إتاوة الأعظام التى تزداد باطراد نمو ذلك التراث وتحسنه على توالى الأيام وتعاقب الأعوام

وفى شوكة محمد على وقدرته أمران جديران بأمعان النظر فيهما لتبين حقيقتهما ألا وهما : ماهية هذه القدرة فى ذاتها والشروط التى يترتب عليها بقاؤها اوبعبارة أخرى العناصر المكونة لها وقوام هذه العناصر . وسأقدم الكلام على ثانى الأمرين وهو الموارد المالية كى أتطرق منه فيما بعد الى الكلام على الأمر الأول وهو القوة العسكرية . لأن القوة العسكرية فى المال كالنتيجة للمقدمة فى القياس المنطقى

ولنجمل القول فى ذلك الموضوع فنقول : إن الموارد المالية التى يعتمد الوالى عليها هى : أولا تشكيل الملكية فى القطر

المصرى . وثانيا احتكار الحاصلات الزراعية . وثالثا الضرائب والرسوم

١

الملكية

تشكيل الملكية في الشرق — حالتها فى مصر منذ الفتح الاسلامى على يد عمرو بن العاص إلى الفتح العثمانى على يد السلطان سليم — حالتها على عهد المماليك . الاوقاف ، الارزاق ، الالتزام — أراضى الفلاحين والاوسية — التغيير العظيم الذى أحدثه محمد على — آراء وخواطر فى النظام الحالى للملكية

٧ — تشكيل الملكية فى الشرق

مسئلة الملكية من أهم ما يرتبط بمصر من المسائل العامة لسببين : أحدهما أن الملكية فيها قائمة على قواعد وآساس تغاير ماتقوم عليهامنها فى مختلف البلادالأوروبية . والثانى أن الأسلوب الذى كانت الملكية قائمة عليه مهد لمحمد علىّ السبيل لجمع الموارد التى استعان بها على تشييد صرح شوكته

ولم تمين طبيعة الملكية فى المدنيات الشرقية بمثل الصراحة التى عينت بها فى الحضارة الغربية . لأن الحضارة الشرقية مغايرة للحضارة الغربية مغايرة النقيض لنقيضه إذ لا أثر فيها للحرية

التى تتعرض الملكية الفردية بدونها للأخطار بسبب حرمانها من الضمانات الكفيلة ببقائها واستمرارها . وإذا جعلت بيانى بشأنها قاصراً على مصر ، فأنى مثبت هنا أن الأراضى المصرية كانت منذ عهد الفراعنة الأقدمين ملكا لولى الأمر

٨ — حالتها فى مصر منذ الفتح الاسلامى الى الفتح العثمانى

قرر الاسلام مبدأ عاما فى ملكية الأرض تلخصه الآية الآتيـة من القرآن : « إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين »

فبمقتضى هذا المبدأ العام كل حق للملكية الفردية مستمد من ولى الأمر . ولما استولى عمرو بن العاص على مصر أقر الخليفة عمر بن الخطاب سندات الملك التى كانت موجودة إبان الفتح ، وتم انتقال الملكية بعد ذلك بطريق الوراثة مقابل دفع فرضة من المال الى الأمير . وظلت الاحوال سائرة على هذا المنوال فى عهد سائر الخلفاء والسلاطين الجراكسة . ولم يطرأ عليها تعديل إلا عقب الفتح العثمانى على يد السلطان سليم الأول . فقد قرر هذا السلطان أن الأراضى التى أعطيت فى الأصل من الأمراء

تحول منذ الآن فصاعدا الى ملكية ولىّ الأمر . وبهذه الكيفية أصبح صاحب الأرض لايملك رقبتها بل حق الانتفاع بها ، فأذا مات آلت أملاكه الى الحكومة . غير أنه كان لورثته ردها الى حوزتهم بدفع مبلغ معين ، على طريق العسف والاستبداد ، لاتقبل فيه مساومة

وقد أخذ السلاطين ، من خلفاء السلطان سليم الأول ، يعهدون إدارة البلاد المصرية الى دفتردار عنده سجل بجميع أراضيها . وكان قصدهم من ذلك تأييد الحقوق التى انتحلها ذلك السلطان لنفسه عليها . غير أن هذه الحقوق لم تلبث أن تلاشت بشوكة المماليك وامتداد نفوذهم ، لأنهم كانوا أصحاب السيادة الفعلية على البلاد . وكانوا يتصرفون فى الأرض على ما تشاء أهواؤهم ويضعون أيديهم على مايروق فى نظرهم منها بلا أدنى التفات الى الحقوق التى انتحلها الباب العالى على الوجه السالف .

٩ — حالتها على عهد المماليك

فى عهد المماليك وإبان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، كانت الملكية منظمه على الوجه الآتى :

كان الشطر الأوفى من الأراضي ملكا للمماليك والحكومة وكان الشطر الباقي فى حوزة نحو ستة آلاف مالك يعرفون بالملتزمين . أما مابقى من الأراضى ، فكان موقوفاً على المساجد ويعرف بالأوقاف أو الزرقة

وكانت أملاك الملتزمين من الأرض على نوعين : نوع يسمونه بأطيان الفلاحين إذ كان الفلاحون يزاولون العمل فيها لاستدرار خيراتها ابنا عن أب وأبا عن جد . وكانوا يدفعون الضريبة عنها والأيجار المستحق عليها ، فكانوا لها بمثابة المزارعين . أما النوع الثانى فكان يعرف بأطيان الأوسية أى أن الاطيان التى اشتراها الملتزمون بأموالهم وأخذوا يزرعونها على حسابهم . وكانت أطيان القرى مقسمة الى أربعة وعشرين قيراطا يملكها ملتزم واحد أو جملة من الملتزمين . وكانت الرابطة بين نوعي الأطيان السالفى الذكر وثيقة الى حد أن الملتزمين كانوا لايستطيعون أبدا أن يبيعوا شيئاً من أطيانهم المعروفة بأطيان الفلاحين إلا إذا باعوا فى الآن نفسه جزءا من أطيانهم المسماة بأطيان الأوسية . وكان الملتزم لاتنقل ملكية أطيانه بعد وفاته إلا الى أبنائه أو من يوصى بهم أن يكونوا ورثة له . وعلى كل

حال فقد كان من المفروض على الورثة أو الذين احتازوا الارض بمبيعها اليهم ، كلها أو جزء منها ، أن يحصلوا على تقليد الوالى بذلك لكى يجوز لهم الحلول محل المورّث فى الحقوق المخلفة عنه . وكان ثمن التقليد مبلغا من المال يعدل القيمة التى اشتريت الأرض بها ، فأذا لم يدفع ذلك الثمن آلت الأرض الى الحكومة . وكان هذا مايحصل غالباً ، إذا لم يوصّ الملتزم المتوفى بدون أن يعقب بأملاكه لأحد . ذلك لانه كان لا يعترف شرعاً إلا بأبنائه كورثة طبيعيين له

وقد قلت إنهم كانوا يطلقون كلمة الوقف إطلاقا عاما على الأملاك الخاصة بالمساجد ومعاهد البر والاحسان . فأذا كانت هذه الاملاك أطيانا سميت بالرزقة . وكان لها شأن عظيم أيام حكم الدولة العلية والمماليك ، لأنها الدلالة الواضحة على أن حقوق الملكية لم تكن مأمونة فى عهدهما . ولما كانت الأوقاف ممالا يجوز التصرف فيه بوجه ما ، فقد نشأ عن ذلك أن عدداً عظيما من الملاك عمدوا الى تخويل من يوصون بهم من أفراد أسرتهم حق الانتفاع بأطيانهم بعد وفاتهم فأوقفوها على المساجد . وكان يدفع اليهم جانب من ريعها ليكون لهم بمثابة إيراد ثابت لايجوز

تقاضى الضرائب عنه ولا يمتد اليه مطامع البكوات . وقد بلغت فوائد هذه الأوقاف ومزاياها من قوة التأثير الجاذب للملكية الى حظيرة الوقف ، ما استفز الحكومة الى إصدار أمرها بمنعه ، إلا بموافقة منها . فقد خشيت أن ينتهي الأمر الى اندراج جميع الأراضى فى سلك الأملاك الموقوفة ووقوع الأرزاق الكبيرة بعد ذلك فى ملكية أصحاب النفوذ والوجاهة من المشايخ ، وأن يتمتع هؤلاء بها آمنين فى ظل القانون الذى خص الأملاك الدينية بالرعاية والحماية

تلك كانت حالة الملكية فى القطر المصرى حينما استولى الفرنسيون عليه . ولقد انتقلت اليهم حقوق الحكومة السابقة فى ملكية الأطيان ، غير أنهم لم يستطيعوا جعل الفلاحين ملاكا بالنظر الى انحطاط أحوالهم العقلية والنفسية وقتئذ

١٠ — التغيير العظيم الذى تم على يد محمد على

فى سنة ١٨٠٨ تم على يد محمد على التغيير العظيم الذى أصبح بمقتضاه مالكا لجميع أراضى القطر المصرى إلا القليل منها . فقد طلب فى ذلك الوقت من الملتزمين أن يطلعوه على سندات

ملكيتهم ، فلما قدموها اليه قرر بطلانها جميعاً معتمداً فى ذلك على حق ملكية ولىّ الأمر أى الحق المعترف به للحكومة من قديم الزمان . ومع هذا فقد أراد التعويض على الملتزمين ، فقدر ريع كل منهم من إيراده ودفعه اليهم سنويا من الخزانة . ثم ترك لهم حق الانتفاع ، مدة حياتهم ، بأراضى الأوسية بعد أن فحص سنداتها فحصاً جيداً ، وقرر مبدئيـاً ، لمداراة الاعتقادات الدينية ، احترام الأطيان الأرزاقية . ولكنه لم يلبث أن ألغاها آخذاً على عهدته الانفاق على المساجد وضمانة شعائر الدين ، ثم أجرى على الشيوخ الذين كانوا واضعي الأيدى على تلك الأطيان معاشات سنوية . ولم يحتفظ بصفة الوقف إلا للأملاك المبنية والحدائق .

وكان يبغى بهذا التغيير العظيم الذى ملك بمقتضاه أراضى القطر المصرى إنماء موارده المالية لسد نفقات الاصلاحات العامة ، ولكنه لم يكن يريد القضاء على الملكية الفردية بدليل تنازله منذ بضع سنوات عن أكثر من مائتي ألف فدان ، فضلا عن إبقائه على الأملاك المبنية كما ذكرناه .

وبعد أن حل محمد علي محل الملتزمين توثقت عرى الاتصال

بينه والفلاحين . فمهدت هذه الخطوة الأولى له تنظيم الزراعة وتقرير أساليبها واستأجر الفلاحين للعمل في الأرض بالمياومة ، إذ عين للواحد منهم قرشاً واحداً يوميا كان يدفع إما نقداً وإما أصنافاً من الحاصلات . ثم وزع عليهم الأطيان على أن يبقوا مالكين لها دواماً إلا إذا عجزوا عن سداد ضرائبها . وقرر في الحالة الأخيرة أن يحل غيرهم ، من القادرين على السداد ، محلهم فى ملكيتها . وقدم اليهم آلات الحرث وأدوات الزراعة والماشية اللازمة للري . وكان على مأمور المركز أن يعين للفلاح مساحة الأرض التى تعطى له ليقوم بحرثها وزرعها . فأذا زرعها وحصد غلتها اشترتها الحكومة منه بأثمان معلومة على أن يكون له التصرف كما يشاء فى الحبوب منها . فأذا باع هذه الحبوب بالمدن دفع عنها من الرسوم النسبية ما يدفعه عما يستنفده أو يبيعه منها فى مكان الزراعة والحصد

١١ — اخطار وخواطر فى النظام الحالى للملكية

كان من تنظيم الملكية على الوجه السالف وما نشأ عنه من الارتباط بين الوالي والفلاحين ، أن انبرى بعضهم لانتقاد هذه

الحالة انتقاداً مرّاً يرومون به الحكم على مصر وسكانها بمقتضى مذاهب أوروبا في الملكية ، من غير نظر الى ما هناك من الفارق بين أمة شرقية والأمم الأروبية . ومما هو أوجب للدهش أن أرى ذلك الانتقاد فيما يكتبه الانكليز الذين يظهر أنهم نسوا الأسلوب الذى تخيروه لتنظيم الملكية فى الهند ، وهو المعروف باسم « زمندار » الشديد الشبه بما تتمشى الملكية على قواعده الآن في القطر المصرى . على أن التجربة التى قام الفرنسيون بها أيام الحملة والخبرة التى اكتسبها الأروبيون الذين تطاولت إقامتهم بمصر منذ ذلك العهد ، دلتا صراحة على أن النظام الذى سنه محمد على للملكية هو أحسن ما يكون من الأنظمة وأوفقها لحالة البلاد . إذ لولا هذا النظام لما تقدمت الزراعة بخطوات واسعة في سبيل الاتساع والأتقان ولا أدخلت الى مصر زراعة النباتات المجهولة بها الي ذلك الوقت مع أن تربتها موافقة لها كل الموافقة ، بل ولا زادت الحاصلات زيادة هائلة في زمن يسير .

والفلاح المصرى نزوع بطبيعته الى الدعة والسكون لضيق دائرة حاجه ولأنها أقل مما يخطر ببال الأروبى أن فيه الكفاية

للمرء . فلو ترك وشأنه ، وهو على ما فطر عليه من تلك النزعة ، لأدى تركه إلى سقوط الزراعة المصرية . فالنظام الذي سنه محمد على للملكية هو خير الأنظمة ، لا سيما وقد تيسر بتطبيقه زيادة إيراد مصر الذى بلغ الى ٦٠ مليونا فرنكا بعد أن كان لا يزيد على ٣٥ مليونا فرنكا فى سنة ١٧٩٩ أيام الحملة الفرنسية

ولست أنكر أن هناك إصلاحات جمة تقضى الحاجة بأدخالها ، إلا أننى أجاوب الذين يأخذون على سمو الوالى أنه السبب فى عيوب الحالة الحاضرة بما يأتى .

أولا — أن الحالة الحاضرة أفضل بكثير من الحالة السابقة .

ثانياً - أنها من الحالات المؤقتة التى تبشر الأمة المصرية بمستقبل سعيد محفوف بالخيرات والبركات ، وتمهد السبيل شيئاً فشيئاً ، بحسب سرعة تقدمها فى طريق المدنية ، لتملكها حاصلات الأرض

وأضيف الى ما تقدم أن الحيف سيظل ملازماً لتلك الحالة ، إذا لم يصادق فى القريب العاجل على المركز السياسى الذى آل الى محمد على وأسرته ، ويزول بلا شك إذا سويت هذه المسئلة

التى يرتبط بها إما البقاء وإما الموت . وإنه لمن الجور الفادح والظلم الغاشم أن تلقى على عواهن سمو الوالى نتائج صراع أثير ثائره لغرض هو حرمانه ، بغير حق ، من ثمرات جهوده العديدة الطويلة .

٢

الاحتكار

الغرض من الاحتكار — قدمه فى القطر المصرى — سبب ضرورته فيه

١٢ — الغرض من الاحتكار

الاحتكار فى مصر ، على عهد محمد على ، هو الحق الذى احتفظت الحكومة به لنفسها فى أن تكون المشترية الوحيدة للشطر الأوفى من حاصلات الأرض . ومما انساق الناس اليه على طريق الوهم ، الاعتقاد بأن هذا الاحتكار سار على حاصلات مصر كافة من غير استثناء . وهذا خطأ محض فأن هناك أصنافا عديدة من الحاصلات ومن بينها أغلب الحبوب لاتسرى عليها قواعد الاحتكار ، بل ترك للفلاحين حرية التصرف فيها ، وإنما

الاحتكار يتناول القطن والأرز والصمغ والنيلة والسكر والأفيون الخ ولا يتعداها الى غيرها

١٣ — قرم في مصر

اتخذ خصوم محمد على مسئلة الاحتكار تكأة لتوجيه التهم البالغة اليه والنيل من شوكته والخفض من كرامته والحط من شهرته

وما لا مراء فيه أن نظام الاحتكار نظام معيب من عدة وجوه . وإنما كان من الواجب ، قبل اعتباره جريمة وإسناد هذه الجريمة إلى محمد على ، الأقرار بأنه لم يكن ثمرة من ثمار اختراعه. بل أنه كان معروفا فى سائر أنحاء الممالك العثمانية ومعمولا به ، وأن الخط الشريف لم يصدر بألغائه منها إلا من عهد قريب مع أن هذا الألغاء لاتزال الشكوك تحوم حول صحته أو الدقة فى تنفيذه ، دع أنه بعد هذا وذاك من الأنظمة اللاصقة بمصر منذ قديم الزمان إذ من المقرر المعروف أنه كان معمولا به فى كل زمان . واستمراره ينهض دليلا على ضرورته والحاجة اليه

ألم يعهد الى يوسف (عليه السلام) بعد إذ قام بتأويل الرؤيا

الفرعون بجمع حاصلات مصر واختزانها لتوزع ، فى سنى القحط والمجاعة ، على الأهلين ؛ وهل فى هذا الأمر إلا الاحتكار بعينه ؛ ولقد أجمع المؤرخون على تمجيد (سيزوستريس) والاشادة بذكره لأنه خول رعيته حق الملكية . أفليس هذا دليلا ناصعا على أنهم كانوا ، من قبله ، لايملكون هذا الحق ؛ ومع هذا فقد توافرت الأدلة علي أن حق الملكية لم يرتكز قط في مصر علي أساس وطيد . وقال أحد مؤلفى مصنف الحملةالفرنسية الموسوم : « تخطيط مصر » (المجلد السابع عشر ، الطبعة الثانية — الحكومة الحديثة —) مايأتى :

« منذ حدثت أول غارة على مصر ، قام نظام حكومتها على حق الفتح . وقد تمسك بهذا الحق كل من الفرس واليونان والرومان والعرب والمماليك ، بدون أن يسنوا قانونا لتحديده وتعيين شرائط التمتع به . وإذا كان الشعب المغلوب على أمره قد منح أحيانا حق الانتفاع ببعض قطع من الأرض فأنه كان يكفى ، لاسترداد هذا الحق غير الثابت ، صدور الأمر به بمحض إرادة الفاتح . وتلك لاتزال الحال التي عليها الأملاك المسماه هنا بالأملاك الخاصة . فأنها تبقى مستقرة فى الأسرة ، لا كحق ناشئ

عن الوراثة ، بل كآية من آيات عطف الحكومة التي يبقى لها دائما محض التصرف فيها طبق مشيئتها . فليست تلك الاملاك إذاً ، كما شهدناه الآن ، إلا أحد ضروب الالتزام التي تنقلها الحكومة من يد الى يد ، بدون أن يكون للمنتفع بها حق التصرف فيها »

ولقد أحست الادارة الفرنسية ، إذا لم يكن بضرورة الاحتكار ، بصعوبة استبداله بحالة أخرى منافية له . على أن الجنرال (ديزه) كثيراً مافكر فى توزيع قسم من أراضي الوجه القبلي على الفلاحين ، ولكنه لم يستطع وضع هذه الفكرة موضع الاجراء (راجع فى كتاب تخطيط مصر السالف الذكر ، الطبعة الثانية ، المجلد السابع عشر ، موضوع — الحكومة الحديثة —)

١٤ — سبب ضرورة

يسهل بمقتضى ماتقدم تعليل الاحتكار وإقامة الدليل على قدمه وإثبات أن محمداً علياً لم يكن الواضع له من عندياته . ومن الحقائق الثابتة أن النيل ، بفيضانه المنتظم ، أوجد بالقطر المصرى

حالة خاصة به . فأن هذا النهر ، إذا ترك وشأنه ، لا يروى إلا القليل من الأراضي إذ تضيع مياهه كلها فى البحر . فاقتضت هذه الحالة احتفار الترع العديدة وإقامة الجسور واتخاذ التدابير التى لا يمكن لأحد غير الحكومة أن يقوم بها . وهذه الترع والجسور كان من غير الميسور للأهلين ، ما لم يكونوا على إرث من الحضارة والعلم أن يتعهدوها بالعناية لانصرافهم الى شؤونهم الذاتية ، ولا أن يفقهوا لما وراء هـذا التعهد من الفائدة العامة للبـلاد . وهـذا فضـلا عن أن إدارة تلك الاعمـال والحاجة الى من يحزها من العمال وما يقتضيه إتمامها من وفير المال ، أمور تستدعى وجود شركات تتعاون على أدائها ، وهو أمر لم يكن ميسوراً بالمرة ، عند أمة كالأمه المصرية ، بل كان من رابع المستحيلات .

وكان من الواجب على الحكومة ، بعد أن تضع نظاما لرى الأراضى ، أن تزرع بواسطة الفلاحين الأطيان التى ساقت اليها بذلك مواد الخصب والنماء ، لاستحداث موارد جديدة للمـال وتوسيع نطاق الزراعة طلبا للمزيد من الحاصلات . ولقد أدركت هـذه الضرورة فأعطت الفلاحين ما يلزم من البذور والمواشى والآلات الحراثة لاستثمار الأرض محتفظة لنفسها ، فى مقابل ذلك ،

بحصة من الحاصلات غير ناظرة الى ما قد يحيط بالسوق من اختلاف الأسعار وتذبذبها . ذالك هو بيان أصل الاحتكار فى مصر على عهد محمد على وضرورته

ومفهوم أنه إذا كانت الأدارة قويمة حكيمة رحيمة، فأنها لا تتطلب من المزارع إلا ما يلزم لتحصيل ما أنفقته من النفقات ومداركة حاجيات الحكومة . ولكنها إذا كانت طموعة شرهة كما هى فى كل مكان ، فلا تلبث أن ترى نفسها مسوقة الى الأجحاف والظلم . أما إذا اتسع نطاق حاجياتها ، فلا مناص لها من إبهاظ عاتق رعيتها بالكلف الفادحة والفرض الباهظة

ولمعترض أن يقول إنه كان من الأولى ترك الخيار للفلاحين فى مبيع حاصلاتهم على أن تجبي الحكومة منهم الضرائب نقداً عينا ، لما يستتبعه ذلك من تزاحم التجار على الشراء وتنافسهم التنافس الذى تنجم عنه مضاعفة الفائدة للبائع . وجوابى على هذا الاعتراض أن المصريين لم يعتاذوا ادخار المال لوقت الحاجة اليه ، فهم مضطرون بحكم هذه الغفلة الى بيع حاصلاتهم وهى على سوقها ، أى قبل أن تنضج وتحصد . وهو ما يتأتى منه تحكم المشترى فيهم بفرض الشروط المجحفة عليهم ، وأخذه المحصول

الذى اشتراه بثمن بخس دراهم معدودة ، فى اليوم المعلوم ، فيصبح الفلاح المسكين وليس فى يده ما يسد به الرمق . فى حين أن نظام الاحتكار يقضى بتموينه بكل مايحتاج اليه من الزاد ، وقد ترى نفسها بعد ذلك عاجزة عن جباية المستحق لها من الأموال فى ذمته . وشتان بين الحالين

ولا يخامرن القارىء أنني ممن يذهبون مبدئياً الى تبرئة الاحتكار من العيوب والموانع ، أو يقولون إنه غير قابل للتحسين والتعديل .وكل ما أراه أن تفكر الحكومة فى قلب النظام الحالى رأساً على عقب ، بل أدعوها الى التريث حتى يبلغ الغاية القصوى من التحسن والارتقاء . والأمثل لمصلحة الجمهور وهو أمر تقره البداهة ويستدعيه الطبع السليم ، اقتضاء أقل ما يمكن من المال من الممولين المصريين . غير أن السر كل السر هو فى أن المطالبة بالقليل ينبغي معها أن تكون دائرة الاحتياجات ووجوه الأنفاق ضيقة وقليلة معاً . فعليكم أن تخفضوا اليوم من غلواء احتياجات الحكومة المصرية ، فأن شكواكم من وجود الاحتكار تقل ، إذا لم تنمح برمتها . ويكون محمد على فى طليعة من يهمون بأصلاح الفاسد وتقويم المعوج

٣

الضرائب او الاموال

الضريبة العقارية أى الميرى — الضريبة الشخصية أوفرضة النفوس والخراج — الضرائب المختلفة والجمارك — آراء في جباية الاموال

إيرادات الحكومة من الضرائب ثلاثة أنواع : إيرادات ضريبة الأطيان وإيرادات الضريبة الشخصية أو فرضة النفوس وإيرادات الكمارك

١٥ — الضريبة العقارية او الميرى

لما استولى السلطان سليم على مصر أجرى التاريع لشطر كبير من أطيانها ، وقرر بناء على ما ظهر من نتيجة هذا العمل مقدار ما كان يجمعه كل ملتزم من الضرائب العقارية . وكانت تتألف هذه الضرائب من ثلاثة أجزاء . الأول وهو أوفاها قدراً كان مخصصاً لسداد أموال الميرى والثانى كان مخصصاً للكشوفية والثالث لفائض الالتزام

أما الميري فكان يؤول الي السلطان ، وأما الكشوفية فألى

البك أو الكاشف حاكم الاقليم ، وأما فائض الالتزام فكان يزيد وينقص وكان يعطى للملتزمين كالميرى والكشوفية . وكان لا حق للملتزمين فى فائض الالتزام ، إلا إذا أدوا ما عليهم للسلطان والكشاف . ثم أنهم فرضوا لانفسهم على الفلاحين رسوما كانوا يدققون فى مطالبتهم بها وكانت تسمى بالبرانى

ولم تكن الأراضى كلها ، خاضعة على السواء ، لفرض الضرائب عليها . فأن الاراضى التى كانت معروفة منها باسم الرزقة والأثر كانت معفاة منها فكان شأنها في ذلك شأن الاراضى البور غير الصالحة للزراعة . أما الأراضى الرديئة التى كانت للملتزمين والفلاحين فكان لها ضريبة معتدلة أقل من الضريبة المفروضة على الأراضى الجيدة أما أراضى الأثر والأوسية فكانت الضرائبة تدفع عنها بحسب جودتها وكثرة ما تعطى من المحصول وكانت الأثرية منها تدفع عنها الضريبة المعروفة بالبرانى

أما الآن فلا تمييز بين الأراضى ، لأنها أصبحت لا تدفع إلا صنفاً واحداً من الضرائب وهو الميرى . ومتوسط ضريبة الأطيان مقدرة بما يعدل عشرة فرنكات تقريباً للفدان الواحد ، أما الأراضى الممتازة بالخصوبة ووفرة الحاصلات ، فالضريبة التي

تدفع عنها لا تزيد على ما يعدل ١٤ الى ١٦ فرنكا . والأراضى الأقل منها درجة فى تلك المزايا تدفع عنها ضريبة تختلف من ستة فرنكات الى ثمانية . ومنذ عهد قريب أعطي الوالى فريقا من المزارعين القادرين على تعهد الأراضى بالحرث والرى لاستثمارها ، ما مساحته ٢٠٠٠٠ فدان تقريباً من الأراضى البور ليتولوا إصلاحها وزرعها ، وأعفاها من مال الميرى . وهذا المال يعدل نصف إيرادات الحكومة على وجه التقريب

١٦ — الضريبة الشخصية او فرضة الرؤوس

الضريبة الشخصية أو فرضة الرؤوس فرع لا يستهان به من موارد إيراد الميزانية المصرية . ويباشر تحصيلها باعتبار كونها جزءا من اثنى عشر جزءا من المال الذى يفرض أنه يعدل دخل الممول . والذكور المراهقون كافة ، مسلمين كانوا أو رعية ، ملزمون بدفع هذه الفرضة متى بلغوا الثانية عشرة من عمرهم . وتختلف ، تبعاً لتفاوت الناس فى الثروة ، من ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش . وفي المدن تحصل الضريبة الشخصية عن النفوس ، وفى القرى عن المنازل . ويبلغ ما يحصل من هذه الفرضة عادة السدس

من إيراد الخزانة المصرية

ويدفع الرعية من الأهلين ضريبة خاصة بهم تسمى الخراج. وقد فرضت فى الأصل بحسب المبادىء المستمدة من القرآن والقاضية على غير المؤمنين بدفع الجزية. وتقدر بوجه عام من ثمانية قروش الى عشرة. ولا يتجاوز المتحصل منها ١٠٠٠٠٠ فرنك (١)

١٧ — الضرائب المختلفة والجمارك

وهناك ضرائب مفروضة على الماشية. فالبقر والجاموس يدفع عنها عشرون قرشاً للرأس الواحد وسبعون إذا كانت مخصصة للذبح على أن تبقى الجلود المسلوخة ملكا للحكومة. أما الجمال والنعاج فيدفع عن الرأس الواحد منها أربعة قروش. وأما قوارب النيل فيدفع عن كل قارب ضريبة قدرها مائتا قرش وكذا النخل فأنه خاضع لضريبة تختلف بحسب أصناف محصوله ولكن متوسطها قرش ونصف عن كل نخلة

(١) ابطل الخراج في الممالك العثمانية بمقتضى خط كلخانة لانه أفضى فيها الى العبث بحقوق الرعية ولكن نصوص هذا القانون لم يتناولها التنفيذ بعد ولم توضع حتى الآن موضع الاجراء

ورسوم الكمارك المتفق عليها فى الامتيازات الدولية والمعاهدات التجارية ، تحصل على البضائع المجلوبة من أوروبا الى مصر . وهذا فيما عدا الضرائب التى تعينها الحكومة لتحصل من القوافل الآتية من بلاد العرب وسنار ودارفور الخ .

ولقد رأينا فيما سبق أن بعض الحاصلات تدفع عنها مكوس عند دخولها فى مدن معلومة

أما الجمارك فمعطاة بالالتزام . ووجه الحكومة في تفضيل هذه الطريقة أنها تخليها من مشاغل إدارتها والقيام على ضبط أعمالها . والحاصلون على هذا الامتياز ، وكلهم من التجار الاتراك والأرمن ، تتألف منهم شركة أو ما يشبهها لتحصيل الرسوم الكمركية . وهذه الطريقة ، وإن تكن حسنة من بعض الوجوه، رديئة من وجوه غيرها . فأذا كان فى نية الحكومة إبقاؤها ، فقد حق عليها وضع تسعيرة ثابتة للرسوم المراد تحصيلها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة باحترام اللوائح والقوانين والعمل بها فى جميع الأحوال والظروف

١٨ — أخطار ومخاطر في جباية الضرائب

اسكان مصر ، إذا شاءوا ، أن يدفعوا الضرائب المفروضة عليهم أصنافاً من حاصلات أرضهم . وقد وضع لذلك نظام دقيق كفيل بتحصيل الضرائب المفروضة ووصولها الى الخزينة ، ومن شأنه أن يجعل سكان القرية الواحدة متضامنين في السداد تتوسع دائرة هذا التضامن فتتناول القرى الموجودة في مركز واحد ، فالمراكز التي تتألف منها مديرية واحدة . ولا شك أن هذا النظام يلجيء العامل الذكي الذي يكد ويكدح ليضاعف ثمرات عمله ، الى سد العجز الناشيء عما لم يكن مسئولا عنه من غباوة زملائه وجيرانه وخمولهم . وفي هذا من الحيف بحقوقه وهضم جانبه ما تأباه أخلاقنا ومذاهبنا في تصريف العدل بين الناس

إلا أن هذا لا ينبغي أن يحول دون اعتبار طريقة التضامن الآنفة الذكر مطابقة من كل وجه لروح الحضارة الشرقية . فقد عمل بها عمرو بن العاص منذ الفتح الاسلامي إذ تبينت ضرورته في استفزاز الكسالى والعاطلين من سكان القطر الى ممارسة

الاعمال والانصباب عليها . ومع هـذا ففي نية سمو الوالى، متى صرف عنايته الى إتمـام التنسيقات والاصلاحات الداخلية التى اعتزم اجراءها للسمو ببلاده وأمته الى الدرجات العليا، وهى العناية ما برح في حاجة الى صرفها بالخارج، أن يقضى على كل أثر للحيف والظلم فى الأنظمة الحالية، فيتعهد بنفسه وقتئذ رمّ الجراح الذى أثخن بها جسم مصر في السنوات الأخيرة المديدة. وهو يرى أن من بواعث الفخر تخليد اسمه برفع هـذا الأثر الجليل الذى يود من صميم فؤاده أن يتولى إقامته لمصلحة مصر ومنفعة بنيها، إذا ما انتهي من إرساء قواعد أسرته وإعطاء مصر كيانها السياسى الذى لا قوام لها إلا به

٤

ايرادات مصر ومصروفاتها

لكى أزجي الى ذهن القارىء فكرة عن إيرادات مصر ومواردها المالية الأساسية التى تعتمد عليها فى تدبير أحوالها وتصريف شؤونها، سأطرح على نظره جدولا ملخصاً من

ميزانية السنوية لحكومة الوالى فى سنة ١٨٣٣ الميلاديه الموافقة لسنة ١٢٤٩ الهجرية . واذا تخيرت هـذه السنة دون غيرها من السنوات ، فما هو إلا لأن ميزانية الأيراد من هذا التاريخ حتى الآن لم تتغير تغيراً محسوساً

١٩ — ايرادات مصر فى سنة ١٨٣٣

الميرى أى الضريبة العقارية	٢٨١٢٥٠٠٠	فرنك
الرسوم الشخصية أى ضريبةالنفوس	٨٧٥٠٠٠٠	»
الخراج	٨٠٠٠٠	»
عوائد التركات (بيت المال)	١٥٠٠٠٠	»
» المواشى المخصصة للذبيح	٢٥٠ ٠٠٠	»
» الوكائل والأسواق فى الوجه القبلى	٤٨ ٠٠٠	»
» الراقصات والموسيقيين والحواة	٦٠ ٠٠٠	»
» صب الفضة والمقصب	٥٦ ٢٥٠	»
» (عشور) النخل	٥٠٠ ٠٠٠	»
» الصيد فى بحيرة المنزلة	٢٥٠ ٠٠٠	»
» الملح والقوارب والأسماك	٤٣٧ ٠٠٠	»

عوائد الحبوب	٤٥٠٠ ٠٠٠ فرنك
رسوم الكمارك والمكوس	٤٥٠٠ ٠٠٠ »
عوائد السوائل	٣٠٧٠ ٥٠٠ »
« السنا (مكى)	٣٤٦ ٠٠٠ »
« الصيد فى بحيرة قارون والمكوس بالفيوم	٣٢ ٥٠٠ »
الأرباح الناشئة من الأشياء الآتية : القطن والنيلة والأفيون والسكر والنبيذ والأرز والعسل وجمع العسل والحناء وماء الورد وبزر الكتان والسمسم وبذر الخس القرطم والحرير والزعفران والنتر والجير والمصيص والأحجار والنطرون والصودا وملح النوشادر	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ »
الأرباح من دار الضرب (الضربخانة)	٣٧٥ ٠٠٠ »
« من الأقمشة	١٥٠٠ ٠٠٠ »
« من فاوريقة أقمشة الحرير	١٢٠٠ ٠٠٠ »
« من الجلود الخام والمجهزة	٨٧٥ ٠٠٠ »
« من مبيع الحصر	٩٢ ٧٧٨٧٥٠ »
المجموع	١٠٠ ٠٤٠ »

٢ - المصروفات فى سنة ١٨٣٣

أموال مرسلة الى الأستانة	١٥٠٠٠٠٠٠	فرنك
ميزانية الجيش (وكان مؤلفا من ١٥٠٠٠٠ جندى)	١٥٥٠٠٠٠٠	»
مرتبات كبار الضباط ورؤساء المصالح	٥٠٠٠٠٠٠	»
جمكيات الخيالة الأتراك غير النظاميين	٨١٢٠٠٠	»
أجور العربان	٦٥٠٠٠٠	»
ثمن أدوات حربية	١٧٥٠٠٠٠	»
المعينات للعلف والجمال والبغال	٣١٢٠٠٠	»
المدرسة الحربية	٢٠٠٠٠٠	»
ميزانية موظفى البحرية ورجالها	٧٥٠٠٠٠٠	»
انشاء مبانى حربية	١٨٧٥٠٠٠	»
نفقات ترسانة (دار صناعة) انشاء القوارب فى بولاق	٤١٢٥٠٠	»
نفقات الفاوريقات وأجور العمال	٧٥٠٠٠٠	»
مرتبات موظفى الادارة	٢٠٠٠٠٠٠	»

معينات غذائية للموظفين	٦٢٥ ٠٠٠ فرنك
معاشات الملتزمين السابقين	٤٤٠ ٠٠٠ «
معاشات ممنوحة لبعض العربان	٧٥٠ ٠٠٠ «
مصروفات لأنشاء القصور والفاوريقات والقناطر والجسور	٢ ٢٥٠ ٠٠٠ «
أشياء مجلوبة من أوربا برسم الفاوريقات	١ ٨٧٥ ٠٠٠ «
مخصصات لصيانة قصور سمو الوالى	١ ٢٥٠ ٠٠٠ «
مخصصات غذائية لسمو الوالى	٥٠٠ ٠٠٠ «
« لادارة مشتريات الكشامير والاثواب الحريرية والجواهر الخ	١٧٥٠ ٠٠٠ «
نفقات قوافل الحجاج	٢٥٠ ٠٠٠ «
المجموع	٤٩ ٩٥١ ٥٠٠ «

٥

الوسائل السياسية

١

تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة — المسيو سيف (سليمان باشا) — تنظيم الجيوش النظامية — المشاة المصرية — الفرسان — مدرسة الخيالة — المدفعية أو الطوبجية — مدرسة الطوبجية — الادارة العسكرية — شوار العساكر (ملابسهم الرسمية) — الرتب

٢١ — تشكيل الجيش المصرى وحسن تأثيره فى الحضارة

كانت الحروب ولا تزال حتى الآن ، بالرغم مما تجره وراءها من المصائب والمحن ، أقوى عوامل الحضارة وبواعث الرفاهية . فانه ما انتقل بلد من التعس والشقاء الى السعادة والهناء ، إلا وكانت الحروب رائد هذا التحول الذى كثيراً مايبقى مقرونا باسم فاتح أو رجل عظيم . ومن فحول الرجال الذين يشار اليهم بالبنان اسكندر الأكبر وقيصر وشارلمان ونابليون الذين كانوا ، قبل كل شىء ، من رجال الحرب

وليس بمستطاع لباحث أن يشهد تأثير الحرب ، محسوساً

ملموسا فى سائر فروع الحضارة ، كما يشهده فى حالة مصر الآن

فقد كان كل شىء فى هذا القطر ناقصا بل معدوما ، وكان يجب لأيجاده من العدم البدءفى خلقه وتكوينه . وهو ما حدث فى مصر على أثر تنسيق النظام العسكرى

ناصب محمد على الفرنسيين العداء واشتبك معهم في معارك عدةفأدرك مزايا العمل فى الحرب بمقتضى فنونه وسياسته . وكان همه قبل كل شىء اتخاذ التدابير لصيانة المركز الذى بلغ اليه من الولاية على شؤون مصر ، فرأى أن هذه البغية لن تنال الا بقوة السلاح ، فاتجهت جهوده منذ هذا الحين الى تشكيل الجيش . فالجيش الذى شكله بيده هو الذى كفل له الأمن فى الداخل والقدرة والشوكة فى الخارج

ولقد كان من وراء تشكيل جيش منتظم لمصر على المثال الذى حبذه وتوخاه ، نتائج عامة جزيلة النفع ، أولا لأن هذا التشكيل كان من شأنه تعويد الأمة المصرية النظام ، بعد إذ لم تألف سوى الاختلال والفوضى ، حتى ذلك العهد ، ولم تعامل بغير الضراوة والافتراس من جنود الأتراك والأرنؤود الذين اشتهروا بالعصيان والخروج على النظام والسير بالعنف والشدة

بين الناس والنزوع الى الفتن فى كل آن

وكان من نتائج ذلك التنسيق أيضاً ، أنها أحلت وحدة العمل وترتيب الدرجات من المرؤوس الى الرئيس وسير الاحوال على النهج القويم وهيبة السلطة ، محل الانحلال والاختلال والضعف وغيرها من العيوب التى كانت فاشيـة فى كل مكان . ولقد رفع من شأن الشعب المصرى بأن جعل له روحا وطنية استرد بهـا ما فقـده من الثقة والاعتزاز بنفسه وغيرهما من العواطف التى لا بد منها لـكل أمة تلتمس الحياة فى ظل الاستقلال . أما النتائج العملية لذلك التنسيق فكانت أكثر عدداً وأعظم أهمية ، إذ من المستطاع القول بأنه هو الذى كان الباعث على ما شهدته مصر من أطوار التقدم خلال السنوات الأخيرة

وكان لا بد فى تنظيم الجيش بحسب الأسـاليب والأنظمة الجديدة ، من معلمين يتولون تدريب الجنود على فنون الحرب . وكان لا مناص ، لأصابة هذه الغاية ، من الالتجاء الى المسيحيين لاختيارهم من بينهم ، وتعويد العساكر الخضوع بالرغم مما هنالك من الاختلاف فى العادات ، وأخـذ الفنون العسكرية عنهم من زحف واستعمال أسلحة وتعبئة جيوش وطاعة للرؤساء والنظام

المسنون ودقة فى جميع الأجرياء الحربية . وبدىء التنسيق بتدريب العساكر ثم بدت الحاجة الى الضباط اللازمين لتولى قيادتهم فأدت الى نشر تعليم الرياضيات والرسم والجغرافيا وفن تدبير القتال الخ

ولما تم تشكيل الجيش ، قضت الضرورة طبعاً بالنظر فى مداركة حاجاته وتدبير شؤونه والعناية بأمره ، من لبس وإقامة فى ثكنات تبنى خصيصا له وتخصيص أطباء لمعالجة المرضى منه . واستلزمت مسئلة التسليح وإعداد المعدات العسكرية إنشاء دور الصناعة (الترسانات) والفاوريقات . وتعد الجيوش عادة ، ضمن أسلحتها ، المدفعية والفرسان وفرقة الهندسة الحربية . فللقيام على تدبير هذه الأسلحة التى يرجع أمرها الى العلم ، عنى بتوسيع نطاق التعليم ، فأرسل الشبان من الأتراك والمصريين الى أوروبا لتلقى علم الحرب فى مدارسها ، وغيره من العلوم والحرف التى لها مساس بعيد أو قريب بالحرب وشؤونها

٢٢ — المسيو سيف (سليمان باشا)

الذين عهد اليهم تشكيل جيش الوالى بمقتضى النظام الجديد

كانوا جميعا من ضباط عهد الأمبراطورية الفرنسيين والايطاليين الذين حالت حوادث السياسة دون مواصلتهم العمل في وظائفهم فنزحوا من بلادهم قاصدين الى الشرق . وكان من أعظمهم كفاءة وأوسعهم علما وأحسنهم استعداداً المسيو (سيف) ملازم الركاب سابقاً لكل من الماريشال (نى) والماريشال (جروشى)

ومع رغبتنا الصادقة فى أن لا نغمط حق أحد ما من أولئك الضباط الأبطال الذين كانوا خير معوان له على أداء المهمة التى عهدت الى كفاءته ، لا يسعنا إلا الاعتراف برجوع الفضل اليه فى انجاز تنسيق الجيش المصرى بمقتضى النظام الجديد على أتم ما يرام

ولد المسيو (سيف) موفقاً للقتال . فقد دخل مبكراً فى الخدمة العسكرية عام ١٨٠٤ ومرّ على التعاقب بالأسلحة المختلفة فكان له من ذلك خير نهزة لتوسيع نطاق معلوماته ، وتنمية كفاءته وحذقه وللدربة على أنواع الرياضات البدنية التى كان يساعده على أدائها قوة بدنه ومتانة أساطينه . وكان من سلامة الطبع ودماثة الخلق وسعة الصدر بحيث اقترنت جهوده بالنجاح فى القيام بأعباء المهمة الكبيرة ، مهمة تشكيل الجيش على

النظام الجديد . وقد كان هذا الفوز مما وجه اليه الانظار وجعل كلا من الوالى وابراهيم باشا يقدران كفاءته وينزلانه المنزلة اللائقة به إذ رقى بالتعاقب الى رتبة بكباشى ثم الى رتبة أميرالاى وكان حائزاً عليها حينما قام بالحرب فى شبه جزيرة (موره) بعد أن منح لقب البكوية . ولما انتهت الحملة المصرية ببلاد اليونان وعاد معها الى مصر ، رقى الى رتبة أمير لواء ، ثم إلى رتبة أمير ميران بعد انتهاء حملة الشام مع لقب الباشوية بعد انتهاء حملة الشام

وقد كان ما أبداه من الصفات العالية أثناء خدمته باعثاً من بواعث إعجاب الدوق دى راجوز به . لهذا لا أجد بأسا من إيراد رأى هذا الماريشال الشهير فيه منقولا بالحرف الواحد عما كتبه . قال :

« كان سليمان باشا نافذ البصيرة فى رأيه طويل الروية فى عمله ، وكان كلما ارتفع درجات فى سلم الترقى ازداد استشعاراً بثقل مسئوليته تبعاً لانفساح أفق سلطته . وإذ كان من أصحاب النظر فى الكتب والاطلاع على ما تحويه من نفائس العلوم والفنون ، وسنحت الفرص له مراراً لتطبيق العلم على العمل

فاغتنمها ، فقد أصبح بحق فى طليعة ذوى الفضل الكبير والكفاءة العالية . بل أنه وصل فى هذا الميدان الى حد يجيز لى أن أقرر هنا أن ما لم تسمح له ظروف الحياة بتعلمه ، قد أدركه وعلمه بطريق الحزر والتخمين . ذلك لأنه قام بخدمته فى فرنسا وحارب معنا حينما كان في الرتب الصغيرة . فاستظهر أسرار الحروب الكبرى على طريق التخمين كما قلنا ، وكالت الحروب التى اشترك فيها لأجل مصر بالنجاح والفوز الباهر . وهو يحدث عن هذه الحروب حديثاً عجيبا ، وله فيها من الآراء ما يطابق الصواب دائما ، سواء فيما يختص بتنظيم الجيوش وحركاتها أو بالمبادىء التى ينبغي أن تكون قاعدة هذا التنظيم وهذه الحركات. وصفوة القول أنه قائد مدرب سيحرز ما هو أهل له من الالتفات والأعجاب لدى أركان حرب البلدان الأخرى »

٢٣ — مبادىء تشكيل الجيوش النظامية

أذكر فيما يلى بيان مبادىء تنظيم الجيوش النظامية فى مصر فأقول :

قدم محمد على الى المسيو (سيف) خمسمائة من مماليكه كيا

يعلمهم استعمال السلاح ويدربهم على فنون الحرب . وما من عظيم من عظماء القطر إلا وقدم عدداً من مماليكه لهذا الغرض ، حتى بلغ عدد اؤلئك الشبان ألفاً . وكان المقصود أن يكونوا نواة للجيش المصرى ، غير أنه لم يكن ميسوراً حملهم على رعاية النظام وتلقينهم تلك الفنون . فقرر الوالى إرسالهم الى أسوان ، لا ليطيعوا أمره إياهم بذلك فقط بل أيضاً ليحول بينهم وأسباب اللهو ويمنع ظنون ذوى التعصب والأوهام الباطلة من التحويم حولهم . وكان الوالى قد أنشأ بتلك الجهة أربع ثكنات فسيحة وضع فيها اؤلئك الألف من التلاميذ وأخذ يعلمهم قواعد فنون الحرب .

وكان تعليمهم مبادىء هذه الفنون يستدعي قضاء ثلاث سنوات تقريبا ، فاعترضت هذا النظام موانع كثيرة ، لم تلبث أن ذللت وأزيلت من الطريق . وكان من أهم هذه العقبات ما فطر المسلمون عليه من الشمم وإباء الضيم والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم للمعلمين المسيحيين . وكان النظام والسكوت اللذان لا بد منهما أثناء المناورات العسكرية مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا ، منذ نعومة الأظفار ، الألعاب والتمارين التى تتخللها الضوضاء والحركة واختلال النظام .

فلقد دبروا المؤامرات مراراً ضد المسيو (سيف) لاغتياله ، وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار ، فاذا بأحدهم أطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها . فلم يفقد شيئاً من ثبات جأشه بل استأنف التمرين النارى نفسه وأمر التلاميذ باطلاق النار من جديد

وحدث مرة أخرى أن نزع التلاميذ الى الفتنة وتهددوه بالتنكيل به ، فاقترح عليهم أن يبارزوه بالسيف جميعا بعضهم تلو بعض قائلا إنه يريد بذلك أن يوقيهم معرة الجبن ، إذا قتلوه غيلة . فلم يسع الثائرين إزاء هذا التسامح الغريب والبسالة النادرة إلا أن كسروا من شرّة حدتهم .وبعد إذ كانوا ناقمين عليه صاروا أولياء له يخصونه بالحب الشديد والاحترام . ولقد تمكن بفضل هذه العواطف من إتمام تعليمهم فى مدة ثلاث سنوات

وبعد أن تكوّنت على المثال المتقدم الهيئات الأولى من الضباط ، شرع فى حشد العساكر وتكوينهم . وكان الوالى لايذهب الى اختيارهم من الأتراك أو الأرنؤود، لأفضاء الجهود التى بذلت فى سبيل تنظيمهم الى الفشل والخيبة ، بسبب أنهم كانوا يجهلون النظام ويكرهون بفطرتهم الرضوخ لأحكامه . وكان

من جهة أخرى لا يميل الى المجازفة بأخذهم من المصريين فلم يجد بابا للحيلة مفتوحا أمامه إلا الاعتماد على تجنيد السودانيين من أهل كردفان وسنار . ولقد جند فعلا منهم ثلاثين ألفا ، وأرسلهم على الفور الى بني عدى بالقرب من منفلوط فى الوجه القبلى على الضفة اليسرى للنيل . وفى الوقت الذى وصلوا فيه اليها ، أخذ شبان المماليك الذين تلقوا العلوم العسكرية بأسوان يبرحونها قاصدين الجهة الآنفة الذكر لتولى الرياسة على أولئك العساكر السودانيين وما أقبل شهر يناير سنة ١٨٢٣ حتى تألفت الأورط الستة الأولى وعين أولئك المماليك ضباطا لها وقضيت سنة ١٨٢٣ كلها ثم الأشهر التالية الى يونيو سنة ١٨٢٤ في إتقان التعليم العسكرى وترقيته . ولما لاح للوالى نجاحه أنفذ بالأورطة الاولى من تلك الأورط الست الى بلاد العرب الوسطى ، وبالأورطة الثانية الى سنار وبالأربع الباقية الى شبه جزيرة موره تحت إمرة ابراهيم باشا

على أن هذه التجارب الأولية لم تتوج كلها بالنجاح ، فأن السواد الأعظم من السودانيين الذين جندوا من كردفان وسنار فشا بينهم الموت لعدم موافقة جوّ مصر لأمزجتهم . دع أنهم كانوا

لا يصلحون فى الحقيقة لتحمل أعباء الخدمة العسكرية كما ينبغى .
وكان لايمر يوم إلا ويزداد شعور الوالى فيه بالحاجـة الى جيش منظم لتنفيذ مقاصده العالية وبلوغ مطامحه البعيدة فاعتزم حشد لجنود من المصريين . وكانت هـذه المجـازفة محفوفة بالأخطار الـكبار ، كما يثبته تذمر الامـة المصرية ونزوعها الى الهياج فى جهات متعددة حتى اضطرت الحـكومة الى التداخل لأخمادها .
ولـكن لمـا رأى الفلاحون الذين انتظموا في سلك الجيش مايعاملون به من الرعاية وحسن العناية بشؤونهم ورأوا أنهم يتغذون ويلبسون أحسن مما كانوا فى بيوتهم ، انتهي الامر بهم الى اعتياد حالتهم الجديدة والاغتباط بها

ولمـا عظم شأن التنسيق العسكرى بحسب النظام الجديد وظهرت أهميته للناظرين ، استدعت الحـكومة من فرنسا الجنرال (بوابين) والكولونيل (جودان) وجملة من كبار الضباط الذين كان لهم الأثر الظاهر فى إتمام ذلك التنسيق على خـير مايرام

٢٤ — المشاة أو البيادة المصرية

كان تشكيل جنود المشاة المصرية أول ما استرعى انظار الحكومة واستدعى عنايتها . فلا عجب إذا ظل هذا التشكيل موضوع اهتمامها المستمر ، حتى أنها أنشأت بثغر دمياط مدرسة لتخريج الشبان اللازمين للاندراج فى سلك الجيش كصف ضباط أو ضباط . وبهذه المدرسة الآن أربعمائة تلميذ يدربون على المناورات الحربية والادارة العسكرية ويتلقون اللغات العربية والتركية والفارسية . وناظرها ضابط من مقاطعة (بييمونت) وهو المسيو (بولونيى) الذى كان ضابطا برتبة اليوزباشى فى عهد الامبراطورية . وقد ترقى فى مصر الى رتبة القائمقام مكافأة له على ما أداه من الخدمات الجليلة كمعلم لفنون الحرب وإشعارا بما أحرزه من النجاح فى مهمته

ولقد شهد الدوق دى راجوز فيلقا من المشاة المصرية أثناء قيامه بالمناورات فكتب ما يأتى :

« كان لواء المشاة المؤلف من الأورطة التاسعة والأورطة العشرين متأهبا للرحيل الى السويس للابحار منها الى الحجاز

لتعزيز الحملة المصرية فيه . فتوليت بنفسي عرضه فقام بالمناورات أمامي مدة ثلاث ساعات فى سهل القبة القريب من قبور الخلفاء وقبر الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين . فرأيت منه ما استوجب سروري وإعجابي . وكان عساكر اللواء المذكور فى مقتبل العمر ، فتيسر بذلك لى الحكم بما كان للقائد الأعلى للجيش من الأثر الجليل فى تشكيله . والحق يقال ، فأن العساكر الذين عرضتهم جمعوا الى الدراية بالأساليب العسكرية حسن الهيئة ودقة المحافظة على النظام

٢٥ — الخيالة أو الفرسان

لم يبدأ تشكيل الخيالة بحسب النظام الجديد إلا عقب عودة الجيوش المصرية من حرب مورة . فأن ابراهيم باشا كان قد رأى فى هذا البلد الخيالة الفرنسيين ، فأدرك مايكون من الأهمية للفرسان الذين يعملون جماعات أو شراذم أو أورطا والامتياز على الفرسان غير المنتظمين ، وأن هذا الامتياز يشبه نظيره فى المشاة المنتظمة بالنسبة له فى المشاة غير المنتظمة . وبمجرد عودته الى مصر صرف همته بنشاط ومثابرة الى تشكيل الخيالة

بحسب النظام الجديد واستدعى لهذا الغرض المعلمين الأوروبيين وشكل أورطا عـديدة من الفرسان على اختـلاف انواعها . من صيادة ومدرعة ورماحة الخ

٢٦ — مدرسة الخيالة

أنشئت مدرسة الخيالة فى الجيزة بقصر مراد بك . وقد طبق عليها حديثا نفس النظام المعمول به فى مدرسة الخيالة بمدينة (سومور) بفرنسا مع رعاية ما اقتضاه المكان من اختلاف بعض التغيير والتبديل . ويتعلم بهـذه المدرسة شبان من الاتراك والمصريين ، مختلطين بعضهم ببعض ، ضروب المناورات على الخيل والقدمين والرسم والمبارزة والادارة العسكرية

قال الدوق دى راجوز : « وقد بلغت هذه المدرسة درجة الكمال وسيكون لها التأثير العظيم فى مستقبل الجيش المصرى ويتلقى العـلم بها الآن ثلاثمائة وستون شابا منقسمين الى ثلاث ثلل . والذى قام بأنشائها ويتولى إدارتها الآن هو القائمقام (فارون) الذى كان فيما سبق ملازما لركاب الماريشال (جوفيون سان سير)

وعلى أثر رحيل الدوق دى راجوز من مصر أنعم على المسيو (فاران) برتبة البكوية ورقى ميرالايا. وهي مكافأة عادلة على خدمه الجليلة لمصر ولسمو الوالى

٢٧ — المدفعية او الطوبجية

شكلت المدفعية النظامية فى الوقت نفسه الذى شكلت فيه المشاة النظامية. وغنى عن البيان أن الذين أنشأوها طبقة من المعلمين الأوربيين وجماعة من الضباط السابقين فى عهد الامبراطورية. ومن الأتراك الذين تفرغوا لاتقان هذا السلاح جماعة فازوا فيه بالقدح المعلى، وفى مقدمتهم الضابط القدير أدهم بك [1]. وهذا الضابط الممتاز هو الذى أنشأ معامل صنع السلاح والمدافع الموجودة بقلعة القاهرة ويقوم الآن على إدارتها، ولقد أشار الماريشال (دى راجوز) الى تلك المعامل، وهو ممن يوثق بحكمهم فى مثل هذه الموضوعات، فقال: «إنه لا يسع من شهدها إلا الأطراء فيها» وإنه ليسرنى بهذه المناسبة أن أثبت هنا رأى الماريشال فى كفاءة أدهم بك وحكمه على ذكائه

---

(١) هو الآن وزير المعارف العمومية

واقتداره . قال : « لقد تعلم أدهم بك اللغة الفرنسية بقوة إرادته وعلى غير أستاذ ، وهو صحيح اللهجة فيها. وتعلم الرياضيات بفروعها فقبض على ناصيتهـا وأحاط بشـتات المعلومات الخاصـة بفن الطوبجية . وأرى أنه يناظر فيهـا أحسن ضباط المدفعية وأمهر مديرى الأدوات المتعلقة بها ، وأنه أقدر من عرفتهم من الناس فى الشؤون الأدارية . ولا شك فى أن محمداً عليـاً كان صادق النظر حينما اختار مثل هذا العامل النشيط بل كان سعيد الطالع بعثوره على مثله

٢٨ – مدرسة المدفعية أو الطوبجية

أنشئت ببلدة طره ، منذسنوات ، مدرسة للمدفعية تحتوى الآن من ثلاثمـائة الى أربعمائة تلميذ يعلمون اللغتين العربيـة والتركية والحساب والجبر والهندسة والحيل (الميكانيكا) والرسم والاستحكامات ، وكل ماهو صالح من العلوم العالية للتطبيق على المدفعية . ولقد أدى البرتغـالى الميرالاى (ساجرا) الذى تولى إدارة هذه المدرسـة سنوات عديدة ورقى من فيض أنعم سمو الوالى الى رتبة أمير لواء ، خدما جليلة لهـا . وألحقت بالمدرسة

أورطة للمدفعية المشاة وأورطة أخرى للمدفعية الفرسان . وأنشىء لها ميدان ضرب نار (بوليجون) يصلح فى آن واحد للجنود والتلاميذ .

وهاك ما ذكره عن هذه الجنود الدوق دى راجوز الذى لا يسعنى إلا الاعتماد عليه والاستمداد بآرائه الصائبة وأفكاره العالية فى الموضوع . قال :

« تحركت أمامى أورطة المدفعية الراكبة للمناورات ، وكانت مؤلفة من ستة بلوكات ، فقامت بها على أتم ما يكون من الترتيب والدقة وبأقصى ما يراد من السرعة

« وكان رجالها على ما يرام من حسن الهيئة وسعة العلم والدربة ونظام الحركات العسكرية ، كما كانت مركبات المدافع مستوفية لشروط الأتقان ، وإن تكن الخيل التي تجرها صغيرة الجسم . وكل خيل القطر المصرى من هـذا القبيل . ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزاً حسناً ، وهم لا يخطئون الهدف بل يصيبونه بدقة وسرعة . فالمدفعيـة المصرية جامعة لشروط الكمال والأتقان وتشبه من هـذه الجهة مدفعيات الجيوش الأوروبية . وأميرالايها من الرجال الاكفاء الممتلئين نشاطاً

وغيرة . أما أورطة المدفعية المشاة فتتألف من ثمانية عشر بلوكا وقد قامت بتمريناتها أمامي فألفيت أن مدافعها كانت تصوب مقذوفاتهـا نحو الهدف تصويبا حسنا . أما نار مدافع الهاون ، فكانت أقل ضبطا منها وإحكاما

« ولا يسع الرائي لهذه المدفعية إلا الأعجاب بالقوة التي حولت الفلاحين الذين ديدنهم الاستنامة الى الدعة والسكون ، الى جنود على جانب عظيم من البسالة والأقدام »

واستميح الدوق دى راجوز الأذن لي بأيراد آخر عبارة كتبها في هذا الموضوع ، على سبيل الحكاية ، فقد قال :

« ومتى تخرج من المدارس نحو ألفين أو ثلاثة آلاف من تلاميذها ، وهو ما لا بد حاصل في بضع سنوات إن شاء الله ، فان الجيش المصرى يكون قد تم تشكيله بحسب النظام الحديث فيبارى أمثاله في الديار الاروبية »

٢٩ — الإدارة العسكرية

نسقت الجيوش المصرية كلها من مشاة وفرسان ومدفعية على نمط الجيوش الفرنسية . واتبع فيهـا ما هو متبع عندنا من

من الأساليب والأنماط فى أداء الحركات والسير ، وسلكت فى نظامها الموسيقات العسكرية . وتم التشاكل من كل وجه تقريبا فلم تبق مغايرة إلا في النداء بالأوامر التى يصدرها الضباط الى الجنود فأنه حاصل باللغة التركية لأنها من أنسب اللغات لأداء هـذا الغرض . وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التى يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقادقيقا محكما . وبلغ من المغالاة فى التقليد والأخـذ عنـا أن الرتب العسكرية فى ذلك الجيش مطابقة بالضبط لها في هذا

وقد أنشئت منذ البداية ، للقبض على زمام الجيش وادارة شؤونه ، نظارة على نظام أبسط من نظامها عندنا ، مع توسع فى اختصاصاتها . فنظارة الحربية المصرية هي المنوط بها جميع مايورد الى الجيش من سـلاح ومعدات وثياب . وهى التى تستخرج من مخازن الحكومة ومسـتودعاتها مايلزمها من الذخائر والمؤن الغذائية والأدوية الخ .

وإدارة الفيالق فى الغاية القصوى من البساطة والخلو من التعقيد فأنها لاتحرر عقوداً بشراء ، ولاتساوم أحداً على ثمن ولا تطلب اعتمادا من أحد ولا تحول اعتماداً من باب الى غيره .

وفى اتباع هـذا الأسلوب الساذج وقاية من الاختلاس والسرقة

أما مصلحة الصحة ، فقـد جعل النظام الفرنسى قاعدة لتنسيقها وترتيبهـا ، مع شيء من التعديل الذى يتطلبه اختلاف البيئات . ولكل أورطة من الموظفين والأدوات العدد اللازم والمقـدار الكافى لتشكيل المستشفيات الخاصة بالأورط كلما مست الحاجة . وسنفيض فى الكلام على هذا الموضوع بالفصل الذى سنشرح فيه حالة الطب فى القطر المصرى

وأغذية العساكر عبارة عن معينات من الخبز واللحم والأرز والعدس والسمن والزيت والصابون وكلها من الصنف الجيد وبالمقادير الكافية

٣٠ — شوار الجنود

شوار الجنود أى ملابسهم الرسمية المتشابهة ، فى الغـاية القصوى من البساطة . وهي ، على صلوحها وفائدتهـا ، حافظة للزى الوطنى الأصلى بقدر المستطاع لتألفها من طربوش أحمر ، (والعقائد الدينية تحول دون اتخاذ قلنسوة تشـبه قبعة المسيحيين) وصدرية كالشعار متشابكة على الصدر ومحشورة فى

السروال . والسروال يثبت بتكة على الوسط ويذهب عريضاً واسعاً الى الركبة حيث يضبط برباط الساق (القلشين) ، ويدار على الجسم حزام . والملابس تكون من الجوخ لفصل الشتاء ومن قماش القطن السميك لفصل الصيف . ويلبس الفرسان ورجال المدفعية ورجال الحرس ، شتاء ، صدرية زرقاء اللون وغيرهم صدرية حمراء . وفى الصيف يرتدى رجال الجيش كله بالملابس البيضاء ويحملون أحذية تركية من الجلد الأحمر . وأما مجموعة الأدوات الجلدية الخاصة بالسلاح فبيضاء اللون للمشاة والفرسان وصفراء للمدفعية

ولا يختلف شوار الضباط عن شوار العساكر إلا فى نوع الجوخ وما هو مجمل به من الوشى ، واللون الأحمر خاص بالضباط . أما الشارات التى تميزهم بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم ودرجاتهم فهى : يحمل الأونباشى شريطاً واحداً على الصدر والجاويش شريطين والباشجاويش ثلاثة . أما الملازم الأول فيحمل على الصدر من ناحية اليمين نجمة فضية واليوزباشى نجمة وهلالا فضيين والصاغقول أغاسى هلالا من الذهب ونجمة فضية والبكباشى هلالا ونجمة من الذهب والقائمقام هلالا

من الذهب ونجمة من الماس والمير الاى هلالا ونجمة كلاهما من الماس وأمير اللواء نجمتين فى هلال وكلها من الماس والميرميران ثلاثة نجوم فى هلال وكلها من الماس

٣١ — الرتب فى الجيش

الرتب فى الجيش كما يأتى :

الأونباشى	رئيس العشرة
الجاويش	
الباشجاويش	
الصول قول أغاسى	مساعد اليسار
الملازم الثانى	التالى الثانى للرئيس يساعده وينوب عنه
الملازم الأول	« الأول « » »
اليوز باشى	رئيس المائة
الصاغقول أغاسي	مساعد اليمين
البكباشى	رئيس الألف
القائمقام	الذى ينوب مناب المير ألاى
المير ألاى	أمير الألاى

المير لواء	أمير اللواء
المير ميران	أمير الأمراء
السر عسكر	رئيس القواد

وأمراء الألايات وأمراء الألوية يحملون لقب البكوية أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين

٣٢ – المرتبات والماهيات

مرتب الجندى البسيط خمسة عشر قرشا فى الشهر أى ما يعدل صلديين ونصف صلدى فى اليوم . ومرتب الأونباشى خمسة وعشرون قرشاً ، والجاويش ثلاثون ، والباشجاويش أربعون ، والصولقول أغاسى ستون ، والملازم الثانى مائتان وخمسون ، والملازم الأول ثلاثمائة وخمسون ، واليوز باشى خمسمائة ، والقائمقام ثلاثة آلاف ، والميرألاى ثمانية آلاف والمير لواء أحد عشر ألفاً ، والمير ميران إثنى عشر ألفاً وخمسمائة

ومرتبات كبار الضباط جسيمة ، على مايؤخذ مما تقدم . وسبب ذلك أن سمو الوالى كان يريد استمالة الأتراك الى النظام الحديث في الجيش على أثر ما أبدوه من النفور الشديد منه ، دع

أن الرؤساء في الجيش تدعوهم طبيعة مركزهم الي بسط اليد بالنفقة

٣٣ — الطاعة للرؤساء

الطاعة للرؤساء فى الجيش المصرى جارية على مثالها فى الجيش الفرنسى . فأن القانون العسكرى الفرنسى ، الباحث في هذا الموضوع ، قد ترجم من اللغة الفرنسية ليعمل بنصوصه ، وفي بادىء الأمر ، اضطر الى استعمال الجلد عقابا للمخالفين . ولكن سمو الوالى وابراهيم باشا حصرا استعماله فى دائرة ضيقة والهمة متجهة الآن الى إلغائه بالمرة

٣٤ — الروح العسكرية فى المصريين

ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم . لأنهم بوجه عام يمتازون بيدانة الأجسام وتناسب الأعضاء والقناعة بالقليل والقدرة على العمل واحتمال المشاق والأتعاب . ومن أخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للأوامر والبسالة والثبات عند الخطر

ومقابلة النوازل والمحن بالاتكال والصبر والانصراف نحو النار وتوسط معامع القتال ، بلا وجل ولا تردد . والحوادث للدلالة على ذلك كثيرة نكتفى منها بما يأتى :

حدث فى معركة حمص أن جنديا من الأورطة السابعة الفرسان يدعي منصورا نزعت ذراعه من جسمه بقنبلة فأبى ، وهو فى هذه الحالة ، التراجع عن ميدان القتال بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو بأشد مايكون من البأس والبسالة . وظل يحارب الى أن مات

وحدث في معركة (قونيا) أن ترك جميع الجرحى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح ، أسرّتهم فى المستشفى قاصدين الى ميدان القتال لمساهمة إخوانهم مجد الانتصار أو شرف الموت

وفى تلك المعركة سقط جندى من الأورطة الرابعة الفرسان عن ظهر جواده مصابا بجرح ، فلما شهده أمير لوائه احمد المنكلي سارع بتقديم جواده اليه ، لكى يرجع به الى الساقة فأبى الجندى قائلا إنه يفضل البقاء فى ميدان القتال ليشهد إخوانه منتصرين ، ولو لقى حتفه

وفى إحدى المعارك أصيب فتى من جنود الأورطة

الخامسة عشرة بجرح ، ورأى رفاقه في فصيلته يذهبون كل مذهب فرارا من العدو . فعلى الرغم من استنهار جرحه واحتدام نار القتال حوله لم يكف عن النفخ فى بوقه بأشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم ، ولم يتراجع خطوة واحدة الى الوراء . ولما شهد زملاؤه الفارّون فعله عراهم الحياء من رؤيته ، وهو فتى صغير جدا ، يضرب لهم أمثال الشجاعة والبطولة ببسالته فلموا فى الحال شعثهم وجمعوا فلولهم ثم عادوا الى القتال ليثأروا لشرفهم الذى ثلمه العدو برهة ما من الزمن

ومن أهم الحوادث وأجدرها بالذكر ، لاسيما وأن فيها مايذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم ، أن سليمان باشا كان ذات يوم يعرض أورطة وصلت اليه حديثا . فوقع نظره على فتى نحيل ضئيل فى السادسة عشرة من عمره يدعي بالحاج على . فهمّ سليمان باشا برفضه معترضا على تجنيد مثله ، وهو فيما يشاهد من ضعفه وظهور علامات المرض على وجهه فأبى الحاج على إلا أن يبقى تحت السلاح قائلا لسليمان باشا إنه لسوف يكذب سوء ظنه فيه ويدحض خطأ حكمه عليه فى أول نهزة ينتهزها لذلك . وكان الجيش المصري ضاربا الحصار على (عكا) فخرجت الحامية

يوما وتغلبت على المشاة المصريين وألزمت جنود الأورطة الثامنة المقاتلة فى الجبهة ملازمة الهزيمة . فتقدمت الأورطه الثالثة من الفرسان التى كان الحاج على منتظما فى سلكها لتعزيز جانب اؤلئك الجنود وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين الى مواقعهم . ولكن الحاج عليا لم يكفه أنه شاطر رفاقه فخار فوزهم بل أنقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع فى أسر العدو . ثم انقض على ضابط تركى فأسره وجاء بالضابطين المصرى والتركى الى سليمان باشا وقال له : « ألا تزال تعتقد أننى جندى لا أصلح لشىء ؟ »

وكان الأتراك ، لما يشعرون به من علوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون بهم العجز عن مجاراتهم . ولكن حرب موره أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول المنجمع ، الذى أذله الضغط والعسف ، قدير على استرداد مجده القديم وأهل لمنازعتهم على فخر النجاح والفوز فى القتال . ولقد أثبت لهم فتح الشام وانتصارات (حمص) و (بيلان) و (قونيا) سموهم الذاتى عليهم باعتبار كونهم أفرادا كما أثبت شوكتهم باعتبار أنهم جموع مسوسة بقواعد علم خطط

القتال وتدابيره

على أن المصريين الذين يستحقون هذا الأطراء العظيم بوصف كونهم جنوداً ، لا يستحقونه أبداً متى وصلوا فى مدارج الترقى إلى مراتب القيادة ، لأنهم في المراتب العالية لا يشعرون بكرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها فهم يغايرون العثمانيين والمماليك فى الأهليـة للقبض على زمام القيادة . وسرعان ما يتحولون الى عاداتهم القديمة بما اضطر سمو الوالى وابنه إبراهيم ، على الرغم منهما ، الى العدول عن ترقيتهم وترفيعهم الى المراتب السامية في الجندية

وتلقاء هـذا النقص ، أسندت الى المماليك والأتراك فى الجيش المنـاصب العليا . وليس بمستبعد أن تكون قلة أهلية المصريين للقيادة من الظروف الملائمـة لجريان الاحوال على مقتضى الواجب فأن الشعب المصرى سريع التقلب عديم الثبات الى حد يخشى معه ، فيما لو سلمت قيادة الجنود الى ضباط منـه ، نزوعهم إلى الهياج والثورة . أما وقد وضع النظام على الترتيب السـابق فأن العساكر يخضعون لضباطهم ويستطيع هؤلاء إلزامهم بتنفيذ أوامرهم لمـا يتخذونه من وسائل الاحتيـاط

والتحفظ لذلك لا سيما وأنهم لا يستطيعون الاعتماد عليهم ، كما لو كانوا من أبناء جنسهم

والشعور العائلى من أخص صفات المصريين ، فهم لا يستغنون عن الأنس بنسائهم . ولقد أذن لهم من أجل ذلك بأن يكون معهم بعض أقاربهم وبأن يتزوجوا أيضاً . ولولا هذا الاحتياط لتعذر صدهم عن الاندفاع فى تيار العصيان والشغب ومنعهم من التشرد . على أنه لما يهم فى بلد قليل عدد السكان كالقطر المصرى ، أن يساعد الخمسون أو الستون ألفاً من الجنود المصريين ، بزواجهم وهم فى الجيش ، على تكثير النسل . ومفهوم أنه إذا تحرك الجيش للقتال يفارق هؤلاء الجنود زوجاتهم وأولادهم ويزحفون وحدهم الى ميدان القتال

وتهتم الحكومة ، فى مثل هذه الحالة ، بأطفالهم وتتولى الانفاق عليهم فتترتب من التعيينات الغذائية لكل منهم ما يعدل نصف المرتب الذى يتقاضاه آباؤهم

٣٥ - جدول القوات العسكرية المصرية وتوزيعها

نذكر فيما يلى بيان القوات العسكرية المصرية قبل الحرب

الأخيرة:

حرس صاحب السمو الوالى وهو مؤلف من أورطة من المدفعية وثلاثة آلايات من المشاة وآلايين من الفرسان أى من ١٢٠٠٠ عسكرى

حرس شرف السر عسكر وهو مؤلف من ٥٠٠ عسكري

أورطة أساس الضباط وهي مؤلفة من ٨٠٠ عسكرى

خمسة آلايات من المدفعية منها ثلاثة من المشاة وإثنان من المشاة الراكبة وعدد عساكرها ١١٦٠٠

ستة عشر بطرية كل بطرية مؤلفة من ستة مدافع وعدد عساكرها ١٨٠٠

ألاى الحملة مؤلف من ١٢٠٠ عسكرى

أورطتان للهندسة وعدد رجالهما ١٦٠٠

ستة وثلاثون ألايا من المشاة وعدد عساكرها ١١٥٠٠٠

خمسة عشر ألايا من الفرسان عدد عساكرها ١٢٠٠٠

جيوش غير نظامية مؤلفة من الكريديين والأرنؤوط والعربان وعددهم ٢٦٠٠٠ مقاتل

المجموع ١٨٠٠٠٠ تقريبا

وهاك عدد عساكر جيوش محمد على الآن وبيان الجهات التى يقيمون بها

جيوش نظامية

بيان الجيوش			محل الاقامة	عدد العساكر
الألاى الأول من طوبجية الحرس			حماه	١٣٧٢
» الثانى	»	المشاة	الاسكندرية	٢٣٤٩
» الثالث	»	»	حلب	١٩٤٩
» الأول	»	الراكبة	حمص	٩٨٢
» الثانى	»	الراكبة	دمشق	١٠٠٧
أربع فصائل من طوبجية متفرقة			عكا	٣٣٧
الاورطة الأولى من المدفعية			الحجاز	٣٧٩
الألاى الأول من مشاة الحرس			عينتاب	٣٠٤٨
» الثانى	»	»	مرعش	٢٦٤٥
» الثالث	»	»	حلب	٢٤٣٥
» الأول من المشاة (الأورطة الخامسة)			السودان	٤٥٤٧
» الثانى	»		عينتاب	٢٢٥١

الألاى الثالث من المشاة اليمن ١٥٢٦
» الرابع » مرعش ٢٥٩٣
» الخامس » آطنه ٢٦٢٩
» السادس » قليس ٢٣٦٢
» السابع » الحجاز ٢١٩٢
» الثامن » السودان ٢٣٩٦
» التاسع » حلب ٢٣٠٤
» العاشر » » ٢٠٥٤
» الحادى عشر » أورفه ٢٣٣٨
» الثانى عشر » عينتاب ٢٣٢٦
» الثالث عشر » الحجاز ١٢٢٥
» الرابع عشر » حلب ١٩٨٨
» الخامس عشر » الدرعية ٢٥٥٥
» السادس عشر » قنديا ٣١٤٩
» السابع عشر » أورفه ٢٣٦٩
» الثامن عشر » عكا ٢٠٤٩
» التاسع عشر » الحجاز ٢٣٤٩

الآلاى العشرون	من المشاة	اليمن	٢٦٧٧
» الحادى والعشرون	»	الحجاز	٢٣٦٣
» الثانى والعشرون	»	أورفه	٢٢١٢
» الثالث والعشرون	»	ينبع	٢٣٤٢
» الرابع والعشرون	»	انطاكيه	٣١٣١
» الخامس والعشرون	»	أورشليم	١٧٥٥
» السادس والعشرون	»	القاهرة	٣٣١٨
» السابع والعشرون	»	الجديدة	٢١٢٩
» الثامن والعشرون	»	»	٢٤٤٦
» التاسع والعشرون	»	آطنه	٣١٧٢
» الثلاثون	»	حماه	٢٩٢٥
» الحادى والثلاثون	»	حلب	٢٤٠١
» الثاني والثلاثون	»	القاهرة	٣٣١٨
» الثالث والثلاثون	»	الاسكندرية	٢٦٠٤
» الرابع والثلاثون	»	قليس	٢٥٦٤
» الخامس والثلاثون	»	القاهرة	٣٣١٨
» الأول من فرسان الحرس	»	اللاذقية	٧٩٦

الألاى الثاني من الحرس المدرعين	بيسان	٨٤٤
« الأول من الفرسان	اورفه	٨٢٥
« الثاني «	زامبا	٨٣٠
« الثالث «	في الطريق الى الاسكندرية	٨٤٧
« الرابع «	آطنه	٦٧٨
« الخامس «	فى الطريق الى الاسكندرية	٨٣٢
« السادس «	دمشق	٧٧٠
« السابع «	طرسوس	٧٤٢
« الثامن «	دمشق	٧١٢
« التاسع «	فى الطريق الى الاسكندرية	٨١٦
« العاشر «	عكا	٧٦٨
« الحادى عشر «	قليس	٧٥٦
« الثانى عشر «	طرسوس	٦٦٢
« الثالث عشر «	أورفه	٨٠٦
أورطة المتقاعدين	القاهرة	٣٩٨٠
الألاى الأول من البلطه جيه	عكا	٨١٢
الأورطه الأولى من المتقاعدين	اسكندرية	٧٩١

أورطتان من المتقاعدين	طرابلس	١٦٤١
أورطة من المتقاعدين	دنقله	٨٥٥
» من فرقة المهندسين	أدليب	٧٥٨
» من البلطه جيه	اسكندرية	٨٠٨
فصيله من اللغامين	القاهرة	٩٤
الأسناس	القاهرة	٢٨٥
١٦ بلوكا من العساكر المتقاعدين	مراكز القطر	١٦٧١
رجال الألعاب النارية والسواريخ	مصر العتيقة	١٨٥
ألاى من رجال القرابة لدى	السر عسكر	١١٥٢
فصيلة »	فى الحجاز	١٠٦
بلوكان من العساكر المتقاعدين	»	٢٠٠
المجموع الكلي		١٣٠٣٠٠

الجيوش غير النظامية

في الحجاز :

	ضباط	عساكر
فرسان أتراك	٤	١٥٨٠

مشاة أتراك	١	٣٩٥
فرسان مصريون	٩	٩٤٥
مشاة مصريون	٥	٣٣٩
مدفعية	—	٧٨٧
المجموع	١٩	٤٠٤٦

في القطر المصرى :

فرسان أتراك	١٠	٢٧٨٥
مشاة أتراك	٧	٢٧٧٥
فرسان مصريون	٧	١٦٦٠
مدفعيه	—	١٢٩٩
المجموع	٢٤	٨٥١٩

في اليمن :

فرسان أتراك	٥	١٩٧٠
مشاة أتراك	٩	٧٦٠
مدفعية	—	٢٠٠
المجموع	١٤	٢٩٣٠

في قنديا :

فرسان أتراك	٢	٤٥٠
مشاة أتراك	٦	٢٤٠٥
مدفعية	—	٢٨٠
المجموع	٨	٣١٣٥

في المدينة :

فرسان أتراك	٣	٣٠٢٠
مشاة أتراك	١٠	٣٧٥٠
مدفعية	—	٢٢٥
مصريون	١٦	١٢٢٥
المجموع	٢٩	٨٢٢٠

في السودان :

فرسان أتراك	١٧	١١٧٠
فرسان مصريون	٤	١٢٨٠
مشاة مصريون	١٠	٩٥٠

مدفعية	—	١٨٦
المجموع	٣١	٣٥٨٦

فى الشام :

فرسان أتراك	١٤	٤١٢٥
مشاة أتراك	٥	١٩٣٠
فرسان مصريون	٦٣	٤٩٨٠
المجموع	٨٢	١١٠٣٥

فيكون مجموع الجيوش غير النظامية كما يأتى :

ضباط	٢٠٧
عساكر	٤١ ٤٧١
	٤١ ٦٧٨

وقبائل العربان في القطر المصرى كقبائل أولاد على والجميعات والهنادى والجهلات وولد سليمان والزوفه وجهينه والهواره والعبابده والمعازة وغيرهم مستعدة على الدوام لتوريد الكثيرين من الرجال والخيول والجمال ولوازم القتال لأول اشارة من سمو الوالي

الحرس الاهلى

الاسكندريه	آلايان	٦٨٠٠ جندى
البرلس ورشيد	آلاى واحد	٣٤٠٠ «
دمياط	«	٣٤٠٠ «
القاهرة	ثمانية آلايات	٢٧٤٠٠ «
مصر القديمة	آلاى واحد	٣٤٠٠ «
بولاق	«	٣٤٠٠ «
	المجموع	٤٧٨٠٠

وفى استطاعة مدارس الطوبجية والخيالة والمشاة والبحرية والهندسة الحربية أن تقدم للخدمة العاملة فى الجيش ١٢٠٠ مقاتل

وعدا ما تقدم فأن جميع عمال الفاوريقات فى القاهرة وعددهم ١٥٠٠٠ عامل يقومون يوميا بالتدرب على المناورات الحربية والاجراءات العسكرية وفي الأمكان ابلاغ عدد من يحشد منهم الى ٥٠٠٠٠ إذا مست الحاجة لذلك

مراجعة عامة لما تقدم

جيوش نظامية	١٣٠٣٠٢	عسكرى
« غير نظامية	٤١٦٧٨	»
الحرس الاهلى	٤٧٨٠٠	»
عمال الفاوريقات المدربون	١٥٠٠٠	»
رجال مستعدون فى المدارس	١٢٠٠	»
الدونمة ومن ضمنها الترسانة	٤٠٦٦٣	»
المجموع	٢٧٦٦٤٣	

٢

البحرية المصرية

انشاء البحرية المصرية — حالة البحرية المصرية ومنشآتها قبل وصول المسيو سريزى بك الى مصر — انشاء دار صناعة الاسكندرية ـ العقبات التى ذللها المسيو سريزى — الاعمال والمباني والمنشآت فى الترسانة — السفن الحربية التى شرع فى بنائها — عمال الترسانة من المصريين — أحواض السفن — نوتية الدونتمة — القوات البحرية لمصر وتركيا

٣٦ — انشاء البحرية المصرية

جاء تنسيق البحرية المصرية بعد تنظيم الجيش البرى بزمن يسير . نعم إنه كان لمصر أيام حرب موره دونتمة حربية ، غير أن الشطر الأكبر من سفنها أنشىء أو اشترى في (مرسيليا) و (ليفورنة) و (تريستة) وقد قضى عليها بالدمار والفناء فى معركة (نافارين) البحرية الشهيرة

ولم يرتفع للبحرية المصرية شأن عقب ذلك ، إلا حينما نيط بالمسيو (دى سريزى) من مهندسى ثغر (تولون) المشهورين بالخبرة والبراعة فى فنون البحرية ، لتشكيل ترسانة (دار صناعة) للاسكندرية والاشراف على إنشاء السفن فيها . ولنا أن نقول

فى موضوع هذه الترسانة أن إنشاءها كان ، كأنشاء الشعر ونظمه ، عفو الساعة لم يسبقه أقل استعداد . ولعل إيجادها من العدم كان المظهر الأول لعبقرية محمد على ، والدليل الساطع على عزيمة ماضية وإرادة حاسمة لا ينثلم لها حد ولا يكبح لها جماح

٣٧ – حالة البحرية قبل وصول سريزى بك

لما وصل المسيو دى (سريزى) الى مصر فى أبريل سنة ١٨٢٩ ألفى البحرية المصرية مؤلفة من وحدات قليلة من السفن ، هى التي نجت من كارثة (نافارين)، نذكر منها فرقاطة ذات ٦٠ مدفعاً أنشئت بثغر (البندقية) وأخرى أنشئت فى (ليفورنة) وجملة سفن من طراز الكورفيت والبريك . وكانت هذه السفن ينقصها لوازم القتال ومعداته ، لأنها أنشئت فى ثغور تجارية لا حربية . فاضطر (دى سريزى بك) الى إنشاء مخازن للبارود فيها وإدخال تعديلات عليها تتفق مع احتياجات المدفعية وضروراتها

ولم يكن فى الاسكندرية ترسانة لبناية السفن . وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب من الماء تبني فيه سفينة من

طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حوات فيما بعد الى فرقاطة . وكانت ورش الصناعة عبارة عن ظلات بسيطة من الخشب ، وكانت المواد والخامات الضرورية للبحرية يوردها تجار من الأوربيين يجلبونها من أوربا

وكان يرأس أشغال بناء الأساطيل وترميمها مصرى طاعن فى السن يدعى الحاج عمر ، وهو رجل شهم واسع الحيلة . وقد صار فيما بعد الساعد اليمنى للمسيو (سريزى) وموضع ثقته . وكان معه رجل تركى الجنس يزعم العلم بالهندسة ، ولكنه كان فى الحقيقة عنوان الغباوة والجهل ، فاستغنى (سريزى) عنه وفصله من وظيفته . وكان العمل قائما على قدم وساق لبناء سفن حربية أخرى برسم سمو الوالى بعضها في (ليفورنة) والبعض الآخر فى (مرسيليا) و (لوندرة)

٣٨ — تشكيل ترسانة الاسكندرية

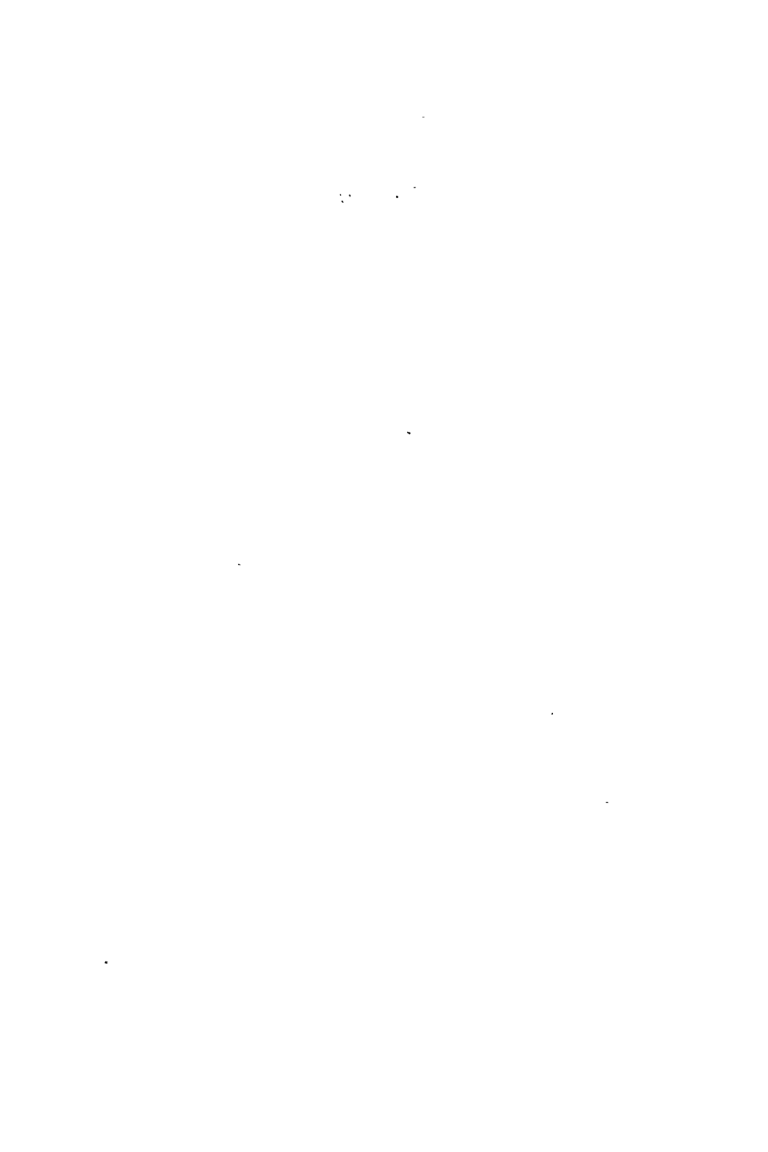
كان محمدعلى يدرك ما للبحرية من الأهمية وخطرالشأن فى حرب الشام وصد غارات الاستانة وحملاتها . فكان إذا وقع إبطاء فى بناية السفن بالثغور الأجنبية أو اعترض إنجازها عارض

ناله من ذلك غم شديد. فعقد النية لهذا السبب على إنشاء ترسانة وكان يقدر كفاءة المسيو (دى سريزى) وهمته بما ظهر له منهما فى إنجاز الاشغال البحرية التي أنجزت بثغر مرسيليا لحساب مصر فرجا من الحكومة الفرنسية أن تأذن له بالحضور الى الاسكندرية لتولى إدارة الأعمال البحرية فى ثغرها

وكان كل ما ألقى فى وهم محمد على من استحالة دخول السفن الحربية الى ميناء الاسكندرية وتحققه من نقص الأدوات الحربية والعمال اللازمين لمباشرة الاعمال المختلفة بها ، مما شجعه على التمسك بأنشاء الفرقاطات الكبيرة . وكانت طلباته الأولى للسفن قائمة على أساس هذه الفكرة فلما نظر سموه فى الرسوم التي قدمت اليه ، واطلع على رأى المسيو (دى سريزى) فيها ووقف على دقائق ملحوظاته بشأنها وأيقن مطابقتها للصواب ، اعتزم أن لا يقتنى من السفن الحربية إلا ما كان منها كبير الحجم. ومن ثمّ ورد على خاطره إنشاء ترسانة كبيرة

وبينما كانت تجهز الادوات اللازمة ، بالديار الاروبية ، لأخراج هذا المشروع الى حيز الفعل ، كان المسيو (دى سريزى) يعد فى الاسكندرية المعدات ويهيء المقدمات إذ تفرغ لأخذ

أعماق الميناء لاختيار أوفق موقع منها لانشاء الترسانة الجديدة.
ولقد تبين له أن عمق الماء في بعض السواحل من ناحية مربوط
لا يعوق إقامة البناء المطلوب . ولكن هذه السواحل ، فضلا
عن بعدها عن المدينـة ، كانت أمواج البحر فى هياجه ترتطم بها
ارتطاما شديداً وتحول دون إصابة الغرض المطلوب من الدفاع
عن ثغر الاسكندرية . وكان العساكر يشتغلون فى إمالة الساحل،
وهو متكون من مادة حجرية رخوة بالقدر اللازم لبناء القاعدة
المنحدرة التى تنشأ السفن عليها ، بينما كان يعمل غيرهم فى استخراج
الأحجار التى ستبنى بها من الأبنية الأخرى . وصفوة القول فقد
كانت بوادر العمل بما تخللها من آيات النشاط والهمة أصدق
دليل على شدة الحاجة الى سفن للقتال فى أقرب ما يمكن
من الزمن . وعلى الرغم من هذا فقد كان المسيو (دى سريزى)
غير مرتاح لذلك الموقع ، فصرف عنايتـه الى البحث عن موقع
آخر تتوافر فيه الشروط الملائمة لانشاء الترسانة . وكان مما
لاحظه أن الشاطىء الذى تنشأ فيه الزوارق فى وقاية من هبوب
الرياح واضطراب الأمواج وأن الهجوم عليه مواجهة متعذر إن
لم يكن مستحيلا ، وإنما كان عيبه قلة عمق الماء به . فمر بخاطره أن



دليل تفصيلى

لتصميم ترسانة الاسكندرية

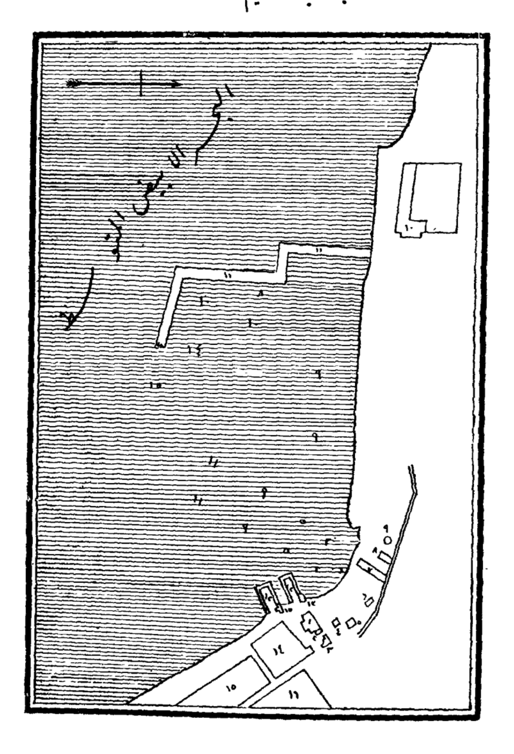
قبل المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ الجمرك
٢ قهوة عمومية
٣ دكان
٤ مسجد
٥ ورشة بالبناء
٦ ارضية مستعملة لانشاء السفن
٧ ظلة من الخشب لآلات الحدادة
٨ ظلة من الخشب لصناعة البراميل
٩ مسجد
١٠ مخازن ومكان الزجاج
١١ الرصيف القديم وقد تلف جزء منه
١٢ رصيف من الخشب لانزول فى السفن
١٣ مكاتب مستخدمى الجمارك
١٤ مخازن الحكومة
١٥ مخازن خصوصية
١٦ جزء من مدينة الاسكندرية

ملحوظه — سبر عمق الماء بالأقدام الفرنسيه

(ترتيب أقسام ترسانة الاسكندرية)

بحسب تصميم سنة ١٨٢٩



يعمل للتغلب على طبيعة الارض فيه . وكان يعلم أن المواد الصخرية موجودة على عمق ثلاثين قدما ، وأن من الميسور رفع الرمال بالآلات دون أن يطرأ تعطيل ما على إقامة المبانى المطلوبة فعول نهائياً على إنشاء الترسانة فيه

وما اختمرت هذه الفكرة فى ذهنه ؛ حتى انصب على العمل ليل نهار لوضع رسوم الورش والمبانى التى تنفذ بمقتضاها مشروعات الوالى العظيمة . وما وافى اليوم التاسع من شهر يونيو سنة ١٨٢٩ حتى رفع الى أعتاب سموه مجموعة من عمله الابتدائى ، فأجال فيها نظره وتروى ملياً ثم وافق عليها . وما هى إلا ساعة واحدة حتى شوهد بضعة آلاف من العساكر يحفرون الآساس للمبانى التى كانت الحاجة الى البدء بها أشد ما يكون . وناط بالقيمين على الآلات وضع الاوتاد (الخوازيق) للأرصفة وحفر الأحواض

وكان سمو الوالى ، أثناء ذلك ، يستدعى من أقاليم القطر المصرى الشبان الذين توجهت إرادته الى تنشئتهم التنشئة التى تتطلبها أعمال السفن . فلما اجتمعوا لديه أخذ يرتبهم بحسب النظام العسكرى، إذ قسمهم فرقا كل فرقة لمزاولة عمل . فكان منهم النجارون والحدادون والجلافطة والسباكون والميكانيكيون الخ .

وقد تألفت هذه الفرق بالتدريج . وكان كلما اتسع نطاق تعليم العساكر على هذا المثال ، اختير الاونباشية والجاويشية والضباط بين الممتازين منهم بالهمة والنشاط والذكاء

وأجل خدمة قام بها المسيو (دى سريزى) اسمو الوالى تشكيله هيئة عمال الترسانة على النسق المتقدم . ونظراً الى ولعه الذاتى بالصناعات المختلفة ودرايته التامة بأسرارها على اختلاف مناحيها ، كان يتولى بنفسه تدريب العمل على مباشرة الأعمال كل فى الصناعة التى اختير لمزاولتها . وعلى هذا النمط سار العمل فى تشييد المبانى وتعليم الرجال مختلف الصناعات سيراً مطرداً منتظما . ولم تشرق شمس يوم ٣ يناير سنة ١٨٣١ حتى كانت سفينة ذات مائة مدفع تنزلج من البر الى البحر

ومنذ هذه الآونة وضح وضوح الشمس فى رائعة النهار أن مسئلة « البحرية المصرية » حلت على أحسن ما يرام . ولكن كانت لا تزال الحاجة ماسة الى إقامة الدليل على خطأ الأوروبيين الذين زعموا أن السفن ذات الأربعة والسبعين مدفعا لا تستطيع اجتياز بوغاز الاسكندرية فى مأمن من الأخطار . فلما تصدى (دى سريزى) لاثبات فساد هذا الزعم اثباتاً عملياً بأنشائه

تلك السفينة ، استهدف نفسه لصنوف الملاوم والانتقادات .
وتمادى اللائمون والمنتقدون فى غلواء اللوم والانتقاد الى حد
اتهامهم إياه بأنه خدع سمو الوالى وغشه وقابل بالأساءة إحسانه .
ولكن لم تلبث هذه الحملة أن انتهت بسلام، إذ تقرر أن بالامكان
اجتياز البوغاز بلاخوف من خطر ما ، إذا اتخذت احتياطات معينة
وتدابير معلومة . وكانت الهمة أثناء هذه الحوادث منصرفة الى
تسليح السفينة التى تم بناؤها فلم يمض زمن حتى نشرت أشرعتها
وأبحرت من الميناء للأيغال فى خضمات البحر الأبيض المتوسط
ومنذ هذا الحين أحرز المسيو (دى سريزى) ثقة الوالى
الذى شرحت هذه النتيجة الباهرة صدره ، وملأت بالسرور
والابتهاج قلبه ، فخوله السلطة المطلقة وحرية التصرف فى
شؤون الترسانة . وكان مما اشرأبت اليه عنق (دى سريزى) ،
أن يقوم بعمل جليل يكسب به ثقة محمد على كلها ومودته،
فتفرغ لهذا العمل ووهب لاجله وقته وحياته وهمته

٣٩ — العقبات التى تغلب عليها المسيو دى سريزى

وبالرغم من الهمة العالية التى امتاز بها المسيو (دى سريزى)

وثقته فيه ، تكاثرت العقبات والمعاثر فى طريقه وأصبح فرضاً عليه تذليلها بحكمته وقوة إرادته وصبره . وبيان ذلك أن مجيئه إلى الاسكندرية لأنشاء الترسانة وتشكيل البحرية المصرية ، أزعج البيوت التجارية التى كانت تربح الاموال البالغة من التوصية فى الخارج لديها على بناء السفن الحربية بلا مراقبة عليها ، وألقى الخلل والاضطراب فى أعمالها . فأخذت تذيع عنه من الأحاديث المفتراة ما لا حصر له ، وترميه بما يروق لها اختراعه من صنوف التهم الشائنة . بل بلغ من أمرها أن حاولت استفزاز العمال الأوروبيين الذين يتولون رياسة الأقسام الصناعية فى الترسانة ويقومون على تعليم المصريين وتدريبهم ، الى الشغب والعصيان . وكثيراً ما وقعت الورش والمعامل بالترسانة في الالتباك والخلل من جراء هذه الفتن ، حتى لقد حدث عند الشروع في دفع السفينة الثانية من منشآت الترسانة إلى البحر ، أن انقطعت أمراسها المثبتة لها فى مكانها قبل الأجل المعين ، وكان ذلك بفعل فاعل يقصد إتلافها . وكان العمال المالطيون والليفورنيون يحضون على الشغب والثورة عمال ترسانة (تولون) الذين كانوا يعملون معهم فى ترسانة الاسكندرية . وكان المسيو (دى سريزى) قد جاء بهم من ذلك

دليل تفصيلي

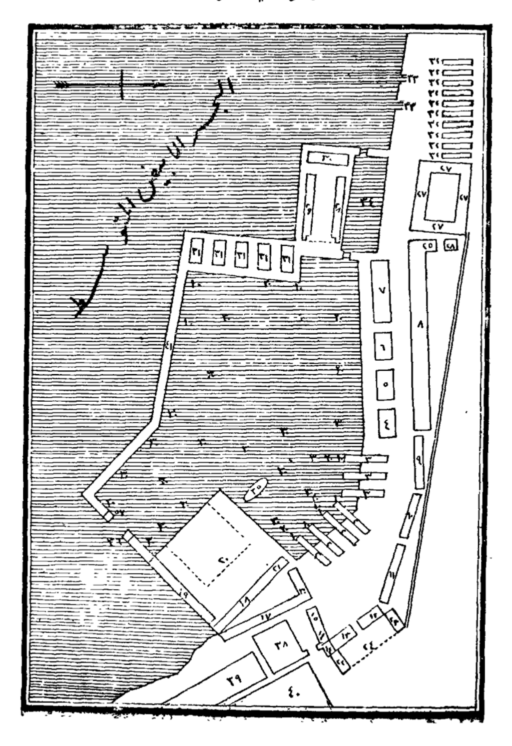
لتصميم ترسانة الاسكندرية بحسب المشروع الذى صودق عليه سنة ١٨٢٩

١ مدخل الترسانة وسيكون بعد انتهاء العمل في نمرة ٢٤
٢ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء السفن عليها
٣ قواعد مائلة ومبنية بالحجر لانشاء الفرقاطات والسفن الصغيرة
٤ ورشة مد الزوارق وغرف قوالب السفن ونماذجها
٥ ورش الساريات والقلوع
٦ ورش البكرات والخراطة
٧ مكان أدوات السفن وأطقمها
٨ محل ابرام الحبال وبالدور الاول مكاتب الادارة ومدارس مختلفة
٩ ورشة البراميل ودقات السفن وآلات رفع وجذب الاثقال
١٠ ورشة الآلات البحرية والمعادن والصفيح والرصاص والنجارة
١١ المخزن العمومي
١٢ الادارة الهندسية
١٣ ادارة المياه
١٤ ورش الحدادة الكبرى
١٥ معمل المزاليج والبرادة
١٦ المسبك
١٧ ورشة حدادة الاحواض
١٨ ورش اشغال ترميم السفن في الاحواض
١٩ ورش نجارة العمارات والثقب والجلفطة
٢٠ موضعا الحوضين
٢١ مكان اذابة الزفت والقطران
٢٢ ليمان
٢٣ تكنة
٢٤ صحن المدخل الاصلي
٢٥ آلات ابرام الحبال
٢٦ المخازن
٢٧ مساكن المديرين والضباط وموظفي الترسانة
٢٨ ورش المعادن للمدفعية
٢٩ ورش الخشب للمدفعية
٣٠ مخزن وادارة المدفعية
٣١ مخازن خاصة بالسفن التي ينزع سلاحها
٣٢ مستودعات لاخشاب بناء السفن
٣٣ آلات وسطوح مائلة لسحب اخشاب بناء السفن
٣٤ ترسانة الزوارق والسفن
٣٥ مكان ترميم الغاطس من السفن
٣٦ حراس الميناء
٣٧ فرقة الحرس
٣٨ مخزن الحكومة ومطبعتا الحجر والحروف والمكاتب
٣٩ جزء من المدينة تسكنه بعض المستخدمين
٤٠ جزء من المدينة وحوانيت
٤١ الرصيف المحيط

ملحوظة — السير بالقدم الفرنسية

تصميم ترسانة الاسكندرية

قدمه المسيو ليفو بور دو سريزى يوم ٩ يونيو سنة ١٨٢٩
ووافق عليه سمو الوالى





الثغر فى السنة التالية لتعيينه ليتولوا رياسة الأقسام المختلفة فلم يتحرك للمسيو (دى سريزى) نبض ولم تختلج عين ولم ينزعج فؤاد. بل قابل دسائسهم وأفاعيلهم بجنان ثبت وإرادة قوية، فلم تقو عند الارتطام بهذه الصفات العالية على البقاء. أما الوالى، وهو صاحب العبقرية العالية فى كل شأن، فقد أغلق صيوان أذنيه دون تلك الوشايات فمهد له بذلك سبيل التفرغ لأعماله والاهتمام بانجازها من غير توان ولا إمهال

على أنه يتعذر تصوير فكرة كاملة عن العقبات الجزئية التى اضطر ذلك المهندس الخبير الى مكافحتها ليتمكن من إنجاز ما عاهد نفسه على تنفيذه من المشروعات. وكانت ظروف الأحوال قد ألجأته فى بادىء الأمر الى استخدام الجم الغفير من الأوروبيين لتسليح السفن التى كانت تبنى بسرعة مدهشة، فأدت معالجته هذا الأمر الى وقوع فتن واضطرابات لم يلبث أن تغلب عليها بفطنته. ولكنه ما انفك، مع ذلك، عن الاهتمام بمنع السرقات وحسم مايقع من الشقاق والنزاع بين العمال الوطنيين، ومعاقبة المقصرين فى أداء أعمالهم، سواء أكان هذا التقصير عن إهمال أم عن غلط، أم عن سوء نية. وقد حمله تعليم المصريين تدريجيا

تلك الصناعات التى حذقوها حتى ضارعوا الأروبيين فيها ، على الاستغناء عن فريق كبير من هؤلاء بحيث إن الأعمال فى العهد الأخير كان ينجز الشطر الأوفي منها بواسطة عمال من أهل البلاد . ولم يحتفظ من هؤلاء الأروبيين إلا بشرذمة صغيرة من المعلمين الفرنسيين ، قصد ببقائهم فى الخدمة الأشراف على كيفية استعمال المواد اللازمة لبناء السفن . ومما هو جدير بالذكر أن امتثال المصريين للأوامر وانكبابهم على العمل فضيلتان جليلتان عاونتا المسيو (دى سريزى) على أداء المهمة التى وكلت اليه على خير ما يرام

٤٠ — أعمال الترسانة وبناياتها

بالنظر الى إنشاء الترسانة على ساحل رملى لا بناية فيه من أى نوع ، قضت الحاجة ببناية ما يلزم لها من جديد . أما الأعمال الأصلية التى تم إنجازها فأربع قواعد من الحجر لبناء السفن عليها مع ما يتبعها من الانحدار الممتد إلى داخل البحر لتزلج سفن الدرجة الأولى ، وثلاث قواعد غيرها لبناية الفرقاطات والسفن الأقل من تلك حجما ، ومخزن عام لأيداع

الذخائر البحرية . ومصنع للحبال بآلاته ، وورش الحدادة والمزاليج ، وورشة النشر والخرط ، والمعامل الميكانيكية ومعامل السبك والصفيح والرصاص والزجاج والآلات البحرية والبكر والأشرعة والبراميل ، ومصانع الفلائك والزوارق وآلات رفع الأثقال وسحبها « الكابستان » ودفات السفن والمركبات ، وورشة النماذج لأجزاء السفن والمدافع ، وغرفة نماذج الأشياء التي يتألف منها سلاح السفن برسم تعليم الضباط ، وظلات لخزن الأخشاب اللازمة لبناية السفن وحفظها وآلات التنظيف والتطهير وأدوات ترميم القسم الغاطس من السفن الخ .

وقد أنشئت برشيد فاوريقة لنسج قماش الأشرعة ومعامل أخر للحدادة كي يستعان بها عند الضرورة . وكانت ورش القاهرة ومعاملها تشتغل أيضاً لهذا الغرض ، وكان المسيو (دى سريزى) لا يميل إلى حصر الصنائع فى مكان واحد ، فدرب جماعة من المصريين على صناعة حبال السفن وأمراسها ثم أعادهم إلى بلدانهم ليتفرغوا بها لصناعتها

٤١ – السفن الحربية التى شرع فى بنائها

بينما كان الخشب والمواد اللازمة لبناء السفن تصدر من أوروبا إلى الاسكندرية ، كان المسيو (دى سريزى) يحث العمال على إتمام بناية فرقاطة وسفينتين أخريين من طراز الكورفيت والبريك كان قد بدىء ببنايتها قبل وصوله الى الاسكندرية ، فتعذر تحويلها إلى سفن حربية . ثم شرع في بناية سفينة من طراز الجوبليت لم يستطع إتمامها إلا بتكبد العناء الشديد فى تعليم العمال بنفسه وإرشادهم مباشرة الى دقائق البناية البحرية وتفاصيلها الجزئية ، فكان فوق ماهو منوط به من عمله استاذاً يلقن العلوم والفنون فى مدرسة العمل والتجربة

وما كادت تصل الى الاسكندرية الأرسالية الأولى من الأخشاب التى وصى بها ، حتى بدأ ببناية سفينة حربية من ذات المائة مدفع ، وما أشرف على إتمام بنائها حتى شرع فى بناية اثنتين أخريين من حجمها وطرازها

وسنأتى بعد على بيان واف للمنشآت التى أنجزت أو رممت فى ترسانة الاسكندرية أثناء وجود المسيو (دى سريزى) بالقطر المصرى

بنيت السفينتان (مصر) و (عكا) . وهما بحجم السفن الفرنسية ذات الثلاثة السطوح ، إلا أنهما لم توضع بهما البطارية الرابعة بسبب أن السطح الأول منهما يحمل فيهما اثنين وثلاثين مدفعا من عيار ٣٠ ، وهي مدافع طويلة ، والسطحان الآخران كلاهما ٦٨ مدفعا قصيرا من عيار ٣٠

وأربع سفن من ذات المائة مدفع وهي المعروفة باسماء : (المحلة الكبرى) و (المنصورة) و (الاسكندرية) (وحمص) . وفي كل من هذه السفن اثنان وثلاثون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى و ٣٤ مدفعاقصيرا من عيار ٣٠ في البطارية الثانية و ٣٤ مدفعا من الزهر (كارو ناد) من عيار ٣٠ في مقدم السفينة ومؤخرها

والسفينة (ابو قير) ذات الثمانية والسبعين مدفعا منها ثمانية وعشرون مدفعا طويلا من عيار ٣٠ في البطارية الأولى و ٣٠ مدفعا قصيرا في البطارية الثانيه وعشرون مدفعا من الزهر من عيار ٣٠ في مقدمة السفينة ومؤخرها

والكورفيت (طنطا) وفيها أربعة وعشرون مدفعاً قصيراً من عيار ٣٢ انجليزى

والجوبليت (عزيزية) وفيها عشرة مدافع من عيار ٤

وقوطر النزهة وفيه ٤ مدافع من عيار ٤

وسفينة لمدافع الهاون

وسفينة نقالة لأخشاب الساريات

وكانت السفينة (بيلان) ذات الستة والثمانين مدفعاً تحت التسليح ، فوضع بها ثمانية وعشرون مدفعاً طويلا من عيار ٣٠ فى البطارية الأولى و٣٠ مدفعاً قصيراً فى البطارية الثانيـة وثمانية وعشرون مدفعا من الزهر فى المقدمه والمؤخرة

وكان العمل جارياً في سفينتين من السفن ذات المائة مدفع من عيار ٣٠ وهما (حلب) و (دمشق)

وفرقاطة كبيرة ذات ستين مدفعاً من عيار ٣٠

ومما تقدم يرى أن السفن الكبرى للبحرية المصرية قـد عنى المسيو (دى سريزى) بالتوحيد بين عياراتها وهو الأمر الذى كثيراً ما طالب المصلحون البحريون به فى أوروبا بلا جدوى

أما سفن الدونمة التى اقتضى ترميمها وتمهدها من الوقت والعمل أكثر مما كانت تقتضيه السفن المنشأة حديثاً فهي :

(الجعفرية) وهى ذات ستين مدفعاً من عيار ٣٢ انكليزى

وكان إنشاؤها بمدينة (ليفورنة) .

والفرقاطة (بحيرة) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ وكان إنشاؤها فى ثغر (مرسيليا)

و (رشيد) وهي ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٢٤ وثمانية وعشرين مدفعا من الزهر من عيار ٣٦ وكان انشاؤها بمدينة البندقية

و (كفر الشيخ) وهى ذات ثلاثين مدفعا من عيار ٣٢ انكليزى ، واربعة وعشرين مدفعا من عيار ١٢ أنشئت فى ثغر (أرخانجل) بالروسيا للنقل ، ولكنها لم تتم فكمل إنشاؤها في (لوندرة) كفرقاطة للقتال

و (سرجهاد) وهى ذات ستين مدفعا من عيار ٢٤ ، وكان انشاؤها فى ثغر (ليفورنه) ثم عدلت فى الاسكندرية تعديلا تناول جميع أجزائها

و (الدمياطية) وهي ذات أربعة وعشرين مدفعا من عيار ٢٤ وثلاثين مدفعا من الزهر من عيار ١٨ ، وكانت كبيرة وحولت فى الاسكندرية الى فرقاطة حربية

و (موستاجهاد) وهى ذات ثمانية وعشرين مدفعا من عيار

١٨ وثمانية وعشرين مدفعا من عيار ١٢ ، وكانت فرقاطة جزائرية اهدتها فرنسا إلى مصر

والسفن (جنه بحرى) وأصلها من ثغر (جنوة) ، و(جهاد بحر) وأصلها من (جنوة) أيضاً ، و (فوه) وأصلها من الاسكندرية ، و (بلنك جهاد) وأصلها من (مرسيليا) . وكلها من طراز الكورفيت وذات ٢٢ مدفعاً من عيار ٢٤

و (واشنطون) وأصلها من (بوردو) ، و (فولمينان) وأصلها من (ليفورنه) ، و (الفشن) وأصلها من الاسكندرية ، و (شاهين داريا) وأصلها من تركيا . وكلها سفن من طراز البريك الكبير وتحمل كل منها اثنين وعشرين مدفعاًمن الزهر

و (سمند جهاد) وأصلها من (مرسيليا) ، و (خبر جهاد) وأصلها من (سيوتا) ، و (التمساح) وأصلها من (مرسيليا) ، (وبادى جهاد) وأصلها من (الاسكندرية) ، و (الأمريكانى) وأصلها من الولايات المتحدة ، وهى سفن من طراز البريك الصغير ، وتحمل كل منها إما ستة عشر مدفعاً وإما ثمانية عشر من مدافع الزهر

وأربع سفن نقالة محمول كل منها ٤٠٠ طن .

وفرقاطة وبريك وقوطر من السفن العثمانيـة التى غنمت أثناء الحرب

وكـذا جملة سفن صغيرة وباخرة تسمى (النيل) أصلهـا من لوندرة

وقد راعى المسيو (دى سريزى) فى بناية السفن الحربيـة الاصلاحات والتعديلات التى كان الضباط الفرنسيون يطالبون بادخالها على السفن الفرنسية ، وكذا الاصلاحات التى اهتدى اليها بخبرته أثناء قيامه بالعمل في ثغور فرنسا ، والملحوظات التى لاحظها في إنجلـترا ورأى من الأفضل العمل بهـا لفائدة البحرية . ولذلك بنيت السـفن التى أنشـئت فى ترسانة الاسكندرية بمقتض التصميمات التى وضعها بنفسـه

ومن المستطاع التأكيد بأن قسما عظيما من التنسيقات والترتيبات المرعية الآن فى بناية السفن الفرنسية الحربيـة ، وجدت فى السفن التى أنشئت بالقطر المصرى قبـل وجودها فيهـا بزمان طويل . وهو ما يرجع الفضل فيه إلى همة المسيو (دى سريزى) ودرايته

٤٢ — عمال الترسانة المصريون

إن العمال المصريين هم الذين كانوا ينجزون أعمال إنشاء السفن وقد أظهروا فيها من الأهلية والدراية مايوجب الدهش . وكان يشتغل منهم بالترسانة من ستة آلاف عامل إلى ثمانية آلاف . أما العمال الأتراك فلم يبد منهم ما يستوجب ارتياح المسيو (دى سريزى) ورضاءه عنهم ، لأنهم كانوا من الازدهاء بنفوسهم والنزوع إلى العصيان والتمرد بما يحول دون صلوحهم لأجادة ما يناط بهم من الأعمال ، فكانوا من هذا الوجه على نقيض المصريين الذين كانوا يدركون بسهولة أسرار الأعمال التى تنجز أمامهم ويتفهمون دقائقها بما عهد فيهم من الذكاء ودماثة الأخلاق والامتثال للرؤساء . دع أنهم فطروا فى محاولة فهم ما يهجم عليهم فهمه على تحكيم النظر أكثر منه على الذكاء والعقل حتى أن الرسم البسيط يرشدهم إلى فهم حقائق الأشياء بمجرد النظر اليه قبل إمعان الفكر والروية فيه . إلا أنه مع هذا سريع النسيان لما يتعلمه ، فضلا عن أنه إذا بلغ من التعلم درجة مالا يرغب فى تجاوزها إلى ما بعدها . وهذا النقص يحول ، بلا ريب ،

دون سعيه إلى الكمال

وهم أميل إلى مزاولة الصناعات التي أساسها تقليد الأشكال والنماذج الثابتة . ومن ثم تراهم يجيدون صناعة البكر وقماش الأشرعة والحبال والبراميل والنجارة الدقيقة ، ويحسنون ثقب الثقوب وقلفطة المراكب . وإنما لا يمكن الاعتماد عليهم فيها إذا مست الحاجة الى تغيير الأحجام واستنباط أشكال تخالف ما عهدوها عليه من المثال ، كما يتفق أحياناً فى ورش الآلات والحدادة والسبك ، ما لم يراقبهم أثناء ادائهم إياها الرؤساء الأوروبيون فأنهم فى هذه الحالة يقومون بما هو مطلوب منهم على خير ما يرام

وترسانة الاسكندرية التى يصنع فيها كل شىء بأيدى المصريين وتناظر لهذا السبب جميع ترسانات الدنيا دليل ناطق بمبلغ مايمكن الاستفادة به من العمال المصريين ويقينى أن عامة الشعب فى أوروبا لايستيطيعون ان يؤدوا من جلائل الاعمال مايؤديه العمال المصريون فى مثل الوقت القصير الذى يقومون بها فيه

٤٣ — احواض ترميم السفن

لما أنجز الوالى بناية السفن الحربيـة الكبرى وشعر بضرورة إنشاء حوض أو أحواض لترميمها عند الحاجة ، أطلعه المسيو (دى سريزى) على الصعوبات والعقبات الجمة التى تعترض انشاءها بالاسكندرية ، وقال إنهـا في أوروبا تلتمس العناية المتتابعة من حذاق المهندسين وأذكياء العمال . وكان مشروع المسيو (دى سريزى) لأنشاء ترسانة بالاسكندرية يتناول بناية حوضين ، مع أن حوضا واحدكان فى الحقيقة كافيا لسد حاجة البحرية المصرية ، ولكن المسيو (دى سريزى) كان لامفر له من العمل بأرادة صاحب السمو والمسارعة الى تحقيق أمانيه ، ولو استلزمت التحيل لأيجاد كل شيء من العدم . وكانت حالة الحرب بالنسبة الى مصر تستدعي السرعة فى إنجاز تسليح السفن المبنية فلم تتوافر له وقتئذ الوسائل التى تمكنه من إنشاء تلك الأحواض . وعقب رحيله من الاسكندرية تصدى بعض المهندسين لأنشائها فذهبت جهودهم فى هـذا السبيل سدى وعندئذ لم يسع صاحب السمو الوالى إلا أن رجا من الحكومة

الفرنسية ، وقد كان هذا منذ عامين ، أن تبعث اليه رجلا قديرا على إتمام هذا العمل الجليل . فاختارت إدارة القناطر والجسور المهندس (مونجل) الذى ذاعت شهرته بفرنسا على أثر الأعمال الهندسيه الجليلة التى قام بها فيها ، وسيبقى اسمه مرتبطا بالعمل الجليل المحفوف بالمصاعب الذى ندب للقيام به

أما العقبات التى تعترض تنفيذ بناية حوض للسفن فى الاسكندرية فترجع فى الأصل الى طبيعة قاع البحر بهذه المدينة فان هذا القاع طينى المادة الى عمق ستين قدما تقريبا تحت الماء . وكان المطلوب أن ينشأ فوق هذا القاع الرخو حوض متين البنيان موثق الاركان لاينفذ منه الماء ، ومن السعة بحيث يقيم بين جوانبه سفن الدرجة الأولى أى السفن التى عمق الجزء الغاطس منها فى الماء عشرون قدما . فأذا ضم الى هذا الارتفاع أربعة عشر قدما ، وهو سمك الأساس الكافى لحمل ثقل السفينة المراد ترميمها ، فلامناص اذاً من بناية أرضية الحوض بهذا السمك من الحجر على عمق أربعة وثلاثين قدما تحت الماء، بحيث لاينفذ الماء منها . وهو مالا يتأتى طبعا على قاع طينى هش إلا إذا استعملت لتحقيق هذا الغرض وسائل خاصة

أما المسيو مونجل فلم تهن عزيمته أمام هذه العقبات ولم تخذله صعوبتها ، بل رفع الى الوالى تصميما جليلا محقق التنفيذ على بساطته ، فقد اقترح عليه فيه ما يأتى :

اقترح ان تغرز بالمكان لبناء الحوض أوتاد من السمك بحيث تجعل الارض مندمجه صلبة ؛ ومن الطول بحيث تهبط الى القاع اليابس . وقال إن هذه الأوتاد إذا وضعت على الوجه المتقدم صلحت لأن تكون أعمدة وقوائم لبناية الحوض . وأنه بعد توطيد المكان على المثال السابق وإحاطته بخط من أوتاد أخر متتابعه تنزل منه بمنزلة السياج للحظيرة وتختلف عن الاوتاد الاولى بطولها الذى تبلغ به الى مستوى الارصفة ، يصب خليط المونة المعروف بالبيتون الذى من خواصه التجمد فى الماء بعد زمن قصير ، وتتكون منه كتلة جسيمة من البناء أو صخرة صناعيه مصبوبة . وأن يحفر الحوض فى هذه الصخرة على مثال يجعل إغلاقه ميسورا ، عقب مرور السفن الى داخله بواسطة عوامة خاصة تشبه السفينة ، تغرق وتعوّم بحسب الارادة . وهذه الطريقة هى المتبعة تقريبا فى إنشاء الحوض الجديد بثغر طولون

ولقد بدىء العمل لانشاء الحوض على هـذا النمط . وهو

جار الآن على قدم وساق . والمرجوّ أن يتم فى زمن قريب ، لا سيما وأن الأخشاب والمواد اللازمة لاتمامه مكدسة بالمخازن والآلات البخارية التى يستعان بها على استنزاف الماء من الحوض ، قد ركبت فى المكان اللازم لقيامها بعملها

ولقد قامت الكراكات بحفر القاع أما وضع الأوتاد وهو عمل فى غاية الصعوبة فقد أنجز سريعاً بواسطة آلات خاصة أنشئت بأشراف المسيو (مونجل) واطلاعه

٤٤ — النوتية والدونمة

كان فرضا ، وقد تم إنشاء الأسطول بهذه السرعة ، إيجاد النوتية لها في أقرب آن . لذا بودر بتدريب عشرة آلاف رجل على الخدمة البحرية وأنشئت للملاحة مدرسة نظم في سلكها الشبان المماليك لتعليمهم من فنون البحر ما يؤهلهم للقيام بالواجبات المطلوبة من الضباط ، وطبقت القوانين المسنونة لهذا الغرض فى فرنسا ، ورتبت درجات الوظائف بحسب الترتيب المرعي عندنا ، ونيط بضباط فرنسيين تسليح السفن وتعليم بحريتها . وكان من أطولهم باعاً فى تشكيل البحرية المصرية وأعظمهم أثراً

فى تدريب رجالهـا ومعـاونة سمو الوالى بجهودهم العظيمة ومساعيهم المبرورة ، كل من المسيو (بيسون بك) الذى أسفت مصر جد الأسف لوفاته ، والمسيو (هوسـار) الذى لا يزال يؤدى أجل الخدم لسمو الوالى

ومما لا ريب فيه أن إيجاد ترسانة وإبداع أسطول على ذلك الوجـه من السرعة لما يقضى بالعجب ، ويدل على قوة العبقرية . فقد كان شاطىء البحر بالاسكندرية كالصحراء الخالية من كل أثر لـكائن ، فلم تمض سـنوات أربع حتى عمر بترسـانة كاملة الأدوات مستجمعة لشتات اللوازم والتجهيزات . فمن قواعد منحدرة لأنشاء السفن عليها وتزليجها إلى البحر ، وورش ومخازن ومصنع للحبال امتداد بنايته طولا ألف وأربعون قدماً أى كطول مصنع الحبال فى ثغر طولون . وأنشئت خلال تلك المـدة دونمة مؤلفة من ثلاثين سفينة وسلحت وجهزت بالعـدد والرجال وجربت للمرة الاولى من انشائها في مطاردة أحد الاساطيل العثمانية

وما هي إلا فترة قصيرة من الزمن حتى أدهشت البحرية المصرية أساطين علم البحر وثقاته سواء بدقة حركات السفن

وضبطها أو بدربة البحرية وحسن قيامهم على الأعمال المنوطة بهم وقد أصبح المصريون ، وهم شعب مفطور على الامتثال ومحامد الخصال ، كأنهم خلقوا أكثر صلوحا لممارسة البحر من غيرهم . ولقد سبق لنا ذكر فضائلهم الحربية ومناقبهم العسكرية ونقول الآن إنه بالنظر إلى سكناهم شواطيء النيل ، وهو النهر الذى بلغ من السعة فى نظرهم ما دعاهم إلى تسميتهم إياه بالبحر ، كانوا من أقدر الناس على السباحة وأميلهم الى معاناة فنون الملاحة . ومن المناقب التى توافرت فيهم ، غير ما تقدم ، تأثرهم الشديد بعوامل المناظرة وحبهم أن لا يحرز قصب السبق سواهم .

ومعلوم أن ثغر الاسكندرية تتردد عليه برسم الزيارة سفن كثيرة تخفق عليها أعلام دول مختلفة فكان منظر هذه السفن يبعث فى نفوس الشبان المنتظمين منهم فى سلك بحرية الوالى روح الغيرة والحماس ويستفزهم الى الرغبة فى اطلاع الخبيرين فى الفن كل يوم على ما حذقوه من الحركات فى المناورات ونما بذلك فى نفوسهم إحساس الشمم وتنبه الشعور بالكرامة فكانت هذه المظاهر من أقوى العوامل على تنافسهم فى إحراز أوفر

قسط من العلوم والفنون . ويؤخذ من آراء الاخصائيين في حالة البحرية المصرية أن الفرق بينها وبحرية القسطنطينية كالفرق بين جيوش محمد على البرية وجيوش الباب العالى

وامتازت بحرية محمد على ، أول وهلة ، بالتفوق فى شبه جزيرة (موره) وكان من دلائل تفوقها العظيم أن الحراقات اليونانية التى طالما هلعت لمرآها قلوب أهل الاستانة وقبعت بسببها أساطيلهم ، لم تخش بأسها السفن المصرية التى كان يقوم على أمرها فى ذلك العهد ربان السفينة الفرنسى المسيو (بوتلييه)

ولقد شرف الأسطول المصرى الجديد مصر ورفع ذكرها أثناء حملة الشام إذ قامت بمراقبته سواحل الشام ومنعت الاتراك من النزول اليها وقبضت فى أنحائها على بعض السفن العثمانية وساعدت المصريين على حصار عكا واقتفت أثر الدونتمه العثمانية التى كانت اكثر منها عددا وأوفر مددا حتى حصرتها فى مرسى (مارماريل) ثم دفعتها أمامها حتى مضيق الدردنيل الذى أشرفت أن تجتازه لولا مداخلة الدول الأوروبية التى حالت دون تحقيق هذه البغية مدفوعة بما هو معروف من عوامل السياسة

وتتألف الدونتمة المصرية من إحدى عشرة سفينة كبيرة

وسبع فرقاطات وخمس سفن من طراز الكورفيت وتسع من نوع البريك والجوليت . وبلغ مجموع عساكر هذه السفن (الاطقم) ١٦٠٠٠ رجل تقريبا . ونورد فيما يلى بيانا وافيا للقوات البحرية المصرية . وإذ قد أصبحت البحرية العثمانية فى قبضة محمد على ، فقد عنيت ببيان قوات هذه البحرية تجاهها ، مع ذكر عدد نوتية كل سفينة مصرية وتركية

القوات البحرية المصرية

الدونمة العثمانية — الدونمة المصرية

السفن الكبرى

أسماء السفن	عدد رجالها	أسماء السفن	عدد رجالها
محمودية	١٣٧٢	المحلة الكبرى	١٠٣٤
مسعودية	١٣٢٣	المنصورة	١٠٣٤
فيضيان	١٠٣٤	الاسكندرية	١٠٣٤
فتحية	١٠٣٩	أبو قير	٧٣٦
ممدوحية	١٠٧٥	مصر	١٠٩٧

الدونمة العثمانية	
نصرتية	٩٠٦
تمريفية	٩٧٢
توفيقية	٩٤٨
برج ظفر	٧٦٥
المجموع	٩٤٤٥

الدونمة المصرية	
عكا	١١٤٨
حمص	١٠٣٤
بيلان	٩٠٠
حلب	١٠٣٤
الفيوم	١٠٣٤
بنى سويف	١٠٣٤
المجموع	١١١١٩

الفرقاطات

نظامية	٦٧١	المنوفية	٥٥٨
جهادية	٦٧٥	البحيرة	٥١٠
ناڤيك	٥١٦	الدمياطية	٤٧٠
شهاب	٥٤٨	سر جهاد	٥١٠
خوز أمان	٦٦٢	رشيد	٥١٠
تاڤير	٥٣١	وابور النيل	١٥٢
مراد ظفر	٤٨٤		

الدونمه العثمانية		الدونمة المصرية	
سوريا	٥٥٥		
راسم ظفر	٥٣٤		
قائد ظفر	٤٧٨		
فضل الله	٣٨٦		
المجموع	٦٠٤٠	المجموع	٢٧١٠

السكورفيت

مسير فرج	٢٧٧	جهاد فكر	١٥٩
		طنطا	١٨٣
		جنه بحرى	١٥٩
		بلنك جهاد	١٥٩
		دمنهور	٢٦٢
المجموع	٢٧٧	المجموع	٩٢٢

الجو بليت

		الصاعقة	١١٥

الدونمة العثمانية		الدونمة المصرية	
		واشنطن	١١٥
		شاهين داريا	١١٥
		التمساح	٩٧
		المجموع	٤٤٢

البريك

جاى فرح	١٣٩	سمند جهاد	٩٧
قوس ظفر	١٥١	شباس جهاد	٩٧
بحر سفيد	٨٤	وابور الجوكا	٥٢
		الوابور الجديد	٢٧
		وابور بولاق	١٧
المجموع	٣٥٤	المجموع	٢٩٠

القوطر

نمرة ١	٢٩
نمرة ٢	٣١
المجموع	٦٠

الدونمة العثمانية		الدونمة المصرية	
مجموع القوات التركية	١٦١٢٤	مجموع القوات المصرية	١٥٤٦٣
يضاف الى ما تقدم ألايات من الجنود للنزول الى البر	٥٠٠٠	يضاف اليهم عمال ترسانة الاسكندرية المندرجين فى سلك البحرية	٤٠٧٦
المجموع الكلى	٢١١٢٤		١٩٥٣٩

٣

حشد الرجال للخدمة البرية والبحرية

الأسلوب المتبع فى التجنيد — عيوب هذا الاسلوب — اسباب هذه العيوب — جهود محمد على لعلاج هذا الداء — كراهة المصريين للخدمة العسكرية — النتائج المحتملة لتشكيل الحرس الاهلى

٤٥ — الاسلوب المتبع فى التجنيد

اعترض الكثيرون بحق على الأسلوب المتبع فى التجنيد للجيش بمصر. فقد كان هـذا الأسلوب ولا يزال حتى الآن جم العيوب، مخالفاً لطبيعة البشر ومقتضيات العمران، وموجباً

لما لا مزيد عليه من الأسف

فأنه لا نظام ولا قانون يتبع فى التجنيد للجيش. فالجيش فى القطر المصرى لا يتشكل ، كالجيش الفرنسى قبل الثورة ، بالتطوع أو بالاتفاق بين الطرفين على أجر معين ، ولا يتكون بطريق القرعة الخالية من شوائب الظلم والاجحاف حيث اختيار المطلوبين للتجنيد موكول الى الاقتراع بين المتساويين فى حظ القبول فى الجندية . كلا بل أن القوة الغاشمة وحدها فى مصر ، وهي فيها على أقصى ما يتصور من الوحشية والعماية ، هى التى يرجع اليها فى تزويد الجيش بمن يحتاج اليهم من المجندين. فالتجنيد في مصر وجه من وجوه الظلم البين والاجحاف المتلف الضار بها . ولاشك فى أن مارواه الرحالة عنه فى كتب رحلاتهم صحيح ولا اعتراض عليه ، لأنه يكفي فى موسم التجنيد أن يتوجه بلوك من العساكر الى إحدى القرى فينقض عليها ويجردها من سكانها الذكور بألقائه القبض عليهم بمجرد وصوله اليها . وبعد أن يشد وثاقهم بالحبال ويربطهم بعضهم ببعض يسير بهم الى بندر المديرية ، يتبعهم أمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم صائحين مولولين . وهناك يختار الطبيب منهم من يكونون أهلا

للخدمة العسكرية

٤٦ – عيوب هذا الاسلوب

هذا الأسلوب لم يكن همجيا فقط ، بل سيء العاقبة أيضا، وعيوبه بادية للعيان . لأنه ، بصرف النظر عن الأعمار وحالة العائلات التى تحرم بالتجنيد من رجالها ، يحول دون نمو عدد السكان ويلقي هذه العائلات فى مخالب الحزن والفاقة . فأنه بمجرد توارد الأخبار على القرية بدنو الموكلين بالتجنيد يلجأ الشبان الأصحاء الأبدان الى الفرار الى الفلوات التى يعرفون بأسرار وهادها ونجادها فيختفون بها شهورا ، فينشأ عن اختفائهم أن تتعطل حركة الزراعة وتقضى الضرورة للسبب عينه بتجنيد غيرهم ممن يجب إعفاؤهم من الخدمة العسكرية برية كانت أو بحرية لعلة أو عاهة فيهم

ولست أستر هنا الضرر الناشيء عن هذا الاسلوب ، بل الخطر الذى يتهدد كيان الامة المصرية . فليس فى مقدور أحد أيا كان أن ينكر عواقبه المشئومة ونتائجه الضارة وسمو الوالى نفسه عالم علم اليقين بضرره ويتمنى أن يوفق لعلاج يستأصل به

شأفة هذا الداء لأنه يرى أن مصلحته الذاتية مرتبطة بمصلحة مصر الخالدة وأن لاشيء يفصل المصلحتين عن بعضهما . فلنجتهد فى البحث عن سبب الداء واستكشاف ما يلائمه من الدواء

٤٧ — اسباب هذه العيوب

لما هم محمد على بأدخال النظام العسكرى الجديد الى مصر قامت عليه الاعتراضات من الأهالى الوطنيين بل بلغ من نفورهم عنه بسبب تمسكه بهذا الأصلاح أن ازدروا به وحقروه ولقبوه « باشا النصارى » ولم يكن قد سبق للمصريين أن خضعوا لنظام عسكرى ما . دع أنه لم يكن في نفوسهم من روح الوطنية ولا فى رؤوسهم من الذكاء والحصافة مايدركون به حقيقة المثل الأعلى الذى ترنو مصر اليه بعينها ، فيستفزهم الى الانقياد لتلك اليد القابضة على زمام أمورهم . ثم لاينسى أنهم لا يفهمون لغة يتكلم بها لسان السلطة غير لغة القوة الجائرة والاستبداد الغاشم ، فكان هذا باعثاً منذ البداية على استعمال الشدة ليضطرهم الى معاونته على إصابة مقاصده وتنفيذ أغراضه

ولقد خبرت المصريين بالمخالطة الطويلة فعرفت من خلالهم

مايدعونى الى التأكيد بأنه يستحيل حملهم بالحسنى على الانتظام فى سلك الجيش . ولكننى أؤكد فى الآن نفسه أنه كان لابد من مضى وقت طويل لانتقالهم من الحالة التى ألفوها لى حالة مغايرة لها ، بل الى حالة لم يعهدوا لها مثيلا من قبل ، لا سيما وهى تنافى عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم فى الفكر والتصور . تلك هى الحقيقة . غير أن محمداً علياً ما كان يستطيع الانتظار والتريث طويلا حتى تتطور الامة . إذ لابد من اعتبار أنه هبط القطر المصرى لتنشئة المصريين على مهلٍ التنشئة التى يتمناها لهم . نعم إن ماقام به من جلائل الاعمال يعد بناء في جدار المستقبل ولكن ينبغى النظر الى أن الحاضر يتطلب منه العمل السريع والاحتفاظ بدقائق الزمن ويأمره بالاحتفاظ بمركزه ودرء الأخطار الحافة به ، وبأن يكون منيع الجانب على من يرومه بسوء ليصون ما ربحه من جهة ، ويدرأ عن حياته ومستقبل أسرته من جهة أخرى مايتهددهما من الخطر . فكان مما لامفرّ له منه أن يتوافر لديه فى الحال جيش كثيف وأن لا يقف فى التجنيد له عند أوفق الوسائل لمبادىء الحرية والأنصاف بل عند أدعاها الى إتمام الحشد له بأسرع مايستطاع . واتفق لسوء

الحظ أن اقترنت الوسائل التي ترمي الى هذا الغرض بالشدة والعنف ، فأذا أفضت السرعة الى تكبد فريق من الناس هول الشدائد والآلام ، فأن الانسانية تأسف من أجلها وليس المسئول عنها سمو الوالى بل أولئك الأشرار الذين لا يكفون عن دس الدسائس له والمؤامرة على حياته وتلك الظروف القاهرة القاسرة التي حفت به

ولما أتم محمد على تشكيل جيشه أراد أن يطبق على العمل أسلوبا عادلا للتجنيد تقدم اليه به بعض قناصل الدول الجنرالية رفقا بالأهلين . ولايسعنى هنا إلا الجهر بأنى لم أكن قط آخر المتحمسين والمشايعين لهذا الأصلاح ، علما مني بما جبل عليه الوالى من عواطف البر بالأنسانية . ولهذا أراد ، مضيا مع ميوله الشريفة واحساساته العالية ، أن يطرق باب التجربة مرة اخرى رجاء أن تفضى نتيجتها الى مايتفق مع الانسانية ومبادىء العدل

٤٨ — جهود محمد على لعلاج هذا الداء

لما اتجهت رغبات محمد على الى حسم هذا الداء وعلاجه

بالأنسب من الدواء ، شكل مجلسا للتجنيد مؤلفا من كبار الضباط فى جميع الأسلحة ، وعهد رياسته الى أحد قواد الطوبجية ، وكنت أنا بالذات من أعضائه . فبدأنا بانجاز مهمتنا فى مديرية قليوب ، لأنها أقرب المديريات الى القاهرة . ولما تقابلنا مع المدير واستقر بنا المقام عنده استدعي مشائخ البلاد حتي اذا كمل عددهم وانتظم عقدهم طرح القول الآتى عليهم : « إن جميع أقطار الدنيا فى حاجة الى القوى العسكرية للمحافظة على كيانها بتوطيد دعائم الأمن والسلام فى الداخل والدفاع عن استقلالها ضد الفاتح المغير . وهذه الحاجة تدعو الى تشكيل الجيوش ، والجيوش لا تتشكل ولا تتم هيئتها إلا اذا قدمت الامة رجالها لهذا الغرض ، والرجال الذين تتألف الجيوش منهم ينبغى أن يكونوا حائزين على الشروط المطلوبة فيما يتعلق بالسن وصحة البدن

« ومن المفروض على طبقات الأمة كافة وعلى جميع الأقاليم والمديريات التعاون فيما بينها على تشكيل القوات العسكرية كل بما يتناسب مع قدرته ، وماهو متوافر لديه من الوسائل . ومعلوم أن الحرب تتطلب من الرجال الأقوياء الذين لا تربطهم بالهيئة الاجتماعية روابط وثيقة تجعل لوفاتهم في نفوس أسرهم الأثر

السيء . وهذا معناه أن العساكر ينبغي أن يؤخذوا من شبيبة القطر الممتلئة بالقوة والنشاط . وإنما يحدث أن يوجد بين أفراد هذه الشبيبة من يستحقون الأعفاء من تلك الخدمة المفروضة قانونا على السواد الأعظم ويدخل في عدادهم من لهم أخ أو أخوان في سلك الجيش أو يكونون أيتاما . على ان الحكومة لم تكن بحاجة الى جميع الشبان ، فمن الواجب بناء على ذلك وضع قاعدة من شأنها ، بعد جعل الحظ مقسما بالسواء بين الجميع ، تعيين الأفراد الذين يتحتم عليهم بكيفية جازمة الانتظام في سلك الخدمة العسكريه »

وعلى أثر ذلك شرحت لهم كيفية التجنيد في فرنسا وأنها مؤسسة على القرعة. فلما سمع الحاضرون من المشائخ هذا التفسير لقاعدة التجنيد المعمول بها في أوروبا أعربوا عن استحسانهم وصاحوا جميعا بالموافقه عليه داعين الى اتباعه والعمل به

فطلب منهم عندئذ أن يعود كل منهم الى قريته وان يحرر كشفا بأسماء الشبان الذين تختلف أعمارهم فيها من الثانية عشرة الى الثانية والعشرين وأن يشرحوا لمن تحت إدارتهم لمبادىء العادلة التي ستجرى عليها أعمال التجنيد منذ الآن فصاعدا .

فعاد المشائخ تبدو على وجوههم علائم البشر والابتهاج ، ولكنهم ما كادوا يفاتحونهم في أمر تلك الطريقة الجديدة . والأسلوب الحادث حتى ولى جميع السكان الأدبار وأركنوا الى الفرار ، فلم تجد الحكومة إزاء هذه الحالة إلا الالتجاء الى القوة وان تأخذ الآفاق على الذين فى سن التجنيد لتنظمهم فى سلك الجيش

ومن النوادر التى يحسن إيرادها فى هذا المقام ، أن ابراهيم باشا كان يشرح ذات يوم لبعض علماء دمشق أسلوب التجنيد فى فرنسا،فتحمسوا له ووافقوا عليه ودعوا اليه واعترفوا بما انطوى عليه من رفق وعدل . ولما أنس منهم ابراهيم باشا هذا الاستحسان العام قال لأحدهم : « بما أنك موقن بمزايا توزيع عبء الخدمة العسكرية على الشبان التوزيع العادل فمما لا ريب فيه أنك ستعطينا واحداً من أبنائك الخمسة فأجاب العالم وكان الجزع قد ملأ فؤاده : « أنا . . . أنا . . . لا أقدر على مفارقة ولد من أولادى »

٤٩ — نفور المصريين من الخدمة العسكرية

لا يستطيع مصرى أن يتخيل إمكان اندراج إنسان فى سلك الجيش بمحض إرادته ، لأن المصريين يجزعون من العسكرية ويبغضونها الى حد أن الأمهات يتعمدن إتلاف بعض أعضاء أبنائهن ليصيروا غير صالحين للتجند . فهن يسملن عيونهم أو يبترن أصابعهم الى غير ذلك . ولقد شوهد بعض الفلاحين الذين على وشك الانتظام فى سلك الجندية يقطعون جملة من أصابع يدهم اليسرى بل يبرونها بريا بالسيف من غير ما تردد ولا اكتراث . ولكنهم كانوا ، بمجرد استياقهم الى العمل فى الجيش ، يخضعون للقوة القاهرة لارتياعهم منها ويرضخون لأحكامها باعتبار أنها قضاء واقع ليس له من دافع . ومع هذا فأنهم متى انتظموا في هيئة الجيش تطوروا سريعا بطور العسكرية واعتادوا حالتهم الجديدة ومحوا من ذاكرتهم سيرة نفورهم القديم . وتراهم ، اذا دارت النوبة دورتها فكلفوا بمباشرة التجنيد ، يعاملون المجندين بمثل الشدة التى عوملوا بها من قبل وقتما انتزعوا من بيئاتهم لحمل السلاح

٥٠ — النتائج المحتومة لانشاء الحرس الوطنى

ولكن أيستنتج من هذه الخصية الغريبة فى نحيزة المصرى أنه لا يرجي ، فيما يتعلق بمسئلة التجنيد ، الوصول الى سن نظام له أفضل من النظام المعمول به ؟ كلا ، فأن بالصبر يكون الظفر والتغلب على الصعوبات وتذليل ما يعترض فى الطريق من العقبات . ولا بد أن يأتى يوم يكونون فيه قد اعتادوا ممارسة الأعمال الحربية وشغفوا حباً بالمعيشة العسكرية . فتى أتيح لمحمد على بذلك أن يحصر كل أفكاره فى مصر ويقصر عليها أنظاره وقلت حاجته الى الجنود ، فلا جدال فى أنه سيضع للتجنيد أسلوبا يجعل قوامه النظام والانصاف . وعندئذ يتمسك بأهداب الصبر وبه يتغلب على الصعوبات ويكتسح بهمته ما يعترضه من العقبات . وها هو الحرس الوطنى الذى أنشأه في الأزمة الاخيرة لسوف يفلح فى تعويد المصريين حب الخدمة العسكرية واستفزازهم الى القيام بواجباتها عن طيب خاطر . فأنه متى قضى الفلاح بعض الزمن فى التدرب على الرماية بالبنادق والمناورات وألف معيشة المعسكر بالقرب من أهله ، زال ما كان يغشاه

حتى الآن من الكراهية للجندية وحل محل نفوره منها ميله الشديد اليها . ولسوف يتمهد له ، وهو يتدرب فى المدرسة العملية للحرس الوطنى، سبيل التحول والانتقال من النظام الملكى الى النظام العسكرى . ومتى راق له هذا النظام وحسن فى نظره، لما يكون قد استقر فى خلده من مطابقته لمبدأ الرفق والرعاية ، فأنه لن يلجأ فى مقاومته للتجنيد ، وهو الضرورة التى ساقها واجب الدفاع عن الوطن، الى تشويه نفسه ذلك التشويه الذى لم يجرأ على ارتكابه إلا بدافع من الطيش والجهل والعناد . وعندئذ لا ترى الحكومة أن هناك مايدعوها الى الانبراء لمكافحة تلك النزعات الشريرة والنزغات الباطلة التى ليس من ورائها إلا الضرر المحقق لأصحابها فتتبع الطريقة الفرنسية للتجنيد ألا وهي طريقة الاقتراع التى لم توفق للعمل بها

ولاريب فى أن الأمة والحكومة ستجنيان من هذه الطريقة فوائد جليلة . أما الأمة ، فبتوزيع المطلوبين للخدمة العسكرية عليها توزيعا أساسه المساواة والعدل ، وقوامه رعاية الرفق والأنسانية . وهو مايبث فى نفسها الأقدام شيئا فشيئا بمحض إرادتها على الانتظام فى السلك العسكرى ، فلا يعتمد

وقتئذ على وسائل الشدة والاكراه فى التجنيد . وأما الحكومة فبما تربحه من مزايا تنظيم جنديتها شأن كل حكومة رشيدة . وأهم هـذه المزايا : الوحدة والبقاء والقوة .



الباب التاسع

الزراعة والصناعة
والتجارة

١

الأراضى القابلة للزراعه
والاراضى المزروعة بمصر

١ — الزراعة صفة خاصة بمصر وميزة لاصقة بها الى حد يتسع معه مجال القول بأن الطبيعة، إذا حرمتها العناصر الأولية اللازمة للصناعة لتوزيعها على كل قطر ما يميزه من الصفات عن سائر الأقطار، أرادت أن تجعل الزارعة عملها الذى ينبغى أن لا تتعداه الى غيره من الاعمال

ولقد رأينافيما تقدم ماهية تركيب أراضى القطر المصرى وأنواع حاصلاته . وسنذكر بعض الشيء الآن عن الظروف

الخاصة التى توجد الزراعة المصرية فيها الآن والأساليب المتبعة من الفلاحين للقيام بواجباتها . ونفيض فى بيان التفاصيل المتعلقة بالحاصلات الزراعية

غير أنى أرى ، قبل ذلك ، أن أطرح على أنظار القراء الجدول الآتى ببيان الأراضى القابلة للزارعة والأراضى المزروعة فعلا بالقطر المصرى

٢ — جدول الاراضى القابلة للزراعة والمزروعة

الوجه البحرى

المديريات	الاراضى المزروعة	الابعاديات	الابعاديات من الاراضى الداخلة فى المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع عنها ضرائب الاطيان
الغربية	٤٥٠ ٠٠٠	٤٠ ٩٠٠	١٥٥٥٠٠٠ فدان اراضى
منوف	٣٠٠ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠	الابعاديات يوجد منها
الشرقية	٣٦٠ ٠٠٠	٥٣ ٠٠٠	قسم مزروعاً تبلغ مساحته ٣٠٠٠٠ فدان يضم الى
المنصورة	٣٢٠ ٠٠٠	١٥ ٢٠٠	مساحة الاراضى المزروعة
البحيرة	٢٤٥ ٠٠٠	٢٢ ٠٠٠	يخصم من مساحة الاراضى
قليوب	٢٩٠ ٠٠٠	٨ ٠٠٠	غير القابلة للزراعة هكذا
الجيزة	٢٤٥ ٠٠٠	٦ ٤٠٠	اراضى غير قابلة للزراعة ١٥٨١ ٠٠٠ ٣٠ ٠٠٠
الاراضى المزروعة	٢٢١٩ ٠٠٠		أرض غير قابلة لازراعة ١٥٥١٠٠٠
» القابلة للزراعة	٣٨٠٠ ٠٠٠		» مزروعه ٢٢٤٩٠٠٠
» غير »	١٥٨١ ٠٠٠		المجموع ٣٨٠٠٠٠٠

مصر الوسطى

المديريات	الاراضي المزروعة	الابعاديات	الابعاديات من الاراضي الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع عنها ضرائب الاطيان
المنيا	١٥٢٨٠٠	٥٠٩٠٠	٦٦٧٢٠٠ فدان اراضي
بني مزار	١٤٨٢٠٠	٤٩١٠٠	الابعاديات منها ٢٥٠٠٠
الفشن	١٦١٠٠٠	٣٩٢٠٠	مزروعة الآن تخصم كما تقدم
بني سويف	١٣٩٤٠٠	٣١٠٠٠	٨٦٨٦٠٠
الفيوم	١٢٤٠٠٠	٤٩٧٠٠٠	٢٥٠٠٠
الاراضي المزروعة	٧٢٥٤٠٠		ارض غير
» القابلة للزراعه	١٥٩٤٠٠٠		قابلة للزراعة ٨٤٣٦٠٠
» غير »	٨٦٨٦٠٠		مزروعه ٧٥٠٤٠٠
			المجموع ١٥٩٤٠٠٠

الوجه القبلى

المديريات	الاراضى المزروعة	الأبعاديات	الابعاديات من الاراضى الداخلة في المساحة ولكنها لم تزرع ولا تدفع عنها ضرائب
اسنا	٤٧ ٣٣٧	٢٦ ٦٥٤	٢٩٧٢٤٠ فدانا اراضى
قنا	١٠٢ ٣٩٠	٥٤ ٢٣٢	الابعاديات ومن هـذا
فرشوط	٩٨ ٨٢٨	٣٧ ٦٦٦	المقـدار يمكن حساب ١٠٠٠٠ فدان اصبحت
جرجا	١٠١ ٢١٧	٤٩ ١٩٢	قابلة للزراعة الآن هكذا
سوهاج	١٣٤ ١٦٩	٣٧ ٣٦٦	٧٧٣ ١٧٤
اسيوط	١٦٣ ٥٥٤	٣٠ ٠٣٠	١٠ ٠٠٠
منفلوط	٩٨ ٩٦٤	٢٦ ٧٥٤	ارض غير قابلة ١٧٤ ٧٦٣ للزراعة
ملوي	١٠٠ ٣٦٧	٢٤ ٣٠٦	ارض مزروعه ٨٥٦٢٨٦
اراضى مزروعة	٨٤٦ ٨٢٦		مجموع ١٦٢٠٠٠٥
» قابلة للزراعة	١٦٢٠ ٠٠٠		
» غير » »	٧٧٣ ١٧٤		

مراجعة عامة

المديريات	اراضي مزروعة	اراضي غير قابلة للزراعة	المجاميع
الوجه البحرى	٢ ٢٤٩ ٠٠٠	١٥٥١ ٠٠٠	٣ ٨٠٠ ٠٠٠
» القبلى	٨٥٦ ٨٢٦	٧٦٣ ١٧٤	١ ٦٢٠ ٠٠٠
مصر الوسطي	٧٥٠ ٤٠٠	٨٤٣ ٦٠٠	١ ٥٩٤ ٠٠٠
	٣ ٨٥٦ ٢٢٦	٣ ١٥٧ ٧٧٤	٧ ٠١٤ ٠٠٠

مجموع مساحة اراضي القطر المصري ٧٠١٤٠٠٠ فدان

٢

الري

الري بالترع — الري بالآبار — السواقي — الشواديف

٣ — من الحقائق الثابتة أن سكان القطر المصري وجهوا عنايتهم في جميع الأزمان والأدوار الى الانتفاع ، بقدر الأمكان، بما يحمله النيل اليهم سنويا من عناصر الخير والثروة . فكان إنشاء الترع وتعهدهم إياها بالترميم والأصلاح مما استجمعوا في سبيله جهودهم وصرفوا نحوه عنايتهم . ومعلوم أن خصوبة أرض مصر سببها فيضان النيل ، فلا بدع إذا كانت مسئلة جرّ مياه هذا النهر لتغمر أوسع مساحة مستطاعة من الأرض ، من أمهات المسائل التي شغلت خواطرهم منذ قديم الزمان وارتبطت بحالة حالة مصر من يسر ورخاء أو ضيق وشقاء

ولا تزال الحال اليوم كما كانت عليه في ذلك العهد . فأن ثروة مصر تتوقف على تدبير مياه النيل ، كما أن لأساليب الري الآن نفس ما كان لها في تلك العصور الغابرة . والترع بالوجه القبلي تشبه فروع الشجرة التي تتفرع عن أصلها الثابت ، إذ تتجه

نحو سلسلتى الجبال الحافتين بوادى النيل من جانبيه ، حتى إذا بلغت الى سفوحهما استطالت بالتآزى للصحراء وحصرت الأراضى الزراعية بين خطوطها المخصبة

وقبل الفيضان تقام السدود عند مآخذ ترع الرى المتفرعة من النيل على ضفتيه فأذا بدأ النيل بالارتفاع والنمو تقطع تلك السدود فتجرى المياه فيها إلى أن تلتقى بسدود أخر تقف عندها فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هذا الجزء المحصور بين السدين . وكلما كان الفيضان عظيماارتفعت المياه فيما دون السدود المشار اليها واتسع نطاق الأراضى المغمورة بالمياه

وبعد أن تغمرهذه الأراضى وتروى رياجيداً،تفتح السدود التى كانت المياه قد وقفت عندها فتنسكب فى القسم التالى لهـا وتملأه الى أن تقف عند سد جديد ، فتفيض المياه على الأراضى التى يخترقها هـذا القسم من الترعة المنحصر بين السـدين . فأذا تم رى الأرض ريا جيداً وعمت المياه الأراضى البعيدة قطع السد الثالث ، وحدث فيما يليه ما حدث فى الذى قبله وهكذا بقـدر ما تسمح به حالة الفيضان ارتفاعا وانخفاضا

ومآخذ الميـاه من النهر تتعدد على مسافات متفاوتة من

شاطئه بترع خاصة يقصد بها زيادة إيراد المـاء لتعويض الذاهب منه ضياعاً بتفرعه وانبثاثه فى الجهات المتطرفة من الترع وتوزعه على المسطحات الواسعة من الأراضى بالقنوات التى تشتق منهـا في أطرافها

وبذا يمكن تمثيل وادى النيل أثناء انتشار الفيضان من ضفتيه الى سفوح الجبال الحافة به من جانبيه بمنـاطق تذهب صاعدة كالدرج وتنغمر بالمياه الغزيرة

ولاستمرار الماء فوق الأراضى ومنعه من الانحسار عنهـا والعودة الى مجرى النهر أقيمت على ضفيته جسور اتخذها الناس طريقاً للمواصلات مدة الفيضـان ، بين الأماكن والنواحى المتنائية ، حتى أن المياه المحجوزه كثيرا ماتبقى أثناءه مرتفعة فوق مستوى سطح النهر . ومن ثم كان تعهد الجسور الأصلية الواصلة من قرية الى أخرى أمرا من الأهمية بمكان مكين . وكذا السدود التى يتم بها فيضان المياه من الترع ذلك الفيضان التدريجى ، فأنها جديرة بدوام التعهد والعناية ، إذ لا بد فى قطعها من إعمال الروية دفعاً لما يمكن أن يصيب القرى البعيدة بسـببها من الضرر

يؤخذ مما تقدم أن مياه النيل تشبه الكنز الثمين تقبض

الأدارة على مفتاحه وتهيمن على وسائل تدبيره بتوحيد الأجرياء اللازمة لذلك وبقوة ما بيدها من الوسائل . فأذا كانت الأدارة حكيمة مدبرة حاذقة مهيبة الجانب فقد سهل عليها التحكم فى العناصر النافعة التى يسوقها النيل فى جريانه تحكما يمهد توزيعها على الأراضي المراد إرواؤها بالعدل والنزاهة . أما إذا كانت جاهلة غاشمة ضعيفة متوانية ، فأنها تترك ذلك الكنز الثمين يفلت من يدها وتعرض ثروة البلاد وحياتها الى خطر مدلهم وخطب جلل

٤ — الرى بالآبار

رأينا فى المجلد الأول من هذا المصنف أن فيضان النيل لم يكن العامل الوحيد لخصوبة الأرض فى مصر . إذ لو كان كذلك لكان هذا القطر أخصب بلاد الدنيا في أحد فصول السنة وأقحلها وأمحلها فى الفصول الباقية . وقد ذكرنا أن ارتشاح المياه خلال الطبقات الرملية التى هى فى مصر قاعدة الأراضى الصالحة للزراعة ، كان من أقوى عوامل نجاح الزراعة المصرية لقيامه بتغذية النباتات أثناء السنة كلها . ولنذكر الآن كيف استفادت

الأراضى الزراعية فى مصر منذ قديم الزمان بارتشاح المياه

لما رأى الأقدمون أن المياه العليا من النيل تحدا فى القيعان وتهوى الى المنخفضات ، ابتكروا فكرة الآبار المعروفة بالسواقى أو النواعير ليتمكنوا بواسطتها من رفعها الى سطح الأرض ورىّ المزروعات بها . وهذه الآلة الرافعة عبارة عن دولاب يدور حوله حبل ربطت فيه قدور من الفخار تسمى بالقواديس . ويحرك هذا الدولاب عجلة مسننة تدور حول محور تحركه ماشية من الجواميس أو الثيران

والسواقي آلات بسيطة يصنعها الفلاحون أنفسهم ويركبونها فى مواضعها . ولقد جربت طرق عديدة لرفع الماء ، آلاتها كثيرة الالتباك والتعقيد ، فلم تفلح التجارب بسبب ما تقتضيه من العناية التامة ودوام التعهد بالترميم والاصلاح على أيدى صناع حاذقين . وما من مرة أجريت تجربة من هذا القبيل إلا وانجلت عن ضرورة الرجوع الى طريقة الرى بالسوقى والتعويل عليها ، لاسيما وأنها منتشرة فى طول البلاد وعرضها ، حتى أن عددها فى الوجهين البحرى والقبلي الآن يربو على خمسين الف ساقية

واكثر ما تفيد السواقى المزارعين في الأماكن البعيدة عن النيل ، لرىّ الأراضي التى لايفيدها الرى بالفيضان . والحدائق المنتشرة في ضواحى المدن لاتروى غالبا إلا بمياه السواقي

وتستعمل للرى ايضاً آلة أخرى غير السواقي ترى على ضفاف النيل وشواطىء الترع ، خصوصا فى الستة الأشهر السابقة على الفيضان ، وهى أبسط من السواقي . وقد وصفها الرحالون فى رحلاتهم ، واسمها « الشادوف » . ويتألف الشادوف من رافعة معلقة فى نقطه تقع فى الثلث الأول من طولها بعارضة أفقية ترتكز على دعامتين رأسيتين قائمتين على جسر النيل أو الترعة المراد رفع الماء منها لرى الأرض

وفى طرف الجزء القصير من جزئى الرافعة ثقل من الطين الجاف . وفى الطرف المقابل له أى طرف الجزء الطويل من الرافعة عقدة مرنة يهبط منها قضيب خشب إذا تحركت الرافعة احتفظ باتجاهه الرأسى . وبأسفل هذا القضيب دلو من الجلد أو غيره يملأه العامل الواقف على أرض بارزة من الجسر ، وذلك بأن يغرز طرف القضيب فى الماء حتى إذا إمتلأ الدلو رفعه بواسطته الى أن يؤازى صدره ، فيسكب مافيه في رأس جدول صغير .

وتكرر هذه العملية فيندفع الماء ذاهبا فى القناة الى الأرض المراد ريها أو الى حفرة أخرى ، ليلتقطه رجل ثان فيرفعه بتلك الوسيلة عينها الى رأس جدول آخر . وربما كان هناك ، فيما عدا هذين الرجلين ، رجال آخرون يفعلون فعله إذا كانت الأرض المراد ريها عظيمة الارتفاع . ومتوسط الارتفاع الذى يبلغ اليه الماء بواسطة كل شادوف ثلاثة أمتار تقريبا . وقد يكون وضع أولئك الرجال على منحدر ضفة واحدة ، بحيث تكون حركة الماء فى ارتفاعها ووصولها الى سطح الارض على شكل الدرجات التى يتلو بعضها بعضا

ولقد قام بعض علماء الحملة الفرنسية بتجارب عديدة على هذه الآلات الرافعة ، فتبين لهم منها أن العامل المصرى يستطيع أن يرفع بالشادوف ما متوسطه ٥٠ لترا من الماء فى الدقيقة الواحدة الى ارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا . وهذا فوق طاقة القوة العادية للرجل الواحد ، على الكيفية التي تقدر بها هذه القوة فى أروبا . وظهر أيضا أن متوسط ما ترفعه الساقية الواحدة من الماء يعدل خمسة أمثال ما يرفعه الشادوف

والشادوف في الوجه القبلي حيث شواطيء النيل أكثر

ارتفاعا منها فى الوجه البحرى ، عظيم الانتشار . وقد يضعون خمسة شواديف أو ستة بالتتابع على درجات متفاوتة الارتفاع لأيصال الماء الى الأراضى المطلوب ريها . ولما كانت مآخذ ترع الرى من النيل بالوجه القبلى قليلة العمق ، فأنها تبقى جافة أثناء الشطر الاكبر من السنة . ولكنهم يعالجون هذا النقص بالصناعة والحيلة إذ يضعون العدد العظيم من الشواديف على خط واحد ، بعضها لصق بعض ، لأيصال الماء الى تلك الترع . وكثيرا مايقضى الرجال الموكلون بتلك الشواديف النهار بطوله والليل أحيانا ، لرفع الماء من النهر ، وكثيرا ما أدهش جميع السياح الذين ساروا في النيل أثناء التحاريق ، منظر تلك الشواديف متراصة على ضفتى النهر يحركها باستمرار رجال مجردون تقريبا من ثيابهم ، وهم ينظمون حركة عملهم للتوفيق بينها فى حالتى الخفض لأخذ الماء والرفع لسكبه بالأناشيد والأغانى المقفاة

والأراضى التى تغمرها مياه الفيضان تعطي محصولا واحداً . أما التى يمكن ريها على مدار السنة فتعطى فى السنة ثلاثة محاصيل وفى بعض الأحيان أربعة.

٣

آلات الحراثة والاساليب الزراعية

المحراث —

المحراث — الكرك — المصاد — النورج — تعاقب الزراعات في الارض — تمسك الفلاحين بالاساليب القديمة — العزبة المتخذة نموذجاً

٥ — لاتستدعي أعمال الزراعة فى مصر كبير عناء ، إذ أنها من السهولة بحيث لايحتاج فى القيام بها إلا الى آلات فى الغاية القصوى من البساطة . ولعل هذا هو السبب الذى لأجله حفظت الآلات الزراعية شكلها المصرى منذ سكان مصر الأولين ، وهو الأمر الذى تؤيده النقوش الموجودة فى الآثار القديمة

والمحراث المصري عبارة عن قطعتين من الخشب تلتقيان ببعضهما من الطرفين بحيث تكونان زاوية يتغير انفراجها بأداة مثبتة فى القطعة السفلى ، مارة فى ثقب بالقطعة العليا . وهذه الأداة ذات ثقوب عديدة تمر فيها قطعة خشب تجعل فتحة الزاوية ثابتة. وانفراج هذه الزاوية كثرة أو قلة يكون بحسب ما إذا أريد جعل الحرث عميقا أو غير عميق

أما القطعة الكبرى من القطعتين اللتين يتألف المحراث منهما فتنزل من المحراث بمنزلة العريش من العجلة . وفى طرفها عارضة خشب هي النير الذى يعلق به الثوران أو غيرهما من الماشية المستخدمة فى الحرث . ويوضع هذا النير على عنقى الثورين أو غيرهما و يثبت في مكانه من العنقين بحبال من الليف. أما القطعة السفلى فيجتمع فيها بشكل عاشق ومعشوق قطعتان من الخشب تسهلان على الحارث توجيه المحراث نحو الجهة التى يرومها أو غرز سلاحه فى الأرض بالقدر الذى يريده

وبعد حرث الأرض يسوى سطحها ويمهد بقطعة من جذع نخلة تلقى عليها ويسحبها ثور أو ثوران باتجاه عرضها . وقد يكون الجذع خفيفا ، ففى هذه الحالة يقف فوقه الرجل الذى يسوق الثور ليزيده ثقلا . ولكى تصرف المياه من الأرض التى تروى ريا صناعيا تستعمل أداة تسمى «الزحافة» وهي عبارة عن لوح من الخشب فى طول متر بأحد طرفيه مقبض وبالآخر حبل ، فيمسك رجل أو رجلان بهذا الحبل بينما يحرك اللوح من المقبض رجل آخر

وبعد بذر البزور لا يعود الزراع الى الغيط إلا لتنقيته

من الحشائش أو ريه أو مباشرة الحصد . وتقطع سوق النباتات بالمنجل إذا لم يكن المراد انتزاعها بجذورها .

وبعد الحصاد تجمع النباتات المحصودة حزما كبيرة ثم تلقى فى مكان خاص من الغيط الذى حصد محصوله أو فى مكان آخر قريب منه . لأنه بالنظر الى قلة هطول الأمطار وسقوط الجليد فى مصر ، لا يحتاج المصريون فى الاحتفاظ بحاصلاتهم الى الحظائر المسقفة بل يدعونها معرضة في الغيط للهواء والشمس

وفى جهات الصعيد الأعلى تدرس الحبوب بالمواشى بعد نشرها على البيدر أى الجرن . أما فى الجهات الأخرى فتتم هذه العملية بالآلة المعروفة بالنورج . والنورج عبارة عن إطار أفقي يتألف من أربع قطع كبيرة من الخشب متعاشقة بعضها ببعض . وقد ثبت في جانبي قطعتين منها عمودان أو أكثر من الخشب ، في كل عمود منها ثلاثة صفائح من الحديد الذى سمكه ملليمتران تقريبا مستديرة الشكل ، ونصف قطر كل منها أربعون سنتيا .

وهذه الأعمدة بصفائحها المستديرة تتحرك كالعجل بحيث تكون في وضعها على شكل تتقابل فيه صفائح كل عمود مع وسط

المسافات الواقعة بين صفائح العمود التالى له . وقد ركب فوق الأطار كرسى غليظ الصناعة يجلس عليه سائق الثورين . وفى العارضة الداخلية من الأطار المربع حلقة يربط فيها عريش من الخشب يعلق بطرفها نير يوضع على عنقى الماشيتين الملقتين بالنورج . فأذا فرشت حزم الحبوب المحصودة المراد درسها بتلك الآلة على شكل دائرة يختلف نصف قطرها من ثمانية أمتار الى ثمانية عشر مترا ، ومر النورج فوقها مرا دائريا ، داست الثيران والمواشى الحزم المفروشة بأرجلها فيخرج الحب من سنابله بينما تقطع الصفائح المدورة السوق الجافة فيتكون منها التبن

هذا والأراضى التى يخصبها الطمى الراسب من ماء النيل تنبت باستمرار . والفلاحون لايتركونها لترتاح ، بل يتابعون حرثها وزرعها . وغاية الأمر أنهم يراعون التناوب فى زراعتهم

والفلاحون كغيرهم من الشعوب الجاهلة متمسكون بالأساليب الزراعية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم . ولعل ذلك هو لأن الأعمال الزراعية لاتستدعى فى مصر إلا اليسير من المشقة . إذ يظهر أن الطبيعة فى هذا القطر تتولى العمل الزراعي بنفسها ، بحيث لايحتاج هذا العمل من الأنسان شيئا

سوى القيام على الرى وتعهد شئونه . فالفلاحون المصريون لا يحتاجون فى الحصول على مايطمعون فيه من وفرة الحاصلات الزراعية الى الأساليب الراقية التى استكشفها العلم الحديث. غير أنه لما كان تأثير العلم طيبا ومفيدا فى كل مكان وزمان ، فمن المحقق أنه سيأتى بأحسن الثمار وأجل النتائج فى مصر . وهو ما أدرك سمو الوالى حقيقته ، ولأجله أرسل فريقا من الشبان إلى أوروبا للوقوف على ماوصل اليه علم الزراعة من التقدم عندنا

ولقد تلقى لفيف من المصريين هذا العلم بمدرسة (روڤيل) تحت إدارة العلامة (ماتيو دى دمبال) ، وأنشأ محمد على بالقرب من شبرى عزبة على المثال الحديث لتكون نموذجا لما ينشأ من العزب فى المستقبل ، فجاءت ببعض الفوائد . ومحقق أن بالأمكان الاستفادة من هـذا العمل ، متى اتيح لسمو الوالى التفرغ التام لتوسيع نطاق الموارد السلميـة في مصر التى مازال مضطرا الى مزيز قوتها الحربية بحكم الظروف والمؤثرات السياسية

٤

الزراعات الكبرى في مصر

مواسم الزراعة : الزرعة الشتوية — القمح — الشعير — الفول — العدس — الترمس والحلبة — الزعفران والبرسيم * الزراعة القيضية — القطن — النيلة * الزراعة الصيفية : الذرة — الارز — الكتان — دود القز — جدول الحاصلات المصرية

٦ — مواسم الزراعة

يقسم فيضان النيل السنة إلى ثلاثه أدوار زراعية . ولعل هذا هو السبب الذى دعا قدماء المصريين إلى تأليف السنة المدنية من ثلاثة فصول فقط كل فصل مائة وعشرون يوما . ففي ارتفاع المياه فى النهر الى أعلى مقياس لها وانتشارها على الأراضى الزراعية بعد قطع السدود ، كانوا يباشرون زراعة الأصناف التى لا تحتاج للرى الى أن تبلغ تمام النضج وتصلح للحصد ، وتعرف أصناف هذه الزراعة باسم القياضى . أما الزراعات التى تزرع فى الفصل نفسه فى أراض لم يسبق غمرها بماء الفيضان أو لم تحتفظ بهذا الماء على سطحها زمناً طويلا ، فلا بد فى ريها من الاستعانة بالوسائل الصناعية . وتلك الزراعات تسمي لهذا

السبب بالزراعات الشتوية . وكل من هذين الصنفين من الزراعات أى القياضي والشتوى تتبعهما الزراعتان المعروفتان بالصيفي والقيضي . وهاتان الزراعتان تقابلان الزمن الذى يكون النيل أثناءه فى التحاريق ، وتقتضيان لهذا السبب الرى الصناعي

ومتى بدأ ارتفاع النيل تبتدىء الزراعتان الآتيتان وهما : الزراعة الدميرى وهى التى تحصل فى الأراضى الواطئة والزراعة النبارى وهى التى تحصل فى الأراضي العالية التى يحتاج ريها إلى رفع الماء بالوسائل الصناعية

٧ – الزراعة الشتوى : القمح

تزرع الحبوب عادة فى الأراضى التي غمرت بماء الفيضان إذ تبذر بذورها عقب انحسار المياه عنها . والعادة أن يتم بذر القمح بالوجه القبلى قبيل شهر نوفبر ، وبالوجه البحرى قبيل بداية ديسمبر . وتبلغ البذور اللازمة للفدان الواحد ثلث الأردب المصرى بعد انكشاف الأرض ببضعة أيام . ولا يعنى بتنقية البذور من الأجسام الغريبة التي تحتويها ، ويحصل الحصد قبيل أوائل مارس بالوجه القبلى وفى أفريل بالوجه البحرى . ولقد

ذكرنا في الفصل المخصص للنباتات مقدار محصول مصر من القمح فلا حاجة هنا الى التكرار . ويزرع القمح أيضا أثناء فصل الربيع فى الأراضي التي سبق زرعها بالبرسيم الحجازى ، وتروى الحقول المزروعة به . وصنفه أحسن بكثير من القمح القياضى ، ولكن زراعته تستدعى نفقات أكثر من زراعة الأصناف الأخرى

٨ — الشعير

بعد حرث الأرض حرثاً خفيفاً يبذر الفدان الواحد منها بثلاث كيلات الى أربع من الشعير . ويتم الحصد بعد البذر بمدة تختلف من أربعة أشهر الى خمسة

٩ — الفول

يبذر الفول فى الميعاد السابق تقريبا على الطمي الذى يتركه النيل ، ويغرز في الأرض بالزخافة ، وتبقى زراعة الفول فى الأرض نحو أربعة أشهر ونصف . ويبلغ ما يلزم للفدان الواحد من البذور من خمس كيلات الى ست

١٠ — العدس

يبدأ بذره فى نوفبر من غير أن يعنى بالأراضى المخصصة له ، ولا أن تجهز تجهيزاً خاصا لزراعته . ويكفي الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات الى ثلاث ونصف . ويتم الحصاد بعد ذلك بثلاثة أشهر أو أربعة

١١ — الحمص

يبذر له فى نوفبر بالأراضى التى لا تحرث إلا لتغطية هذه البذور بالتراب . ويبلغ ما يكفى الفدان الواحد من البذور من ثلاث كيلات ونصف إلى أربع كيلات

١٢ — الترمس والحلبة

يبذر لهما فى الأراضى الضعيفة وطريقة زراعتهما كطريقة زراعة الحبوب التى سبق الكلام عليها

١٣ — الزعفران

يبذر له في الأوان نفسه بلا تكلف عناء لأعداد أرضه ، وغاية ما هنالك أن البذور تغطى بالتراب بواسطة الكزك . ويلزم لزراعة الفدان من كيلة الى كيلة ونصف من البذور . ويحصد الزعفران فى مارس وبعد حصده يجعل حزما ويحمل إلى الأمكنة التى ينزع فيها من بذره ، فيترك بها من خمسة عشر يوما الى عشرين حتى إذا جف تماما ضرب بالعصى لفصل البذور منه

١٤ — البرسيم الحجازى

البرسيم الحجازى من الزراعات العظيمة الأهمية للفصل الذى يلى انصراف المياه ، لأنه المحصول الذى يعتمد عليه فى تغذية مواشى القطر المصرى

١٥ — الزراعة الصيفى : القطن

زراعة القطن حديثة فى مصر وقد أشار بها على سمو الوالى فى سنة ١٨٢١ فرنسى يدعى المسيو (جومل) ، إذ أوقفه

على مزايا هـذه الزراعة وبين له مقدار فوائدها وما يستثمر من ربحهـا . وكان القطن الذى تنتجه مصر حتى ذلك الوقت من الصنف الردىء، بخلاف الصنف التى اقترح المسيو (جومل) إدخال زراعته فأن أصله من الهند،وكان يزرع فى بعض حدائق القاهرة كنبات من نباتات الزينة . فلما وقف المسيو (جومل) عليه وسع نطاق زراعته وعنى بها فبقى اسمه مرتبطا بهذا المحصول الذى صار أهم الحاصلات الزراعية التى يعتمد عليها سمو الوالى

وأرض مصر من أوفق الأراضى وأصلحها لزراعـة هـذا القطن . نعم إنهم يبذرونه فى جميع الأراضى على حد سواء، ولـكن أصلح الأراضى له الأرض الكثيفة القوية الحافظـة للرطوبة التى تستطيع شجـيرات القطن أن تستمد من عناصرها العصير المغذى وأثمـار اللوزات الممتلئة . وممـا يساعد على نموه مجـاورة الأراضى التى تزرع به للنيل حيث يتوافر الرى بالراحة ، وبأقل ما يمكن من النفقات

وممـا ينبغي رعايته فى زراعـة القطن أن تكون الأراضى التى تزرع به بعيدة عن مظان فيضان النهر ، لأن بقاء الماء بجوار الشجيرات يميتها حتما . والفلاحون شديدو الاهتمام بحماية

الأراضى المعرضة للفيضان ، أثناء ارتفاع مياه النيل ، بالجسور القوية من الطين . وشجيرات القطن تروى فى مواعيد دورية بالسواقى والشواديف ، وفي فصل الشتاء تروى كل خمسة عشر يوما مرة . أما في الخريف فتروى كل اثنى عشر يوما إذا كان الندى كثيرا وكل ثمانية أيام اذا كان الزمن صيفا .

ويبذر للقطن فى شهرى مارس وأفريل بالوجه البحرى . ويعنى قبل البذر بحرث الارض مرة واحدة ، إذا كانت الارض قوية . أما إذا كانت ضعيفة فيكرر الحرث مرتين أو أكثر . وفى الصعيد يبلغ إيغال المحراث فى الأرض ستة وثلاثين سنتيا وبعد الحرث على هذا المثال ترسم الخطوط متوازية على مسافة متر بعضها من بعض . ويكثر القلقيل عقب ذلك وتمهد الارض وتفتح جور قطر كل جورة من ثلاث بوصات الى أربع وعمقها كذلك ويوضع فى كل جورة من بذرتين الى أربع من بذور القطن التى يعنى بوضعها فى الماء قبل ذلك بنحو أربع وعشرين ساعة لتعجيل إنباتها . وتجعل المسافات بين سوق شجيرات القطن نحو المتر تقريباً . وعادة الفلاحين فى المزارع القريبة من المدن أن يبذروا مع القطن بذور الخضر والبقول

للإستفادة بالأرض كلها . وفى زمن الفيضان تنقي الزراعة القطنية من الحشائش الطفيلية التى تنمو حول الشجيرات

وفي السنة الثانية لاتعزق الأرض إلا للتنقية مرة أخرى .

وشجيرة القطن التى يبلغ ارتفاعها فى السنة الأولى من متر الى متر ونصف يزداد نموها فى السنة الثانية ، ولكن هذه الزيادة أضعف منها فى السنة الاولى

ومنذ السنة الأولى تقلم شجيرات القطن بأداة مخصصة لهذا الغرض اسمها المشذب . وتنزع جميع فروعها لاتخاذها وقوداً وهذه العملية تعطى الشجيرات قوة جديدة وتقيها ضرر البرد الذى يسطو عادة على الفروع فيهلكها

ويبتدىء جنى القطن عن السنة الأولي فى شهر يوليو وينتهى فى يناير إذا لم يكن البرد شديداً

ومحصول الشجيرة الواحدة رطل وربع من القطن الخام عن السنة الأولى ، ومن رطل وربع الى رطلين عن السنة الثانية ،ومثل هذا القدر عن السنة الثالثة . ولكن الشجيرات تفقد فى السنوات التالية هذه الخصية ، ولذا كان من الأوفق تجديد زراعتها كل ثلاثة أعوام . وبالرغم مما تقدم فأن شجيرات القطن

تستمر على الأنتاج زمناً طويلا . فقد شوهد منها ما لا يزال يثمر اللوزات بعد خمسين سنة . ومفهوم أن شجيرات القطن تنمو نمواً عظيما في آخر السنة الثالثة وتتكاثف أغصانها وتزداد أوراقها

وفى استطاعة رجل واحد أن يزرع أربعة فدادين من الأرض بحيث يحتوى هذا المسطح أربعة آلاف غرس من شجيرات القطن . أما في موسم الحصاد فيستطيع العامل الواحد أن يجمع فى اليوم خمسة عشر رطلا من القطن الى ثمانية عشر . وكيفية حلج الأقطان أنهم يأتون بآلة مؤلفة من اسطوانتين موضوعتين احداهما فوق الأخرى ومثبتتين فى قائمتين وطول قطر كل منهما تسع بوصات .فأذا تحركت هاتان الأسطوانتان بعجلة يديرها رجل واحد بقدمه ووضع القطن الخام بينهما ، مرّ شعر القطن ووقفت البذور بدون أن تمر وسقطت فى مكان معد لها . وفي استطاعة العامل الواحد أن يحلج فى اليوم من اثنى عشر رطلا إلى خمسة عشر

ويقتصر الفلاحون فى تعبئة القطن على كبسه بالأقدام ، كلما وضعوا جانباً منه في الأكياس . ولكن سمو الوالى استحضر

من انكلترا مكابس من النوع المستعمل لهذا الغرض فى أمريكا وأمر بصنع آلات أخرى على مثالها . وحجم البالة على الطريقة المتبعة عند الفلاحين فى تعبئتها متر ونصف ارتفاعا فى متر واحد عرضا . أما حجمها ، إذا كبست بالآلة الأمريكية ، فمتر واحد ارتفاعا ونصف مترا عرضا

١٦ — النيلة

زراعة النيلة في مصر أهم الزراعات وأوسعها نطاقا . وهذا النبات أصله من الخارج وقد نجح نجاحاً باهراً حتى شاعت زراعته فى القطر المصرى ولا سيما فى الصعيد والفيوم . والعادة في زراعته أن يبذر له عقب الفيضان فى الأرض السميكة الرملية التى يسهل ريها بمجاورتها للنيل أو الترع المتفرعة منه . وقبل البذر تحرث الأرض مرة واحدة ثم يقسمونها مربعات صغيرة تخترقها قنوات متقاربة يضعون فيها البذور . وترى الشجيرات مرة كل ثمانية أيام أو عشرة فأذا بدأت النباتات بالأزهار شرع باقتطاف الأوراق للمرة الأولى فأذا تم نضجها وبلغت الغاية من نموها حصدت والبذور فى آن واحد

١٧ - الزراعة الصيفية : الذرة

الذرة البلدية أساس غـذاء الفلاحـين الذين يفضلونها على القمح . وهم يبذرون لها فى آخر مارس بالغيطان والحقول التى كانت مزروعة قبلا بالبرسيم الحجازى . والعادة إحراق الحشائش الطفيلية التى تكون الأرض المراد زرعها ذرة مغطاة بها . وبعد هذه العملية التى تزيد فى خصوبة الأرض تحرث مرة واحدة ثم تحفر فيهاجورات بالفأس يودع فى كل جورةمن ثلاث حبات إلى أربع وتغطى بالتراب وتقسم الأرض بعد ذلك إلى مربعات طول أضلاعها من أربع أقدام الى خمس ، تحيطبها حواجز يسيل الماء حولها ، ثم يرسـل الى خطوط تعمل بواسطة الفأس . وبعد رى كل مربع ريا كافيا يطلق الماء فى المربع الذى يليهوهكذا بالتعاقب . وفى الغالب يستغنون عن الرى ، ولـكن المحصول يكون فى هـذه الحالة رديئا وقليلا

وتحصـد الذرة خلال يوليو . وطريقة حصـدها أن تقطع السوق من فوق الجذور بالمنجل أو الفأس . والفلاحون يفصلون الحبوب منها بالنورج (٤) . وفي فصـل الخريف يزرع نوع من

الذرة يسمى بالذرة البيضاء . أما الذرة التى يسميها المصريون بالشامية فتزرع مرتين فى السنة ، مرة فى الخريف وأخرى فى الصيف . ويبلغ مايلزم من البذور لزراعة الفدان الواحد نحو ربع أردب ويختلف المحصول من أربعة أرادب الى عشرة ولكن الذرة الشامية يختلف محصولها للفدان الواحد من عشرة أرادب الى أربعة عشر أردبا

١٨ — الارز

لزراعة الأرز ، وهي من أعظم الزراعات فى الوجه البحرى ، أسلوب خاص وطريقة تغاير طرق المزروعات الأخرى . ولقد سبق لنا القول بأن مزارع الأرز شائعة فى الوجه البحرى ، ولا سيا فى ضواحي دمياط ورشيد

وقبل وضع بذور الأرز فى الأرض ، توضع في قفف تغمر بالماء من عشرة أيام الى خمسة عشر يوما ، حتى إذا لانت البذور نشرت على الحصير ، ثم جعلت أكواما طول كل كومة ثلاثون قدما فى عرض أربع أقدام وارتفاع قدم واحدة ، وغطيت بالبرسيم أو التبن وبقيت كذلك الى أن تنبهها الحرارة . وهو مايحدث

عادة بعد يومين او ثلاثة أيام من بقائها فى هذه الحالة . وتبذر بعد ذلك فى أرض تكون قد غمرت من قبل ببضعة أيام وحرثت حرثا متقاطعا وتركت أياما لترتاح ، ثم أعيد حرثها وغمرت بالماء ثانيا ومهد سطحها بعد تشربها الماء بالزحافة أو الكرك . والبذور التي تنثر عليها تنغرز فيها بنفسها بحكم ثقلها ، خصوصا وأن الأرض تكون وقتئذ متشبعة بالرطوبة الشديدة . وبعد ثلاثة أيام تطلق المياه مرة أخرى على المربعات التي نثرت عليها البذور وتترك كالسابق ، ثم تصرف عن الأرض وتروى الأرض على هذه الطريقـة الى أن يتم نضج الأرز . وإذا بقيت مزارع الأرز من غير ماء ، فأن الزراعة تصبح معرضة للخطر

والعادة أن يبدأ بزرع الأرز فى شهر نوفبر . فأذا تم نضجه قطع بالمناجل وعقد حزما ثم نقل الى بيدر (جرن) لتستخرج الحبوب منه بأداة شبيهة بالنورج يجرها ثوران بضع ساعات على تلك الحزم ، بعد فك رباطها ونشرها على سطح البيدر . وبعد غربلة حبوب الأرز تعرض للشمس لتجف وتجرد من قشورها بضربها فى هاون بمضربين يتحركان بوسيلة آلية خاصة . وبعـد تبييض الارز يعاد ثانياً إلى المضارب ويخلط بكمية من الملح

تعدل خمس مقداره

١٩ — التيل أو القنب

الأرض الموافقة لزراعة التيل هي التى على ضفاف النيل وحفاف الترع ، بشرط أن تكون دائمة الرطوبة . وقبل الشروع فى مباشرة بذرها بالتيل تحضر بالكيفية التى تجهز بها لزراعة قطن جومل . والعادة البدء بالبذر فى شهرى يناير وفبراير ، فلا يمضى أربعة أيام حتى تنبت البذور فتظل آخذة بالنمو نحو خمسة عشر يوما ، وتنقى عندئذ من الحشائش . وتكرر هذه العملية كل ثمانية أيام . ويلبث نبات التيل فى الأرض من ثلاثة أشهر الى ثلاثة ونصف تقريبا ، ويستدل بلونه على بلوغه حد النضج . وبعد حصده يترك معرضا للهواء عشرين يوما لتجفيفه ثم يضرب لفصل البذور منه . فالألياف التى تنتج عن هذه العملية تنقع فى الماء خمسة عشر يوما ، فأذا تطورت بطور معروف عند أهل الفن فصلت بعضها عن بعض وعرضت للشمس ستة أيام ثم نظفت من الشوائب المخالطة لها وأرسلت بعد تنظيفها مع البذور الى الشون والمخازن المعدة لحفظها

٢٠ — الكتان

يزرع الكتان بطريقتين : الأولى لا يعنى فيها بتجهيز الأرض المخصصة لزراعته سواء قبل البذر أو بعده ، إذ يكتفى ببذر البذور عقب انصراف المياه والثانية يعنى فيها بحرث الأرض على الاتجاهين الطولى والعرضى وقسمتها الى مربعات تبذر باليد، ثم تروى مرة واحدة فقط . ومتى ظهر النبت ونما نثر على الأرض تراب قلوى ثم رويت أثناء نمو السوق وتركت حتي تبلغ حد النضج فى مارس حيث تنتزع السوق وتنشر لتجفيفها ، ومتى تم جفافها جعلت حزما صغيرة لاستخراج البزور منها إما بالضغط على أجزائها العليا أو بنفضها على آنية من الفخار . والطريقة الاولى شائعة فى الوجه البحرى والثانية في الصعيد . وبعد الضرب توضع المحافظ المحتوية للبزور في الرحى لاستخراج هذه منها . وعقب هذه العملية يربط التيل حزما ربطا شديداً وتعرض الحزم للشمس والندى زمناً ثم توضع فى المياه الراكدة أو الترع وضعاً رأسياً لعطنها وتثقل بالحجارة حتى لا تطفو على وجه الماء . وتبقي كذلك خمسة وعشرين يوما تستخرج فى نهايتها

وتطرح تحت أشعة الشمس لتجفيفها . ومتى زال ما بها من الرطوبة توضع على حجر وتضرب بعصى ثم تنفض نفضاً لنزع القشور اللاصقة بها . وتمرر بعد ذلك من بين أعواد متوازية كأسنان المشط لتنقيتها مما يكون متخللا أليافها من القشور

٢١ — دود القز أو دود الحرير

عضد محمد علي تربية دود القز في مصر وغرس لهذا الغرض أكثر من ثلاثة ملايين شجرة توت ، في الوجه البحري وحده ، وشجر التوت يورق عادة في يناير من كل عام ، كما أن تقف دود القز للبيض يوافق شهر مارس أو ماقبله بقليل وبين النقف والميعاد الذي تغزل فيه دودة القز شهران تتطور أثناءها بالأطوار المعلومة عند المتفرغين لتربيتها .

ولا يصاب الدود في مصر بالآفات الوبيئة ولا تعرف هذه الآفات فيها . ولكن الحرارة الشديدة والعثير والندى مما يضر به . وهبوب رياح الجنوب المحرقة تجففه وتحرقه حتى يصير كالفحم

والأوقية الواحدة من البيض تعطي ٧٠٠٠ فيلجة أو شرنقة

تزن الواحدة منها من نصف درهم إلى درهم . وفى سنة ١٨٣٣ بلغ محصول الحرير المصرى ٦١٥٠ أقـة . أما البيض الذى يبيضه الفراش ، فلا يستلزم عناية ما ، لأن الذكور منه تزاوج الأناث بنفسها . ويكفى عشرون يوما لتكوّن الفيالج على أتم ما يراد . أما البذور التى يبيضها فتحفظ شتاء فى أكياس تدلى فى الآبار

٢٢ — حاصلات القطر المصرى

نورد فيما يلى بيان كميات الحاصلات الأصلية للقطر المصرى فى سنة ١٨٣٣ ليقف القارىء على أهميتها التى نذكر أنها ما برحت حتى الآن حافظة لمكانتها:

	هكتولتر
قمح	٢٦٦٨٠٠٠
فول	١٢٨٨٠٠٠
شعير	١١٩٦٠٠٠
ذره شامی	٢٩٤٤٠٠
ذره بلدی	١٣٨٠٠٠٠
عدس	١٢٨٨٠٠
حمص	٤٦٠٠٠
ترمس	٣٦٠٠٠
حلبه	١١٠٤٠٠
أرز رشيدی	٥٥٢٠٠
أرز دمياطی	٩٢٠٠٠
بذر كتان	٤٠٤٨٠
« خس	١٤٧٢٠
« سمسم	٣٣١٢٠
« قرطم	٢٧٦٠٠

	كيلو جرام
قطن شجرى	٤٨٩١٧٠٠
قطن حشيشى	٢٠٠١١٥
سكر	٣٨٢٤٤٩
زعفران	٢٦٦٠٠
حناء	١٥٥٥٤٥٠
كتان	٨٠٠٤٦٠
نيله	٩٤٧١٠٠
أفيون	١٨٤٥٠
حرير	٧٩٩٥

٥

الصناعة

٣٢ — الصناعة المصرية قسمان قسم يشمل الصناعات الكبرى أعنى الصناعات التى أنشأ محمد على لأجلها المصانع الكبرى الكثيرة . والثانى الصناعات الصغرى المحلية والأنوال المختلفة التى يكسب الأهلون أقواتهم من ممارسة العمل بها

١

الفاوريقات

مغازل القطن وفاوريقات الاقمشة القطنية : ببولاق والقاهرة والوجه البحرى والصعيد — فاوريقات الاقمشة الكتانية — مبيضة بولاق — بصم الاقمشة والمناديل — فاوريقات الانسجة الحريرية — معامل الحبال — فاوريقة الجوخ فى بولاق — فاوريقة الانسجة الصوفية — فاوريقة الطرابيش فى فوه — مسبك الحديد — معمل الاسلحة القابلة للحمل — فاوريقات السكر — معاصر الزيت — معامل النيلة — معامل البارود وملح البارود والمواد الكيميائية — أفكار وخواطر عن فاوريقات مصر ومعاملها

أنشأ والى مصر عدداً عظيما من الفاوريقات ، فمن مغازل القطن الى فاوريقات الأقمشة الكتانية الى معامل البصمة

(الشيت) والجوخ والصوف ، الى مصانع الطرابيش والأقمشة الحريرية ، الى مسابك الحديد ومعامل الأسلحة الخ

٢٤ — مغازل القطن وفاوريقات الأقمشة القطنية

فى أنحاء متفرقة من القطر المصرى عدد غير قليل من معامل غزل القطن ، فقد بلغ عدد هذه المعامل خمسة عشر تحتوى ١٤٥٩ نولا منها ١١٥ للغزل الغليظ و١٣١٤ للغزل الدقيق . أما أنوال النسيج فأكثر من ١٢٠٠ تنسج فى فصل الشتاء أكثر من ٣٥٠٠ قطعة من القماش يومياً وفى الصيف نحو ٦٠٠٠ يومياً كذلك . أما ماتنتجه فى السنة من قطع القماش فيبلغ على حساب المتوسط مليونى قطعة

وأتقن تلك الفاوريقات وأكملها فاوريقة (مالطه) ببولاق ، وهذه البلدة هى المرفأ الصناعى والتجارى لمدينة القاهرة . فأن القطن يغزل فى هذا المعمل ثم ينسج أقمشة مختلفة الأنواع . وقد اعتنى ببنائها وجعل فيها للعمل ثمانية وعشرون عجلة وأربعة وعشرون محلاجا . وهذه الآلات تصل اليها الحركة من أحد عشر طنبورا يحركها ثمانية أبقار بالعدة المعدة لهذا الغرض . وكل

عجلة يشتغل عليها رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التى تنقطع بحركة الآلة . وفي فاوريقة مالطة مائتا نول تنسج خيوط القطن . ومما ينسج فيها قماش الموصلين والباتست . وبجوار هذه الفاوريقة معملان آخران لغزل القطن يعرف أحدهما بمعمل ابراهيم أغا والآخر بمعمل السبتية

أما القاهرة ففي حيّ الخرنفش منها فاوريقة من هذا النوع تحتوى مئتى عجلة ، عشر منها للغزل الغليظ والباقى للغزل الدقيق. وتحمل المائة الأولى مائة مغزل وثمانية مغازل على خط واحد والمائة الثانية مائتين وستة عشر

وفى الوجه البحرى تسعة فاوريقات لغزل القطن ونسجه ، واحدة منها فى قليوب وهى فسيحة الجوانب بعيدة الأطراف تحتوى سبعين عجلة وثلاثين محلاجا تحركها ثلاث عدد . وفي قرية شبين من مديرية منوف فاوريقة أخرى لغزل القطن فيها سبعون عجلة وثلاثون محلاجا يحركها عدتان . وفى المحلة الكبرى فاوريقة بها مائة وعشرون عجلة وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد والخيوط التى تغزلها هذه الآلات تنسج فيها قماشاً على مائتى نول

وفاوريقة غزل القطن في زفتي من مديرية الغربيـة تحتوى خمسة وسبعين عجلة وخمسين محلاجا يحركها ثلاث عدد . وفى بلدة ميت غمر فاوريقة من هذا النوع

أما فاوريقة المنصورة فتحتوى مائة وعشرين عجلة وثمانين محلاجا يحركها أربع عدد وفيها مائة وستون نولا لنسج الخيوط التى تغزل فى مغزل الفاوريقة . وفى دمياط مصنع للغزل شبيه بالمتقدم وفيه مثل ما يحتويه عدداً من الانوال

أما فاوريقة دمنهور ففيها مائة عجلة وثمانون محلاجا . وفى فاوريقة رشيد مائة وخمسون عجلة وثمانون محلاجا يحركهـا أربع عدد وهى خاصة بنسج أقمشة القلوع

وفى الوجه القبلى مصانع للغزل والنسج ازداد عددها منذ بضع سنوات ، وأهمها الفاوريقتان اللتان ببنى سويف وأسيوط . ولقد أنشأ الوالى فاوريقات أخرى بالمنيـا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا وإسنا

٥٥ — فاوريقات الاقمشة الكتانية

أما فاوريقات الأقمشة الكتانية فموزعة كالسابقة على جملة

من المديريات ، ولا سيما مديريات الوجه البحرى . وما تصنعها من الأقمشة يستنفد بالقطر المصرى . ويبلغ ما تنتجه فى السنة ثلاثة ملايين قطعة ، يصدر قسم كبير منها الى (تريستة) و (ليفورنة) . وفى القطر المصرى ثلاثون ألف نول لنسج أقمشة الكتان

وفيما بين بولاق وشبرى حظيرة فسيحة جداً تسمى (المبيضة) تجرى فيها ، على الأقمشة المنسوجة فى تلك الفاوريقات ، عمليات التبييض المختلفة . وفى هذا المكان تبصم هذه الأقمشة أيضاً بالألواح أو الاسطوانات الميكانيكية . ويبلغ ما يبصم منها فى الشهر ثمانمائة قطعة . وفى السنوات الأخيرة أخذت الأقمشة المبصومة فى المبيضة (البصمة) تنافس الأقمشة الواردة من نوعها من انجلترا والمانيا ، ولذلك قل المستورد منها قلة محسوسة . وهي تمتاز على هذه بدقة النسيج وجمال الرسوم وثبات الألوان . وتبصم فى المبيضة أيضا مناديل الموصلين التى يعصب النساء بها رؤوسهن

٢٦ — فاوريقات الحرير

كانت الأقمشة الحريرية والقطنية تنسج بمصر فى كل زمان ولكن محمداً علياً هو الذى وسع نطاق صناعة نسجها بغرسه المقدار العظيم من شجر التوت . ولقد أحضر من الاستانة عمالا إخصائيين لنسج الحرير على الطريقة التى ينسج بها في هذه المدينة وفى الاقطار الهندية . وبمصر الآن نحو مائة نول مستعملة لنسج الحرير والأسلاك الذهبية وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية وهم على غاية من الحذق فى صناعتهم لأنهم يجيدون النسج ويظهرون البراعة فى تحليته وتنميقه بالرسوم اللطيفة .

٢٧ - معامل الحبال

إن القنب الذى أصبح محصوله أقل منه قبل أن يبلغ محصول القطن ذلك المبلغ العظيم بتعضيد سمو الوالى ، لم يعد يستعمل الآن لنسج المنسوجات ، منذ اقتصر في استعماله على صنع الحبال اللازمة للبحرية . وبالقاهرة مصنع كبير للحبال ترسل مصنوعاته الى ترسانة الاسكندرية .

٢٨ – فاوريقة الجوخ

ببولاق فاوريقة لصناعة الجوخ على اختلاف أنواعه وألوانه وبالرغم من أنها لم تأت منذ البداية بالنتائج المرضية المنتظرة ، جاءت فيما بعد بفوائد لا تنكر ، خصوصاً منذ تولى أمرها خمسة من الفرنسيين انتخبوا من بين صناع معامل الجوخ فى مقاطعة (لنجدوك) بفرنسا . وقد عكفوا على إدارة هذا المصنع مدة أربعة عشر عاماً ، فتمكنوا من تدريب لفيف من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والطباعين من الأهالى الوطنيين . ولم يكتف سمو الوالى بما تقدم بل أرسل لفيفاً من الشبان المصريين لتعلم هذه الصناعة بفاوريقات الجوخ بمدينتى (سيدان) و (إلبوف) بفرنسا . فاستطاعوا بعد عودتهم ، وقد تدربوا على العمل ، إفادة البلاد بما حصلوا عليه بخبرتهم وتجاريبهم

وتنسج الأجواخ المصرية من الصوف المصرى الذى يرد أجود أصنافه من دمنهور والمنيا . ويستعمل لهذا الغرض أيضاً الصوف المستورد من الأيالة التونسية .

أما الجوخ المصنوع فى الفاوريقة المصرية فجيد الصنع متين التيلة ، ومنه تتخذ ملابس الجند . واللون الذى يلون به فى الغالب هو الأزرق الغامق والأزرق اللازوردى والأحمر القرمزى والأحمر البرونزى والأخضر الغامق . ويبلغ ماينسج منه فى الشهر الواحد ١٣٥٤٠ مترا تقريباً

وتصنع فى الفاوريقة الآنفة الذكر ، فيما عدا الأجواخ ، منسوجات من الصوف لملابس النوتية المصريين (البحارة) وأغطية (بطاطين) للنوم . والصوف المستعمل لهذا الغرض هو الصوف الغليظ الوارد من الوجه القبلى . وبالقطر المصرى ٤٠٠ نول لنسيج الصوف

٢٩ — فاوريقة الطرابيش

فاوريقة الطرابيش التى أنشأها سمو الوالى توجد الآن ببلدة فوه . وقد نجحت نجاحاً باهراً فى صناعتها لأنها تنتج مصنوعات جيدة جداً بأيسر كلفة . وقد وضعت فى الأصل تحت مباشرة تاجر من المغاربة واستدعى صناعها من حاضرة تونس المشهورة بصناعة الطرابيش على اختلاف أنواعها . أما

الصوف المستعمل لصنع الطرابيش فيستورد من أراضى (أليكانت) . وبعد شغل الطرابيش وكبسها تصبغ باللون الأحمر القرمزى والعفص والطرطير والشب . وتصنع فاوريقة فوة من الطرابيش يوميا ستين دستجة ، منها ما يصلح للبس عساكر الجيش ومنها ما يباع على الأهلين

٣٠ — فاوريقات السكر

يصنع السكر بكميات عظيمة فى الوجه القبلى ، ولكن الطرق التى يستخرج بمقتضاها لا تزال متأخرة . وفى سنة ١٨١٨ أنشأت الحكومة ببلدة الريرمون من مديرية المنيا فاوريقة للسكر ، على نمط فاوريقات بلاد (الأنتيل) بأمريكا . ثم أسست فاوريقتان من هذا النوع ، إحداهما فى ساقية موسى والأخرى فى الروضة من مديرية المنيا . وبلغ ماصنع فى الريرمون من السكر سنة ١٨٣٣ نحو ١٢٩٩٥ قنطاراً من السكر الخام ، وفى ساقية موسى ٥٢٠٠ قنطار ، وفى الروضة ٣٢٠٠ . وفى هذه الفاوريقات يستقطر شراب الروم بمقادير عظيمة

٣١ — مصانع النيلة

أنشئت حديثاً جملة مصانع للنيلة ، واستدعي إلى مصر بعض الهنود لتعليم المصريين تحضير هذه المادة . وقد خص سدس محصول هذا النبات ليصنع في تلك المصانع التي أنشئت حديثاً بالبلاد الآتية وهي : شبري والشهابية من مديرية قليوب ، العزازية من مديرية الغربية ، ثم في ميت غمر والمنصورة ومنوف وإبيار والأشمونين وبركة السبع والمحلة الكبرى والجيزة وأبو تيج وطهطا وأسيوط وملوى ومنفلوط والفشن

٣٢ — معاصر الزيت

يحتوى الوجه البحرى مائة وعشرين معصرة لاستخراج الزيت من بذرة الكتان . وهناك آلات أخرى لعصره من السمسم (الشيرج) ، وبالقاهرة أربعون معصرة لعصر الزيت من بذور القرطم ، وفى الوجه القبلى يعصر الزيت من بذور الخس . وهذه الزيوت على اختلاف أنواعها داخلة في احتكار الحكومة

٣٣ — معمل البارود وملح البارود (نترات البوتاسا) والمواد الكيميائية

بالقرب من المقياس فى الطرف القبلى من جزيرة الروضة معمل للبارود يديره فرنسى كان سابقاً من مستخدمى معمل بارود (سان شاماس) من مقاطعة (بوش دى رون) والحكومة تأخذ كل حاجاتها منه

وقد أنشأ المسيو (هيم) الكيميائى الفرنسى جملة مصانع مهمة لتحضير المواد الكيميائية اللازمة للفاوريقات ، وعلى الخصوص منها حمض الكبريتيك . وتحت تصرفه الآن جملة مناجم لاستخراج ملح البارود الذى تستخرج هذه المادة منه بالتبخير . والمعامل التى من هذا القبيل ستة أذكرها فيما يلى مقرونة بكمية ما أنتجته فى سنة ١٨٣٣ :

معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطاراً
« البدرشين	١٦٨٩ «
« الاشمونين	١٥٣٣ «
« الفيوم	١٢٧٩ «

معمل أهناس « ١٢٥٠ »
« الطرانة « ٤١٢ »

٣٤ – مسابك الحديد

بيولاق مسبك كبير بلغت النفقة على بنايته وحدها مليوناً ونصف مليون من الفرنكات . وكان انشاؤه بمقتضى تصميم وضعه المهندس (جالويه) الانكليزى مطابقاً للتصميم الذى بنيت بحسبه مسابك الحديد فى لوندرة . وقد تولى هذا المهندس ، بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال من الانكليز ، إدارة الأعمال فيه. وهم يرأسون خمسين عاملا من المصريين ويصبون من الحديد المصهور فى كل يوم مايبلغ وزنه على وجه التقريب خمسين قنطاراً من الحديد. وما يصنع من الأدوات والآلات فى هذ المسبك خاص بالبحرية المصرية والفاوريقات المختلفة التى أنشأها سمو ألوالى.

وفى ترسانة القاهرة مسبك يقوم بحاجات المدفعية والبحريه وفيها أداة طرق المعادن لعمل صفائح النحاس المستعملة فى تجهيز السفن . وهذه الأداة تحركها آلة بخاريه شديدة الضغط قوتها

عشرون حصاناً

٣٥ — معمل الأسلحة القابلة للحمل

أهم معهد للصناعة فى مصر ، بل أحق المعاهد التى من نوعه بالذكر هو ، بلا خلاف ، معمل الأسلحة القابلة للحمل . ولست أظننى قادرا على وصف هـذا المعمل بأحسن مما وصفه به جناب الدوق (دى راجوز) فيما أبداه من الآراء بشـأنه . ورأيه فى مثل هذا الموضوع حكم قاطع ، فقد قال : « مما أعجز عن توفيته حقـه من المدح معمل الأسلحة القابلة للحمل الذى يبدع من هـذه الأسلحة أكثرها استجماعا لضروب الكمال والاتقان . والمعامل من هذا القبيل في مصر ثلاثة ، زرت منها معمل القلعة باحثا مدققا منتقداً فرأيت أن الأسلحة التى تصنع قد جمعت وسائل الأتقان والأحسان المتوافرة فيما تصنعه معاملنا من نوعها . والنوع الذى يصنع فيها منقول عن الطراز الفرنسي. وجميع الاحتياطات الكفيلة بجودة نوع السـلاح تتخذ فى معامل مصر كما تتخذ في معاملنا سواء . وقد اتبعت فيهـا طريقة توزيع العمل والمراقبة المتبعة فى معاملنا ، فأن كل شيء يعمـل بالقطعة

بحسب تعريفة مقررة . وخلاصة القول فأن معمل السلاح الذى رزته يناظر أحسن معامل فرنسا وأرقاها نظاماً وجودة مصنوعات وأكثرها رعاية لأصول الاقتصاد »

٣٦ — آراء وخواطر فى فاوريقات مصر

أثار إنشاء الفاوريقات فى مصر انتقاد الكثيرين . وقد بنوا انتقاداتهم على الأسباب الآتية :

أولا ـ إن الآلات الضرورية للفاوريقات لا يمكن صنعها ولا تركيبها فى القطر المصرى . وأن مصر ستبقى مضطرة دواما إلى الاستمداد بأوروبا فيما يتعلق بالوسائل الأولية لنشر الصنائع فى أرجائها

ثانيا ـ إنه لمن المتعذر جداً تعهد الآلات بالعناية فى قطر لا مناص من إصابتها فيه بالتلف بسبب الحرارة والغبار والرطوبة

ثالثاً ـ إن الأمة المصرية تنقصها جميع المزايا والفضائل التى تحملها على الميل الى الصناعة والانصباب عليها . دع ما جبلت عليه من الدعة والتراخي وقلة البصر بالعواقب وعدم الحرص على

الضبط والدقة . فهي لا تملك إذاً شيئاً من العبقرية التى تتطلبها الصناعة فيمن يتصدون لممارستها

رابعاً — إن الحكومة لم تخلق للتفرغ الى تسيير الصناعة فى الطريق الطبيعى الذى ينبغى أن تسير فيه، وإنما يتوقف اتساع نطاق الصناعة على التنافس فيها بشرط أن يهيمن على إدارة شؤونها إخصائيون يهمهم بالذات رقيها فى مدارج النجاح ، لا موظفون ليس من مصلحتهم الاشتغال بها ولا باعث هناك يستنفزهم الى التنافس فى طلب الربح منها

خامساً — إن من المتعذر على المصريين ، فيما وصلوا اليه الآن من الحضارة ، أن ينتجوا شيئاً يضارع فى الجودة ما تنتجه الشعوب الغربية التى أمعنت البحث فى العلوم الطبيعية والرياضية ولا تزال حتى اليوم تقطع الأشواط البعيدة من طريق نموها

سادسا — إن مصر لن تستطيع استعمال الآلات البخارية ما دامت تستعين بالأجنبي فى استيراد الوقود منه ، ولا تستطيع لحرمانها من الشلالات والأنهار السريعة التيار استخدام الوسائل المائية لتوليد القوة المحركة . يضاف الى ما تقدم أن القوة التى تنتجها الحيوانات لا تكفي فى هذا الزمن لأداء الأعمال

الـكبيرة ولا تليق إلا بالصناعات الصغرى التى ما برحت على الفطرة الأولى

سابعاً — إن مصر مضطرة الى الاستقرار والبقاء فى نطاقها الزراعي بحكم خصوبة أرضها وطبيعة طقسها وأخلاق سكانها

وهـذه الاعتراضات على مكان مكين من الصواب والحق، كما هو ظاهر، ولا غبار عليها، إذا نظرنا اليها من جانب الأطلاق والتعميم . وقد أيدت الحوادث بعض ماورد فيها ، إذ كثيرا ماتبين النقص والعيب فى المصنوعات المصرية مع زيادة كلفتها على مايقابلها من المصنوعات الأوربية ، وأن هذا الفارق لم يمنع سمو الوالى من المضى فى تجاريبه الصناعية مراعاة لشعور الحب الذاتى والنعرة الوطنية

ومع هذا فمما ينبغي الاعتراف به أن نظر محمد على البعيد فى السياسة ، كان القائد الرائد له فى سبيل إقراره على إنشاء المعامل الـكثيرة . فلقـد كانت همته منصرفـة الى تخويل مصر كل ما ينقصها من عناصر الاستقلال وأسبابه ، وأن له من هـذه الجهة الحق فى اتخاذ الوسائل الـكفيلة بخلاصه من ربقة التبعة الصناعية لأوربا

ولا ينبغي أن يتطلع أحـد ، بأسم النواميس الصارمة التى أقرها علم الاقتصاد السياسى ، الى تجريد مصر من بعض الحاصلات الصناعية التي تساعدها ظروف كثيرة على إنتاجها كالغزل والأنسجة القطنية والكتانية والصوفية الخ . فأن وفرة المواد الأوليـة ورخص أجور العمال يجعلان مصر من أكثر البلاد صلوحا لأنتاج هذه المصنوعات . ولا يسع الذين تحملهم بعض البواعث على استحسان أفكار سمو الوالى وابتكاراته من جهة الصناعة إلا أن ينصحوا له بترك إدارة تلك المعامل زمنا ما لذوى الخبرة والأخصاء من الأوروبيين . فأن من البدهى ، إذا كانت إدارة المعامل قد كلفت الكلف الفادحـة ولم تأت من الثمرات بما يعوض بعضما انفق في سبيلها من الأموال الباهظة والكلف الفادحة ، أن يكون السبب فى ذلك عـدم حسبان الحكومة مايتأتى عن إخلائها ، فى غير الأوان المناسب ، سبيل المديرين والمعلمين الأوروبيين الذين عهدت الى كفاءتهم إدارة تلك المصانع وتعليم صناعها، لمجرد انصراف رغبتها الى تعيين غيرهم من الأتراك والمصريين فى وظائفهم ، قبل أن يحصل هؤلاء على الخبرة والدربة الضروريتين فى عملهم. ومع أنهم لايزالون خلوا من

الكفاءة وصفرا من العلوم التي تؤذن لهم بتتبع أثر الصناعة الأوروبية في تقدمها المطرد وانسياقها المستمر الى الأمام

ومما يجيء بالفوائد الجزيلة إجازة أصحاب المشاريع الخاصة باستغلال تلك الصناعات ، شيئا فشيئا ، حتى تصير في معزل عن الحكومة . وفي بعض تلك المعامل ، إذا لم يكن فيها كلها ، من المزايا النافعة والخواص الثمينة مايغرى المضاربين من أصحاب المشاريع بالأقبال على استثمارها . وأعتقد أن الحكومة المصرية باتباعها هذا الاسلوب الجديد وسيرها على هذا الدرب ، لابد واصلة في النهاية إلى خير النتائج وأجداها نفعا . وهي إذا فعلت ذلك ستشجع الصناعة تشجيعا نافعا بوضعها تحت تأثير المصالح الشخصية ، دع أنها بذلك تستدرج الى مصر كثيرا من رؤوس الأموال الأوروبية التي لانظن أنها تجد موطنا لاستثمارها أوفق من البلاد المصرية

٢

الصناعات الصغرى والفنون والمهن

الطوائف الصناعية * الفنون الغذائية : تجهيز القمح — الفرانون — الجزارون — معامل الدجاج — تحضير الفول — الحل — الاستقطار — صحن البن — صنع الفطير * الفنون الخاصة بالكسوة : الغزل — اللبد والحرير وتبييض الغزل والقماش والصبغ والتلميع والتطريز والخيشات — الدباغة — صناع الاحذية والسروج — الخياطون — صناع الكراكى * الفنون الخاصة بالسكنى : البناؤون — الحدادون — نجارو العمارات والنجارون الدقيون — صناع المزاليج من الخشب — الخراطون صناع الفخار — صناع الزجاج — الجوهريون والصياغ — صناع السلاح — الحصرية * صناعات مختلفة : الشبكجية — المزينون — التجار

٣٧ — الطوائف الصناعية

يمتاز نظام الصناعات الصغرى فى مصر بعلامات يفيد القراء الوقوف عليها . فأن كل حرفة يدوية يتألف منها طائفة برأسها شيخ يتولى النظر فى شؤونها . ولمشائخ الطوائف الصناعية نواب أو وكلاء يعرفون بالنقباء، يختارهم إما حكام المدن التى يقيمون بها وإما السلطة العليا . وكلما رأت الحكومة ضرورة الى النظر فى نظام تلك الطوائف أو تحصيل ماتفرضه عليها من الفرض خاطبت فى ذلك مشائخها فيتولون توزيع الفرض المطلوبة مثلا على كبار الصناع التابعين لطائفتهم

وليس تأليف الطوائف قاصراً على الصناعات النافعة ، بل يتناول المهن الدنيئة كمهن الجعيدية والآلاتية والشعراء الذين يروون القصص والحواة والرقاصين والعوالم والمومسات . فلكل طائفة من هذه الطوائف شيخ تخضع لسلطته وينوب عنها لدى الحكومة ويتولى شؤونها ويدافع عنها عند الحاجة

وكان للصوص قبل محمد على رؤساء معترف بهم ، يأخذون على أنفسهم استرجاع الأشياء المسروقة فى مقابل مكافأة تعطى لهم هى التي يسمونها بالحلاوة . وهو مايؤخذ منه أن هذه العادة التى كانت شائعة عند قدماء المصريين قد استمرت خلال القرون الطويلة إلى العهد الحاضر

ولكل صناعة مدة يتدرب العمال خلالها على العمل فيها . فأذا أراد الصبي المتعلم أن يصير معلما أو «أوسطى» ، بعد حذقه الصناعة التى اختارها تحت مباشرة عامل ذى حيثية وصفة ، ذهب الى شيخ الطائفة مصحوباً بمعلمه . ومتى اجتمع به سلم عليه وقال له : « لنقرأ الفاتحة » فيقرأ الشيخ هذه السورة مع الصبي والحاضرين جميعاً ، وبعد القراءة يسأله الشيخ عن سبب زيارته له مع معلمه ، فيقول المعلم إن صبيه قد تعلم الصنعة

وأحكمها وأنه يرغب أن يصير معلماً وأن يمارسها في مصنع خاص به ، فيدنى الشيخ الصبي منه ويحزمه بحزام خاص عنده وينادى به عضواً من أعضاء الطائفة . وعلى أثر هذه الأجرياء يدعو المعلم الجديد شيخه وكبار رجال الطائفة الى وليمة فى بيته اشعاراً بامتنانه منه وشكره له ، فيجيب المدعو هذه الدعوة . أما المعلم الجديد فلا يطالب بدفع شيء ما من المال إلى الشيخ في مقابل تكريسه إياه معلماً على الوجه السابق

وإذا ترك الصبي معلمه ، فأنه لايستطيع الدخول فى معمل ما إلا إذا زار الشيخ ليبسط له الأسباب التى حملته على مغادرة معلمه الأول . فأذا ثبت له من بيانه أن الانفصال حصل لوقوع مشاجرة بين الاثنين تداخل الشيخ في الخلاف . وكثيراً مايؤدى تداخله إلى إزالة الخلاف ووقوع الصلح بين الصبى ومعلمه . أما إذا ثبت له أن السبب مصلحة مالية فلا أسهل من أن يدخل العامل ، بموافقة الشيخ ووساطته ، فى خدمة معلم آخر

وفى القاهرة المهن والصناعات كافة على اختلافها ، لكل مهنة مثل هذا النظام الغريب وأهم المهن ما كان عدد الصناع فيها أعظم منه فى غيرها كمهن الطحانين والخبازين وصناع معاصر

الزيت والخل والنساجين والدباغين والخياطين وصانعي الفخار والحدادين والنجارين والخراطين والطرزية والعقادين . وفيما عدا هذه الصناعات والحرف مهن كثيرة يزاولها جم غفير من الناس ، منها مهنة تجهيز الفول المدمس وتحضير الجير والجبس والطوب والفحم

ومن المحتمل أن تكون الأساليب المتبعة فى مزاولة هذه الصناعات الآن مطابقة لها فى عهد قدماء المصريين ، وأن ماتعطيه من النتائج والثمرات يماثل ما كان يجتنى منها فى أيامهم بفارق بسيط يستدعيه تأثير طول الزمن بتعاقب الأجيال . لاسيما وأن المصريين امتازوا ، على توالى العصور، بالاحترام التام الثابت للعادات والتقاليد القديمة والتمسك بها ، كما عرفوا بالحرمان من عبقرية الاختراع . إلا أنهم يتفوقون فى مقابل ذلك ، بالحذق في التقليد بمعنى أنه إذا أعطى أحدهم نموذجا ما أحكموا تقليده وذهبوا فى إتقانه إلى الغاية القصوى

ويجلس الصناع القرفصاء أو متربعين ، أثناء اشتغالهم ، عملا بتقاليدهم المألوفة . ويؤدون ، وهم في هذا الوضع ، أعمالا يعجز صناعنا عن أدائها إذا تكلفوه . وقد أعجب السياح برشاقتهم

ومهارتهم فى استخدام أرجلهم

ولكي آتى على وصف الحرف الأصلية التى تتالف منها الصناعة الصغرى وصفاً سريعاً ، لا أظننى قادرا على تقسيمها تقسيما يوافق المنطق والصواب كتقسيم العلامة (جومار) لها فى الجزء المخصص لوصف القاهرة من مذكرته الجليلة المدرجة فى المجلد الثامن عشر من كتاب « تخطيط مصر » ، وفيه بيان ضاف للصناعة والمهن الميكانيكية . فاقتداء به سنقسم الفنون والمهن المصرية الصغرى إلى أربع رتب : الأولى للمهن التى يرتبط بها غذاء الأنسان ، والثانية للمهن التى يتعلق بها لباسه ، والثالثة والرابعة للمهن الخاصة بالمساكن وتأثيثها وزخرفتها ، وبالجملة كل مايتعلق باحتياجاته البيتية

٣٨ — المهن الغذائية : تحضير القمح . والخبازون

يستعمل المصريون لطحن القمح طاحونا بسيطا مؤلفا من حجرين تحركهما عدة يعلق بها عادة حصان أو بغل

وهم يخبزون الخبز فى أفران بسيطة ، مرتين كل يوم . والخباز يدخل الخبز الذى يرد اليه في الفرن لانضاجه ثم يخرجه

منه بعد أن يلبث فيه بضع الدقائق الكافية لنضجه

٣٩ - الجزارون

الجزارون قليلو العدد فى القطر المصرى تبعا لقلة استنفاد اللحوم فيه بسبب عدم إقبال طبقة الشعب عليها

٤٠ — معامل الدجاج

لمعامل الدجاج أى أفرانه شهرة متصلة من قديم الزمان ويستطيع المصريون بواسطة هذه المعامل تفريخ الدجاج بمقادير عظيمة ، ويستعيضون بتأثير حرارتها عن التفريخ الطبيعى . ولا خلاف أن الذين ابتكروا هذه الطريقة هم قدماء المصريين ، دعاهم الى ذلك أن الدجاج المصرى لا يميل ، كما جاء فى المجلد الأول من مصنفنا هذا ، الى احتضان البيض

والأمكنة التى يعالج المصريون فيها عملية التفريخ المتقدمة تسمى « معامل الفروج » . ويحتوى الواحد منها عادة من أربعة الى ثلاثين فرنا مصفوفة على خطين متوازيين ، يفصلهما عن بعضهما ممر ضيق . والمعمل عبارة عن خلية صغيرة ارتفاعها

ثلاثة أمتار وطولها كذلك وعرضها متران ونصف متر . وتنقسم في منتصف الارتفاع الى طبقتين بواسطة سقيفة من الآجر ذات فتحة تسمح بمرور الأنسان من بيت إلى بيت أى من طبقة إلى طبقة . ولكل من البيتين باب ينفتح على الدهليز أى الممر الضيق المتوسط بين الصفين ، وأبواب مثله فى الحواجز الجانبية التى بين كل خلية والخلية التالية لها ، بحيث تتصل جميع الخليات الموجودة على صف واحد بعضها ببعض . وتخصص البيوت السفلى لوضع البيض المراد تفريخ الدجاج منه والعليا لوضع النار وهى ذات شكل خاص يلائم الغرض المطلوب منها

والعادة أن يوضع فى كل فرن من الأفران برسم التفريخ ، من ثلاثة آلاف بيضة الي أربعة تبسط على سطح البيت الأسفل من المعمل فوق حصيرة ، طبقات يفصلها بعضها عن بعض شيء من الأسطبة أو التبن . وبعد ترتيب البيض على هذا المثال ، تضرم النار في ثلث عدد الأفران تقريباً بحيث تكاد تكون المسافات بينها متساوية . وبعد أربعة أيام أو خمسة تضرم النار فى أفران غير الأولى ، وعقب مضي أيام مثلها ، تضرم فى الأفران الباقية . وكلما أوقدت الأفران

اللاحقة عنى بأطفاء الأفران السابقة . وتجدد النار ثلاث مرات
أو أربعا فى كل يوم وتذكى قبيل الليل لدفع طراوة الجو فيه .
ويكلف أحد العمال بغشيان البيوت السفلى جملة مرار فى اليوم
لتقليب البيض وإبعاده عن الأماكن التى تزيد درجة الحرارة
فيها عليها فى الأخرى . وفى اليوم الخامس يتفقده كله على ضوء
المصباح فيعزل ما لا يكون منه قد أخصبه الديكة

والحرارة الضرورية لنجاح عملية التفريخ هي ٣٢ من
ميزان (ريومور) . والمصريون المزاولون لهذه الصناعة يجهلون
موازين الحرارة (الترمومتر) ، ولكن العادة أكسبتهم شعوراً
لا يخطيء فى تقدير درجة الحرارة الضرورية . وهذا الشعور سر
صناعتهم وقوامها . وهم لا يكسبونه إلا بعد المران الطويل
المتواصل على العمل سنوات عديدة . وإذ كانوا لا يطلعون أحداً
على سر هـذه الصناعة إلا إذا كان من أبنائهم أو أقاربهم
فلا عجب إذا تأصل هذا الشعور فيهم وصار فطرة يتوارثها
الأبناء عن الآباء

ويتم تفريخ البيض بعد عشرين يوما الى خمسة وعشرين من
وضعه فى الأفران ويبلغ متوسط البيض الذى لا يفرخ الخمس

تقريباً . وبمجرد فتح المعمل ، فى فبراير أو مارس ، يتسابق أهل القرية ومعهم البيض الذى يرومون تفريخه . والمألوف أن يرد صاحب المعمل اليهم منه ٥٠ فرخا عن كل مائة بيضة وما يتبقى هو ربحه . وبعد انتهاء مدة الاحتضان في معمل واحد يشاهد أن اليض الذى فيه تقف عن بضع عشرات الألوف من الكتاكيت . وقد قدر عدد الكتاكيت التى تخرج سنويا من معامل الفروج فى مصر ، وعددها مائتا معمل ، بـ ٢٤٠٠٠٠٠٠ فرخ أى كتكوت

٤١ - تحضير الفول

يرد الفول على القاهرة بمقادير جسيمة ويباع في طرقاتها بعد تجهيزه تجهيزا ينحصر فى نقعه يومين فى الماء حتى ينبت ثم يطبخ على طريقة معلومة عند الأهلين

٤٢ - الخل

بالقطر المصرى عدد عظيم من المعامل المخصصة لعمل الخل . والخل المتخذ من البلح أكثر شيوعا من غيره . ويستخرج

الخل أيضا من الزبيب

٤٣ — الاستقطار

بالقاهرة جم غفير من الناس يمارسون مهنة الاستقطار ، فهم يستقطرون العرقى من البلح والزبيب ليشربه المسيحيون . ومما يستقطر فيها أيضا ماء الورد

٤٤ — البن

يحمص البن ثم يصحن فى هاون من (الجرانيت) محفور على شكل مخروط مقلوب ، ويقوم بصحنه ثلاثة من الدقاقين أو اثنان بمدقات يحملونها بأيديهم ، ويدق كل منهم دقة بحيث تتتابع الدقات . وزنة المدق تختلف من خمسة كيلوجرامات الى ستة . ويقرن الدقاقون حركاتهم أثناء رفع المدق وإنزاله بنشيد مقفى بينما يدلى طفل صغير يده الى قاع الهاون ليحرك البن ، مهتديا فى ذلك بقوافى النشيد ، فهو فى غنى عن متابعة حركات الدقاقين بنظره لكى يقي يده خطر سقوط المدقات عليها وكثيرون من الأوروبيين الذين يشهدون هذه العملية

يخشون على يد الطفل الصغير أن تحطمها المدقات ، إذا لم يفطن اتقائها بنظره . ولكن الشعور بموازين الشعر خصية راسخة فيهم ينطبعون عليها منذ نعومة الأظفار ، بحيث لا يخشى وقوعهم فى الخطأ أثناء عملية صحن البن

ولعل أصل هذه الخصية أن المعلم فى مدارس الأطفال يدرب تلاميذه على حركة تمرينية يبدو ، أول وهلة ، أنها تستدعى الازدراء والسخرية ولكنها تستر تحت مظهر الغرابة فائدة مؤكدة جليلة النفع فى جملة من الحرف الصناعية التى يزاولها المصريون . وبيان ذلك التمرين أن المعلم يضرب بمقرعته المنضدة التى أمامه ، ثم يطلب من الغلام أن يضع يده على النقطة التى لستها المقرعة وأن يسحبها على الفور ويكرر هذه العملية مسرعا شيئا فشيئا فيتابعها الغلام فى كل حركة من حركاتها بوضع يده على تلك النقطة . وقد يعتاد هذه المتابعة حتى يبلغ الأمر به الى القدرة على اجتناب الضربات وتوقيها

٤٥ — الفطاطرية

قلنا إن المصريين شديدو الشره إلى الفطير . وللفطاطرية

عدد عظيم من الحوانيت بحى السكرية فى القاهرة . والشرهون الى نظيرهم من أفراد الطبقة الدنيا يقصدون الى هذه الحوانيت لتناوله فيها

٤٦ — الفنون المتعلقة بالملابس : الغزل

قبل أن ينشىء محمد على فاوريقات الغزل الكبرى ، كان القطن والكتان والصوف يغزله الرجال والنساء بالمغازل اليدوية ثم يلفونه بطريقة بسيطة حول « الطيار » . ومفهوم أن هذه الصناعة القاصرة على الاحتياجات البيتية لم يبق لها اليوم شأن يذكر

وقبل أن تحتكر المواد الأولية ذات الأهمية برسم المعامل الكبرى ، كان المصريون ينسجون غزلهم بأجهزة بسيطة جدا ويتخذون منه الأقمشة الكتانية والقطنية والصوفية

٤٧ — النسج والحرير وتبييض الخيط والقماش والصبغ والتلميع والتطريز

كان ينسج بمصر أيضا بعض الأقمشة من الحرير كما كان عدد وافر من الصناع يشتغلون بالطرابيش اللبدية أو اللبد ٠

وكانت صباغة الأقمشة صناعة شائعة ، إلا أنها كانت غير متقنة . وكان بالقاهرة معامل عديدة لتلميع الأقمشة وتبييضها

أما المطرزون الذين كان لهم عدد عظيم من المحال يزاولون فيها هذه الصناعة فكانوا يمتازون بدقة عملهم وأنيق رسومهم واتساق نقوشهم . وكان أبرعهم فى صناعة التطريز أولئك الذين نوا يطرزون أنواع الجلود بأسلاك الذهب والفضة

٤٨ — العقادون

العقادون المصريون بارعون جدا في صناعتهم . وهم يصنعون « القيطان » (الكردون) من القطن والحرير وأسلاك الذهب والفضة كما يصنعون أيضا « الشراريب » من الحرير وأسلاك الفضة والذهب أيضا

٤٩ — الدباغة

الدباغة بالقطر المصرى صناعة واسعة النطاق . والمصريون يتبعون فيها أساليب خاصة بهم يستعينون بها على دبغ جلود البقرات والجواميس والأغنام والماعز الخ . وهم بارعون جدا

فى تحضير الجلد السختيان ، الذى هو جلد الماعز مصبوغا باللون الأحمر أو الأصفر أو غيرهما من الألوان بعد العناية بدبغه

٥٠ — الصرماتية والسروجية

يصنع بالقاهرة كل مايلزم للبلاد من الأحذية (المزد والمركوب والبابوج) . وفى حى البرادعية بها جم غفير من الصناع يصنعون سروج الخيل وبرادع البغال والحمير الخ . أما اللبب وهو مايشد من سيور السرج في صدر الدابة ليمنع استئخار الرحل ، والزمام أى المقود ، والقيد ، فتصنع فى حى السكرية . وهذه المصنوعات تزخرف غالبا بنقوش جميلة تشتغل باليد على الجلد

٥١ — الخياطون

الخياطون المصريون كثيرو العدد بالقاهرة . ويقومون بخياطة ثياب الأهالى من أبناء البلد ، وقد يتصدون أحيانا الى خياطة ملابس السيدات . وبها أيضا خياطون من اليونان والأرمن يهيئون ملابس أفراد الطبقة العليا ، ولا سيما العثمانلية منهم . وهم بارعون فى صناعتهم ولهم دراية تامة فى تكليف الثياب

بالقيطان الحريرى أو الذهبي ينمقون به أشكالا تطريزية جميلة ورسوما في غاية الحسن . ومعتقدى أن قليلا من الخياطين بأوروبا يتفوقون عليهم في هذا النوع من أعمال الخياطة

٥٢ – الفراؤون

عامة الفرائين بمصر من اليونان والأرمن ، وعددهم قليل جداً ، لأنه لا يلبس الفراء في الأمة المصرية سوى أفراد طبقتى العظماء والعلما

٥٣ – الفنون المتعلقة بالمبانى : البناؤون

المواد المستعملة عادة لتشييد المنازل هى : الآجر (الطوب الأحمر) والطوب النيء وأحيانا أحجار النحت والمصيص والجير

أما الطوب الذى مادته الأولى طمى النيل مخلوطا ، على نسبة قليلة أو كثيرة ، بالطين الأبليز وأحيانا بالرمل فيجفف في الشمس أو يحرق فى أفران خاصة به

أما أحجار النحت فتأتى من مقالع جبل المقطم أو من أطلال المبانى القديمة

ويحرق البناؤون الحجر الخاص بعمل الجير بطريقة تقرب من الطريقة المتبعة فى أوروبا لهـذا الغرض . ويطفئونه بكيفية مماثلة لكيفية إطفائه عندنا . غير أن النقص يظهر باديا فى كيفية تحضير المونة ، فأنهم ، بدلا من أن يخلطوها بالرمل الموجود في متناول أيديهم من أجود الأصناف وأصلحها للبناء ، يخلطونه بالتراب المضاف اليه رماد الأفران

أما المصيص فيؤتى به من حلوان وغيرها ويقوم على استعماله عمال مخصوصون ، لطلاء داخل المنازل به . وقد ذكرنا قبلا أن الجبس الأبيض غير موجود عندهم وأنهم يستعملون الجير أحيانا فيما نستعمل نحن المصيص فيه

والمبانى التى يشيدها المصريون المحدثون لا تتوافر فيها مزايا المتانة والاتقان التى امتازت بها الأبنية الفخمة والآثار الضخمة فى عهد أجدادهم . فأنهم يتخذون لأبنيتهم المواد الرديئة النوع والدبش الصغير ، ويدخلون فى أسماك الجدران عوارض من الخشب لتمكينها ، مع أنها تمنع أجزاء الجدار من التلاحم والتراكن وتأليف كتلة واحدة لا تشوبها شائبة

وآلات البنائين المصريين وأدواتهم ناقصة كثيرة العيوب

وهى تنحصر فى مملسة صغيرة (محارة) من الحديد ضيقة . أما المسطرة والمثلث وخيط الرصاص والمقاييس فلا تستعمل إلا في أحوال نادرة جداً . وهذا هو السر فى أن جدرانهم لا تطابق فى الغالب الاتجاه العمودى ، وتبقى لهذا السبب معرضة لخطر السقوط بأدنى طارىء . ومن النادر جداً أن تكون الابواب والنوافذ مستطيلة الشكل أو غير منحرفة الجنبين . ومما ينقصهم فى صناعة البناء أيضاً الضبط ورعاية المضاهاة (السيمتريا) وبعد هذا وذاك فأن المبانى تقام غالبا من غير أن يوضع لها تصميم سابق أو يخطط لها تخطيط . بل يبلغ من الأمر أنهم يضيفون غرفة الى غرفة أخرى من غير تدبر ولا حساب . ولا يفكرون فيما هنالك من ضرورة إيصال الضوء الى الغرف المبنية والتوصيل بينها بالأبواب إلا بعد انتهاء البناء

٥٤ — محاجر الأحجار

المنازل المبنية بحجر النحت قليلة العدد ، لأن المسلمين لا يرمون الى بقاء المبانى فكأنما هم يبنون للحال لا للمستقبل ، ولا يهتمون أقل اهتمام بنماذج الهندسة العربية الجميلة التى هى فى

مطرح أنظارهم أثناء تنقلهم جيئة وذهوبا فى كل مكان . وهـذا هو علة عدم انتشار فن نحت الأحجار وتنسيقها في مصر وارتقائه.
والآلات التى يتخذها النحاتون المصريون غليظة جداً ، وإذ كانوا لا يعملون بها إلا فى صنوف الأحجار اللينة فأنهم لا يكادون يشعرون بمشقة ما فى مزاولة عملهم . ومع هذا فلا يزال يوجد نحاتون بارعون فى صناعة نحت الصوان أى الجرانيت ومجيدون فى تكييفه بالصور والرسوم المطلوبة

ويوجد ، غير نحاتى الأحجار ، فريق من الصناع متفرغين لقطع البلاط ووضعه فى أماكنه ويسمون بالمبلطين . أما سقوف المنازل فيعهد عملها الى رجال لا يمارسون غير هـذه الصناعة . وطريقتهم فى ذلك أنهم يربطون بعروق السقف الخشبية البوص منضما بعضه الى بعض ثم يطرحون عليه حصيرا ينشرون فوقه طبقة من المونة هي التى تعلوها غالبا طبقة البلاط

٥٥ — الحدادون

آلات الحدادين وأدواتهم غليظة جداً وأتانين النار عندهم تذكي نارها المنافيخ المزدوجة . والسواد الأعظم من الحدادين

بالقاهرة يسكنون الحي المعروف بالنحاسين

٥٦ — النجارون

أجود الأخشاب الشائعة الاستعمال فى النجارة هي أخشاب اللبخ والسنط والنبق والجميز. وفيما خلفه لنا قدماء المصريين من المصنوعات الخشبية الدلالة الواضحة على أنهم لم يستعملوا من الأخشاب إلا ماذكرنا. أما الآن فيستورد المصريون ألواح الخشب بمقادير وافرة من (تريسته) و(البندقية) و (ليفورنه) و (الشام) و (كرمانيا).

والنجارون المصريون فى غاية والحذق والبراعة ولا يتخذون المناضد (البنوكة) للاشتغال عليها، لأنهم يشتغلون قاعدين أو جاثين على ركبهم. والفأرة التي يستعملونها شبيهة بالمستعملة عندنا وهكذا الشأن فيما يتعلق بالمنشار. والأداة الاصلية التى يستعملونها في جميع الأعمال كالبرى والشق والدق والخلع هى القدوم.

وفن النجارة بمصر أقل تقدما فيها من جميع الفنون، إذ من النادر أن ترى المصريين يضمون أجزاء الخشب بعضها الى

بعض عاشقا ومعشوقا . بل يبرونها من الأطراف فى زوايا حادة ثم يثبتونها بعضها ببعض بالمسامير . وقلما يستعملون الخوابير لهذا الغرض ، وهذا هو السبب الذى يعرض إشغالهم الى سرعة التلف ويجعلها قبيحة الصناعة . على أنه قد كان من نتائج انتشار الترسانات والمصانع التى أنشأها محمد على إتقان هذا الفن اليدوى بتخريج عمال على يد بعض الأسطوات الأوروبيين ، أحرزوا شيئا من الحذق والبراعة في صناعتهم

٥٧ — صانعو الضبب أو المزاليج

صانعو الضبب أى المزاليج فريق كبير من النجارين . والسبب فى ذلك أن أغلب الأبواب لاتغلق إلا بمزاليج من الخشب . وكل مزلاج يتألف من ثلاث قطع

٥٨ — الخراطون

الخراطون يقطنون بالقاهرة حى الشعراوى . وهم كثيرو العدد جداً ، لأنه ما من قطعة من قطع الأخشاب التى تتألف منها النوافذ والمشربيات وغيرهما إلا وهي مخروطة بيدهم .

والخراطون أحذق صناع القطر المصرى بلا ريب ، وصناعتهم من أكثر صناعاتها تقدما وارتقاء . وآلات الخرط عندهم ليست مثبتة ، كما فى أوروبا على البنوكة فتضطرهم الى الاشتغال واقفين . بل أنها عبارة عن جهاز واطىء يشتغلون أمامه جالسين وهو مؤلف من عروستين إحداها ثابتة والأخرى متحركة فالمتحركة تبتعد أو تقترب لتضغط الأشياء المراد خرطها بين نقطتين . وبالرغم من أن آلات الخراطين بسيطة وناقصة ، إلا أن الخراطين بلغوا من الحذق والرشاقة وخفة اليد وضبط حركاتها فى صناعتهم مبلغا يتعذر عليهم معه القيام بأدق الأعمال التى تمهد الى كفاءتهم

وهناك عمال آخرون يحذقون مهنة الخراطة الى حد أنهم يخرطون أشياء كثيرة غير الخشب كالكهرمان والعاج لعمل أنابيب الشبكات منها

٥٩ — صناعة الفخار

صناعة الفخار معروفة فى القطر المصرى منذ قديم الزمان وتصنع بالقاهرة والصعيد أصناف مختلفة من الأوانى

ولقد سبق لنا الكلام على أهم المصنوعات الفخارية وأشهرها كالقلال التى تصنع فى جهات عديدة من القطر المصرى وخصوصا فى قنا . ولا شك أن الأسباب التى تجعل الناس يفضلون القلال المصنوعة في قنا على غيرها ، نعومة الطين الذى تصنع به وجمال الأشكال التى تعطى لها أثناء صنعها والروائح العطرية التى يخلطها الصناع بها والخصية التى توافرت فيها من تبريدها الماء وجعلها إياه حلو المذاق سائغا للشاربين

ويصنع فى تلك المدينة أيضا نوع من الجرار (الأزيار) تصدر منه مقادير وافرة الى القاهرة . ونقلها الى هذه المدينة يحصل بطريقة غريبة ، فأنهم ينكسون تلك الأزيار في الماء ويربطونها بعضها الى بعض بحيث يتألف منها مايشبه طوفاً كبيراً يدفعه تيار النيل الى الجهة المراد تصديرها اليها

وفى أغلب مدائن القطر المصرى العليا معامل للفخار تختلف عن بعضها فى جودة الصناعة أو رداءتها . ففى ملوى ومنفلوط تصنع أوعية العجن الجسيمة (المواجير) والجرار الكبيرة (الدنان) التى تستعمل فى المصانع والمدابغ

وفى بلد (البلاص) يصنعون البلاليص . وصانعوها يجيدون

حرقها بحيث تكون غير قابلة تقريبا لنفوذ الماء من مسامها

ويستعمل سكان الأرياف البلاليص لادخار مايلزمهم فى بيوتهم من ماء النيل فترى جماعات النساء رائحات غاديات بين منازلهن والنهر يحملن البلاليص على رؤوسهن فى وضع يلفت النظار ويقع الموقع الحسن من القلب

وأنواع الفخار العادية تصنع فى الوجه القبلى . وفى القاهرة وبعض قرى الصعيد مصانع لعمل أحجار الشبكات ، وفى هذه العاصمة معامل لصناعة الفناجين مدهونة بالطلاء اللامع الملون

ومفهوم أن المصنوعات المصرية من الفخار لاتطلى عادة بهذا الطلاء ولذلك تحفظ لونها الطبيعي. فالقلال مثلا ترى فى بعض الأحيان رمادية اللون ، ولكن القسم الأكبر منها لونه أحمر إلا أن الفناجين التى تصنع بالقاهرة على المثال المتقدم غليظة الشكل

أما التى يستعملها الأغنياء فواردة ، كثيرها من أصناف الفخار الدقيقة الصنع ، من البلاد الألمانية والإيطالية

٦٠ — الزجاج

صناعة الزجاج فى مصر ناقصة وغير متقنة . ومصنوعاته من القنانى وغيرها رديئة الصنف واطئة النوع . ولقد أنشأ محمد على بالاسكندرية مصنعا للزجاج تشبه مصنوعاته مثيلها فى أروبا . وفيه صنعت جميع ألواح الزجاج التى استعملت فى السنوات الأخيرة بأنحاء القطر المصرى كافة

ولقد أنشىء حديثاً معمل آخر للزجاج بالقرب من ضفة المحمودية على مسافة أربعة فراسخ من الأسكندرية

ولما كان الوقود من الوسائل الحيوية التى ينبغى الاحتياط لها حرصاً على حياة المصانع التى أنشئت بالقطر المصرى وبقائها ، فقد اتجهت النيات السامية الى غرس غابة كبيرة من شجر الصفصاف وغيره من أصناف الأشجار الأخرى التى تصلح أرض مصر لنموها بالقرب من ذلك المعمل

٦١ — الجوهرية والصياغ

للصياغ بالقاهرة حي خاص بهم والبارعون منهم فى هذه

الصناعة مقرهم خان أبى طاقية ، وهم جميعا من اليهود والاقباط ولم تبلغ الصياغة بمصر من الاتقـان المبلغ الذى أدى اليـه عندنا التفنن فى البهرج والبذخ . أما الجوهرية الذين فى القاهرة فأكثرهم عدداً الارمن والمنتسبون الى الاستانة . ولهم معرفة عجيبة بتركيب الاحجار الكريمة التى يكلفهم بتركيبها العظماء والوجهاء من الاتراك . وفى حى مرجوش يشتغل الصـناع بالمرجان والـكهرمان يتخذون منهما العقود والمسابح الخ .

٦٢ — صانعو السلاح

مقر صانعى السلاح بالقاهرة الحي المعروف بسوق السلاح وهم اخصائيون فى صناعتهم فلا يشتغل بعضهم إلا بالأسلحة النارية ولا البعض الآخر الا بالأسلحة البيضاء . وهم لا يظهرون فى ممارستهم هذه الصناعة شيئاً من الخصائص الجديرة بالذكر ، فأن أجمل الاسلحة التى يقتنيها الأغنياء مستوردة من أوروبا . وإذا كان لصانعي السـلاح بالقاهرة عمل فيها فأنما هو الترميم والأصلاح ليس إلا

٦٣ — صناعة الحصير

استعمال الحصير فى مصر بالغ من الانتشار حداً يسهل معه إدراك جسامة عدد العمال الذين يزاولون هذه الصناعة . وتصنع الحصر بالقاهرة والفيوم ، وأحسنها ما يصنع من أعشاب السمار وأجود السمار ما يؤخذ من الجهات القريبة من بحيرات النطرون وتصبغ هذه الأعشاب بالألوان المختلفة وتجدل بحيث تكون أشكالا ظريفة قائمة فى الغالب على الشكل المعين

٦٤ — الصناعات المختلفة · الشبكجية

لا جرم أن يكون صانعو أنابيب الشبكات كثيرى العدد فى قطر اعتاد أهله جميعاً بوجه التقريب تدخين التبغ . وتتخذ هذه الأنابيب عادة إما من البوص أو خشب الكراز أو الياسمين أو الزنبق . ويثقب هذا الخشب بمثقب يحركه وتر قوس تمسك به يد الصانع

٦٥ ـ الحلاقون

يمتـاز الحلاقون المصريون بالحذق والرشـاقة فى مهنتهم والطريقة التى يتوخونها فى الحلاقة غريبة فى ذاتها وجديرة بأن يطلع القراء عليها . ولست بمحدثهم في شأنها بشيء من عندياتى وإنما أقتصر فى تكوين فكرة لهم عنها بأيراد ماذكره الدكتور (برابر) فى مؤلفـه النفيس الموسوم « تسـع سنوات فى القسطنطينية » عن تلك الطريقة . فأن أساليب الحلاقين المصريين مطابقة لأساليب زملائهم فى الأستانة . فقد قال ذلك المصنف ما ياتى :

« لا يكاد الانسان يستوى على العرش الخشبي المنصوب بداخل حانوت الحلاق حتى يقدم اليه المعلم صاحب الحانوت شبكا ثم يأخذ بتحضير فنجان من القهوة برسمه ، ولا تنقضى دقيقتان إلا وهو يقدم له هذا الفنجان تتصاعد من سطحه أبخرة القهوة

« ولما كان أهل القسـطنطينية لا يكترث أحدهم بالسرعة ولا يهمه إنجاز الأعمال فى مواعيـدها ، فقـد اعتاد الراغب فى

الحلاقة الانتظار بسكون زمناً طويلا ريثما ينتهي المعلم الحلاق أو القلفة الأول (الصبي الأول) من حلاقة زبون سابق عليه. ومتى جاءت نوبته على هذا المثال، فقد وجب عليه أن يحل محل هـذا الزبون الراحل، وعندئذ يجد فوق رأسه ساقاً معدنية مثبتة من طرفها فى الحائط أو السقف وحاملة فى الطرف الآخر المقوس آنية معـدن بشكل القمع مثقوبة ثقباً ضيقاً. فبينما يحمل بيديه تحت ذقنه صحناً للحية من المعدن مستديراً، ينسكب من الآنية المعلقة على رأسه سلسول ماء فاتر يستعمله الحلاق لغسل رأسه ووجهه ورقبته بالصابون. فاذا كان بالرأس شعر غسله واستغرق زمناً طويلا فى حكه متخذا أظافره كأسنان المشط ثم يجفف رطوبة الماء بمنديل ويلف رأسه بمنديل آخر

« وبعد ذلك يتفرغ للحلاقة فيرطب اللحية بالماء ترطيباً جيداً ويتناول موسى حقيرة الشكل مصنوعة النصل فى ألمانيا لا يتجاوز ثمن الدستجة الواحدة منها فرنكين. غير أن الحلاقين يستعينون بحجر المسن وقطعة من الجلد على شحذ تلك الأسلحة بحيث تصير أتم ما يكون صلوحاً للاستعمال. ويرتكز الحلاق بقدمه اليسرى على العرش الخشبي، ثم يسند رأس الزبون الى

ركبته بعد تغطيته إياها بمنديل ويشرع في ازالة الشعر مبتدئاً من أعلى الخد اليسرى الى أسفلها ثم ينتقل الى الخد اليمنى مكرراً هذه العملية ، فمتى انتهى منها وقف تجاهه وأنشأ يسوى شعر اللحية والشاربين ويزيل مايعثر عليه فى الوجه من الشعرات الشاذة

« وإذا أحببت تزجيج الحاجبين فأنه يسويهما بالحلاقة على على شكل يجعلهما بمقتضاه تامى التقوس . ولما كان أهل البلد يعتبرون الشعر من القذر ، فأنه يعمد بمقراضيه الى فتحتى الأنف فيقص بهما مافيهما من الشعر ، ثم الأذنين فيضع فيهما ماء فاتراً ويكرر ذلك لإلانة مايكون بهما من الصملاخ ، فأذا لان استخرجه بأداة صغيرة عنده . ويقص بعد ذلك مايجده من الشعر فى مدخل الصماخ . أما إذا رأى سنطة صغيرة بالوجه عمد إلى إزالتها بالموسى ، غير أنه لا يقدم على هذه العملية عادة إلا بعد الاستئذان . وكل هذه العمليات تتم بالبطء والتوانى ، لأن الأحاديث والمحاورات تتخللها حتما ، على أن تمامها لايكون بمواصلة العمل ، بل على دفعات متكررة . إذ قد يحدث أن يدخل زبون ، أثناء تفرغه لشأن الزبون الأول ، فسرعان ما يتركه بلا احتشام ولا كلفة كى يقدم إلى القادم الجديد شبك

التبغ ويجهز له فنجان القهوة . وفي الأثناء يتناول الزبون الأول الذى لم يتم من حلاقته سوى النصف أو أكثر أو أقل ، الشبك الذى كان قد تخلى عنه لأمد ، ليستأنف التدخين به ريثما يعود الحلاق اليه بعد فراغه من المهمة التى لأجلها تركه

« وعقب الانتهاء من الحلاقة يقدم القلفة الصغير (الصبي الصغير) إلى الزبون مرآة لينظر فيها نفسه ويمعن النظر فى حلاقته ليحكم بما إذا جاءت وفق المراد . فأذا لم يكن فيها مايوجب الانتقاد ، اندرع الحلاق يعرك بين أصابعه خصلة الشعر التى اعتاد الشرقيون تركها بأعلى جمجمتهم ويمشطها بالمشقاة ثم يغطيها بالطربوش أو العمة أو الكابك . وهذه العملية تستغرق عادة من عشر دقائق إلى نصف ساعة »

٦٩ — السقاؤون

لما كان ماء الآبار فى القاهرة آسناً غير صالح للشرب فأن السقائين ، وعددهم فيها جسيم جداً ، يحملون ماء النيل إلى السكان . ومنهم من ينقلونه فى قرب كبيرة من الجلد على الجمال أو الحمير أو على ظهورهم فى قرب صغيرة . وينادى السقاؤون على

الماء بقولهم « العوض على الله . . عليه العوض » . ونادراً ما يتقاضون أكثر من عشرة سنتيمات (أربعة ملليمات) ثمناً لقربة ماء واحدة ينقلها من مسافه كيلومتر ونصف

ويبيع بعض السقائين الماء على السابلة، وهناك فريق غيرهم كثير العدد يبيعونهم فى الطريق أشربة مختلفة من نوع ما ذكرناه أثناء الكلام على أصناف المشروبات المرطبة في أول هذا المجلد

وفى مصر مهن أخرى خاصة بها غير التى تقدم ذكرها ، منها مهنة المكارية أى الحمارين ومهنة الجمالين ومهنة النوتية فى النيل . وسأتكلم على هذه المهن بالتفصيل الوافى فى أحد الفصول الآتية

٦٧ — التجار

سبق لنا الكلام على شكل حوانيت التجارة بالقاهرة وسمينا الأحياء المختلفة التى يصح اعتبارها مركزاً للمتاجر الكبرى فيها . ونقول الآن إن أصحاب الحرفة الواحدة يجتمعون عادة فى ناحية واحدة من العاصمة المصرية . ولهذا تري أن

شوارع برمتها أو أقساماً من هذه الشوارع مخصصة لصنف واحد من التجارة

والتجار المصريون يجلسون متربعين فى حوانيتهم ، كأن على رؤوسهم الطير دعة وسكوناً . وفى كل حانوت ديوان أو «دكة» تحف به على ضيقه ،هي التى يستوون عليها بذلك الوصف . وغنى عن البيان أن المقارنة بينهم والتجار بأروبا ، من حيث اليقظة والحركة والتوافر على العمل ، مستحيلة إذ شتان بين أولئك فى تكاسلهم وتواكلهم وجهلهم بأساليب استمالة الناس إلى الشراء وتركهم زمام رواج تجارتهم بيد القضاء والقدر وقلة تحفزهم لاقتناص قنيصة الربح ، وهؤلاء فى نشاطهم ولطف أساليبهم فى اجتذاب الناس الى اشتراء بضائعهم

وبالقاهرة تجار من المسيحيين واليهود والعرب والترك . والفريق الأول من هؤلاء التجار يطالبون دائماً بالأسعار العالية أثماناً لبضائعهم ، ولكنهم يضطرون بعد المساومة والمماكسة إلى الرضى بالثمن المعتدل الذى تساويه بضاعتهم . أما الأتراك فيحددون للمشترى الثمن الذى يريدون أن يبيعوا به بضاعتهم ويتمسكون به ولا يتنازلون عنه مهما بلغ من مماكسة المشترى.

ومن عاداتهم أنهم لايبغون التمسيك بالمشترى ولا يبذلون جهداً ما في سبيل الاحتفاظ به ، لاعتقادهم أن الأرزاق مقدرة وأنهم لايصيبون منها إلا ماقسمه الله لهم

٤

التجارة

الاهمية التجارية لمصر — الاصناف التى تتألف منها التجارة المصرية — الواردات والصادرات — تجارة القوافل — الحال التجارية الاوربية — خواطر وأفكار

٦٨ — الاهمية التجارية لمصر

ليس بين المواقع الجغرافية فى المعمور مايشبه موقع مصر فى صلوحه للتجارة إلا القليل . وإذا اكتفينا فى النظر إلى هذا الامتياز بالاعتبارات التجارية فقط ، فأننا لانرى قطراً كمصر جديراً بأن تكون له حكومة خاضعة ذى إدارة مستقلة . فأن مصر تتلقى بواسطة الأسكندرية الواقعة على البحر الأبيض المتوسط جميع أصناف التجارة الواردة من الشمال والغرب ، كما تقبض بيدها على مفتاح تجارة القسم الشرقى من أفريقية . وفوق هذا وذاك فأنها الملتقى الطبيعي لشطر كبير جداً من القارة

الأفريقية وصاحبة الشأن في التماس المسالك الى المحيط الهندى بواسطة البحر الأحمر الممتد على سواحلها . وهى التى ينبغى أن يؤول اليها يوماً الامتياز على البلدان الأخرى بنقل البضائع الجسيمة المصدرة برسم أوربا من جنوب آسيا ، بعد أن كان مصدروها يلتمسون في إيصالها إليها أبعد مايكون من الطرقات، ألا وهو طريق رأس الرجاء الصالح

ولا يسع أحداً أن يتصدى للكلام على مصر التجارية من غير أن ينصرف خاطره إلى المستقبل ، وأنه سيجعل لها شأناً رفيعاً باعتبار كونها الطريق الوحيد الى الهند ، ولاسيما لأن المشروعات المتعلقة بحفر ترعة بين النيل والسويس أو إيجاد وسيلة للاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر قد جعلها الحكام المصريون ، فى ظروف عديدة ، نصب أعينهم واتخذوها المثل الأعلى الذى طالما بذلوا فى تحقيقه أقصى مجهودهم

ولقد ظلت مصر الى القرن الخامس عشر الوسيط فى المبادلات التجارية بين مصر وأوربا . وهى وظيفة ترجع بطبيعة الحال اليها وتختص بها دون غيرها ، حتى أن البرتغاليين لما فتحوا طريق المحيط الأطلانطيقي ، أراد أحد الذين تكاتفوا منهم على

توطيد شوكة البرتغال فى آسيا ألا وهو المقدام (ألبوكرك) أن يكفل لأمته على طول المدى ما أحرزه برسمها من المزايا والفوائد ، فقرر احتفاظاً بتلك الطريق أن يحول مجرى النيل إلى البحر الأحمر كي تنصب مياهه فيه ، ويغتصب بهذا الفعل من مصر طريق البلاد الهندية

وليس فى هذا الأمر مايستغرب ، فما من أحد من كبار الرجال العارفين بحقائق الأحوال وتصاريفها ، إلا وقد أدرك أهمية موقع مصر وقدره حق قدره . فالأسكندر الأكبر استشعر بهذه الأهمية، وبسببها خطط على سواحل مصر ثغراً أراد به أن يخلف ثغر (صور) فى عظمتـه التجارية . وما دفع بنابوليون إلى ضفاف النيل سوى التجارة ، ولا سبب غيرها . فقد كان هذا الرجل العظيم يريد أن يبذر للتجارة الفرنسيه فى مصر بذورا ويقيم لها بها صروحاً ويتخذ هذا القطر مظهراً لنشاط التجار الفرنسيين ، اعتقادا منه بأنهم سيدخلون البحر الأحمر في نطاق أعمالهم التجارية مع البحر الأبيض ويقبضون بيدهم على زمام احتكار التجارة الهندية البريطانية

والذى أراه بعد هذه المقدمة أنه لاينبغى أن يعهد أمر

مصر ، وهي على ماتقدم ذكره من أهمية الموقع ، إلا إلى دولة مستقلة حريصة على حيادها . يدعو إلى ذلك ويلتمسه بلوغ أهمية هذا القطر ، من الوجهة التجارية ، الى الدرجة القصوى وانصراف الأطماع إليها من قديم الزمان . دع أن التجارة يطلب نموها واتساع نطاقها أن تعيش فى ظلال القوة الحامية لها والحياد الذى لا يعرضها للمجازفات والأخطار

٦٠ — اصناف التجارة المصرية

وصف نابليون « التجارة المصرية » فى مذكراته وصفاً سطحيا ما برح منطبقا عليها إلا فى بعض الشؤون الصغيرة . ولست أظنني قادراً على أن أزجى إلى ذهن القارىء صورة ممثلة لحقيقة هذه التجارة كالتى رسمها هو بوضوح فيما يأتى قال :

« تنتج مصر المحصول الوفير من القمح والأرز والخضر . وقد كانت لهذا السبب المخزن الذى تستورد منه رومية مؤونتها ، وما برحت حتى اليوم خزائن الخير الوفير لمدينة القسطنطينية . وهي تنتج ، فيما عدا ما تقدم ، السكر والنيلة والسنا والنطرون والكتان والقنب . إلا أنها محرومة من الأخشاب والفحم

والزيت . فأن هذه الأشياء تنقصها كالتبغ الذى تستورده من بلاد الشام والبن الذى تجلبه من بلاد العرب . وفيها القطعان الكثيرة من الأغنام والماشية . وهى غير ما يوجد منها فى الصحراء كما أن فيها أنواع الأطيار المختلفة . والفروج يفرخ بها فى أفران خاصة فيكون عدده لهذا السبب عظيما جداً

« ومصر واسطة بين أفريقيه وآسيا . وتصل القوافل إلى القاهرة كما تصل السفن الى الساحل ، أى فى الوقت الذى لم يكن وصولها منتظراً فيه لورودها من الأصقاع النائية ولتعذر الوقوف على أخبارها قبل وصولها الى الجيزة . وهي تدخل الى القطر من ناحية الأهرام ، وهناك يعين لها المكان الذى تعبر منه النيل فالمكان الذى تحط فيه رحالها من ضاحية القاهرة . ومن الجيزة أيضاً ترد الأنباء بوصول قوافل الحجاج أو التجار الآتية من مراكش وفاس وتونس والجزائر وطرابلس ، قاصدة الى الأقطار الحجازية ومعها صنوف البضائع التى تقايض عليها فى القاهرة وتتألف هذه القوافل عادة من بضع مئات من الجمال وأحياناً من الألوف ، يحرسها رجال مسلحون . وتتوارد القوافل أيضاً من الحبشة وباطن أفريقية (وتنجوست) وما يتصل

بهذه الأصقاع من الأقطار المفضية الى رأس الرجا الصالح من جهة وبلاد سنغال من جهة أخرى . وهي تحمل إلى مصر الأرقاء من العبيد والجوارى والصمغ والتبر وسن الفيل، وسائر حاصلات تلك الأقطار للمبادلة عليها ببضائع أوروبا والشرق الأدنى

وهناك قوافل أخرى تصل من أنحاء بلاد العرب والشام كافة حاملة الفحم والحطب والفواكه والزيت والبن والتبغ ، وعلى العموم كل ما ينتج داخل البلاد الهندية من مختلف الأرزاق

إن التجارة الحالية لمصر ، وإن تكن في حاجة ماسة الى استتباب السلم ليتسع نطاقها وتزداد منافعها ، ما برحت بالرغم من الحرب ، رفيعة الشأن عظيمة الأهمية . وهي مبنية على استيراد الأنسجة وخشب البناء والحديد والآنية والورق والعقاقير وحاصلات المستعمرات وغيرها من أوروبا ، وتصدير الأرز والقطن والحبوب والنيلة والأفيون الخ من مصر

وفي الملخص الآتي عن واردات مصر وصادراتها في سنة ١٨٣٦ ، مقدرة بطريق التقريب ، ما يشير الى درجة أهمية ذلك التبادل التجاري

الواردات

أنسجة قطنية	١٦٠٠٠٠٠٠	فرنك
أجواخ	٣٥٠٠٠٠٠	»
طرابيش	١٨٠٠٠٠٠	»
أنسجة صوفية	٢٠٠٠٠٠٠	»
أنسجة حريرية	٢٣٠٠٠٠٠	»
خشب للعمارات	٩٠٠٠٠٠٠	»
حديد قضبان وأسلاك حديدية	٤٠٠٠٠٠٠	»
آنية من الحديد والنحاس وسكاكين	٢٥٠٠٠٠٠	»
ورق	١٠٠٠٠٠٠	»
عقاقير وأصناف عطارة	١٥٠٠٠٠٠	»
فحم حجر وحطب	١٣٠٠٠٠٠	»
قرمز	١١٠٠٠٠٠	»
سكر	٦٦٦٠٠٠	»

زجاج ومرايا	٦٤٠٠٠٠	فرنك
زيوت	٧٧٠٠٠٠	»
أنبذة ومشروبات روحية	٧١٠٠٠٠	»
بضائع أخرى	٢٠٠٠٠٠٠	»
المجموع	٥٠٧٨٦٠٠٠	

الصادرات

قطن	٢٤٠٠٠٠٠٠	فرنك
أرز	٤٠٠٠٠٠٠	»
صمغ	٣٠٠٠٠٠٠	»
أنسجة كتانية	١٦٤١٠٠٠	»
حبوب	١٦٢٥٠٠٠	»
صودا	١٥٨٠٠٠٠	»
بلح	١٢٠٠٠٠٠	»
خضر جافة	١٠٠٠٠٠٠	»
أفيون	٩٠٠٠٠٠	»
حناء	٦٠٠٠٠٠	»

بضاعات أخرى	١٠٠٠٠٠٠	فرنك
المجموع	٤٢١٤٦٠٠٠	

لم نذكر فى الجدولين السابقين إلا مايتعلق بالتجارة بين مصر وأوروبا . أما الجدول الثانى فقد ذكرنا فيه بيان الحركة التجارية العامة فى الاسكندرية مشتملة على حركة التجارة مع البلاد العثمانية

جهات الورود والتصدير	الواردات	الصادرات	مجموع التجارة
النمسا	٤٣٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠٠	٢٨٣٠٠٠٠٠
تركيا	١٢٧٠٠٠٠٠	١٢١٠٠٠٠٠	٢٤٨٠٠٠٠٠
انجلترا	١٥١٦٠٠٠٠	٥٤٠٠٠٠٠	٢٠٥٦٠٠٠٠
فرنسا	٥٨٠٠٠٠٠	١٠٨٠٠٠٠٠	١٦٦٠٠٠٠٠
توسكانا	١٠٢٦٠٠٠٠	٥١٣٠٠٠٠	١٣٣٩٠٠٠٠
الشام	٢٨٠٠٠٠٠	٦٢٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠٠
بلاد الغرب	٤٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠
اليونان	١٣٦٠٠٠٠	٨٢٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠

جهات الورود والتصدير	الواردات	الصادرات	مجموع التجارة
بلجيكا وهولاندا	٥٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٦٣٠٠٠
السويد	١١٧٠٠٠	—	١١٧٠٠٠
ممالك أخرى	١٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
المجاميع	٦٦٩٧٧٠٠٠	٥٤٩٠٠٠٠٠	١٢١٨٧٧٠٠٠

وفى سنة ١٨٣٦ لزم لتجارة الاسكندرية الواردة ١٢٣٥ سفينة محمولها بالطن ١٥٣١٤٨ والصادرة ١١٤٧ محمولها بالطن ١٣٤٠٠٠

٧١ — تجارة القوافل

تقدر تجارة مصر كلها، بواسطة البحر الأحمر والقوافل، بنحو عشرة ملايين من الفرنكات. وفى كل سنة تصل الى القاهرة من بلاد الحبشة قافلة تجلب معها العبيد والجوارى وسن الفيل وريش النعام والأبريز والصمغ الخ.

وتتألف فى مراكش قافلة أخرى برسم الحج الى مكة

فتتبع سواحل البحر الأبيض المتوسط وتأخذ معها الحجاج من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس الخ ، وتصل الى صحراء الاسكندرية فى أربعة آلاف جمل ، ثم تقصد منها الى القاهرة حيث تنضم الى القافلة المصرية ، وتتجه القافلتان بعد ذلك الى البلاد الحجازية

وتجبى حكومة القاهرة رسوما للمرور عن البضائع والحجاج . وتصل من دمشق بين حين وآخر قوافل صغيرة تحمل معها الأقمشة الحريرية والقطنية والزيت والنقل

٧٢ — المحلات التجارية الاوروبية

يبلغ عدد محلات التجارة الأوروبية بالاسكندرية الآن أربعة وأربعين محلا . وكانت ، فى سنة ١٨٢٢ ، لا تتجاوز ستة عشر محلا . ومن المحالّ الموجودة الآن ثلاثة عشر محلا فرنسياً وسبعة محالّ انجليزية وتسعة نمساوية وثمانية توسكانية واثنان سردينيان وواحد دانمركى وواحد هولاندى وواحد بروسى وواحد تابع لحكومة اليونان الجديدة

وهناك فيما عدا ما ذكر ، ستة محال لتجار من المسلمين

وأربعة لتجار من أساكل الشرق وهم يونان جميعاً على المذهب الكاثوليكي

والتجار المشتغلون لحساب أنفسهم بالقاهرة قليلو العدد وإنما الموجودون بها وكلاء عن بيوت الاسكندرية ، ففيها محل انجليزي وتسعة محال نمساوية وأربعة توسكانية واثنان سردينيان واثنان يونانيان وعشرة للرعايا العثمانيين من أساكل الشرق وثلاثة وستون لتجار صغار من الاتراك والمغاربة والمصريين

٧٣ — افكار وخواطر

لم تكن مصر على عهد المماليك بحيث تنتج من المحصولات ما تنتجه الآن . وهذه الحقيقة يسهل فهمها بمجرد التفكير فيما صرفه محمد علي من وسائل العناية بالزراعة . فلقد أدخل الى مصر زراعات وافرة المحصول طيبة الثمرات كزراعة القطن التي يصح اعتبارها اليوم الفرع الأصلي من فروع تجارة التصدير

هذا وقد زادت الواردات أيضاً كما زادت الصادرات لسبب يرجع ، بلا ريب ، الى ما تشعر مصر به أثناء انسياقها في طريق النجاح والرقي من الاحتياجات المختلفة ، إذ غير

خاف ما هناك من ضرورة تموين الترسانات والفاوريقات والمدارس والمصالح، وعلى الخصوص الجيش الكبير المضطر بظروف الأحوال الى البقاء تحت السلاح، باللوازم والمعدات

وما ينقص مصر لكي تبلغ الى الغاية القصوى من الثروة التجارية هو المعيشة فى ظلال السلم. فلو أن عقدة الأشكال التركى المصرى حلت نهائياً وحسم الخلاف المشتجر بين الحكومتين العثمانية والمصرية، بعناية من الدول الأوروبية لاتسع نطاق الزراعة بما ينضم اليها من ألوف العاملين الذين تثقل عواهنهم الآن أعباء السلاح، وارتفع عن الميزانية وفر الشطر الأعظم من باب المصروفات. وغنى عن البيان ماتجنيه مصر أولا ثم الدول الأوروبية التى ترتبط مصالحها التجارية بمصلحة مصر، من الفوائد الجزيلة والمنافع العميمة إذا تحققت تلك الأمانى

الباب العاشر

التعليم العام والمدارس في مصر

العلوم فى الازمان القديمة وفي عهد العرب — عصر الخلفاء — عصر المماليك — نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد علي — البعثة المصرية في باريس — تأسيس المدارس — تنظيم المعارف العمومية

١ — العلوم فى الازمان القديمة وفى عهد العرب

كانت مصر مهد العلم ومنبعث أنوار العرفان، فظلت الى مابعد الفتح الفارسى، رافعة لواءهما وطارحة فى جميع الأرجاء ضياءهما. ومما لا يحتاج الى عناء التفكير أن أغلب فطاحل علماء اليونان (كفيثاغورس) و (هيرودتس) و (أفلاطون) و (وأرسطو) وفدوا على مصر فى تلك الأزمان فتلقى بعضهم عنها أصول الفلسفة وقواعد الدين، والبعض الآخر حقائق العلوم والفنون وما هو متبع فى استقصائها من الأنماط والأساليب. ولما انطفأ سراج المدارس اليونانية وخبا نورها وغشيت بعده ظلمات

كثيفة بعضها فوق بعض ، مما المدرسة الاسكندرية كوكب
تكبد السماء فلم تلبث أن صارت للعلم والعرفان مشكاة تبهر الأبصار
بسنائها الساطع . ولقد نبغ فيها علماء بثوا فى الخافقين شهرتها
منذ عهد البطالسة الى أوائل القرن السادس من الميلاد ، ومنهم
المهندس (أرخميدس) والفلكى (بطليموس الفالوذى)
والفيلسوفان (جمبليكس) و (بلوطانس) والأطباء (هيروفيلس)
و (إيروز ستراتس) و (جالينوس) وغيرهم

وحينما أغار العرب على مصر ، كان هذا القطر ولاية تابعة
لدولة الروم الأخيرة فانحدرت مع متبوعتها الى هاوية الحضيض .
ومما تداولته الألسنة وعرفه الخاص والعام ما كتب به الخليفة
عمر بن الخطاب يدعو قائده عمرو بن العاص الى إحراق دار
كتب الاسكندرية . ونذكر الآن بهذه المناسبة أن اندثار
هذه المكتبة التى كانت لا تحتوى من الكتب إلا ما يبحث
فى علم الكلام والعلم الألهي ، لا يستدعي من الأسف والحزن ما
سبق الى الخواطر خطأ أن الناس أسفوه . ولقد نجا من الدمار
والاندثار بعض مصنفات نافعة كمصنفات (أرسطو) و (أبقراط)
و (جالينوس) وكتاب مقولات الهندسة (لاقليدس) . وكل
الصيد في جوف الفرا

٢ - عصر الخلفاء

جاء العهد الأول من عصر الدولة العربية مبدداً لما غشى النفوس من سحب المخاوف والهلع من تعصب الفاتحين المسلمين. فلقد كان عصر الخلفاء غرة فى جبين الدهر ومن أعلى وأغلا ما تزدان به تواريخ العلوم والآداب والفنون. ولا عجب فقد كانت أسماء هارون الرشيد والمأمون والمنصور ولا تزال من العناوين الخالدة على الملوك والامراء الذين أحاطوا العلوم والمعارف بسياج حمايتهم وأمدوها بمتواصل رعايتهم. فأنهم عهدوا الى لفيف من أعيان المسيحيين واليهود الواقفين على أبوابهم والمتصلين بحكومتهم فى نقل أهم المصنفات العلمية الى اللغة العربية. ومع أن الطراء والمغالين فى التحبيذ قد تجاوزوا حد المعقول فى برقشة الحضارة العربية بألوان المديح، فما لا يسعنا إلا الاعتراف به على الملأ أننا مدينون لها، فيما عدا الآثار الفخمة والمصنفات الأدبية الجليلة، بالاستكشافات الأولى فى الكيميا ومبادىء علم الجبر، وبما أحرزه من التقدم على يدهم علم الحيل (الميكانيكا) ثم بالمزاول الشمسية والساعات والأراغن الموسيقية وغيرها

٣ — عصر المماليك

اندثرت باندثار الخلفاء الأنظمة العلمية التي خفقت عليها رايات مجدهم وأظلها رواق شوكتهم . لأن الأسر الملوكية التي خلفتهم في ولاية الأمر كانت على الدوام مزعزعة الأركان ضعيفة القواعد ، فلم تمن بالشؤون العلمية التي أخذت تضمحل وتذوي كما تذوي أوراق الشجر . فأن السلاطين المماليك الذين ألقوا أساس الحكم الاستبدادي الذي أقاموا عليه صرح شوكتهم قد تركوا بعد انقراضهم جملة من الآثار الهندسية الفنية ، فلما حل المماليك محلهم ولم تكن لهم دراية بشيء غير العلم بأساليب القتال ولا عمل عندهم أشرف من رياضة الأجسام ، دفعوا بمصر إلى الأمام ، وإنما في طريق الهمجية والجهل . ففي عهدهم لم يرتفع شأن لعلم سوى دراسة القرآن . أما العلوم والفنون الأخرى ، فقد ألقيت في زوايا النسيان واطرحت حتى صار علم الطب دجلا وشعوذة فظيعة وساءت الأحوال إلى أن فقد المصريون كل ذكرى تتعلق بماضي بلادهم . وفي عهد الحملة الفرنسية أخذ بعض مواطنينا يقصدون إلى الأهرام لمشاهدته وقضاء لبانتهم من

رؤيته ، فكان الأهلون يقولون إن تلك الأهرام شادها أقوامٌ الفرنسيون من سلالتهم . وكانوا قبل ذلك يعتقدون أنها أثر من آثار الطبيعة وعمل لادخل ليد الانسان فيه

وكانت تنف العلوم التى تتحلى مصر بها فى ذلك الأوان احتكاراً للعلماء ووقفاً عليهم إذ كان هؤلاء يتلقون فى الجامع الازهر بعض الشيء من فلسفة (أرسطو) واللغة العربية والكتابة والحساب وتفسير القرآن وتاريخ الخلفاء ، لينقلوه فيما بعد إلى غيرهم ولم يكونوا حاصلين من مبادىء علم الهيئة وتخطيط البلدان إلا على مبادىء وأصول مبنية على الأغلاط والأباطيل

ولم تكن الثلاث السنوات التى قضاها رجال الحملة الفرنسية فى مصر وعادت على العلم بأجزل الفوائد وأوفر الثمار بكافية لنمو نبت التعليم وترعرعه وإزهاره بين المصريين الوطنيين

٤ — نهضة العلوم والمعارف فى عهد محمد على

كان من نصيب محمد على أن يتولى نشر راية العلوم والمعارف فى قطر قطعت فيه الدور الأول من أدوار نموها وازدهارها ، وجاءت بيا كورة طيبة من الثمرات الشهية الجميلة . فلقد وجه

هذا الوالى منذ البدء لفتة من لفتاته الصائبة الحكيمة إلى التعليم وقدر ماله من جليل المزايا فلم يمض على استلامه مقاليد الأمور زمن يسير حتى أنشأ جملة من المدارس لم تبلغ من الأهمية المبلغ الذى كان يتمناه لها . ثم أدرك فيما بعد أن لا مناص له من الاعتماد على أوربا فى الاسترشاد بها الى طريق التقدم العلمي ، فوجه الى ايطاليا وفرنسا طائفتين من الشبان المسلمين لتنشئتهم فيهما على تلقي العلوم والتحلى بحلية الآداب والفنون . فنبغ من بينهم في مقدمة من نبغوا عثمان افندى نور الدين الذى بعد أن قضى سنوات فى بلادنا عهدت اليه إدارة مدرسة القصر العينى الكبرى ، وأسس مدرسة أركان الحرب بالخانقاه فى سنة ١٨٢١ .

٥ — البعثة المصرية

لما عاد السلم إلى نصابه في سنة ١٨١٥ خاطب العلامة (جومار) أحد مهندسى الجيش الفرنسى بالشرق سابقاً ومرخص الحكومة المندوب منها عامئذ لمباشرة نشر استكشافات المعهد العلمى المصرى ، قنصل فرنسا بالاسكندرية ليستأذنه فى استئناف المباحث العلمية والتاريخية التي بدىء بها أيام الحملة .

الفرنسية . وقد حزر منذ هذا الحين كل ما كان ينتظر أن محمد علياً سيبذله من الجهود لاستنبات الغراس الذى غرسته تلك الحملة على ضفاف النيل

وكان من الأغراض التى يرمى إليها توثيق الصلة بين مصر وفرنسا بأواخى الشكر وقيود الامتنان لما ستقدمه الثانية إلي الأولى من وسائل الرقى العلمى وتمهده لها من طرق التقدم الفنى والأدبى . وكان تعليم الأهالى الوطنيين من أقوى عوامل الأصلاح والحضارة فى مصر . وكانت الحكومة المصرية ميالة بالبداهة الى التذرع به لأنهاض البلاد من كبوتها ورفعها إلى المستوى الجدير بها أن تظهر فيه

وأثناء وجود عثمان افندى نور الدين بفرنسا كاشفه العلامة (جومار) بمشروع ابتكره لتحقيق ذلك الغرض ، وهو إرسال بعثات مصرية إلى أوربا لطلب العلم فيها فتلقاه عثمان افندى بالاستحسان واطلع عليه سمو الوالى الذى لم يلبث أن أمر بتنفيذه . وقد نفذ فعلا منذ سنة ١٨٢٦ إذ عهد سموه إلى المسيو جومار إرسال أول بعثة مصرية في فرنسا وكانت مؤلفة من أربعة وأربعين شاباً من الأتراك والمصريين

ولست أقصد هنا إثبات تاريخ هذه البعثة الفريدة فى بابها ، بل اقتصر على القول بأن مديرها حصل بعد مضى سنة أو سنتين من تأليفها على نتائج جليلة ومزايا نافعة بتهيئته أحد عشر طالباً من أولئك الشبان لدرس أساليب الأدارة العسكرية والمدنية والسياسية ، وثمانية لتعلم فن البحر والهندسة العسكرية والمدفعية واثنين لاستقصاء علوم الطب والجراحة وخمسة لدرس الزراعة والمعادن والتاريخ الطبيعى ، وأربعة لتحصيل العلوم الكيميائية ، وأربعة لممارسة فن الأيدروليك وصب المعادن ، وثلاثة لمباشرة الحفر في المعادن والطباعة ، وواحد لأتقان فن الترجمة ، وآخر لأجادة فن العمارة . وقد اضطر خمسة من أعضاء البعثة الى العودة لأسباب بعضها صحىّ والبعض الآخر يتعلق بعدم الكفاءة وقلة الأهلية

وأخذ الطلاب يتواردون بعد ذلك الى فرنسا في كل عام وينضمون الى طلاب البعثة الأولى ، فبلغ عدد الذين قدموا اليها فى طلب العلم من سنة ١٨٢٧ الى سنة ١٨٣٣ نحو ستين طالبا سوادهم الأعظم من أبناء الفلاحين وقد تخصص أربعون منهم لدراسة العلوم الآلية (الميخانيكية) واثني عشر لدراسة الطب

والأقرباذين . وكنت أنا الذى جاء بهم الى باريس . وإذا ضممنا الى هؤلاء الطلاب سبعة من الحبشان وثلاثة من أبناء الذوات، فأن مجموع طلاب البعثة حتى تلك السنة يبلغ مائة وأربعة عشر طالباً

فماذا كانت نتائج هـذه البعثات ؟ لست أزعم أن هؤلاء الطلاب جنوا من الثمرات ما كان مرجوا لهم أن يفوزوا به منها . ولـكنى أستطيع التأكيد بأن نسبة الناجحين منهم تجاوزت الحد المعتـاد وأن نجاحهم فى الامتحانات العامة التى لا سبيل فيها الى المحاباة والمداجاة كان باهراً جداً ، إذ أحرز بعضهم قصب السبق بامتياز عظـيم فى امتحانات مدارسنا الـكبرى فتخرجوا منها مزودين بأجازة الليسانس أو الدكتورية فى العلوم أو بشهادة النبوغ فى علوم الطب والصيدلة

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أورد أسماء بعض النابغين على طريق التدليل والاستشهاد . وإذا كنت آثرتهم على غيرهم بأيراد أسمائهم فما ذلك إلا رجاء أن يكون هذا الأيثار منشطاً للآخرين وحاثاً على الجد فى تحصـيل العلوم وأن يكونوا أهلا للتنويه بهم . أما اؤلئك الذين آثرتهم على غيرهم فأذكر في

مقدمتهم عبدي بك ومختار بك وقد تولى أحدهما رياسة مجلس الحكومة والآخر إدارة المعارف العامة ، وحسن بك الذى عهدت اليه نظارة البحرية ، وأرتين بك وخسرو أفندى ويشغل أحدهما الآن المنصب الأول لكتابة السر والترجمة لسمو الوالى والآخر المنصب الثانى لها ، وأمين بك مدير فاوريقة ملح البارود ، واسطفان افندى عضو مجلس الحكومة والشيخ رفاعة رافع استاذ التاريخ والجغرافيا ثم ناظر مدرسة الترجمة ، ومظهر ومصطفى المهندسان ، ومحمد بيومي استاذ الرياضيات ، وحسن الوردانى ومحمد مراد ومحمد اسماعيل المعلمون فى النقش والزخرفة والرسم ، وأحمد يوسف مدير دار الضرب (الضربخانة) ، وهو الذى كلف بالذهاب الى فازوغلى للبحث عن الابريز في رمالها ، اوزار مناجم الذهب فى (مكسيكا) ، ومحمد نافع واحمد الرشيدى وعشرة غيرهما من الأطباء الأساتذة بمدرسة القصر العينى ، وحسين الرشيدى مدير معمل الصيدلة وغير هؤلاء كثيرون منهم المدفعيون ومنهم الموظفون فى الفاوريقات ومنهم المزارعون وغيرهم ممن امتازوا بالبراعة وفاقوا الفوق العظيم فى العلوم والفنون التي تفرغوا لدراستها وتوفروا على استقصاء غايتها . وهم يبلغون

النصف من عدد الطلاب الذين آثروا البقاء فى مصر ولا يزالون على قيد الحياة. ولسنا نشير بشىء إلى ما قاموا ولا يزالون يقومون به يومياً من جليل الخدمة وجزيل الافادة فذلك غنى عن البيان وأشهر من نار على علم . وإنما نخص بالذكر ثمرة من الثمار النضة فازت فرنسا باجتنائها من وراء البعثة المصرية ألا وهى نشر اللغة الفرنسية والنفوذ الفرنسى فى مصر . وبحصول فرنسا على هذه الثمرة لن يأسف سمو الوالى محمد على ما كلفت البعثة المصرية من الجهود المتواصلة والكلف الباهظة إذ تكون فرنسا قد حصلت على ما تطمح اليه من حسن الجزاء تلقاء ما بذلته من العناية فى تعليم الشبيبة المصرية وتبريزها شكراً من مصر لها على إكرامها مثوى أولئك الشبان واعترافا بحسن صنيعها وجنوحا اليها بباعث الحب الصادق والولاء الخالص . أما العلامة (جومار) الذى يرجع اليه الفضل فى ظهور تلك النتائج الجليلة بما بذله فى سبيل ذلك من الهمة والغيرة والعناية والاخلاص فلن توفى مصر وفرنسا والعلوم ما هو جدير به وأهل له (١)

(١) انى اغتنم هذه الفرصة لكى أؤدى الى المسيو جومار ماهو حقيق به من المدح من جهة تستدعي مزيد الشرف له فلقد أرادت الحكومة المصرية أن تكافئه على متاعبه وأعماله الجليلة فلم يكن من هذا العالم الجليل الا أن رفض هذه التقدمة بعزة نفس وحسن قصد بالرغم من أهمية المرتب الذى ألح عليه بقبوله

٦ - تأسيس المدارس

فى سنة ١٨٢٧ أنشئت مدرسة أبى زعبل الطبية التى سنخصها ببعض البيانات عند الكلام على الطب . وقد أنشئت المدارس تباعا بعد ذلك ، ولم يكن النظام فيها كلها متشابها . وكانت تابعة لنظارات الحكومة على اختلافها ، ولكن انحلال الرابطة بينها بعدم وجود نظام شامل لها أفادها فى بادىء الأمر فائدة لا تنكر ، فقد قامت بينها قائمة التناظر والتنافس على وجه زج ببعضها فى طريق التقدم فقطعت منه أشواطا طويلة بخطوات حثيثة من غير أن يقيد سيرها فيه نظام مسنون من قبل . على أن المصريين لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين ، بل قاوموا التعليم وأقاموا في طريقه العقبات وألقوا المعاثر كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد وحشد العمال لمزاولة الصنائع . وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم بترا للأصابع وسملا للعيون ، منعا لقبولهم بالمدارس ، في حين أن التلاميذ يعاملون بها معاملة مملوءة بالعطف والرعاية ، إذ تنفق الحكومة على شؤونهم كافة

من مسكن وغذاء ولباس بدون أن تتقاضى منهم درهما . بل هى فوق ما تقدم ، تجرى عليهم الأرزاق والمرتبات ، وتعتبر المدة التى يقضونها بالمدارس من أدوار الانتقال المفضية بهم إلى المراتب الرفيعة المفضلة ، بلا ريب ، على البيئات التى منها توافدت وفودهم . ولقد أدرك الآباء فيما بعد ما يترتب على التعليم من المزايا المادية والمنافع الدنيوية . فانكفوا عن المعارضة فى إرسال أبنائهم إلى المدارس التى شادتها الحكومة لهم بالمال الكثير

٧ — تنظيم التعليم العام

لما أتت المدارس التى تم تنظيمها وأحكم ترتيبها نهائيا بثمراتها الأولى ، أدرك الناس أهميتها فعهدت الحكومة إدارتها إلى ناظر خاص ، كان أوله ما مارسه من أعمالها أن قسم التعليم ثلاث درجات شملت الدرجة الأولى المدارس الابتدائية والثانية المدارس التجهيزية والثالثة الخصوصية

وأنشئت مدارس ابتدائية فى الأقاليم وأطراف القطر فبلغ عددها بالوجه البحرى أربعين مدرسة وبالوجه القبلى ستة وعشرين ، فى كل مدرسة مئة تلميذ تتراوح أعمارهم بين الثامنة

والثانية عشرة . والمدة المقررة للدراسة فيها ثلاث سنوات ، يتجدد ثلث عدد التلاميذ فى كل سنة . ويتعلمون المبادىء الاولية من اللغة العربية والحساب وغيرهما

ومن المدارس الابتدائية تستمد المدارس التجهيزية تلاميذها ، ومن هذه المدارس واحدة كبيرة جداً بأبى زعبل . وكانت قبلا بالقصر العينى ثم نقلت منها ، لما خصص هذا القصر بالمستشفى العسكرى العام والمدرسة الطبية . أما المدرسة التجهيزية الثانية فبالاسكندرية . وفى المدرستين يتناول التعليم علوما أكثر مما يتناوله التعليم الابتدائى ، إذ تعلم فيهما اللغة التركية ومبادىء الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والرسم وغيرها والتلاميذ يقضون بها أربع سنوات ويتجدد عددهم فيهما بنسبة الربع سنويا

أما المدارس الخصوصية فهى : مدرسة الهندسة ومدرسة الطوبجية ومدرسة الخيالة ومدرسة البيادة ومدرسة الطب ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الزراعة ومدرسة اللغات والألسن ومدرسة الموسيقي ومدرسة الفنون والصنائع

وبالقطر المصرى تسعة آلاف تلميذ تنفق الحكومة على

سكناهم وغذائهم ولباسهم ، وتدفع لهم المرتبات الشهرية . وهم ينامون على أسرة حديد مفروشة بمرتبة من القش وأخرى من القطن ويصرف لهم فى كل عام طربوش وأربعة أقمصة وأربعة سراويل وأربع تكك وأربعة منـاديل للجيب ومنديلان (فوطتان) لتجفيف الجسم من ماء الاستحمام وثلاثة مراكيب وصدريتان الخ

والغذاء الذى يقدم اليهم صحي جيد وهم يتناولونه في وجبتين الأولى قبل الظهر بساعة والثانية بعد غروب الشمس بساعة ودروسهم مقسمة حصصاً بحسب الساعات ، ويتقاضون فى آخر الشهر مرتبا . فتلاميذ التعليم الابتدائى يتقاضون فى السنة الاولى خمسة قروش شهريا وفى الثانية عشرة وفى الثالثة خمسـة عشر قرشاً . أما الذين يتلقون التعليم التجهيزى فيستولون فى السنة الأولى عشرين قرشا شهريا وفى الثانية خمسة وعشرين وفي الثالثة ثلاثين وفي الرابعة خمسـة وثلاثين . ويقبض تلاميذ المدارس الخصوصية أربعين قرشاً شهريا فى السنة الأولى وخمسين فى الثانية وستين فى الثالثة وسبعين فى الرابعة

ولكل مدرسة ناظر توكل اليه إدارتها من الوجهة المادية وعالم لارشاد تلاميذها

الباب الحادى عشر

صحة المصريين وامراضهم
وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية

١

تربية المصريين — طريقة معيشتهم — امساكهم عن المشروبات — استعمال القهوة والافيون والحشيش — الحامات — نصائح الى الاجانب المقيمين بمصر

١ — تربية المصريين

إذا تأملت المصرى أثناء تقلبه فى طوار الحياة ، فأنك تجده منذ مبارحته لحضن أمه ، عارى الجسم أو مستتراً بخرق من القماش الغليظ ومعرضاً لاختلافات الطقس و تقلبات الفصول ، فيصير منذ ولادته سليباً من الشعور بالفواعل الخارجية التى تؤثر قليلا أو كثيراً فى النظام العضوى لجميع الكائنات . وتراه ينمو سريعاً ويترعرع بدون أن تصيبه أمراض الخنازير [١] ولين

---

(١) غدد صلبة تحدث غالبا فى العنق ويظهر على سطحها درن شبيه بالعقد والعجر

العظام وغيرها . حقاً قد تظهر عليه أحياناً ، وهو فى سن الطفولة أعراض مرضية فى ناحية البطن يدل على وجودها ما يعترى هذا العضو من الضخامة والتكور ، إلا أن هذا الاستعداد المرضى ينسب إلى قلة العناية بالأطفال وإغفال أغلب شؤونهم فى السنوات الأولى من حياتهم كما يعزى أيضاً إلى الطريقة المتبعة في تغذيتهم ونوع اللبن الذى تسد به حلوقهم آناء الليل وأطراف النهار فيصابون بسوء الهضم وينتهى الأمر بهم ، على توالى الأيام، إلى تضخم أحشائهم وأمعائهم كما قلنا . وهذه الاستعدادات المهيئة للمرض لم تكن عامة ، وإذا توافرت فسرعان ماتزول . لأن الغلام لايكاد يبلغ الشهر السادس أو الثامن من عمره حتى يدب ويدرج ، فأذا بلغ من سنيه السابعة أو الثامنة ، وقد نمت قوى بدنه وعقله نموّها المبكر ، تراه وقد أصبح قادراً على كفاية نفسه . ومنذ هذا الوقت تبتدىء حياته فى ميدان الجد والعمل ، فتراه بالقاهرة والاسكندرية وسائر المدن مغرماً بالربح . يقدم اليك حماره لتقطع به المسافات الطويلة المحفوفة بالأخطار . ومن ذا الذى جاء للسياحة بمصر ولم يحمل عليه جماعة الحمارين (المكارية) حملاتهم العنيفة ؛ بل من منهم لم يعجب بخفتهم ونشاطهم

وسرعة حركتهم مع عدم احتياجهم لشىء ما أثناء قطعهم الأشواط الطويلة والشقق البعيدة ركضاً على الأقدام بلا حذاء وجرياً على أرض تلظى بحرارة قيظ لا يطاق ؟

وإذا تقدم فى السن قليلا بعد ذلك ورأى رفيقه فى أوصاب الحياة ومتاعبها غير كاف لقضاء حاجه وسد عوزه ، فسرعان ما يطلب الانتظام فى سلك السواس (السياس) الذين ذكرنا عنهم أنهم يعتادون الركض منذ الصغر ويدربون أنفسهم عليه بحيث يستطيعون مجاراة الخيول فى سرعة ركضها زمناً طويلا . وهذه الرياضة التى لا يشك أحد فى عنفها ومتاعبها التى لا يحتملها غير المصريين ، لا تصيبهم بما تصيب به غيرهم ممن يحاولون معالجتها من الضرر ، إذ قصارى ماينجم عنها بالنسبة للمصرى أن أعضاء التنفس والعضلات فيه تنمو وتكتسب حجما كبيراً

٢ — طريقة معيشتهم

من أسباب قوة بنية المصريين ومتانة عضلاتهم ووثوق أساطينهم التزامهم جانب القناعة والاعتدال فى المأكل والمشرب وحسن طريقتهم فى توزيع وجبات الطعام ، فالفلاح فى الأرياف

كالعربى في الصحراء يعلم علم اليقين أن الغذاء الوفير الذى يدخل فى تركيبه الكثير من المواد الحيوانية والدسمة لا يتفق وطقس القطر المصرى وحرارة الشمس الشديدة فيه . ويعلم أيضاً بدافع من فطرته وتجاريبه أنه إذا لم تحتو المعدة من الغذاء السهل الهضم سوى النزر اليسير ، أدت أعضاء الجسم جميعاً وظائفها بسهولة وانتظام ، فضلا عن أن التنفس لا تعترضه العوائق وعن أن المفاصل تبقي لينة ، فيحتمل الأنسان فى هذه الحالة بسهولة تامة أشد المتاعب وأقساها . وساكن الصحراء ، إذا بكر بالسير على ناقته لقطع أجواز الفلاة ، لا يأخذ معه ذخيرة ليومه سوى كيس صغير يحتوى بعض الدقيق وقربة ماء صغيرة ، فيعجن من الدقيق في رؤبة (قصعة) صغيرة هى التتمة لما يحمله معه من المتاع ما يلزم لعمل خمسة أو ستة أقراص من الخبز لا يتجاوز القطعة التى يصنع منها القرص حجم الجوزة ثم يجفف الاقراص فى الشمس أو ينضجها على النار وقد يقترن هذا الغذاء بشيء من التمر الجاف فيكفى ذلك لأشباعه طول النهار

وإذا كان الفلاحون المصريون لا يبالغون فى التقشف مبالغة عربان الصحراء فيه بل إذا كان سكان المدن يتحرون فى

طعامهم الأصناف اللذيذة التى يجهلها اؤلئك العربان ، فلا ينهض هذا دليلا على أنهم ليسوا على جانب كبير من القناعة والاعتدال، إذ أنهم لا يتناولون أبداً من الطعام إلا ما يقوم بأودهم ولا يلجأون إلى الأغذية المحرضة والتوابل المشهية التى يكثر الأوروبيون من أكلها لتحريك الشهية

٣ — الإمساك عن المشروبات

إمساك المسلمين عن تعاطى النبيذ والمشروبات الكحولية سبب آخر من الأسباب التى تقيهم شر الأمراض والآفات التى تتحيف سكان الأقاليم الحارة حتما إذا أقبلوا عليه . وسواد المصريين لا يعرفون من ضروب الشراب سوى الماء القراح ، أما المسيحيون واليهود فيتعاطون الأنبذة بوجه عام والشراب المعروف بالعرقى بوجه خاص

٤ — قهوة البن والأفيون

قهوة البن من المنبهات التى ألف المصريون تعاطيها . وتأثيرها فى النظام العضوى أخف وطأة بلا ريب من تأثير

المشروبات المحرضة فيها ، إلا أنني أعتقد أن اعتيـاد المسلمين شربها لا يخلو من أثر ضار بصحتهم . وضررها هـذا مؤكد بذوى المزاج السريع الانفعـال والتهيج . والقهوة كغيرها من المحرضات والمنبهات ينتهي الأمر بها الى الأصابة بالتهيج العصبي . ولا يبعد عن الظن أن يكون هذا الشراب من بواعث العنة التي يشكو منها الكثيرون من الشرقيين . غير أن لهذه العاهة ، فيما نعلم ، سبباً أقوى من إدمان القهوة ألا وهو استعمال الأفيون على وجه أصبح منتشراً معـه بين المسلمين ، ولا سيما الأتراك منهم . ويحدث الأفيون بفعله المحرض ضعفاً فى الجهاز العصبي وخموداً فى أعضـاء الجسم . وانه لمن حسن الحظ أن يكون الأفيون غـير شائع الاستعمال بين المصريين ولـكن من أقوى بواعث الأسف ما هو مشاهد من اقبالهم العظيم على الحشيش وهو تلك المادة التى سبق لنا الـكلام عليها والتى لا يقل ضررها بالجسم عن ضرر الأفيون

٥ — الحمامات والدلك

سبق لى أن أفضت في الكلام على الحمامات البخارية وعملية

دلك الجسم وما ينجم عنها من جزيل الفوائد باعتبار أنها من وسائل الصحة أو طرائق العلاج من الأمراض . ولست بمكرر في هذا المقام ماسبق لى إيراده فى هذا الموضوع بل أقتصر على تحويل القارىء إلى ما أوردته من التفاصيل بهذا الشأن في آخر المجلد الأول

إن المصرى مدين بقوة بنيته واعتدال مزاجه الى تمسكه بما ذكرته الآن من عاداته المختلفة كالقناعة والتقشف والأساليب المتبعة فى حياته ، والظروف الخاصة بالطقس والمحيطة بالمكان فالى هذه الأسباب بلا ريب يرجع انحصار الأمراض بمصر في دائرة ضيقة جداً حتى أنهم لا يعدون من الموتى فى مدينة القاهرة التى يتجاوز عددها ثلاثمائة الف نسمة أكثر من ثمانية عشر الى عشرين كل يوم

ويسير المصريون الآن سيراً حثيثاً فى سبيل الحياة الصحيحة . فأنه لايندر أن تجد بينهم أناساً تجاوزت أعمارهم المائة . وشهدت بنفسي شيخاً من هذا القبيل فى الثلاثين من عمره بعد المائة ولم يكن مصابا بعاهة أو مرض سوى الماء السـاقط في إحدي عينيـه . وفي بلدة (كفور نجم) من إقليم

الشرقية لايزال على قيد الحياة رجل فى الثالثة والعشرين بعد المائة من عمره حائزا تمام الصحة وله جملة أبناء أكبرهم سناً فى الثمانين من عمره ، والثانى فى الرابعه والسبعين ، والثالث فى السنة الثالثة والأخير لايتجاوز عمره بضعة أشهر . وزوجة هذا الشيخ من من طهارة الذيل بما يدفع كل شك فى أن المولود الأخير من صلبه . واتفقت لذلك الشيخ الفانى حادثة في غاية الغرابة وهي أنه لما بلغ الثانية والثمانين من عمره نبتت له ست أسنان جديدة اضطر بعد ذلك إلى خلعها لما كان يشعر به من الضيق والحيرة بوجودها

٦ — نصائح الى الاجانب المقيمين بمصر

ماذكرته الآن من حسن تأثير قناعة المصريين فى صحتهم والحرص على أداء بعض الأجرياء الصحية يدعونى فى هذا المقام إلى توجيه بعض النصائح إلى الأوربيين من ساكنى مصر والسياح الذين يجوبون أرجاءها . أذكر فى طليعتها التحاشى عن التغذى بما يدخل فى تركيبه الكثير من الأصول الحيوانية ، لما هو معروف ومقرر فى العلم من أنها تفيض عن حاجة الجسم الى تعويض مافقده

وتتجاوزالقدر المناسب من التنبيه والتحريض ، ثم الأمساك عن النبيذ الصرف والمشروبات الكحولية

وتأثير المشروبات الكحولية بالبلاد الحارة فى صحة متعاطيها ردىء للدرجة القصوى . ولعل فى التجارب الكثيرة التى قام الباحثون بها فى هذا الموضوع مقنعاً للناس كافة بهذا الضرر ، إذ غير خاف عليهم ما لوحظ من ازدياد عدد الوفيات بمصر بنسبة مزعجة بين الأجانب الذين ألفوا تعاطي تلك المشروبات . ومما هو غنى عن البيان واقامة الدليل عايه لبداهته أن الأنجليز النازلين فى هذا القطر يهلكون بنسبة فاحشة جدا بالقياس على نسبة الوفيات فى الجاليات الأفرنجية الأخرى . وما ذاك إلا لأن الأنجليز احتفظوا فى مصر بعادة إدمان المسكرات ، وهى عادة لا تتفق وطقس البلاد التى جاءوا ليتخذوها مقاماً لهم

وهناك أمر آخر ينبغى أن يلاحظه الناس كافة ويعملوا به أثناء إقامتهم فى القطر المصرى ، نريد به التوقى من تأثير الرطوبة واختلافات الطقس المتواترة الوقوع فى هذا القطر . والسبيل الى هـذه الوقاية إنما هو بالحرص على لبس الثياب المدفئة والاحجام عن النوم فى المخادع والغرف المفتوحة النوافذ ، أثناء

النوم ،والاحتراز من الرقاد فى ظل الأشجار كما يفعل الفلاحون غالبا . فأن إهمال هذه الاحتياطات يفضى فى كثير من الحالات إلى ضعف الجسم وانحلال قواه ويسبب الأمراض الروماتزمية والأصابات الرمدية وغيرها من أنواع الأمراض التى تهيىء حالة الجسم واستعداده إلى الاصابة بها

ومن عادة الأهلين بمصر ، إذا أحسوا ببوادر أعراض ما يلحقهم من مرض أو انحراف فى الصحة ، أن يعللوا ما اعتراهم من ذلك ، وهو ما نذهب الى أنه الصواب بعينه ، بانسداد المسام وقلة إفرازات الجلد . وسرعان ما يلجأون فى إزالة هذه الأعراض إلى وسيلة لا ريب في حسن أثرها وصدق فعلها ، ألا وهي التوجه الى الحمامات البخارية لاستثارة إفراز العرق الغزير من أبدانهم ، وهذا وحده يكفي لتبديد ماظهر من تلك الأعراض عادة . وإنى لأنصح بالاعتماد على الحمامات الى من يشعرون بما وصفته من مرض أو انحراف ، وأعتقد يقيناً أنها تفيد غالباً فى إيقاف أمراض جمة لولاها لسرت فى الأجسام وأنهكتها

والاستحمام فى حمامات البخار مع ما يتخلله من دلك البدن

كله بالكيس لمن أفضل الوسائل التى ينبغي للأجانب المقيمين بمصر أن يعتمدوا عليها لتحصين صحتهم من الأمراض الداهمة. ولقد سبق لنا الكلام على المزايا التى تنجم عنها من جميع الوجوه فلا حاجة إلى التكرار

٢

الامراض المصرية

الطاعون * امراض أعضاء الهضم : الدوسنطاريا — التهاب الكبد — البواسير الخ — الفتق * الامراض الجلدية : الجذام — حب النيل — البرص — الحصبة الخ — الفرتيت * امراض العيون : الرمد الصديدى — الشتر اى انقلاب العين للداخل — الشعرة الخ * امراض أعضاء التناسل ومجارى البول : الحصاة المثانية — الايدروسيل — المبارك او الزهرى — الامراض السرطانية — الامراض الصديدية الامراض المخية — الامراض العقلية — الامراض العصبية — الروماتزم أو وجع المفاصل — النقطة — التيتانوس — الكلب

أشرنا فيما سبق الى أن المصريين ، بما هو معروف من مزاجهم وقوة بنيتهم وطريقة معيشتهم ، ليسوا عرضة إلا لليسير من الأمراض . ولكنهم إذا كانوا فى أمان من شرور الأمراض الجمة التى تدهم الأوروبيين والشعوب المتمدينة ، عرضة لأدواء كثيرة غيرها ، بعضها خاص بالمواطن التى يستقرون فيها والبعض الآخر مشترك بينهم وشعوب الأرض المختلفة وسنتكلم

عليها فيما يلى

٧ — الطاعون

إذا لم يكن الطاعون أكثر الأدواء انتشاراً فى مصر ، فهو بالأقل من الآفات الفتاكة أكثر من غيرها بالأرواح . بل هو من الأوبئة الكمينة فى بلاد الشرق ، وعلى الخصوص فى أرض الفراعنة القديمة

يجوز اذاً القول بأن مصر مهد للطاعون وأنها كانت ، سواء فى أيام عزها القديم أو فيما تلاها من القرون ، ميدانا لانتشار ذلك الوباء فيها وفتكه بأهلها أذرع فتك . فليس سقوط الحضارة المصرية من علوة مجدها القديم ولا إغفال القواعد الصحية التى كان المصريون أشد الناس حرصا على اتباعها هما اللذان أولدا ذلك المصاب المخيف والطامة الكبرى ، كلا بل أن أسباب انتشاره ما برحت فى أيامنا هذه كما كانت فى تلك العصور الغابرة سراً من الأسرار الغامضة . وهى كغيرها من أسباب أمراض وأوبئة شتى لا تزال مستعصية على المتصدين لمعالجتها بالبحث والتمحيص والاستقصاء

ولم يكن الطاعون وباء كامناً فى مصر فقط ، بل فى سائر البلدان الممتدة على السواحل الشرقية والجنوبيـة من البحر الأبيض المتوسط . ومع تفاوت درجات انتشاره فيهـا شدة وخطورة ، فأنه لا تكاد تمر سنة حتى ينزل بكلكله على الشرق فى ميعاد واحد . والعادة أنه ، إذا فشا بين الناس بادىء ذى بدء ، لا يكون شديدا . فأذا انتشر بشكل وبائى ، وهو ما يحدث مرة فى كل ست سنوات أو ثمانى أو عشر ، فأنه يحصد الأرواح حصداً ، ويكون شأنه فى ذلك شأن الكوليرا إذا انتشرت وأحلت بهم بأسها فجعلتهم غرضاً لسهامها وجزَراً لسيوفها

وليس الطاعون من الأوبئة المعدية الوبيئة . وسواد الأطباء الذين خصـوه فى السنوات الأخيرة ودرسوه درسـا دقيقـا يشاطروننا هذا الرأى . وقد كان هذا الاعتقاد ولا يزال اعتقاد المسلمين لا يحيدون عنه . لذلك تراهم لا يوقون أنفسهم شر ملامسة المصابين بالطاعون والاتصال بهم . ومما يبعد عن الظن أن تكون آراؤهم فى هذا الموضوع مستمدة من الاتكال على القضاء والتسليم بما يأتى به القدر . فأنه مما لا يصح التسليم به أن يتعرض شعب بمحض اختياره للاصـابة بداء يعرف أنه من الأدواء

المعدية ، إذا كان فى استطاعته أن يدرأه بلا معاناة صعوبة إذ يكفيه مجانبة الموبوئين به

امراض اعضاء الجسم

٨ — الدوسنطاريا

الدوسنطاريا من الأمراض الملازمة لمصر ، وهى بعد الطاعون من أشدها فتكا بالمصابين بها . ويعرفها المصريون باسم الدوسنطاريا وعنصل البطن والسهلة ، والأصابة بها فى الوجه البحرى أكثر تواتراً منها فى مصر الوسطى والصعيد ، والغالب عليها أن تكون فى أيام الحر حيث يأخذ انتشارها فى بعض الأحيان شكلا وبائياً ، فتصيب العدد العظيم من الناس

ذلك المرض الذى يكافحه الأهالى الوطنيون بالشعوذة وطب الرّكة ودجل الدجالين ، فتكون عاقبته وخيمة عليهم ، يعالجه الأطباء الأروبيون بالطرق النافعة الناجعة وأخصها مضادات الالتهاب والحمية . والحمية شرط لا بد منه في نيل الشفاء التام

أما الأمراض الأخرى لأعضاء الهضم فنادرة الوجود

فى القطر المصرى

٩ — التهاب الكبد

يشاهد هذا المرض فى أحيان نادرة ، فهو أقل انتشاراً مما يتبادر الى الذهن ، والسبب فى ذلك شدة حرارة الطقس .وأكثر الناس تعرضاً للأصابة به الأجانب بوجه عام والأوربيون منهم بوجه خاص

١٠ — امتلاء الساريقا

أما الامتلاء المعروف باسم امتلاء الساريقا أو انسدادها أو احتقانها فقليل الشيوع أيضا إذ لا يشاهد إلا فى عدد قليل من الأطفال

١١ — الاستسقاء

ومما تتهيأ الفرصة كثيراً لمشاهدته أحوال الأصابة بالاستسقاء أو ترشيح البطن ، غير أن هذا المرض فى مصر لا ينشأ عن الالتهاب المزمن فى البريتون . وشأنه في ذلك بمصر

كشأنه فيه بالبلدان الأخرى . وتزداد خطورته عادة بتأثير أحوال عديدة كاحتقان الكبد أو حدوث الاعراض التي تعوق الدورة الدموية

١٢ — البواسير

أما البواسير فكثيرة الانتشار فى مصر، بعكس الأمراض المتقدمة . وعلة انتشارها على ما يظهر تفشى داء الدوسنطاريا فى هذا القطر . والأهالي الوطنيون يعالجون البواسير بوسائل تبعث كلها على العجب والدهشة . فأنهم ، متى شعروا ببروزها وتضخمها ، يستدعون الحلاق فيقطعها لهم بالموسى

١٣ — الآفات الديدانية

وهناك أمراض أخر كثيرة الشيوع والتفشى فى مصر يجمعها اسم الآفات الديدانية . فان أهالى هذا القطر ، من جميع الأسنان والأمزجة ، معرضون للاصابة بها . وكثيرا ماتنتشر الديدان الباطنية فى جسم المصاب بها بحيث لا يحصى عددها ولا يحصر

١٤ — الفتق

الأصابات بالفتق شائعة فى مصر . وقد عزوا حدوثها الى ماء النيل باعتبار كونه شرابا يشربه المصرى وينتفع به فى مرافقه، كما عزوا اليه ما لا حصر له من الأمراض ولاسيما داء الفتق الذى ينسبونه إلى استعمال الحمامات الساخنة الشائعة فى الشرق . ولكن يبدو لنا أن لا سبب من الأسباب المومأ اليها بصحيح ، وأن لانصيب لهذا التعليل من الصواب . والذى نرتأيه أنه إذا كان لمياه النيل بعض التأثير فى ازدياد المرض ، فان هناك أسبابا أقوى من التى تقدم ذكرها ، منها : بنية الأشخاص الذين نسيجهم الخلوى الشحمي رقيق جدا لا يسد التجاويف التى تهبط الأحشاء منها سدا محكما ، ومنها ارتخاء المجموع العضلى فى أجسامهم . وهذا الارتخاء يتسبب عن طبيعة مزاجهم وحرارة الوسط الذى يقيمون فيه ، ومنها إدمان ركوب الخيل وهو مالا غنى لسواد المصريين عنه

وزعم بعضهم أنه لولا احتياط الفلاحين بضغط بطونهم بالأحزمة العريضة الجلدية لبلغ عدد الأصابات بالفتق فى مصر

مبلغاً فاحشاً . وهذا الزعم ظاهر البطلان لأن القائلين به لم يلتفتوا إلى أن الضغط بمثل تلك الأحزمة على الحرقفتين والجزء الأعلى من البطن من شأنه أن لا يرفع الأحشاء إلى فوق . فهو لن يأتى بالفائدة التى تعزى إليه بل من شأنه أن يدفع الأحشاء التى يضغط عليها نحو النقط التى يحدث الفتق عادة فيها ، إذا ثقلت عليها الأحشاء . وعليه فاستعمال الحزام كوسيلة لمنع الفتق لمن أقوى البواعث على حصوله وتفاقم خطره

١٥ — الامراض الجلدية

الأمراض الجلدية شائعة في مصر وتبدو للناظر على أشكال مختلفة . وأكثرها شيوعاً مرض الجذام الذى يصيب الأعضاء ومواضع التناسل وحب النيل والبرص والقوبة والحصبة والجرب وغيرها

١٦ — الجذام

يعرف هذا المرض فى أوربا بأسماء مختلفة منها الفتق اللحمى (پروسپر ألپان) ومرض جزائر (البرباد) وسرطان الخصية

المصرى . وقد سماه العلامة (ألار) بمرض المجموع اللنفاوى ، وهو شائع فى مصر وإن لم يكن خاصاً بأقليمها . وما سمى فى اللغة الأفرنجية باسم (إليفانتيازيس) ، اشتقاقاً من اسم الفيل ، إلا للشكل الذى تتشكل به الأجزاء المصابة من حيث أنه يجعل العضو المصاب بهذا الداء شبيها برجل الفيل . وهذه التسمية التى تليق الى حد ما بالمرض إذا أصاب الساقين ، لا محل لها إذا أطلقت عليه فى حالة إصابته أجزاء أخر من الجسم كالخصيتين مثلا . ثم إن تسميته بأسماء الفتق اللحمى وسرطان الخصية والقيلة المائية لا تنطبق أيضاً على حقيقة الواقع ، كما سيتبين للقارىء عند ذكر طبيعة المرض وشرح أعراضه . أما تسميته بمرض المجموع اللنفاوى فغير صحيحة كذلك لأن المجموع اللنفاوى لم يكن مركزاً من مراكز الاضطرابات الباطنية

إن الجذام الذى اقترح بعضهم بحق تسميته بالارتشاح أو الانتفاخ الارتشاحى ، إنما هو من الأمراض التى مركزها النسيج الخلوى الذى تحت الجلد . فأن هذا النسيج إذا وقع تحت تأثير ظروف مختلفة يرجع أغلبها إلى أسباب التهيج ، ينفذ اليه مقدار يختلف قلة وكثرة من المواد المصلية التى تزداد تراكما بازدياد نمو

الاجزاء الصلبة . فمن هذين الظرفين يتولد الجذام ويكون فى آن واحد نتيجة الرشح وفرط النمو فى النسيج الخلوى . يؤيد ذلك استئصال الغدد والعجر الناجمة بالقطع عن هذين السببين ، فأن هذا القطع يفضى إلى انسياب مقدار كبير من المواد المصلية فيقل حجمها قلة محسوسة . ويؤيده أيضاً تشريح الأجزاء الصلبة فأن هذا التشريح يجلى عن مثل النتيجة المتقدمة

وتجرى الأحوال على هذا المثال سواء اتسع نطاق الداء بالأطراف السفلى للجسم أو اتخذ غلاف الخصيتين مقراً له . وفى الحالة الأخيرة على الأخص يبلغ الجذام فى الضخامة وفرط النمو أقصى مبلغ له . فلقد رأيت أوراماً من هذا القبيل تجاوز وزنها مائة رطل ، واستأصلت بنفسى أوراماً مثلها بلغت من ضخامة الحجم مبلغاً وصل معه قطرها الرأسى الى أسفل الساق

أما أسباب الجذام والظروف التى يتولد فيها ، فهو مالم يحققه المحققون حتى الآن . وغاية مافى الأمر أن من الأسباب المختلفة التى يعزى اليها فرط نموه وتضخمه سبباً ربما كان صحيحاً وهو تأثير البرودة الرطبة والحمامات الباردة وكثرة الاغتسال ، الى غير ذلك من الأسباب المختلفة التى من شأنها أن ترد العرق

الى مصادره . ولكن هذه الظروف لاتكفي وحدها لتوليد الداء ، إذ لو كانت هي الموجدة له ، لكان من أكثر الأدواء الباطنية شيوعاً فى العالم خصوصاً وأن العرق كثيراً ما تتعطل بمصر وظيفته بدون أن يترتب على توقفه ظهور ذلك الداء

ولكى يأتى علاج الجذام بفائدة قاطعة ونتيجة حاسمة ، تحسن المبادرة بعلاجه لمجرد ظهور علاماته . لأنه مادام في دوره الأول يكون الأمل في الشفاء منه ، باتخاذ الوسائل الطبية الأصولية ، أوثق وأدنى الى التحقق . وعليه فمن الميسور الحصول على نتائج حسنة باستعمال مضادات الالتهاب والفصد والبخات الملينة وبحمل الأحزمة بعد وضعها فى المكان اللازم وضعاً لائقاً . اوإذا كان ثمّ مايدعو الى الاشتباه في أصل المرض وأن له ارتباطاً بأصابةزهرية مثلا فتستعمل الأدوية الزئبقية . أما إذا مضى بعض الزمن على الأصابة فيعتمد فيها على قطع الجذام كذريعة يلتمس منها تخفيف الألم لا الشفاء التام من المرض . وأما إذا بلغ الداء إلى الدرجة التى أشرنا اليها أى إذا دهم الخصيتين وأحدث فيهما ذلك الانتفاخ البالغ ، فالوسيلة الفعالة في الخلاص منه هي الاستئصال التام

١٦ — حب النيل

يطلق المصريون هذا الأسم على مرض خاص ببلادهم لا يعدوها الى غيرها ، وقد أجمعت الآراء على أن سببه استعمال ماء النيل شرباً

ولم يكن حب النيل مرضاً جلدياً كما ذهب اليه العلامة (بونييه) ، وإنما هو بثور تخالف بطبيعتها وشكلها أنواع البثور الأخرى ، إذ تشبه دمامل صغيرة ملتهبة مختلفة الأحجام تكون منضمة تارة وطوراً متفرقة ، وتحدث أكلاناً يزعج المصاب بها . وقد تستحيل الى دمامل كبيرة تنتشر على ظاهر الجسم كله وتتفشى في الأجانب أكثر منها فى الوطنيين . ويتفق أوان ظهورها مع أوان فيضان النيل . ولا خلاف فى أن مياه النهر هى السبب فى حدوثها بدليل أنها تزول بانتهاء الفيضان وانخفاض الماء

وحب النيل أكثر شيوعاً فى الوجه البحرى منه فى مصر الوسطى ، فشأنه من هذه الجهة شأن الجذام . أما فى الوجه القبلى فالأصابة به نادرة جداً ، ولم يستطع أحد حتى الآن تعليل هذه الخصية

١٧ — البرص

البرص أحد أمراض الشرق التى فقدت كثيراً من قوتها بتعاقب الأجيال ومضي الأحقاب . ومع هذا فأن بلاد الهند وبعض شطوط أفريقية والشام ومصر وعلى الخصوص جزيرة كريد مابرحت ملوثة بتلك الآفة . وكثيراً ماتشابه الأمر على الناس فخلطوا بين الجذام والبرص مع بون مابين المرضين . والبرص يظهر فى شكلين أصليين دعيا إلى تسميتهما ، الأول بالبرص الدرنى العربى والثانى بالبرص الأكال اليونانى

أما البرص الدرنى المشاهد فى مصر بوجه خاص فيظهر بشكل أجسام درنية صلبة صغيرة الحجم تنتشر فى النسيج الخلوى فتحدث نتوءاً فى الجلد وتكسبه لوناً ضارباً إلى الحمرة . ويبتدىء المرض بالوجه والأعضاء ولا يصيب الجذع إلا فى أحوال نادرة جداً ، ويتبع فى سيره سير الأمراض الخنازيرية ، مفضياً إلى أعراض واضطرابات تشبه ماتحدثه هذه الأمراض منها . فمن ذلك أن الدرن يلتهب ويتقيح ويحدث جروحاً تلتحم عن ندب بشعة المنظر بل ربما أحدث تشوها فى الأعضاء أو

أدى إلى فقدها وسقوطها إذا وصل الدرن إلى المفاصل

أما البرص اليونانى الذى يقرب بطبيعته من الأمراض القوبية ، فنادر الحدوث فى مصر . وهو ببلاد اليونان ألصق منه بأى بلد آخر ويحدث كالسابق اختلالا واضطرابا مختلفي الضعف والشدة في النظام العضوى

وكثير من الأطباء يعتبرون البرص مرضاً معديا ولكنه غيرما زعموه من ذلك فأن الابحاث التى قمت بها فى هذا الموضوع والمرضى الذين فحصت إصاباتهم في مستشفياتنا وفى جزيرة كريد أقنعنى وزملائى المصريين بأن المرض غير معد . وهذا الاقتناع يطابق الرأى السائد منذ زمان طويل بين شعوب الشرق

١٨ — الامراض القوبية والخنازيرية

إن الامراض القوبية موجودة بمصر ، ولكن الاصابة بها نادرة . وإذا وقعت كان وقوعها فى جهات متفرقة ومتباعده . وهذا الوصف ينطبق على الأمراض الخنازيرية لسبب لا خلاف في وجاهته ، وهو المزاج الخاص بالمصريين وطبيعة الوسط الذى

يعيشون فيه . وبما أنه ليس لهذه الأمراض من الصفات الخاصة ما يميزها بعضها عن بعض ، فقد اكتفينا بالكلمات السابقة عن الاسترسال فى وصفها والتوسع فى بيانها

١٩ — الجدرى

الجدرى من الامراض الجلدية الأكثر شيوعاً في مصر وفتكا بأهلها . على أنه فقد منذ بضع سنوات كثيراً من قوة انتشاره وشيوعه ، بفضل مااتخذته الحكومة من الوسائل لأجراء عملية التلقيح على الأطفال . والمأمول أن ينتهي الامر بانقطاع ضرر هذا الداء عن مصر كما انقطع عن الديار الاوربية

٦٠ — الجرب

الاصابة بالجرب من أكثر الاصابات شيوعا بين المصريين وخصوصاً فى صفوف الجيش . والاسباب المحدثة له فى مصر هي عينها في كل قطر آخر . وإذا كان هذا المرض أكثر شيوعا فى القطر المصرى منه فى غيرها ، فأنما يرجع السبب إلى عدم احتفاظ الناس بالنظافة و إهمالهم وسائل الوقاية

يبقي لنا أن نتكلم على مرض آخر أراني مضطراً إلى جعله ضمن هذه الأمراض وإن لم يكن من الأمراض الجلدية. أريد به مرض (الدراجونو) أي الفرتيت الذي ينشأ عن انتشار الديدان الباطنية

٢١ — الدراجونو او الفرتيت

(الدراجونو) الذى أنكر بعض علماء الديدان وجوده هو تلك الدودة الأسطوانية الشكل الخفيفة التفرطح التي يشبه حجمها حجم وتر الكمنجة ويختلف طولها من ستة إبهامات إلى بضع أقدام [١] . وهي نادرة الوجود في مصر حيث كانت ، قبل أن يفتح محمد علي بلاد سنار ، غير معروفة . والمعرضون للاصابة بداء الفرتيت هم السودانيون الذين يفدون من أقطار الحجاز والنوبة والحبشة . إلا أن هذا الحصر لايحول دون إصابة بعض المصريين به أحياناً . وقد أثبت الفحص في أحوال المصابين منهم أنهم اتصلوا بغيرهم ممن فشا بينهم ذلك الداء . وهو مايؤخذ منه أن داء (الدراجونو) أو الفرتيت ينتشر بالعدوى

---

(١) اطول مارأيته منها بلغ طولها اربعة اقدام

ولا تزال أسباب الأصابة بمرض الفرتيت سراً لم يمط عن وجهه اللثام . إذ لا يدرى أحد إذا كانت حشرة (الدراجونو) تتولد بذاتها في جسم الانسان أو تنتشر فيه بعد هبوطها على جسمه أو دخولها فيه ، من طريق المسالك الهضمية أو الرئوية ، بشكل جرثومة أو بأى شكل سواها

وكل مانعلمه حتى الآن أن دودة (الدراجونو) تتخذ من كل أجزاء الجسم مركزاً لها ومستقراً ، فلا فرق عندها بين الأنف واللسان والجذع والخصيتين والأعضاء العليا أو الأعضاء السفلى خاصة . ذلك لأنها تنتشر بدرجة واحدة على سطح الجلد كما تنتشر كذلك فى أعماق النسيج الخلوى وبين المفاصل . ووجودها فى الجسم يعلم من الشعور بأكلان شديد مؤلم كثيراً ماينتقل من مكان إلى مكان . فبعد أن يكون في جهة منه ، إذا به في جهة أخرى . وإذا وجدت دودة الدراجونو أحياناً بظاهر الجسم فأن وجودها به يعرف بظهور مايشبه خيطاً ملتفاً التفافاً حلزونياً يبدو للناظر كأنه شريان دقيق أو قناة لنفاوية ملتهبة . أما إذا وجدت بأعماق الجسم ، فأنها تحدث احتقاناً يستمر زمناً مديداً

وعلى كل حال فأجزاء الجسم المجاورة لمكان الدودة يحدث بها

بعد التهاب طويل او قصير ، دمامل تنبعث منها خيوط ليفية بيضاء
رطاحة قليلا ضمن السائل المصلي الصديدى المنبعث منها . فهذا
الخيط الليفي هو دودة (الدراجونو) بارزة بأحد طرفيها. ومتى برزت
بهذا الشكل قبض عليها وغلفت فى قطعة من المشمع وجذبت
بلطف من آن إلي آخر مدة من الزمن تطول أو تقصر بحسب
الظروف . ويداوم على ذلك أياماً إلى أن تستخرج الدودة بتمامها .
وإذا لم تخذ هذه الاحتياطات وتنفذ بالدقة فأن تلك الدودة تنقطع
وربما أدى انقطاعها إلى وقوع ضرر جديد

امراض العيون

٢٢ — الرمد الصديدى

إذا قال الرحالة الكاتب (فولنى) في كتاب رحلته أنه شهد
فى مروره بشوارع القاهرة أكثر من عشرين أعمى وعشرة عور
وعشرين احمرت جفونهم أو سال منها الصديد أو أصيبت قرنيتهما
بالبقع (١) ، فلا ينبغى أن يؤخذ هذا القول علي علاته . غير أنه
بالرغم من ذلك صريح في الدلالة علي كثرة عدد المصابين بالأرماد

(١) كتاب الرحلة في مصر والشام ص ٢٢٩ جزء ١

في القطر المصرى

والرمد الصديدى من أمراض مصر الكامنة فيها ، حيث يظهر بشكل مخالف لشكله في الأقطار الأخرى . وهو منتشر بأنحائها ولكنه في الجهات البحرية منها أكثر انتشاراً منه في الأنحاء القريبة من خط الاستواء . وهو أيضاً عادي مألوف بالمدن أكثر منه بالأرياف وبالأراضى الزراعية أكثر منه بالصحارى . فالرمد الصديدى إذاً مرض مخيف لا يفرق بين الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم ولا يميز بينهم بحسب أمزجتهم ، بل غالباً ما تتكرر إصابته للشخص الواحد . والحيوانات معرضة للاصابة به كالانسان سواء فالكلاب والقطاط والخيول والحمير والبقرات والجمال ، وبالجملة ذوات الاربع كافة ، معرضة للاصابة به . وهو وإن لم يبلغ فى انتشاره وشدته بينها مبلغه بين بني الانسان ، لا يبعد أن ترى حيوانات مصابة بالبقع فى قرنيتها أو فاقدة لعينها بسبب ذلك الداء

والرمد الصديدى كائن في فصول السنة كلها على السواء ، إلا أنه في فصل الصيف أكثر انتشارا منه في بقية الفصول . ومن خواصه أنه لا ينتشر بشدة واحدة ولا على وتيرة واحدة . بل قد

يكون عاماً أحياناً وغير خبيث وأحياناً أخرى عكس ذلك أي تكون الاصابة به محصورة في دائرة ضيقة وشديدة التأثير . وغالباً ما يجمع المرض بين صفتي الانتشار والشدة معاً

ولقد بحث الكثيرون في أسباب انتشار الرمد الصديدي بمصر ، فقال بعضهم إنه ناشيء من شدة سطوع الضوء وانعكاسه علي الأراضي الرملية والمنازل المبيضة بالجير . وذهب فريق آخر إلى أن سببه العثير الذي تثيره الرياح وتسفيه على عضو الأبصار . وعلل فريق ثالث انتشاره بامتلاء الجو بجزيئات ملحية مهيجة كجزيئات النطرون وملح البارود وكلورور الصوديوم (ملح الطعام) وغيرها . وهنالك فريق رابع يسند تلك العلة إلي تأثير رياح الخماسين

والذي نرتأيه أن لا شيء من التعليلات السابقة بكاف لبيان الحقيقة وأن الأسباب المختلفة التي سبق سردها ليست من الأسباب الصحيحة لانتشار المرض . وذلك لأنه إذا فرض كون هذا المرض حادثاً عن تأثير أشعة الضوء فلماذا نرى الأصابة به في غاية الندور بالجهات الأخرى التي يزيد سطوع تلك الأشعة فيها عليها في مصر ، كالصعيد الأعلى وبلاد النوبة مثلا . وإذا فرض كونه ناشئاً عن سقوط العثير أو الرمل في العين فلماذا لا يصاب أهل

الصحراء بذلك الداء . وإذا فرض كونه مسبباً من انتشار جزيئات ملحية في الجو وتعلقها به فلماذا لا يصاب الذين يشتغلون في المناطق النترية وبين الخرائب والأطلال التي يكثر فيها ملح البارود بنسبة أكثر من نسبة الذين يصابون به من غيرهم (١)

فللرمد الصديدى اذاً أسباب غير التى انتحاها أصحاب تلك الآراء في تعليله ، وهي عين الأسباب المحدثة للأمراض الكامنة الوبيئة . ومن المحتمل أن تكون الأسباب الحقيقية للمرض ذات علاقة بأحوال الطقس والجو أو غيرها مما لم نهتد اليه بأبحاثنا

ولست أنكر أن من بين الأسباب التي ذكرت أسباباً يصح أن تفضى الى المرض وأن تكون الذريعة لظهوره وانتشاره . إلا أنني أراها غير كافية وحدها لاحداثه لأنها من الأسباب المؤدية الى غالب الأمراض . ولهذا أذهب الى أن هناك سبباً آخر للمرض ، بل شرطاً أساسياً له وهو الذى لم يصل اليه علمنا بعد

ومن الأسباب الكثيرة التي تؤثر قليلاً أو كثيراً في انتشار المرض ، أسباب فعالة جداً هى التي يظهر فعلها بمنع العرق منعاً باتاً

---

(١) تيسر لنا عمل هذه الملاحظة بالقاهرة حيث استمر عمال عديدون يشتغلون زمنا طويلا فى ازالة انقاض الخرائب التى تحتوى المقادير العظيمة من النتر

أو بتقليله ، كتغيير الطقس وتأثير الهواء البارد أو الرطب أثناء تبال الجسم بالعرق الخ

وهناك ظروف أخر تهيء الأشخاص الى الأصابة بالرمد الصديدى ، وهى ترتبط بشروط وأحوال مختلفة كالمزاج والسكنى والصناعة ونظام المعيشة . غير أننا نكرر هنا أن هذه الأسباب جميعاً لم تكن إلا عرضية وثانويه ، ولا يمكن أن يكون لها تأثير فعال الى حد ما إلا إذا التقت بالسبب الأصلى أو الشرط الأساسى

وقد أسلفنا أن الرمد الصديدى تتفاوت درجات شدته . والعادة أنه إذا كان فى أوائله ، يمكن للباحث بمجرد النظر في أعراضه الاولى معرفة ما إذا كانت الأصابات به ستكون خفيفة او خبيثة . ففى الحالة الأولي أى إذا كانت الأصابة خفيفة يشاهد احمرار خفيف منتشراً فى الغالب على الملتحمة الجفنية وتبقى منحصرة فيها أو لا تمتد نحو الغشاء المخاطي العينى إلا بضعف . وفى الوقت نفسه وأحياناً قبل ظهور الالتهاب يشعر المصاب بألم خفيف فى العين واغريراقها ثم يحس بما يشبه وجود رمل على الاغشية العينية . فهذا الشعور يسببه امتداد الفروع الوريدية المنبثة في الملتحمة . ولا يخفى

يوم أو يومان بعد ذلك حتى تفرز المخاطية الملتهبة مادة مخاطية تختلف درجات كثافتها وميلها الى أحد اللونين الأصفر أو الأخضر الخ ضعفاً وشدة . ويتعلق المخاط المنفرز بالأهداب ويلصق الجفون بعضها ببعض أثناء النوم . وهذا الأفراز ، إذا استمر أياماً ، يقل شيئاً فشيئاً بالعلاج فتعود العين المصابة الى حالتها الأولى العادية

ذلك هو السبب الطبيعي للداء ولكن الأحوال تسير غالبا على غير هذا المنوال أى أن المرض لا يتسع نطاقه بالشكل الخفيف الذى جئنا من الكلام عليه . وسواء أكان ظهوره فجأة مقرونا بالأعراض الشديدة أم كان سيره بطيئا في مبدأ الأمر ثم ازداد سرعة على حين غرة ، فأنه يستمر طويلا فى أغلب الأصابات التي من هذا القبيل وتسوء مغبته . ذلك لأن الأعراض جميعاً فى مثل الأصابات المذكورة تظهر بأقصى مايكون من الشدة ، فيتناول الالتهاب سريعاً مجموع المخاطية ويحدث في الحال تورم الجفون . ويحل محل السائل الصديدى الذى سبقت الأشارة اليه ، الدموع المحرقة اللذاعة المتواردة من مصادر الدموع ومستقراته ومن قناة الأنف وجميع الأجزاء المغشاة بالمخاطية . وقد لا يقتصر هذا الاختلال والتهتك فى الغالب على الملتحمة . فأنه بعد

أن يتلف الالتهاب هـذا الغشـاء ، يمتد إلى الأجزاء الباطنـة فيحدث بهـا انتفاخاً يبلغ من العظم حداً ينشـأ عنه أن العين ، وقد لانت بتـأثير الالتهاب تنفجر انفجاراً مصـحوباً بآلام شديدة فتسيل منها الأخلاط السائلة وتنسـاب البلورية وربما تفرغت من كل ماتحتويه وهذا الانفجار تتبعه عادة خفة فى الألم سريعـة فتلطف فى الحال جميع الأعراض العامة التى اشـتدت بالتأثير السمباتوى لهذا المرض الموضعي ، وتزول شيئاً فشـيئاً. ولـكن المريض يكون قد دفع ثمن هـذه الراحة غاليـاً جداً بفقده إحدى عينيه

والأصابات التى من هذا القبيل فى غاية النـدور لحسن الحظ ، وفيما بين هـذه الدرجة القصوى من بحران المرض وما سـبق الـكلام عليـه من نوعه الخفيف فى مفتتح هـذه الفقرة درجات عديدة تتوسط هذين الطرفين، يظهر أغلب الأصابات الرمدية فى واحدة منها

هـذا وللرمد الصـديدى خطة سـير ونهاية تقف عندها تخالف كلتاهمـا الأخرى وتتفاوتان بحسب شـدة المرض من جهة والظروف المحيطة به من جهـة أخرى . ومتوسـط مدة

الاصابة من ستة أيام إلى عشرة ، فأما يدخل بعدها فى الحالة المزمنة وإما يتقلب فى أدوار مختلفة لظواهر مرضية أو إصابات جديدة سنتناولها بالبحث فيما يلى

والعلاج القانونى للرمد الصديدى يتوقف فيما يظهر على استعمال الوسائل المقاومة لحرارة الجوف والمانعة لسخونته منعاً باتا ، وذلك باستعمال الحجامة العامة والموضعية وأخذ الأشربة الملينة ، وإلى هــذه الوسائل لجأنا فى المبدأ مسترشدين بطبيعة المرض الالتهابية . ومع هذا فلا دواء من هذه الأدوية جاء بالفائدة القاطعة حتى لقد تساءلنا عما إذا كانت الوسائل المضادة لالتهاب الجوف لا تجدى نفعا ، كما أكده العلامة (بونبيه) ، بل ربما كان ضررها أكثر من نفعهـا . وقد داخلنا هذا الشك عقب أن أتيحت لنا الفرصة لملاحظة التأثير الناشىء عن استعمال بعض الوسائل المجربة . ذلك أننا أخذنا مركبا من جزئين متساويين من سلفات الزنك وسلفات الألومين ، وأذبنـاه فى الماء المقطر حتى بلغ درجة التشبع . فلما شهدنا النتائج الحسنة التى ظهرت من هــذا الدواء قررنا العمل به . وقد استعملناه لأنفسنا ولجميع مرضانا فلم نجد إلا ما يسرنا من سرعة تأثيره .

على أنه لا يجوز الالتجاء إلى هذه الوسيلة إلا فى حالة التحقق من عدم وجود قرحة فى أغشية العين

والآن وقد أسهبنا فى الكلام على الرمد الصديدى فلنذكر شيئاً عن الامراض المختلفة للعين ، وهي الناشئة عن تكرار الأصابة بالرمد الصديدي قليلا أو كثيراً

٢٣ — الظفر أو الضفر

من أمراض العين التى تعقب فى الغالب التهاب غشائها المخاطى مرض الظفر المعروف عند العامة بالضفر وهو شائع فى مصر وينتشر فى العين الواحدة فتصاب منه مثنى وثلاث ورباع إلى أن يغطي القرنية تحته فلا تعود ظاهرة لعين الرائى

٢٤ - الساد او الماء الساقط فى العين

هذا المرض المسمى أيضا بالكتاراكتا يخلف أحيانا المرض الصديدى خصوصا إذا تكرر وكان شديداً . ومع هذا فأنه في مصر أندر مما يخطر بالبال ، إذا روعيت كثرة الاصابات الرمدية . وقد شهدنا في إصابات الكتاركتا التى أتيح لنا إجراء

عمليتها حصول الالتحام غالبا بين البلورية أو غشائها والقزحية

٢٥ — الشتر أى انقلاب الجفن للداخل

هذا الداء ينتج عن التهاب العين والتحام القروح التى تحدث في أغشيتها . ونعتمد الآن فى علاج هذا المرض على الوسائل المعتادة ، وهى حزّ إربة من جفن المريض فى جهة منه تبعد قليلا عن الغضروف ، ثم نضم حافتى المكان الذى قطعت منه الأربة بخرزتين (غرزتين) . وهذه الطريقة سريعة فعالة ، لأن الندبة التى تنشأ عنها تكون قليلة العرض

٢٦ — الشعرة

يخلطون كثيراً بين الشعرة والشتر بالرغم من الفارق العظيم بين الداءين ، فأن الشعرة ليست إلا انحرافا في الأهداب لا دخل له فى حالة الجفون . ويكون انحرافها قاصراً على صف واحد منها بينما يحفظ الصف الآخر اتجاهه الطبيعي . ولم تكن الشعرة مرضا متولداً من الرمد ، وإنما هى أحد الاسباب المحدثة له . وهذه حقيقة لاريب فيها ومن الميسور إدراكها وتفسيرها

بالالتهاب الذى تحدثه من جراء احتكاك الأهداب المنحرفة بكرة العين . فمما يحسن إذاً معالجة هذه الحالة الشاذة وهو ما يتيسر الوصول إليه بالطريقة الآتى بيانها بعد :

يجلس المريض تجاه الجراح فيدخل هذا الأخير بين العين والجفن ملعقة صغيرة من الباغة بحيث يمد الغضروف الطرسى فى الوقت الذى يدفع فيه أحد المساعدين جلد الجبهة على شكل ينقلب معه الغضروف انقلاباً خفيفاً إلى الخارج ونحو الجهة العليا . فعندئذ يقوم الجراح بعمل حزّين على حافة الجفن بالقرب من صف الأهداب ، بحيث يتصلان ببعضهما من طرفيهما المتجاورين ، وتحصر بينهما إربة من الجلد تنتهي بزاوية حادة جداً . ثم تنتزع هذه الأربة ويترك الجرح لنفسه . فأذا التأم أفضى التئامه إلى اتخاذ الأهداب الاتجاه الطبيعي . وهذه الطريقة بسيطة وصالحة معاً ، وقد حصلنا بواسطتها على نتائج جليلة

امراض الاعضاء التناسلية والبوليه

٢٧ — الحصاة المثانية

أغفل المؤلفون الذين كتبوا عن مصر ذكر الحصاة البولية فى مصنفاتهم ، ولم يذكرها منهم سوى النزر اليسير والسبب فى ذلك أنهم كانوا لا يستطيعون البحث عن الداء أو أنهم توهموا عدم وجوده بالقطر المصرى اعتقاداً منهم بأنه خاص بالمناطق الباردة الرطبة . ومع هذا فالأمراض الحصوية كثيرة التواتر فى القطر المصرى . وقد قمت بأجراء مائة وستين عملية منها ، وهو ما يكفي لأدحاض أقوال المؤلفين الذين يسندون الأسباب الأصلية للأمراض الحصوية إلى رطوبة الطقس وبرودته وإدمان التغذى باللحوم

ومن الأمراض المختلفة التي سبق لنا ذكرها أمراض كثيرة لاتنتشر إلا فى الوجه البحرى أى في القسم الشمالى من القطر . والأمراض الحصوية من هذا القبيل موجودة ، ولكننا لاندرى تعليلا لذلك . أما التعليلات المختلفة التى ساقها بعض المؤلفين وتمسكوا بها فليست بكافية فى نظرنا لتأييد هذه الميزة

والطريقة الجراحية التى حصلنا بواسطتها على كثير من النتائج الحسنة ابتكرها الأستاذ (فاكا برلنجييرى) وتسمى طريقة الرفو أو الرفاية التى بها يمكن الوصول إلى المثانة من أقرب طريق ، فى المكان الذى يكون الجلد فيه رقيقاً جداً . دع أنه لاخوف على العروق والأوعية الشريانية . وكل ما يمكن أن يخشى منه حادث وحيد من المحتمل أن يطرأ أثناء العملية . على أن من الميسور اجتناب ضرره باتخاذ وسائل الحيطة ، نريد به الوصول إلى الشرج . وقد حدث ذلك لى مرتين فكنت فى كل منهما أتمم قطع الأجزاء الرخوة منعاً لتكوّن الناسور

والأمراض الأخرى الكثيرة الانتشار للأعضاء التناسلية والبولية هى الأمراض الفيلية أو الجذامية التى سبق لنا ذكرها عند الكلام على الأمراض الجلدية فمرض الأيدروسيل وليس فيه من الخصوصيات مايستحق الذكر . ولذا نقتصر على ذكر شىء عن مرض الزهرى لا لكونه من الأمراض الخاصة بالأجزاء التناسلية فقط ، بل لأن هذه الأجزاء هى أكثر الأعضاء تعرضاً للأصابة به

٢٨ — الزهرى او المبارك

إن مرض الزهرى الذى يسميه المصريون بالمبارك وبداء المعيز والجمال والحب الأفرنجي الخ عظيم الانتشار في مصر بين طبقاتها الاجتماعية كافة . وهو يبدو للانظار بأعراضه وعلاماته المأثورة عنه ويتسع نطاقه بشكل قروح يكون مقرها الفم وأعضاء التناسل

أما السيلان الابيض فالأصابة به نادرة ، وإذا أصيب به أحد فلن يكون شديد الخطورة

ويرى أهل مصر فى داء الزهرى أن الأصابة به لاتستلزم أن تكون ناجمة عن علاقة غيرطاهرة بالمرأة وهم يأبون إسناده الى مثل هذه العلاقة ، إذ يقولون إنه ناشىء من فزع شديد أو شراب خبيث أو تأثير شديد لهواء بارد يصيب الكلى أو سبب آخر من هذا الطراز . ولذا تراهم لايخجلون من الجهر بأصابتهم به والتأكيد بأنه يصيب الانسان بتأثير العوامل المتقدمة كغيره من الامراض الاخرى

وطريقة المصريين فى طلب الشفاء من الزهرى من أنجع

الطرق وأشدها تأثيراً على بساطتها . ولعل صدق فعلها ناشىء عن طبيعة الطقس الذى له تأثير عجيب بمصر فى علاج الأمراض الزهرية

أما المجهزات الزئبقية فمجهولة الاستعمال بالمرة من المصريين، ولكنهم يستعملون فى الغالب مواد تثير العرق كالعشبة وغيرها . وهناك وسيلة أخرى يلجأون اليها فى ظروف كثيرة ، وهى أنهم يتجردون من ثيابهم ويدفنون أنفسهم الى الرقبة فى رمل سخنته الشمس بحرارتها ، ويبقون هكذا ساعات كاملة معرضين للحرارة الشديدة . ويكررون هذه الحمامات الرملية نحو العشرين أو الثلاثين مرة أثناء العلاج على شرط الأمساك عن تعاطي اللحوم والاقتصار فى التغذى على الخبز والعسل

وهذه الطريقة العلاجية ، مع مطابقتها للصواب والعقل ، قلما يتبعها المصريون ، لأنهم كغيرهم من شعوب كثيرة يلجأون فى طلب الشفاء من الأمراض الزهرية الى الأدوية المضحكة والأساليب العلاجية الغريبة . وإنى لأضرب صفحا فى هذا المقام عن ذكر شيء من ذلك ولا أتصدى له ، لا سيما وأن بعضه لتشمئز منه النفوس وتتقزز لمجرد ذكراه

٢٩ - الامراض السرطانية

الأمراض السرطانية نادرة الوقوع فى القطر المصرى ، والمؤكد أنه لا يرى بها ما يشاهد بغيرها من الأورام السرطانية التى تشوه وجوه المصابين بها .

ثم إن نساء مصر لا يصيبهن أبداً شىء من أنواع الاحتقان والامتلاء ، بل لا شىء من الأورام السرطانيـة التى تصيب الثديين ، ولا من الأمراض المختلفة التى تصيب عضو التناسل من السيلان الأبيض إلى السرطان الرحمى . وإذا كن مدينات ببعض الشىء بهذه الحصانة الى اعتدال مزاجهن ، فاعتقادى أنهن مدينات بها أيضا الى ما اعتدنه من لبس السراويل . فقد تبين أن الأعضاء السفلى أى الحرقفتين وأسفل البطن تصان بهـذه الوسيلة من فعل الهواء بخلافها فى الأوربيات اللائى يندفع الهواء فى ملابسهن التى ، لكونها تشبه القمع المقلوب ، تترك جزءا من الجسم معرضا للهواء البارد أو الشديد فتقف حركة العرق فيرتد الى الأعضاء التناسلية الداخلية ويصيبها بمختلف الأدواء

واستعمال السراويل مهمل بالمرة في أوروبا ، مع عظم فائدتها

للصحة وموافقتها لدواعى الحياء والعفاف . دع أنها، بصرف النظر عن هاتين المزيتين ، تفيد المرأة أجل فائدة من حيث كونها تسهل عليها القيام بفروض النظافة والتطهر ، لهذا لا يسعنا إلا التوصية باستعمال السراويل في جميع البلاد وبهذه الوسيلة يتأتى استئصال ذلك الداء الكثير الانتشار فى البلاد الأوروبية

٣٠ — الأمراض الصدرية

إذا كان لمصر أمراض خاصة بها فأن بها أمراضا أخر لا تشاهد إلا نادراً . نذكر منها أمراض الصدر على اختلاف أنواعها كالالتهاب الرئوى والبرسام (ويسمى أيضا : ذات الجنب، الجناب ، الشوصة) . وما سنذكره عن السل الرئوى ينطبق على مصر في كل زمن حتى العصور القديمة . فقد ذكر بليناس أن الرومانيين كانوا يقصدون الى هذا القطر لطلب العلاج من هذا الداء أو منع استفحاله . ولقد تأكدنا هذه الحقيقة بذاتنا ودلتنا تجارب الخمسة عشرة السنة الماضية على أنه لم يوجد من الوطنيين المصريين سوى عدد يسير ظهرت عليهم أعراض السل الرئوى . لذا لا نتقدم على التأكيد بما إذا كان المرض الذى

يشير اليه هو السل الرئوى نظرا إلى ما هنالك من استحالة تشريح جثث الموتى به . والسل الرئوى أندر فى بلاد النوبة وسنار والحبشة منه فى مصر ، ولكن إذا انتقل سكان هذه الاقاليم منها إلى أصقاع جوها أكثر اعتدالا من جو بلادهم ، فأنهم يصابون غالبا بالأمراض الصدرية . ويموت من الأحباش والسودانيين المقيمين الآن بالقطر المصرى الجم الغفير بهذا الداء فى كل عام

ويظهر من جهة أخرى أن الجاليات الأجنبية النازلة بمصر وأصلها من الأقاليم الشمالية كالأتراك واليونان والفرنسيين والانكليز والألمان والأيطاليين وغيرهم متحصنة كالوطنيين من ذلك الداء . فأنه لم يصل الى علمي ما يفيد إصابة أحد منهم بالسل الرئوى . والذين جاءوا منهم مرضى به قد شفي الكثيرون منهم على ماشهدته وخبرته بنفسى . ومن لم يشف منهم تحسنت أحوالهم تحسناً محسوساً . وهو ما يؤخذ منه أن الحرارة من أقوى العوامل للوقاية من انتشار السل إما بسبب استمرار العرق وإما بتأثير أحوال وظروف لا زلنا جاهلين بحقيقتها

ومما لا ريب فيه أن ما أبديناه من الملحوظات عن مرض

يحصد النفوس حصداً فى البلاد الأوربية ، سيفيد الاطلاع عليه أطباء البلاد جميعا ويحملهم على طرق باب البحث فى هذا الموضوع

وإذا عنّ لى أن أمحض المصريين الذين تعتريهم الأمراض الصدرية ويموتون فى أوطانهم وسائر المعرضين للأصابة بها النصح بأن يأخذوا فى الحال سمتهم الى مصر ، بدلا من تنقلهم بممالك أوروبا وطوافهم بأرجائها في طلب شفاء هو منهم مناط الثريا ، فانما هو لأن حصولهم على مأمولهم لا يكون إلا بشد الرحال الى ذلك القطر

ومع أن الأمراض الصدرية الأصلية نادرة جداً فى مصر ، فكثيراً ما تشاهد بها الالتهابات الرئوية والأمراض الربوية . وأسباب هـذه الأمراض فيها عين أسبابها فى البلاد الأخرى إذ يكون ظهور الأصابة بها عقب تغير الطقس أثناء تعريض الجسم للهواء البارد وهو مكسو بالعرق أو أثناء الخروج من الحمام الخ

وهذه النزلات التى تزول أحيانا فى أيام قليلة تمادى أحيانا أخرى زمنا طويلا بدون أن تؤدى الى الأصابة بالسل الرئوى ؛

وهو ما يفيد أن السل الرئوى يكفى ، لازدياد خطورته بانتشار أدرانه ونحوها ، التهيج والالتهاب

٣١ — الأمراض المخية

من البدهى فى بلاد شديدة الحرارة كمصر يتعرض أهلها لحرارة الشمس ولا يقيهم من تأثيرها أنواع القلانس التى اتخذوها غطاء لرؤوسهم أن تتواتر فيها الأصابات بالأمراض المخية.

وهذه الأمراض التى يطلق المصريون عليها اسما شاملا لها بقولهم «دم وميه» هي احتقانات مخية والتهاب فى السحايا أو فى مادة المخ نفسه شائعة فى الوجه القبلى وتقل انتشاراً بدنو الانسان من الوجه البحرى أى الى الجهات الشمالية ، وهو ما يؤيد ما ذكرناه عن الأسباب المولدة لها . والمرض يؤثر عادة بسرعة شديدة وقد يميت المصابين به في أربع وعشرين ساعة أو ست وثلاثين أو ثمانى وأربعين ، وقلما وصل بالمصاب إلى اليوم الرابع. وقد أتيحت لنا الفرص للقيام بتشريح جثث بعض المصريين الذين توفوا بهذا الداء فلحظنا ضمن ما لحظناه تهتكا عديدا من التهتكات

التى تحدث عادة على أثر الأصابة بالتهاب المخ والسحايا

٣٢ — الامراض العقلية

بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة فى مصر وانتشار المزاج السوداوى بين المصريين ، والراجح أن هذا المزاج مستمد من المزاج الصفراوى فيهم ومن تغلب النظام الكبدى ، يندر حدوث الأصابة بالأمراض العقلية فى ذلك القطر . فالقاهرة مثلا التى يبلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف نسمة ليس بها ما يزيد على ثلاثين الى أربعين مجنوناً من الرجال والنساء . غير أن هذا العدد لا يشمل المجاذيب الذين يشاهدون فى الطرقات مختلطين بالسابلة أو جالسين بالأبواب ، والمسلمون يحترمونهم ويكرمونهم ويرعون حرمتهم

وإذا كانت نسبة المجانين الى مجموع عدد السكان فى مصر أقل منها بكثير فى أقطار أوروبا ، فهذا مما يؤيد رأى من يذهبون الى أن الأمراض العقلية إنما هى أثر من آثار شجون النفس ومتاعبها ، كاجهاد الفكر وهمّ القلب ، لا نتيجة تهتك حسى أو اختلال مادى أصابا المخ . وفى مصر كما فى بلاد الشرق جميعاً ، لا ينطبق حب المجد والتطلع الى المعالى على أنظمة الشعوب الشرقية

ولا على عاداتها . ذلك لأن ميولها وأهواءها منصرفة إلى تلك الصفات . وهذا هو السبب فى شيوع الافتتان بالدين بين اولئك الأقوام

٣٣ — الامراض العصبية

هذه الأمراض نادرة جدافى مصر ، وإن يكن هنالك من الظروف مايدعو الى الأصابة بها ، كالأمزجة المختلفة للأهالى وحبهم الدعة والسكون والتزام النساء دورهن واستقرارهن فيها طول وقتهن ، فلا عجب إذا كانت أمراض الهيستريا والتشنج والصداع والأمراض العصبية على اختلافها تكاد تكون مجهولة فى القطر المصرى

٣٤ — اوجاع المفاصل

وهناك أمراض أخر الأصابة بها نادرة جداً فى مصر ، وهي الأوجاع المفصلية (الرومانزمية) .وقد تتاح الفرصةأحيانا بالرغم من ذلك لمشاهدة بعض الأصابات بها ، وان تكن أقل مما كان يخطر بالبال، بالنسبة لحالة الطقس فى القطر المصرى ورطوبته،

وسرعة الانتقال فيه من درجة الحرارة إلى درجة مناقضة لها . غير أن من السهل تعليل قوة انتشار الأمراض الروماتزمية بأن الأسباب المفضية إليها تقترن فى الغالب بأسباب أخر تعطل فعلها أثناء سيرها لاسيما وأن إفراز العرق فى الجو المصرى يعود بسهولة كانقطاعه

٣٥ — النقرس أو داء الملوك

ومن الأمراض غير المعروفة بالقطر المصرى النقرس أو داء الملوك . فأن هذا الداء لا يرى فيه البتة . واختصاص مصر بمثل هذه الميزة برهان جديد على أن الأسباب المولدة لها لم تكن عين الأسباب المحدثة للامراض الروماتزمية . وإذا كان المصريون محصنين من الأصابة بداء النقرس فماذلك إلا لقناعتهم فى مطالب النفس وعدم اكثارهم من تناول اللحوم وإمساكهم بالمرة عن المشروبات الروحية

٣٦ — الكزاز (التيتانوس)

وهنالك مرض آخر يتبادر الى الذهن أنه شائع فى القطر

المصرى لمجرد كونه من الأمراض الشائعة فى المناطق الحارة ، أريد به الكزاز (التيتانوس) . والحقيقة أنه نادر جدا فيها ، فلقد أقمت بها خمسة عشر عاما فى وسط المستشفيات التي توافرت لى فيها فرصة فحص الجرحى الكثيرين والنظر فى شؤونهم العلاجية فلم أجد إصابتين كليتين بهذا الداء ، ولم يتفق لى قط أننى رأيته منتشراً من تلقاء نفسه

٣٧ — الكلب

أوجب الأمور للعجب أن يكون الكلب مجهولا بالمرة فى القطر المصرى ، مع ما هو معلوم من اشتداد حره واحتواء مدنه وقراه ما لا يحصى له عدد من الكلاب الجائعة العطشى . وبهذه المناسبة أؤكد أن داء الكلب لم تشاهد قط إصابة به فى مصر سواء على الإنسان أو الحيوان

٣

الطب عند المصريين

العهد الاول لطب فى مصر — مدرسة الاسكندرية أو رواق الحكمة — الطب فى زمن العرب — الطب فى الوقت الحاضر — التمييز بين الاطباء والجراحين — وظائف الفريقين — العمليات الجراحية التى يقوم بها الجراحون

٣٨ — العهد الاول للطب فى مصر

بالنظر إلى أن مصر كانت قديماً مهد العلوم ومنبع العرفان ، ذهب الكثيرون الى أنها كانت كذلك بالنسبة للعلوم الطبية . وليس بمستبعد فى الواقع أن يكون هذا المذهب صحيحا ، إذا تفكرنا فيما كان يستلزمه تحنيط الأجسام فى تلك العصور من الأحاطة ببعض المعلومات الطبية ، وفى أن موسى (عليه السلام) اقتبس من المصنفات المصرية ما دونه فى الكتب المقدسة من قواعد علم الصحة . على أنه لا يوجد دليل وضيد على أن العلوم الطبية كانت لها فى تلك الأعصر القديمة سوق رائجة وشأن خطير بمصر ، لا سيما وأن الآثار الهيروغليفية ، وهي صحائف دونت فيها تواريخ الفراعنة لا تحتوى ، كما أيده

بعض المؤلفين ، إشارة ما ترتبط بالطب أو الجراحة بينما تتضمن البيانات الوافية فيما له مساس بالفنون والصنائع والمعيشة البيتية عند قدماء المصريين . ولقد أنعمت النظر ، خلال رحلتى بالوجه القبلى عام سنة ١٨٣٧ ، فى جميع الآثار القائمة الى ما يلى الشلال الأول ، فلم أجد على جدرانها من النقوش ما يشير الى شىء يتعلق بعلم الطب

ثم إن (هيرودوتس) ومن بعده (ديودورس الصقلى) ذكرا أشياء كثيرة عن الطرائق الطبية التى كانت متبعة عند المصريين فى العصور القديمة ، ولكن ليس فيها ما يدل على أن علم الطب كان موجوداً بالقطر المصرى في صورة غير الصورة الغليظة الشوهاء التى تجعله الى الدجل والتخرص أقرب منه الى الفن الصحيح القائم على القواعد الثابتة والأصول المقررة . ونرى بهذه المناسبة أنه مما لا يخلو من الفائدة إيراد بعض أقوال (ديودورس الصقلى) عن الطب في مصر كما كان يباشره سكانها الأقدمون بمقتضي طرائقهم المتبعة فى ذلك الوقت . قال :

« يعالج المصريون أمراض الجسم بالحمية والمسهلات والمقيئات. وكان فريق منهم يراعون هذه الوسائل يومياً والفريق

الآخر مرة فى كل ثلاثة أيام أو أربعة . وإذا كانوا يذهبون بوجه عام إلى أن علة الأمراض كلها جزء زائد على الضرورة من الغذاء يبقى بعد الجزء الذى تصرف فى الجسم بفعل الهضم ، فقد رسخ فى نفوسهم الاعتقاد فى أنهم باتباعهم تلك الوسائل يستأصلون جرثومة الآفات كلها ويضمنون لانفسهم الاحتفاظ بصحتهم . وينظم الأطباء علاج المرض بالتطبيق على القواعد والمبادىء المقررة التى انتقلت اليهم عن أسلافهم. فأذا اتبعوها ، ولم يحيدوا عنها قيد أنملة وحرصوا على شروطها المقررة فى الكتب المقدسة ثم لم يوفقوا لانقاذ المريض من مخالب مرضه ، فلا لوم عليهم ولا تثريب من أحد بل ولا قدرة لأى كان على مقاضاتهم أمام المحاكم . أما إذا سلكوا فى علاجهم طريقاً منافية للمدون المبين فى تلك الكتب ، فأنهم يساقون الى موقف المحاكمة حيث يمكن أن يكون الأعدام جزاءهم فى النهاية . وكان الشارع يفرض على الدوام أنه لن يوجد من الأطباء من يستطيع تحوير الطرق العلاجية المعمول بها منذ القرون الخالية والمتفق عليها من أكابر أساتذة الفن »

ومهما يكن من الطرائق الطبية والوسائل العلاجية التى

كانت متبعة من المصريين ، فأن علم الطب لم ينهض نهضته ، ولم يعتبروه من العلوم المقررة القواعد إلا بعد اتساع نطاقه فى بلاد اليونان وتقررت قواعده من علمائها . وعليه فلم تشيد للطب هياكل ولم تقم من أجله معاهد إلا بعد أن اشتهر بهذا العلم فى بلاد اليونان جملة من أساطينه مثل (طاليس) و (هرقليطس) و (فيثاغورس) و (أبقراط) . بل أن مدرسة الاسكندرية الشهيرة برواق الحكمة لم يظهر لها أثر فى الوجود إلا بعد أن شيدت مدرسة (كوس) ومدرسة (أثينة) وسطع ، نور العلم الطبي منهما سطوعا خطف بسنائه الأبصار وحير الألباب والافكار

٣٦ — مدرسة الاسكندرية

انتقلت الى مصر فنون اليونان وحضارتهم بعد فتحها على يد الاسكندر الاكبر ، وقام اثنان من أصحاب (أرسطو) وهما (هيروفيلس) و (ايرازستراتس) بانشاء مدرسة الاسكندرية التى انبعثت منها أنوار العلوم فى أنحاء مصر ، فلم تكن إلا مكملة لمدارس اليونان وقد زيد فيها على درس نظريات (أبقراط)

في علم الطب دراسة علم التشريح . وبعد هذا العهد بزمن تألفت فرق من الأطباء فيها لكل فرقة مذهبها ونظرياتها، فكان التنافس بين هذه الفرق فى تمحيص الحقائق العلمية من بواعث ازدهار تلك المدرسة وانبعاث أضواء العلوم منها قروناً متعاقبة . وقد ظهرت فيها مذاهب أرباب التجارب والجالينوسيين وغيرهم ، وظلت نافقة السوق إلى الوقت الذى ظهرت فيه الحروب الدينية ، فكان ظهورها وما استتبعه من استقرار المسيحية ثم من غارة المسلمين فى أوائل القرن السادس سبباً فى القضاء الأخير على العلوم والآداب فى القطرى المصرى

٤٠ — الطب على عهد العرب

انساق علم الطب إلى الامام بقوة شديدة كما ينساق الشيء بقوة التيار . وفى الوقت الذى تتابعت الفتوحات الأسلامية دراكا فيه ، كانت جنود المسلمين لا تتفرغ لشيء من الأعمال سوى التخريب والتدمير . ولكنها كانت كلما توطدت شوكتها فى بقعة اقتدت بالفاتحين الذين رضخوا لمدنية الأمم المغلوبة بهم على أمرها ، وجعلوا عقولهم قيد سيطرتها المعنوية . وكان

النسطوريون قد أنشأوا ببلدة (جنديسابور) ، قبل ذلك العهد بسنوات، مدرسة لتعليم الفلسفة والطب . فلم يمض زمن حتى أمها من أثينـة أصحـاب مذهب أفلاطون فراراً ممـا ترادف وقوعه عليهم من اضطهاد أمراء الغرب . فكانت مبادئهم فى التعليم وأساليبهم فى بث أنواره ، هي التى وجدها العرب لما وصلوا إلى تلك المدرسة التى لم تلبث أن أصبحت على عهدهم ينبوعاً استمدت العلوم الطبية منه ، للمرة الثانية ، حياة جديدة .فنبغت منهم طائفة من الأطباء ازدانت بعرفانهم وبراعتهم البلاد الشرقية في أيام الخلفاء . ونذكر من هؤلاء الأطباء النابغين النابهين الذين يصح القول بأنهم أتموا مابدأ به أساطين الطب اليونانيين كأرسطو وجالينوس وغيرهما ووصلت الينا مؤلفاتهم فى تضاعيف الزمن كالعباس وابن زهر الأشبيلي وابن رشد وداود وغيرهم وغيرهم

ولما ثل عرش الخلافة العباسية ببغداد ، وكانت العلوم قد لقيت من عرب الأندلس الاقبال العظيم ، وقامت لها سوق رائجة أصبحت مصر صفراً منها بانقطاع الناس عن تلقيها وانصرافهم الى مادونها ، فغلقت المدارس أبوابها وطرحت المصنفات في زوايا النسيان ومسخ علم الطب واندثرت معالمه

وأصبح وقفا على أصحاب المجربات الذين عمدوا الى الوسائل المضحكة فى ممارسته وميزة خاصة بالحجامين الذين انتحلوا من ثمّ لأنفسهم الاختصاص بمباشرة العمليات الجراحية

٤١ — الطب فى العهد الحاضر

ذاك هو الحضيض الذى سقط علم الطب فيه عند العرب عقب القرن الثانى عشر للميلاد. ومابرح بمصر وجميع بلاد الشرق متنكسا فيه إذ أصبحت مهنة التطبيب الشريفة بالأقطار الاسلامية كافة والبلدان التى اشتهرت منها بمدارسها الطبية احتكارا لأفراد من الناس تعاهدوا على ابتزاز أموال النوكى بما احتازوه من الثقة فيهم والاعتماد عليهم فى علاج أدوائهم . وتنقسم طائفة اولئك الأطباء الى طبقتين تشتغل احداهما بالتطبيب فقط والأخرى بالعمليات الجراحية . أما أهل الطبقة الأولى وهم المعروفون باسم الحكماء فلا تتعدى معلوماتهم فى الطب غالبا بعض أصول تلقوها بطريق التواتر والنقل ، وهم يطبقونها على جميع الأمراض . وهناك فريق قليل منهم توسعوا فى معلوماتهم الطبية بالاطلاع على الكتب القديمة فاتخذوها إماما لهم فى

مزاولة صناعتهم ونذكر من هذه المصنفات بوجه خاص كتاب القانون لابن سينا . ولكنهم يمزجون ما اقتبسوه من المذاهب المدونة فى هذا المصنف بطرائق فى التطبيق تبعث على الازدراء والسخرية . فمن ذلك أنهم يقسمون الأمراض الى ساخنة وباردة وجافة ورطبة كما يقسمون الأمزجة الى كثيفة ولطيفة ويعتمدون في تشخيص المرض على حالة النبض ويتركون الأمر بعد ذلك الى ارادة الله . أما العلاج فيكون بحسب مايرونه من طبيعة المرض ، فيوصون بالمسخنات أو المرطبات أو المسهلات أو الممتنات (المقويات) الخ

ثم إن المصريين يعالجون أنفسهم فى الغالب بأنفسهم ، من غير اعتماد على أطبائهم الدجالين ، وذلك إما بطريق الألهام أو بطريق التجارب . مثاله إذا شعروا بأصابة الحمي لزموا الحمية الشديدة واستعملوا الماء ،ولكنهم قبل اشتداد المرض واستفحاله ولدى استشعارهم بالأعراض المرضية الأولى التى تظهر غالباً على أثر وقوع تغيير فى وظائف الجلد يسارعون إلى الحمام ليستثيروا فيه العرق الغزير الذى يوقف المرض غالباً وهو على وشك أن يشتد ويمتد فى الجسم . وهذه الطريقة التي تنحصر فى تحريض العرق

وبالتـالى فى تهييج سطح الجسم إلى حد ما ، لاغنى عنها لأيجاد التوازن العام بل هي أصولية أدنى إلى الصواب والعقل من سائر الطرق التي جرت العادة عليها عندنا كطرائقنا المزعومة لاستثارة العرق وهى التى لاتؤثر فى المجموع الجلدى إلا بعـد أن تهيـج الأعضاء الداخلية التى غالباً ماتكون مقر الداء المراد علاجه

أما الطبقة الثانية فتشـمل الجراحين أى أفراد طائفـة الحجامين والحلاقين كافة ، تحت رياسـة زعيم لهم يدعى جراح باشا . وهؤلاء الجراحون لم يتلقوا من التعليم الابتدائى مايكفي لتنوير أذهانهم ، ولم تتوافر لديهم الوسائل لدراسـة الفن الذى يزاولونه ، لأنهم لم يتعلموا بالمدارس ولم تكن عنـدهم الـكتب ولم يتفرغوا للبحث فى تشريح الجسم البشرى ، بل لم يكن لديهم من وسـائل الاهتداء إلى القيـام بواجب صـناعتهم سوى ما يكونون قد حصلوا عليه بطريق التجربة والممارسة أو العمليات التى أجريت على مرأى منهم بمعرفة زملائهم أو بعض الأطباء الأوربيين الذين احتكوا بهم فى أحوال نادرة جداً

ولقد كانت مصلحة صحة المستشفيات عند وصولى إلى مصر في عهدة طائفة من الحلاقين فأظهروا فى بادىء الأمر نفوراً

وقلة استعداد للتنحى عن مراكزهم لمن جيء بهم من الأطباء .
ولقدعانينا المشاق الكثيرة فى الحصول من الحكومة على الأذن
بأبعاد هؤلاء الجراحين الذين كان يراد إلحاقهم بنا أنا وزملائى،
كمساعدين لنا على النهوض بالمهمة التى وكلت إلينا

واختصاصات أولئك الجراحين من الكثرة والتشعب بما
لايخطر على البال ولا يسلم به عقل ، فأنهم على قلة بضاعتهم وضيق
نطاق معلوماتهم لا يقتصرون على تضميد الجراح وعلاج الرض
والخلع والكسر بل يمارسون من العمليات الطبية المختلفة ما
سنذكره بعد

وعادتهم فى علاج الجراح تقرير المراهم والاعتماد على
الدهانات المركبةعادة من المواد المهيجة . وفى الأصابة بالنواسير
اعتادوا وضع فتيلة فى مجرى الجرح ، ولكنهم لايقومون أبداً
بأجراء العملية الجراحية . أما الرضوض والكسور الخ ففي مصر
طائفة ذات شهرة ذائعة واختصاص واسع فى معالجة تلك
الحالات بحيث لايتعدونها إلى غيرها . وأهل مصر ينقلون عنهم
من غريب الحوادث مايرددونه فى كل مجلس ويتخذونه دليلا على
صدق علاجهم وموافقته للصواب

غير أن مجبرى القطر المصرى لا يعدون أن يكونوا كغيرهم من مجبرى سائر البلاد أى أنهم ليسوا إلا رهطاً من الدجالين الكذابين الجاهلين بأبسط المبادىء الخاصة بفنهم. وقصارى ما يعلمونه مع البراعة فيه، إنما هو إلقاؤهم فى أوهام البسطاء أنهم يشفون حالات الكسر فى حين أن ما يسمونه كسراً إن هو إلا خلع أو رض بسيطان جداً

٤٢ — الحجامة

يقوم الجراحون المصريون بأخذ الدم من الذراع أو القدم وأحياناً من اللسان، ولكنهم لا يجسرون على الحجامة فى الرقبة. وهم يستعملون لهذا الغرض مبضعاً أى مشرطاً شبيهاً بمباضعنا. وكثيراً ما يتفق لهم أثناء هـذه العمليات أن يجرحوا شرياناً، وهو ما لا يستغرب أبداً بالنظر إلى جهلهم التام بتشريح الجسم البشرى

ويكثر الجراحون المومأ اليهم من استعمال المحاجم أى قرون الحجامة وهي آلات فى الغاية القصوى من البساطة والصلوح لهذه العملية وإتمامها على مايرام. فأنها عبارة عن آنية

مخروطيــة الشــكل كشكل القرن . وتنتهي عنــد طرفها الأعلى بفتحة بجوارها صمامة صغيرة تتحرك بحسب الأرادة لأغلاق هــذه الفوّهة أو فتحها

والطريقة فى استعمال هذه المحاجم كما يأتى : يضع الجراح الطرف المتسـع من المحجم على الجسم فى المكان الذى يريد عمل الحجامة فيه ثم يجعل فمه على الجزء الأعلى منـه أى على الفوهة الضيقة ويسـتفرغ الهواء من داخله بالامتصـاص الخفيف أو الشديد بحسب الحاجة . وبعد أن يتم استفراغ الهواء يحافظ على وضعه ثم يدفع بلسانه الصمامة الجلدية المنطبقة على الفتحة

ويقينى أن هذه المحاجم قوية نافعة وأنها لهذه المزية تفضل على المحاجم المستعملة عندنا . ولا ريب أنه فى الاستطاعة تطبيق طريقتهم على محاجم من الزجاج للحصول بهذه الكيفية على نوع من المحاجم أصلح من محاجمنا المعروفة على بساطتها المتناهيــة

٤٣ — خلع الاسنان

يستعمل المصريون لخلع الأسنان ملقطاً قوياً جداً أو كلبة يجعلون نقطة ارتكازها خارج الفم . وقد أخذت طريقة خلع

الأسنان منذ زمن بواسطة مفتاح (جارنجو) بالانتشار في مصر

٤٤ — فتح الدمامل

يفتح المصريون الدمامل بعد نضجها بالمراهم والدهانات المهيجة المنضجة التي يدهنونها بها . ويستعملون لفتحها عندئذ إما المشرط أو الموسى

٥٥ — عملية البزل

يستعمل الجراحون المصريون غالباً فى أحوال الاستسقاء أى ترشيح البطن العملية المعروفة بالبزل . ويستعينون فى أدائها بالمبضع ويضعون فى الفتحة التي يفتحونها به أنبوبة من البوص كى يسيل السائل منها . ومفهوم أنه يتعذر عليهم فى الغالب القيام بعملية جراحية صحيحة مما تستلزمه حالة هذا المرض لعدم اتساع الحز أو القطع الذى قاموا به لأول مرة

٤٦ — العمليات الخاصة بأمراض العينين

ذكرنا فيما تقدم أن الشتر أى انقلاب العين إلى الداخل

من الأمراض الكثيرة الانتشار فى القطر المصرى . ونقول الآن إن الجراحين المصريين يقومون بعملية الشتر لعلاج هذا الداء كما يأتى : يأخذون قطعة من البوص يختلف طولها من نصف إبهام إلى إبهام واحد ثم يشقونها من الوسط ويدخلون فى الشق الحادث ثنية من جلد الجفن بحيث يشدون الثنية بهذه الوسيلة شداً قوياً ويتركون قطعة البوص بعد ذلك فى مكانها من الجفن إلى أن تسقط إربة اللحم المضبوطة بها بعد انفصالها منه . ولا حاجة إلى ذكر ما فى هذه الطريقة من العيوب لأنه بصرف النظر عما تحدثه من فقدان بعض مواد العين ، لاتفضى إلي نتيجة يحسن الوقوف عليها . إذ ليس بالأمكان إجراء هذه العملية بالقرب من حافة الجفن وهو الشرط الأساسى لنجاحها

أما عملية الشعرة فالجراحون الوطنيون يقتصرون فيها على انتزاع الشعر غير الصحيح الاتجاه . وهذه طريقة سيئة للعلاج لأن الشعر لايلبث أن ينبت ثانياً فلا يكون انتزاعه إلا مسكناً وقتياً للداء

وهناك فريق من الجراحين يقومون بأجراء عملية (الكتاركتا) أو الساد أو الماء الساقط في العين . ولجهلهم سر

تركيب العين وخواص تشريحها لايهتدون طبعا الى مقر الداء ولا يفقهون شيئا من ميخانيكية العملية اللازمة له . وقد يوفقون أحيانا لشيء من النجاح فيها ، وهذا هو ما شهدته بنفسى ، فقد رأيت مرارا بعض اولئك الجراحين يتصـدون لأجراء تلك العملية بالكيفية الآتية :

يحز الجراح بمشرطه صلبة بياض العين على مسافة خطين أو ثلاثة خطوط من القرنية ، ويضع في الفتحة أى مكان الحز مسبرا ليخفض به البلورية ويمزق السنفة . فاذا أنس من هذه مقاومة استبدل من المسبر بمشبك فيصل بواسطته الى الغرض المطلوب . وهذه الطريقة مع نقصها وعيبها كثيرا ما تؤدى الى النجاح بدون أن ينشأ عنها مايمكن أن يقع في الوهم من الحوادث الالتهابية الشديدة . ولعل السبب فى ذلك أن الأخلاط المائية ، وفي الغالب جزءا من الأخلاط الزجاجية ، تخرج من مكان الحز فينشأ عن ذلك عند ظهور الالتهاب ما يتقى به احتقان العضو . وهـذه الطريقة شائعة بين الزنوج فى إقليم سنار وداخل افريقية

٤٧ — رد الفتق

إذا رجعنا إلى ماذكرناه من كثرة حوادث الأصابة بالفتق في مصر فأن أول مايخطر بالبال هو أن الجراحين الذين يتاح لهم غالباً الوصول الى معالجة هذا الداء قد اعتادوا ، بالرغم من جهلهم المعلومات النظرية ، إجراء عملية رد الفتق بل العملية الخاصة به إذا مست الضرورة إليها ، بما كسبوه من الخبرة والتجربة أثناء ممارستها . على أن طريقتهم في رد الفتق كثيرة النقص والعيوب ، لأنهم يستعينون على رد الأحشاء الساقطة من فتحة الفتق بالأصبع أو قطعة من الخشب . فأذا حدث للفتق اختناق ، وهو لحسن الحظ نادر الوقوع في القطر المصرى ، فأنهم لا يلجأون إلى الآلات القاطعة بل يزاولون العمل بتلك الطريقة ، أى أنهم يضغطون على الفتق من فوق البشرة بقصد رده إلى أسفل البطن . ويقال إنهم نجحوا أحياناً في عمليتهم بهذه الطريقة ولكننى أعترف في هذا المقام بأننى لم أشهد بنفسي هذه النتيجة

٤٨ — عملية الحصوة

عملية الحصوة من العمليات التى يحرز الجراحون الوطنيون فيها أكثر مايكون من النجاح ويؤدونهـا على مايطابق أصول الفن والعقل . وهم يلجأون فى القيام بها إلى وسـيلتين ، الأولى طريق الشرج والأخرى طريق العجان . وهـذه الطريقة تكاد تكون عين التى أشار بها وجربها العلامة (سلس)

وبحسب الطريقة الأولى يدخل الجراح المصري فى الشرج السـبابة والوسـطي من أصابع يده اليسرى فيقبض بهمـا على الحصوة ويثبتها في مكانها بين الأجزاء الرخوة ثم يدس بين ذينك الأصبعين نصـل موسى . فأذا وصل هـذا السلاح إلى سطح الحصوة عمل به حزاً ليستخرجها من فتحته ، إما بأصبعيه وإما بالملقط

وبحسب الطريقة الثانية يضع الأصبعين الآنفى الذكر من تلك اليـد فى الشرج ويدفع بهما الحصوة إلى مقـدمة العجان دفعاً يجعلها بارزة . فأذا تم ذلك ثم عمل فى الحصوة حزاً مائلا أو عمودياً على الرفاية ضمد الجرح الناشىء عقب ذلك أوضم حافتيه

إحداهما إلى الأخرى ببعض خرزات الخياطة

٤٩ — عملية البتر

البتر من العمليات التى قلما يتفق للجراحين المصريين القيام بها ، نظراً إلى كراهية المصريين ونفورهم من تضحية عضو من جسمهم قد يكفيهم حذفه تكبد الآلام الطويلة أو يقى حياتهم . ولقد قامت الدلائل أمامى على هذا النفور ، فكثيراً ماشهدت أناساً ماتت أعضاء فيهم فأبوا بترها ، بالرغم من معاناتهم الآلام الشديدة ومع علمهم المزايا التى يظفرون بها إذا أجريت لهم تلك العملية

وليس بمستغرب أن يظهر المرضى هذا النفور الشديد ، فأن الجراحين المصريين يقومون بعملية البتر في الأحوال النادرة التى يذعن فيها المريض لأجرائها ، على أسلوب هو أقصى ما يتمثل للخاطر من الفظاعة والوحشية

ذلك فضلا عن أنهم لا يتقيدون فى العمليـة بقاعدة معينة ولا يتخذون لأجرائها مكاناً مختاراً لهم . ونظراً الى مايبـدونه فى القيام بها من البطء والغباوة اللذين يأبى العقل تخيل إمكان

حدوثهما ، لا وسيلة عندهم يلجأون اليها في إيقاف النزيف الدموى الناجم عن البتر سوى وضعهم الفضلة أى الطرف المبتور من الجسم فى الزفت المغلى

وما ذكرناه الآن عن الوسائل التى يلجأ اليها الجراحون الوطنيون لايقاف النزيف ينهض دليلا على جهلهم أن هناك أربطة للأجزاء الجريحة يمتنع النزيف بواسطتها . ولعل هذا هو سبب إحجامهم عن التصدى لعلاج الأورام الوعائية وجهلهم المطلق بوصل الشرايين فى حالة انقطاعها

٥٠ – اصلاح تشويه الوجه

أما عيوب الوجه المشوهة له ، فلم يكن علمهم بوسائل إصلاحها أوسع منه بعلاج الأمراض التى سلف ذكرها . فأنهم مثلا يعجزون عن إجراء عملية ما لاصلاح تشويه الأعلمين والعلماوات . واتفق لى لأول مرة أن قمت بأجراء هذه العمليـة فوجهت إلىّ من الحاضرين بل ومن المريض نفسه عبارات اللعن والسخط . وكانوا لاينفكون أثناء العمليـة عن تذكيرى بأنني عبثاً أحاول شفاء مرض ساقه الله إلى صاحبه

وابتلاه به ، وأنه لمن سوء التدبير الانبراء لعلاجه . ولما مضى على العملية أربعة أيام أو خمسة ، ورأى أولئك الناس مريضهم ، وقد حصل له تمام الشفاء ، أخذوا يقولون : ياللساحر ! ياللماكر الغادر ! الخ . ولولا أنهم يعرفون أن حماية الحكومة تشملني لأساءوا إليّ وألحقوا بي صنوف الأذى

٥١ – الختن والجب

وفيما عدا العمليات المختلفة التي سبقت الأشارة إليها عمليتان مابرحتا داخلتين في اختصاص الجراحين وهما الختن والجب (الخصى)

أما الختن فيحدث بواسطة مقابض من الحديد يقبض بها على الطرف المقدم من القلفة ثم يؤتى بموسى يقطع بها الجزء المراد حذفه منها

ولقد سبق لنا الكلام على جب الخصيان ، وقلنا إن هذه العملية الفظيعة عمل جلاّد لا جرّاح . وقد جئنا بما فيه الكفاية من وصف الأسلوب الوحشي الذي تتم العملية بمقتضاه . فلا حاجة بنا إذاً إلى التكرار

٥٢ — الخافضات والدايات والقوابل

في مصر كما فى بلاد الأسلام كافة يقوم على خدمة النساء والعناية بهن نساء مثلهن . والخافضات منهن هن اللائى يقمن بخفض البنات و خياطة بعض أجزاء الأعضاء التناسلية فى الجوارى، ويتولين أيضاً توليد الحوامل ويؤدين لدى السيدات المسلمات وظيفة الأطباء

ولا خلاف فى أن هذه العادة التى يدعو اليها بالبلاد المصرية الغيرة والحياء الذى لامحل له ، تفضى إلى عواقب خطيرة جداً بسبب جهل تلك النسوة أصول الطب . وليس في قدرة مخلوق أن يلم بأطراف الطرائق المضحكة والأساليب المزرية والشعوذات المخزية التى يلجأن اليها لأصابة الأغراض المطلوبة . لذا نكتفي بالقول بأن من أهم أعمالهن إيقاف السيدات على أسرار إزالة العقم . وإذا كانت وسائلهن لذلك لاتفيد فوسائلهن للأجهاض تحقق الغرض المطلوب عاجلا .

ومما يوجب الأسف أنهن يجررن على أنفسهن كل يوم هذه الجريرة بدون أن يكون للقانون سبيل إلى معاقبتهن . ولا يجد

القابلات في توليدهن النساء شيئاً من العناء، لأن نساء مصر يلدن فى الغالب ولادة طبيعية سهلة . نعم يتفق فى بعض الأحيان أن تتعذر الولادة لاختلاف فى وضع الجنين ، ففى مثل هذه الحالة التى تستدعى وجود طبيب اختصاصي قدير لاتترتب فائدة ما على وجود القابلات . لذا تراهن يلجأن إلى الطرائق المضحكة التي فضلا عن أنها لاتأتى بفائدة ، محققة الضرر البالغ بالحامل التى تتعذر ولادتها

ولقد أتيح لى يوماً شهود حادث من هذا القبيل أذكره هنا لمجرد كشف القناع عن وجوه الحيل التى يلجأ اليها القوابل فى الأحوال العسيرة . فقد اتفق أن انقضت أيام على إحدى الحوامل في الوضع بدون أن تضع . وبالرغم من الوسائل التى جربتها القابلة لم يكن من هذه، وقد ضاقت بها الحيل وقصرت وسائلها عن النجاح ، إلا أن جاءت بغلام وأمرته أن يرقص بين ساقى الحامل موهمة أن الوضع العسير سيسهل وأن الجنين لا يلبث بهذه الوسيلة أن ينزل . ومفهوم أن شيئاً من هذا القول لم يتحقق

٤

تنظيم المصلحة الصحية في مصر

تشكيل مجلس الصحة — تطبيق الانظمة الفرنسية — المستشفيات العسكرية — تحديد الرتب والوظائف — المرتبات — شوار الضباط الصحيين أى ملابسهم الرسمية — ادارة المصلحة الطبية — انشاء مدرسة الطب — كيفية انشائها وتنظيمها — نقل المدرسة الطبية من أبي زعبل الي القاهرة

٥٣ — إلى محمد على يرجع الفضل فى رفع شأن الطب فى مصر وإعادة علومه إليها . وقد قلت فيما سبق إن سبب هذا الأصلاح الذى جنى العلم والأنسانية ثماره وفازا بمزاياه الجليلة ، تشكيله الجيش المصرى على النظام الحديث . فأنه بعد أن فرع من وضع أساس لنظام هذا الجيش ، صرف عنايته إلى الاحتفاظ به وصونه من عوادى الاختلال ، فطلب من أوربا أن توافيه ببعض رجالها الأطباء ليصيب على ايديهم ، الأغراض الشريفة التى كان يرمى إليها

ولقد كنت ممن بعث سمو والى مصر فى طلبهم من أوروبا وعينى مندوب الحكومة المصرية فى سنة ١٨٢٥ ، قبل رحيلي من فرنسا ، طبيباً ورئيسا للجراحين فى الجيش المصرى . فلما

خولني سمو والى مصر هذا الشرف الأسنى ، سارعت الى استلام زمام وظيفتي . وقد ألفيت مصلحة الصحة المصرية لدى وصولى قائمة على غير أساس ولا نظام صحيحين، واتصلت بي على أثر وصولى، أنباء عن الدسائس والمشاغب والفوضى التى أصبحت المصلحة ميدانا لها ، وألممت الأ‌يام كله بما اعترض الرئيسين اللذين سبقانى فى هذا المنصب من المصاعب والعقبات ، فكان أول ما وجهت اليه همتى اجتناب الوقوع فيما وقعا فيه ، بسن جملة من القوانين واللوائح القويمة لتحديد واجبات كل موظف وتعيين حدود عمله . ولم أشأ ، بالرغم من ذلك ، أن أتحمل وحدى أعباء مسؤولية هذا النظام قبل الاستيثاق من القبض على زمام الأدارة ، فاقترحت على ناظر الحربية تطبيق اللوائح الفرنسية فيما يتعلق بشؤون الصحة وتشكيل مجلس صحي

٥٤ — المجلس الصحى

لقي هذا الاقتراح استحسان الناظر المومأ اليه ، فلم تمض أيام حتى شكل المجلس الصحي مؤلفا من خمسة أعضاء من الأطباء والجراحين والصيادلة ، وما برح قائماً بأعماله حتى الآن تحت

رياستى .

ولقد قضت الضروورة بأن تكون اختصاصاته أوسع من اختصاصاته فى فرنسا . ولما لم يكن لمصلحة الصحة إدارة مستقلة بذاتها ، فقد اضطر المجلس الصحى إلى تولى الأعمال لأيقاف الناظر على دقائق الشؤون الأدارية ، سواء فيما يتعلق بالمستخدمين أو يرتبط بالمهمات واللوازم الصحية . ولم تكن هذه الضرورة ضارة بالمصلحة بل كانت جمة المزايا جليلة الفوائد إذ روعى بواسطتها مبدأ التوحيد فى العمل ، على وجه كان من ثمراته منع وقوع الخلاف والأشكال والتسويف في إنجاز الأعمال

٥٥ — تطبيق الأنظمة واللوائح الفرنسية

فى الجلسة الأولى التى عقدت عقب تشكيل المجلس الصحى رأيت أن مما لامناص منه الألحاح فى طلب السير على مقتضى اللوائح الفرنسية الصادرة عام ١٨٢٥ فى موضوع المصلحة الصحية. وكنت عندما وقعت على عقد الاستخدام في الحكومة المصرية قد حصلت على لوائح مصالح الصحة وأنظمتها فى البلدان الأخرى . فاستقر فى عقيدتى أن ماسن منها فى فرنسا خير مما

سن إلى ذلك العهد ، فى هذه البلدان . لاسيما وأن الأنظمة الفرنسية كانت تتفق مع نظام الجيش المصرى لما هو معروف من تشكيله بحسب الأساليب الفرنسية وتدريبه وتعليمه بمقتضى ماتضمنته من القواعد العسكرية . ومع هذا فقد اقتضت ظروف الوسط إدخال بعض تعديلات عليها ، منها أن قلة عدد الأطباء والجراحين كان يقتضى توحيد قسمى الضباط الصحيين . وهذا التوحيد كانت تدعو اليه حالة العلم الحاضرة فى البلاد ، فضلا عن أنه يجمع بين مزيتين نفيستين ، وهما اختصار الأعمال واقتصاد المال . وعلى هذا جعلت الأقسام الثلاثة للضباط الصحيين قسمين فقط

٥٦ — المستشفيات العسكرية

كان مما مست إليه الحاجة إدخال نظام المستشفيات العسكرية فى فيالق الجيش . وقد كان مما يتفق أحياناً أن تكون فيالق يحتوى كل منها أربعة آلاف جندى متحركة فى زحف أو مستقرة فى أمكنة فيتعذر إنشاء تلك المستشفيات فيها . وكان مما لاغنى عنه أن يكون مع كل فيلق مايلزمه من الأدوات الطبية

والأدارية والعمال لأنشاء المستشفيات المؤقتة والنقالات ، كما كان ينبغي أن تتوافر فى تلك الأدوات شروط البساطة حتى لايتأتى من نقلها مايوجب الالتباك والاضطراب ، لاسيما وأن النقل فى الصحراء لايتيسر إلا بالجمال . وكان مما يطلب فى العمال ، ولم يكن عددهم وقتئذ كافياً ، أن يكون من القوة وكثرة العدد بحيث يستطيعون أداء الخدمة الداخلية فى الفيالق وخدمة المستشفيات المتنقلة . وقد تبين أنه يكفي لأدارة هذه الأعمال طبيب حائز على رتبة البكباشى وأربعة أعوان لمساعدته وصيدليان لكل فيلق فى زمن السلم . وفى وقت الحرب يضاف إلى كل فيلق جرّاح بمثابة وكيل للمساعد عن كل أورطة من أورط هذا الفيلق ، وكان هذا الترتيب كافياً للقيام بخدمة المستشفيات المتنقلة وداعياً إلى اقتصاد كبير فى عدد الموظفين والعمال

ومنذ هذا الحين لاح لى أن أضع مشروعاً برفض الصيادلة فى المستشفيات العسكرية . إذ كنت أشعر بأن الأوفق تعيين وكيلى مساعد أو أكثر لكل أورطة وأن أعهد اليهم أداء أعمال الصيدلة . وكنت أرغب أيضاً فى ترتيب الأحوال على هذا

النسق بالنسبة للمستشفيات الثابتة المستديمة كأن يكون فى كل مستشفى رئيس واحد للصيادلة ومساعد له وأن يوكل إلى وكلاء المساعدين القيام بمهام الخدمة تحت إشرافهم . وكانت هـذه الطريقـة مؤكدة النفع إذ كانت تفضى إلى تدريب الضـباط الصحيين على مباشرة الأعمال الصيدلية ، وهو تدريب لم يكن الأطباء بوجه عام يهتمون به من قبل مع ضرورته وعظم فائدته . وهذا فضلا عن أنه كان يمكن بهذه الوسيلة تخريج أشخاص ذوى أهلية للقيام بالخدمتين ومما يزيد فى قيمة هذه الاعتبارات أن المقصود تطبيقـه على القطر المصرى الذى مازال من المتعذر جداً الحصول فيـه على الصـيادلة بينما الأطباء كثير عددهم ومنتشرون فى المدن والقرى .

٥٧ — الرتب والوظائف

من الأمور التى كان من المهم تقريرها في المبدأ وسن نظام لها تحديد مستقبل الضباط الصحيين . وكان مما كنت أعلمـه منذ عهد بعيد أن الأطباء العسكريين فى فرنسا كانوا يطالبون بتحسين مراكزهم وترقية شؤونهم. فأنهم كانوا يرون أنهم لا ينالون

المكافأة التى يستحقونها أثناء اشتغالهم بمهنتهم الطبية فى الجيوش مع اعتقادهم بأن ماقضوه من السنوات الطويلة فى دراسة العلوم الطبية بالجامعات والمستشفيات والانفتياترات لما يجعلهم أهلا لها

وكان من الحقائق المشهودة فى الواقع أن بعض ذوى الفضل والمكانة يقضون عشر سنوات أو خمس عشرة سنة أو عشرين يزاولون مهنتهم أو يخدمون فى الجيش أثناء حروب يتعرضون فيها لخطرين ، خطر القتال وخطر الأصابة بالأوباء ثم لايحصلون بعد هذا العناء إلا على رتبة تجعلهم أقرب درجة الى اليوزباشية ، في حين أن الضباط المحاربين من زملائهم كثيراً مايصلون فى خلال إحدى تلك المدد الى وظيفة القائمقام أو اميرالالاى أو اللواء . ولقد اقتنعت بهذا الحيف ولمسته بيدى فأردت أن أمنعه بما فى وسعى فيما نيط بى القيام به من تشكيل الهيئة الصحية الجديدة بالقطر المصرى

اتجهت عنايتى بناء على ماتقدم إلى مسألة الترقية ، فأنشأت رتبتين جديدتين لأيقاظ روح التنافس بين الضباط وتحسين أحوال المصلحة : الرتبة الأولى مفتش الجيش والثانية رتبة البيكباشى من الدرجة الثانية . وبحسب المشروع الذى وضعته ،

شكل مجلس صحة الجيش أو بعبارة أخرى مجلس صحة كل فيلق من ثلاثة مفتشين خصوصيين ، وجعلت ما كان فى فرنسا لا يتعدى إحدى الوظائف العادية ، مركزا رفيعاً تقترن به رتبة معينة . فنيط بيكباشية الدرجة الثانية القيام بأعمال أقل أهمية من التى عهدت الى بكباشية الدرجة الأولى . وسأشرح فيما يلى كيف أن ترقى الضباط الصحيين أصبح ، عقب إحداث تينك الرتبتين ، أسرع منه قبلا

بعد قضاء خمس سنوات فى الدراسة ، يخرج التلميذ من المدرسة برتبة وكيل مساعد

وبعد قضاء ثلاث سنوات فى هذه الرتبة ، يرفع صاحبها إلى رتبة مساعد ثم إلى رتبة بكباشى من الدرجة الثانية ، بعد عامين ونصف ، ثم منها إلى رتبة بكباشى من الدرجة الأولى ، بعد سنتين ونصف أيضاً ، ثم منها إلى رتبة رئيس بعد ست سنوات

أما مدة الانتقال من رتبة الرئيس إلى رتبة مفتش خاص ، فلم يتيسر تحديدها ، إذ لم تر ضرورة له . لذا ترك أمره لطبيعة الأحوال ومقتضيات الأعمال . وهكذا يقال عن تحديد المدة التى يرفع المفتش الخاص بعدها إلى مرتبة عضو فى المجلس العام

للصحة ، وإنما يجرى الانتخاب للتعيين فى الرتبتين الأخيرتين على مقتضي العادة وبقدر الاستطاعة على حسب ترتيب الأقدمية

٥٨ — المرتبات

لقد بذلت كل ما فى وسعي من الجهود لجعل مرتبات الضباط الصحيين لائقة بمكانتهم وموفية بحاجاتهم المعيشية . غير أن المرتبات التى منحت لهم لم تصل إلى المستوى الذى عينته لها، وكنت أتمنى أن تتم المصادقة عليه وفيما يأتى بيان المرتبات الممنوحة

		قرش	فرنك
أعضاء المجلس العام للصحة مرتبهم الشهرى		٥٠٠٠ أى سنويا	٩٠٠٠
المفتشون الخصوصيون	»	٢٠٠٠	٦٠٠٠
الرؤساء	»	١٥٠٠	٤٥٠٠
بكباشية من الدرجة الاولى	»	١٠٠٠	٣٠٠٠
» » الثانية	»	٨٠٠	٢٤٠٠
مساعدو البكباشية من المصريين	»	٣٠٠	٩٠٠
وكلاء مساعدين من المصريين	»	٢٥٠	٧٥٠

ولأصحاب هذه الرتب تعيينات غذائية ومرتبات لعلف دوابهم ، كل بحسب الرتبة الممنوحة له

٥٩ — شوار الضباط الصحيين

لما أنشئت مدرسة الطب بحسب الأنظمة العسكرية التى ما برحت متبعة ، منحت رتبة الرؤساء الى الأساتذة وصرفت لهم مرتبات هذه الرتبة

وكان مما اضطررت الى الاشتغال به أيضاً ، الشوار العام لفريق الضباط الصحيين إذ كان من المعلوم أن الثياب الفاخرة فى جميع البلدان ، ولا سيما البلاد الشرقية تدعو إلى احترام صاحبها واعتباره . ولم يصل بى الطمع إلى المطالبة بأن يكون شوار الأطباء أفخر من شوار ضباط الجيش الآخرين ، باعتبار تشابه الرتب . ولكننى تمسكت بأن لا تكون أدنى منها

وكنت قد لاحظت فى الحقيقة أن ملابس الضباط الصحيين التى لا تحلى ببعض النقوش المطرزة إلا من باب التسامح حتى فى البلاد الفرنسيه ، وأن أصحابها لا يلقون من الاحترام والمهابة مايجده ضباط الجيش بما يحملونه على أكتافهم من

علامات الشرف العسكرية ، فسعيت فى هذا الصدد سعي الذى انجلى عن الموافقة على أن يكون للضباط الصحيين نفس الملابس التي لضباط الجيش ، أى أن تكون فاخرة ومطرزة مثلها . وتقرر أن يكون التمييز بين درجات الضباط على النمط الآتى :

أن يكون لوكيل المساعد نفس شوار الملازم الثانى ، ولمساعد البكباشي شوار الملازم الأول ، وللبكباشى من الدرجة الثانيـة شوار اليوزباشى ، وللبكباشى من الدرجة الأولى شوار مساعد البكباشى ، وللرئيس شوار البكباشى ، وللمفتش الخاص مثل هذا الشوار ، ولعضو مجلس الصحة شوار القائمقام . وكل ما هنالك من الفرق ينحصر فى الشارات ، فقد تقـدم بنا أن النجمة والهـلال يقومان في الجيش المصرى لدى الضـباط مقـام شارة الكتفين (اسبلايت) عندنا . فعوضاً عن اتباع هذه الشارة أو تلك بالنسبة للضباط الصحيين اتبعت الشارة التى تمثل ثعباناً ملتفاً حول كتلة خشب بين سعفتين متقاطعتين عند أصلها . فوكيل المساعد يحمل هذه الشارة من الفضة ، والمساعد يحملها منهـا على أن يكون الثعبـان من الذهب ، وبكباشـية الدرجة الثانيـة يحملونها كهـذه الأخيرة على أن تكون إحدى السـعفتين من

الذهب ، وبكباشية الدرجة الأولى يحملونها على أن تكون السعفتان ذهباً خالصاً . أما الرؤساء فتكون شارتهم كلها من الذهب وأما المفتشون الخصوصيون فمن الماس إلا إحدى السعفتين. وأما المفتش العام (ووظيفته هى التى أقوم بها الآن) والطبيب الخاص لسمو الوالى فشارتهما كلها من الماس وكلاهما حائز على رتبة البكوية . ولشارتهما نجمة أو نجمتان بحسب ما إذا كانا يحوزان رتبة أمير الألاى أو أمير اللواء

وكان مما ثارت ثائرة البحث والمناقشة بشأنه ، منح المسيحيين حق لبس الشوار الطبي الرسمي وحمل الشارات الخاصة به . فلما نعم علىّ فى سنة ١٨٣١ برتبة البكوية ، صرفت همتى لتحقيق مشروع طالما حاولت عبثاً أن أبرزه إلى عالم الوجود

وبيانه أننى اجتهدت فى تفهيم القوم بأنه، ماداموا قد تخطو بالنسبة إلىّ الحواجز التى أقامتها الأوهام الفاسدة فى حق المسيحيين ، لم يعد هناك وقد فزت بتلك الرعاية من لدن سمو الوالى ، مسوغ لحرمان زملائى ضباط الصحة الأوربيين مزاياها وعدم تخويلهم حق لبس الشوار العسكرى والشارات الخاصة به . فكللت هذه المساعي بالنجاح وشعرت فى نفسى

باغتباط عظيم إذ تمكنت بذلك من ضمانة الاحترام والتوقير لطائفة الأطباء ، وهى الضمانة التى لم تكن هذه الطائفة قد حصلت عليها بعد فى كثير من البلاد الأوربيه

على أن سريان النظام العسكرى على الضباط الصحيين الأوربيين لم يصبح مقطوعاً به إلا بعد مناقشات طويلة وأبحاث عنيفة . فأنهم لم يكونوا في الحقيقة مجرد معلمين أو أساتذة بل كانوا داخلين فى هيئة العسكرية ومتممين لنظام الجيش . فكان من مقتضى الضرورة والحالة هذه إلزامهم باتباع النظام العسكرى . ولقد طبق عليهم النظام المستمد من القوانين واللوائح الفرنسية تطبيقاً دقيقاً فى كل مايتعلق بتنفيذ الشؤون الأدارية ورعاية الواجبات المفروضة على التابع للمتبوع والمرؤوس للرئيس ونظام فيالق الجيش . أما الجرائم الكبرى التى كان يمكن أن يقترفوها فقد احتفظ لهم بحقوق الجنسية ، أى أنهم ظلوا تابعين لقضاء قناصلهم

ولم تقتصر وظيفتى على الخدمة الطبية فأن عدم وجود من يصلح لأدارة المستشفيات اضطرنى إلى الانصباب على شؤونها . وأذكر بهذه المناسبة أن اللوائح والقوانين الفرنسية لم يتيسر

تطبيقها والعمل بها بالحرف الواحد ، لا فى هذه المستشفيات ولا في القسم الطبي ، إذ قضت الضرورة بأدخال تعديلات عليها تتناسب مع بقية فروع الادارة العسكرية التى لا تتفق وتلك القوانين واللوائح بالنظر إلى بساطتها وخلوها من التعقيد . فأنه لما كان ناظر الحرب يقوم بعمل المشتريات مباشرة سواء المتعلق منها بالملابس أو الأدوات أو الأمتعة أو الأغذية أو الأدوية الخ ، لم يبق على وكلاء الأدارة ورؤساء الفيالق إلا الاحتفاظ بالأدوات لكى تفى بالحاجة أثناء المدة المقررة لها قانوناً أو صونها من عادية السرقة واستعمالها فيما جعلت لأجله

وقد نشأ عن هذا أنني اضطررت إلى اتخاذ الوسائل لتعليم ضباط الأدارة والكتاب والممرضين واجباتهم ، كل فيما يتعلق بوظيفته فلقيت في هذا السبيل من المصاعب مالقيته منها فى غيره من الشؤون الأخرى

٦٠ — ادارة المصلحة الطبية

أذكر فيما يلى الكيفية التى نظمت بمقتضاها إدارة المصلحة الطبية

عين مفتش عام للأدارة جعلت أقلامه ومكاتبه بالقرب من وزارة الحرب . فكان المرجع الذى تتلاقى عنده كليات القسم الأدارى وجزئياته وكان لذلك يتفق مباشرة مع مجلس الصحة على جميع مايختص باحتياجات المصلحة. وجعل تحت إدارته ثلاث طبقات من الكتاب الحاسبين ، فكتاب الطبقة الأولى هم الذين عينوا رؤساء فى المستشفيات الكبرى الثابتة وفى فيالق الجيش ، وكتاب الطبقة الثانيـة هم الذين عينوا رؤساء فى مستشفيات الدرجة الثانية أو مساعدين فى المستشفيات الكبرى، وكتاب الطبقة الثالثة عينوا بمستشفيات الألايات أو ألحقوا بالمستشفيات الثابتة التى من الدرجتين الأولى والثانية . ذاك كان نظام ضباط الأدارة من حيث ترتيب الدرجات من المرؤوس الى الرئيس

أما تنظيم المستشفيات الثابتة فكان تقريباً على مثال تنظيم المستشفيات التى من نوعه فى فرنسا . ولكن مستشفيات الألايات قضت الضرورة بتنظيمها على شكل خاص ، إذ نيطت بالضابط الأدارى القائم بشؤونها مهمة حفظ الادوات كلها وجعلها تحت رعايته ، يعاونه على أداء هذه المهمة كاتب وأربعة

رؤساء ممرضين وممرضون تحت رياستهم . وهؤلاء يؤخذون بوجه عام من العساكر إذ قد دلت التجربة على أنه يوجد فى ألايات الجيش بعض من رجالها أصيبوا بالعاهات التي تجعلهم غير صالحين للخدمة العاملة فاستصوب اختيارهم لتكليفهم بالقيام بوظيفة الممرضين . وبهذه الوسيلة تحقق أمران هما القيام بالاعمال على أبسط وجه والاقتصاد فى المال . وكانت أدوات المستشفيات التابعة للالايات جديرة بالاعتبار والنظر ، إذ كان مما ينبغي أن يتوافر فيها من الشروط أن تكون أخف وزناً وأقل حجماً بقدر الاستطاعة وأن تجمع إلى فضيلة النفع مزية المتانة . وقد رمي فى القيام بهذه الاشتراطات إلى ما يأتى .

اتخاذ الادوات اللازمة لفرق المستشفيات من الصفيح ، فصنعت بهذا المعدن أوانى الاشربة الطبية وأكواب الماء وغيرها وأعطي لها بوجه عام الشكل المخروطى ليتيسر تداخلها بعضها في بعض فيستطاع بهذه الوسيلة وضعها في أضيق مكان مع ضمانة المتانة والبقاء لها . وقد بلغ من اقتصاد المكان اللازم لوضعها حداً أصبح معه الصندوق الواحد الذى طوله ثلاثة أقدام وعرضه قدم

ونصف وارتفاعه مثلهما كافياً لاحتواء جميع الأوعية المختصة بغرفة واحدة تسع مائتى مريض. أما أوعية المطبخ ، فتتألف من أربع حالل مخروطية الشكل يدخل بعضها فى بعض ولكل منها قائمة مؤلفة من ثلاث أرجل تطوى عند الضرورة وأربع طوّات من الشكل نفسه توضع كلها فى الحلة الأخيرة ومعها الملاعق والكبشات والسكاكين الخ وتوضع في الصندوق الثانى

أما الجرادل المخصصة لتوزيع الحساء ، وكذا آنية الليل (للتبول والتغوط) وعددها ٢٥ وكلها بالشكل المخروطي ، فكانت توضع مع أدوات أخرى فى صندوق ثالث

وكانت بياضات المستشفيات العسكرية تحسب بواقع مائتى مريض . وكان لكل مريض مرتبة من القش ومخدة وقميصان وسروالان وطاقيتان وثلاث ملاءات وغطاء . فكانت هذه الأشياء كلها توضع مرتبة فى صناديق مرقومة

ولكل ألاى أربع نقالات لنقل الجرحى كما لكل أورطة أربعة صواوين لأيواء المرضى بها فى حالة عدم وجود المبانى لهذا الغرض

وقد تبين لنا أن أليق وسائل نقل الأمتعة والأدوات

أكثرها انطباقاً على المقتضيات الخاصة بالجيش المصرى دواب النقل من جمال وبغال . لأنه لو استعملت عربات النقل لهذا الغرض لنشأ عنها تعطيل جسيم بالنظر لصعوبة سيرها فى صحارى أفريقية وجبال الشام

وفى بداية تنفيذ النظام المتقدم ، خطر ببالى أن أعطي الجراحين جبيرات صغيرة ليضعوا فيها لوازمهم الجراحية . وهذه الجبيرات متخذة من الجلد وعلى كل منها الشارة الطبية منسوجة بالقصب . هذا فضلا عن كتابة وضعت على تلانس المكلفين بنقل الجرحى على النقالات منحصرة في الكلمتين الآتيتين : « إسعاف لأبطال » . وقد سرنى أن رأيت هذه البدعة اللطيفة فيما بعد بالديار الفرنسية

وكان يتألف من الأدوية وكل مايختص بها فرع أصلى من فروع المصلحة الطبية . وقد اختصرنا بقدر الامكان قائمة الأدوية المقرر استعمالها فى المستشفيات . وصنف لهذا الغرض دليل صغير لتركيبها روجع بعد وضعه بمعرفة مجلس الصحة المصرية وطبع فى فرنسا . ومما روعى فى تحريره إيراد الأدوية ذات التأثير الذى تقرر الأجماع على صلوحه وإيثار الوطني منها على الأجنبي

والرخيص الثمن على الغالى مع رعاية الوصفات البسيطة الخالية من الالتباك والتعقيد وبيان كيفيات تجهيز الأدوية البسيطة منها . وقد قصد أيضاً بنشر ذلك الكتاب أن يكون صالحاً فى آن واحد للصيادلة والأطباء وجراحى المستشفيات والفيالق مع بيان الأعمال التى يطالب كل منهم بأدائها ، بحسب الاحوال المختلفة التى تعرض عليه . وذكر التعليمات اللازمة فى هذا الصدد مقرونة بالجداول الضرورية لمسك الحساب ، ونماذج للطلبات والجرد ، ووصولات الاستلام الخ

ونيط بالصيدلية المركزية المنشأة بالقاهرة تحضير الأدوية لجميع الجيوش المصرية . وأنشئت مستودعات للأدوية والعقاقير بالاسكندرية لتصريفها بنواحى القطر المصرى ، وعكا وحلب لتصريفها بالقطر السورى ، وجدة برسم الاقطار العربية ، والخرطوم لأجل إقليم سنار ، وبنديا برسم جزيرة كريد. وتورد الأدوية إلى مستشفيات الأورط مجهزة منعاً للاختلاط والالتباك اللذين يؤدى إليهما تجهيز ما كان صعب التركيب منها أثناء السفر والنقلة ، ولا سيما في وسط الجيوش . فكانت تضبط مقادير لأدوية التى تحتاج للضبط ثم توزن وتوضع فى ظروف . ومما

توجهت العناية إليه بنوع خاص أن لايختار برسم صيدليات المستشفيات النقالة بين المواد المكافئة أو التى من نوع واحد ، سوى مايكون منها أقل حجماً أو أخف وزناً . فالأملاح والخلاصات تفضل على المواد ، والمواد الصلبة على المواد السائلة

وجعل شكل صناديق الأدوية للمستشفيات النقالة أكثر مايكون صلوحاً للانتفاع بها عند الحاجة أثناء النقل ، وبدون اضطرار إلى إنزالها عن متون الدواب . وخصص أحد هذه الصناديق للآلات والآنية ولوازم تضميد الجراح ، وخصص صندوق آخر للأدوية يحتوى أدراجاً رتب كل شىء فيها ترتيباً دقيقاً مأموناً ، كيلا يلحق بها ، إذا اتفق وقوع حادث أثناء النقل ، ضرر ما . ولكل ألاى صندوقان من هذا القبيل فيما عدا أربعة صناديق تحتوى مايلزم من الأدوية حين الطلب وهي كلها فى فى عهدة أحد الصيادلة

وقد رتب مستخدمو المصلحة الطبية لألايات الجيش وأدواته (لوازماته) على وجه تيسر معه تقسيمها إلى أربعة أقسام بحيث يتبع كل قسم منها أورطته ، إذا انفصلت الألايات عن بعضها أوقسمت أجزاء . ويظل البكباشي ومساعده ووكيل

المساعد وضابط الأدارة ومساعده مرتبطين بالأورطة الأولى من كل ألاى كما يبقى مرتبطاً بكل أورطة من الأورط الأخرى مساعد ووكيل مساعد ورئيس ممرضين يقوم بوظيفة الضابط الأدارى

وأقيم نظام المصلحة الصحية للبحرية على مثل هذه القواعد التى أقيم عليها نظام المصلحة الصحية للجيش البرى ، ويتولى إدارته مجلس صحي بحرى مقره الأسكندرية

ذاك هو الأساس الذى قام عليه نظام المصلحة العسكرية في القطر المصرى ، وهذا النظام اقتضته ضرورة المكان . وقد قامت دلائل التجربة على صلاحيته وموافقته . ولا عجب ، فأنه جامع لشرائط البساطة التى تستدعيها السرعة فى أداء الخدمة العسكرية . وقد استحسنه الدوق دي راجوز وجميع من شهدوه من ذوى الخبرة والاختصاص ووافقوا عليه . وسبق لى وأنا بفرنسا فى سنة ١٨٣٢ أن استمددت بآراء زعماء الطب والجراحة العسكرية فى ذلك النظام . وفى وسعى أن أؤكد بأنهم أجمعوا على استحسانه وأسهبوا فى تقريظه والتنويه به

وغنى عن البيان أن ذلك النظام الذى بدل من الفوضى

والأسراف الترتيب والقصد ، قد صدم الكثيرين فى مصالحهم وثبط همتهم فيما يبتغونه من المآرب الذاتية وحرك في نفوس جماعة الأدعياء والمتكبرين كوامن التذمر والاستياء والحسد لما أحرزته من الثقة على أثر ذلك ونلته من الشرف فى نظر أصحاب الجاه والنفوذ فى نواحى القطر كله . وبالرغم مما أفضى اليه استقرار ذلك النظام من حملة هؤلاء الحانقين الصاخبين بالانتقاد والتجريح ، فقد تجاوزت نتائجه الحسنة وآثاره المحمودة المأمول ، إذ بفضله قل عدد الوفيات وكان من الكثرة الهائلة بما تهلع له القلوب . فهذا النقص راجع في آن واحد إلى إصلاح حال المستشفيات وتنظيم الخدمة واتخاذ الوسائل الصحية وتطبيق الطرائق الحديثة في العلاج

وقد جعل مستشفي أبي زعبل نموذجاً لما أنشىء بعده من المستشفيات . ولا عجب فأن ما كان سائدا فيه من النظام والترتيب ومشهوداً من النظافة والدقة جعله جديراً بمدح جميع السياح الذين تفقدوا غرفه وإعجابهم بحسن مكانه وجمال موقعه .

٦١ — انشاء مدرسة الطب

لما شهدت نجاح سعيي ورأيت أن الجهود التى بذلتها جاءت بالثمار الطيبة ، خطر فى الحال ببالى أن أغرس فى مصر غراس التعليم الطبي فكاشفت الحكومة بهذا المشروع مبيناً لها ماينجم من الفوائد عن تعليم العلوم الطبية لعدد وافر من المصريين وقبولهم بعد تعليمهم كضباط صحيين فى الجيش . ولم يتعذر على محمد على إدراك حقيقة هذه المزايا ولكن ما كاد نبأ المشروع الذى ابتكرته يذيع بين الناس حتى نهض لمناوأته الكثيرون منهم وبذلوا مساعيهم لدى الوالى ليحملوه على العدول عن تنفيذه إذ بالغوا فى تجسيم العقبات التى تعترض إبرازه إلى حيز الفعل فزعموا أن المصريين ليسوا من الذكاء والاستعداد الفطريين بما يجعلهم وغيرهم من الناس فى مستوى واحد ، حتى لكأن التاريخ قصه خلا فى نظرهم من الحوادث المكذبة لمزاعمهم . وقالوا أيضاً فيما فاهوا به من التخرصات إن من الهوس والحماسة الكاذبة صرف الأمل إلى إمكان تعليم أناس علماً يجهلون لغة الأساتذة الذين يناط بهم تدريسه . ثم طعنوا فى كفاءة هؤلاء وجردوا

للمعارضة سلاحاً ماضياً من الاعتقادات التي مؤداها أن الدين يحول دون تشريح جثث الموتى

غير أن الوالى بما فطر عليه من الأناءة وإعمال الروية وصدق النظر فى بوادر الأمور ومصائرها قد تكشف له وجه الأسباب الحقيقية التى كان المعارضون يحاولون إلباس اعتراضاتهم بها . فأنشئت المدرسة فعلا فى سنة ١٨٢٧ بالرغم من أنوفهم جميعا . على أنهم مابرحوا يحملون على المدرسة حملاتهم يقصدون بذلك الحط من شأنها وزلزلة أركانها

وأول صعوبة عرضت تنحصر فى تقرير اللغة التى يدرس بها علم الطب فقد كان من المتعذر وجود تلاميذ ملمين باللغة الفرنسية ولم يكن الزمن متوافراً لتعليمهم الكفاية من هذه اللغة ، دع ما هنالك من الأسباب التى أيدت عندى ضرورة نقل حقائق العلوم الطبية إلى أفهامهم بلغتهم . وكان مما لا محيص عنه والحالة هذه أن نعهد لأساتذة لا يعرفون فتيلا من اللغة العربية وسائل القيام بهذا التنقيل على أفيد وجه وأتمه ، فلاح لى إمكان تذليل هذه العقبة بواسطة مترجمين يجيدون اللغتين لغة التلاميذ ولغة الأساتذة ، واختيار هؤلاء المترجمين من أوائل التلاميذ الذين

يتمون تلقي العلوم الطبية حتى يتيسر لهم إفهامها أقرانهم

وكان هناك عقبة ثانية ليست بأقل صعوبة من السابقة ، ألا وهي إضافة علم التشريح إلى برنامج التدريس ، إذ لا يخفى ما كان يتوقف عليه تنفيذ هذا المشروع من مكافحة بعض الأوهام الدينية ، بالنظر إلى أن الدين الأسلامي يقضي باحترام الموتى ويسلم ببقاء الشعور فيهم كما لو كانوا على قيد الحياة ، فهم يحسون بما تصاب أجسامهم به من الجراح أو الأذى أياً كان . ولما كان نجاح المشروع على علاته يتوقف على تذليل هذه العقبة ، فقد بذلت ما كان في وسعي من الحيلة والسياسة للحصول على فتوى العلماء في مسئلة تشريح الجثث واستدراج الحكومة إلى إجازتي به ، وكانت تأبى ذلك تفادياً من اعتراضهم . ولكنني جادلتهم طويلا حتى فزت منهم بأربتي إذ أعطوني فتوي سرية بجواز التشريح بشرط رعاية الاحتياط والاحتراز فيه على قدر المستطاع

ورعاية لهذا الشرط تكتمنا في بادىء الأمر العمليات التشريحية إذ كنا نقوم بها في الخفاء بأقامة الحراس حول غرفة التشريح (الانفتياتر) . ولو أنهم وقفوا على حقيقة ما كان يجري خلف ظهورهم لكانوا أول من حمل علينا بالعدوان ونفث

الأحقاد . ومع هذا فقد تمكن الطلاب من القضاء بالتدريج ومع توالى الأيام على المتفشى بين الناس من فاسد الاعتقاد بعد أن أيقنوا بضرورة علم التشريح والتفرغ لدرسه . فلقد سرى هذا الشعور منهم إلى أهليهم ومخالطيهم فشاطروهم إياه حتى أصبحت مسئلة تشريح جثث الموتى من الأمور المألوفة والوقائع التى لا يستنكفونها

وقد أنشئت المدرسة بمستشفى أبى زعبل فانضم إليها مائة طالب من الشبان العارفين باللغة العربية ، سنّ لهم نظام دقيق طلب منهم العمل به وعدم الحيد عنه . وقد جعلوا عشرة أقسام كل قسم عشرة تلاميذ تحت مباشرة رئيس لهم هو الذى يتفوّق منهم على الباقين فى العلم وحسن الادراك . وكانت الحكومة تتولى الانفاق عليهم كافة من سكنى وغذاء ولباس ، بل كانت تدفع إليهم المرتبات الشهرية لنفقتهم الخاصة ، وتألف من مجموعهم ما كان جديراً بأن يسمى الجامعة الطبية لا المدرسة بالمعنى المألوف لتلك الكلمة فى الديار الأوربية

ثم نسجت طرائق التعليم على المنوال الآتي :

— أولا — كان الدرس ينقل الى العربية فى بادىء الأمر

بحضرة الأستاذ الذى يلقي على المترجمين ماهو مقرر عليه إلقاؤه من البيانات والشروح الضرورية . ولكى يسهل عليهم فهم ما تتضمنه من الحقائق العلمية والأساليب العملية ويتأكد من دقة التعريب يكلفهم بإلقاء الدرس أمامه معرباً قبل أن يلقوه على الطلاب

ثانياً — كان الدرس الذى يعرب يملى على الطلبة فيكتبونه بخطوطهم في الكراسات

ثالثاً — كان الأستاذ يشرح هذا الدرس بالتفصيل الوافى. وكان مباحاً لرؤساء أقسام الطلاب توجيه الأسئلة فيما استعصى عليهم فهمه . وكانوا يكلفون بأعادة الدروس على طلبة القسم الذى تحت مباشرتهم

رابعا — كان التلاميذ يمتحنون آخر كل شهر فيما تلقوه من الدروس خلاله . وكان منصب رياسة القسم موضوع مباراة ومسابقة لمن يطمح إلى احتلاله من الطلاب

كانت هذه الطريقة المبنية إلى حد ما على أسلوب التعاون في التعليم مطبقاً على علم الطب ، تستدعي عناء كبيراً وتكبد مشاق عظيمة من ناحيتى الأساتذة والطلبة سواء . ولكنها كانت تفضل

كل طريقة سواها من جهة أنها كانت تضطرهم إلى التوفر على الدرس وإذكاء نار التنافس والغيرة بينهم

وكانت الدروس التى تلقي على التلاميذ هي :

أولا — مبادىء الطبيعة والكيمياء والنباتات

ثانياً — التشريح العام الوصفى والباطنى

ثالثاً الباتولوجيا (الأمراض الباطنية) والعيادة الجراحية والعمليات

رابعاً — الباتولوجيا والعيادة الداخليتان

خامساً — المادة الطبية والعلاج

سادساً — علم الصحة والطب الشرعي

سابعاً — الصيدلة

ونيط تدريس هذه المواد بسبعة من الأساتذة . ودفعاً لما كان من الممكن وقوعه فى مدرسة حديثة النشأة من ضرر اختلاف الآراء الطبية بين الأساتذة ، تقرر الرجوع فى تعيين مواد التعليم إلى مصنفات مشاهير المؤلفين ، و بناء التعليم على المبادىء والحقائق المقررة فى الفسيولوجيا ، تحقيقاً للتناسق والتطابق بين النظريات والعمليات . وتقرر بناء على ذلك اتخاذ

مصنفات الأساتذة (كاوكيه) و (بروسيه) و (لالمان) و (ماجاندى) و (روش) و (سانسون) وغيرهم من أساطين الطب الفرنسيين قاعدة للتعليم

وأقيمت فى كل سنة الامتحانات العمومية للوقوف على ما أحرزه الطلاب من التقدم وترقية من تثبت كفاءتهم ومقدار اجتهادهم فى التحصيل

وفي إبان إنشاء مدرسة الطب أثبت ماهنالك من الضرورة الباعثة على إدراج فن الصيدلة ضمن برنامج التعليم لتخريج الصيادلة اللازمين للجيش . فلم يلبث هذا الفرع المهم من العلوم الطبية أن ألحق بذلك البرنامج وانشئت له مدرسة تحضيرية جمع فيها مائة من الشبان المصريين العارفين بالقراءة والكتابة ، تتراوح أعمارهم بين العاشرة والرابعة عشرة ، للتجهز فيها لدراسة الطب بدرس مبادىء الحساب والهندسة والهيئة والتاريخ . ثم أنشئت أيضاً مدرسة لتعليم اللغة الفرنسية لتسهيل التفاهم بين الطلبة وأساتذتهم وتمهيد الطريق لكى يغترفوا العلوم من ينبوعها الأصلى . وألحقت بمدرسة أبى زعبل مدرسة للدايات والولادة سأتناولها بالبحث التفصيلى فيما بعد

ولقد توّجت الجهود التى بذلتها وبذلها معى زملائى بالنجاح والفلاح . إذ لم تمض خمس سنوات على تأسيس المدرسة حتى توافر عدد عظيم من التلاميذ المتقدمين ، فوزعوا على المستشفيات وفيالق الجيش ولم يمنحوا فى هذه الوظائف سوى رتبة مساعد أو وكيل مساعد ، وجعلوا تحت إشراف أطباء من الأوروبيين ، واختير من بينهم عشرون طالباً هم الذين فاقوا فوقاً عظيما على أقرانهم فى الاختبار ، فأبقى منهم ثمانية فى مدرسة الطب بوظيفة معيدين للدروس وأرسل الأثنى عشر الباقون إلى باريس لأتقان علومهم وإتمامها حتى إذا عادوا عينوا أساتذة فى المدرسة (١) وكان هذا فى الحقيقة الغرض الذى قرطست فيه سهمى ، إذ كان من الواجب لأقامة علم الطب فى مصر على دعائم

---

(١) قرأنا فى كتاب (ذكريات الشرق) لهنرى كورنيل فى الصفحة ٤٤٦ ما يأتى :
« زرت مدرسة الطب بابى زعبل فى أول يوم من أيام الامتحان السنوى العام . ومن المدهش أن يرى القادم على هذه المدرسة أن بناية على الطراز الاوربى قد ظهرت له فجاة وسط رمال الصحراء وأن تكون هذه البناية فضلا عن رشاقة شكلها وكمال نظامها وحسن اتساقها فسيحة الاكناف متباعدة الاطراف بل مما هو أدعى للدهش من ذلك أن يرى نفسه وقد انتقل فصار بين جماعة من الناس تخصصوا للعلوم وتوفروا عليها فى أمة لا تهتم بشيء على الاطلاق . جلست وسط غرفة فسيحة زخرفت أركانها وحليت سماؤها بقماش الصواوين فسمعت كما كنا نسمع أيام امتحاناتنا المدرسية صوتا رقيقا يوجه الي طالب أسئلة فى مختلف العلوم الطبية . وكان الطالب من أبناء البادية نحاسى اللون حاد البصر أبح الصوت شرق الثياب فاخذ يشرح بالتفصيل الوافى أجزاء الالة التى نسميها بجسم الانسان . وقد رأيت بعض الطلبة الذين امتحنوا امامى يتمون علومهم باوربا »

ثابتة وطيدة من صبغه بالصبغة المصرية . وهو مالم يكن متيسراً إلا بتكوين أساتذة من المصريين يلقون الدروس من غير حاجة إلى مساعدة المترجمين ثم إنني قصدت بإرسال الاثنى عشر طالباً إلى باريس لأتمام دروسهم فيها أن أبين الدرجة التي وصلوا إليها من التعلم فى مدرسة أبي زعبل ، وأن أدحض ماتذرع به القلاة واللاحون من التخرصات والأكاذيب لذم هذه المدرسة والحط من قدرها . وقد كان من حسن الحظ أن أقام أولئك التلاميذ فى امتحانهم باللغة الفرنسية أمام الأكاذيمية الطبية الباريسية الدليل على براعتهم وتفوقهم حتى استحقوا أن يمنحوا لقب الدكتورية من جامعة الطب فى باريس . ولم تكن العقبات التى عرضت لى وكان فرضاً علىّ الانبراء لتذليلها توصلا إلى إقامة التعليم الطبي بمصر على أمتن الأساس ، العقبات الوحيدة التي كان مطلوباً منى العمل لأزاحتها من الطريق . وإذ كان لا يعسر على القارىء إدراك هذه الحقيقة فأنى أكفيه مؤونة سرد تلك العقبات مقتصراً على التذكير بأن نجاح مشروعي استلزم عملا متواصلا مقروناً بالهمة والأخلاص . ولست أدرى أى العاملين حمل أحد الطلاب على إصابتى بسلاحه القاتل فى ثلاثة مواضع

من جسمي بأنفتيار المدرسة وقتما كنت ألقى درساً فى علم الجراحة ، أهو الحسد أم التعصب للدين ؟ وأذكر بهذه المناسبة أنه لولا مسارعة الحاضرين بتلافى الخطر وتجريدهم المجرم الأثيم من سلاحه لخمدت أنفاسى ودخلت منذ زمن طويل فى خبر كان

ولامندوحة لى هنا عن الأشارة الى الاستعدادات والميول النفسية فى التلاميذ والألمام بشىء مما درجوا عليه فى البلاد المصرية فأقول : لقد خبرت المصريين وبحثت طويلا في أخلاقهم فاستقر فى خلدى أن الطبيعة الغالبة عليهم هي الميل إلى الدعة والسكون والاستعداد لأقل حادث إلى التظاهر بالعصيان . فرأيت لاتقاء نتائج هذه الميول وكبح جماحها أن أضع نظاماً صارماً ألزمهم برعايته وعدم الزيغ عنه . ومما أيد ذلك الأعتقاد فى نفسي أننى قضيت زمناً طويلا فى اختبارهم وسبر أخلاقهم فتواترت الأدلة عندى على أن المحاسنة وحدها لايمكن الوصول بها معهم إلى شىء يحسن الوقوف عليه

ولقد وجهت إلى بهذه المناسبة ملاوم كثيرة وانتقادات عنيفة . غير أنه لم يكن بوسعي أن أعاملهم بغير تلك الشدة نظراً إلى ماخبرته من أحوالهم النفسية . وأصررت على عزمتى إلى أن

حدا الأمر بأشد الناس اعتراضاً علىّ ومقاومة لى فى المبدأ إلى الاعتراف بتلك الضرورة . والكل على اقتناع تام الآن بأن أخلاق الشعوب الأوربية وعاداتها لايمكن استقرارها فى شعب مابرح متطوراً بأول أطوار الحضارة والتمدين إلا بالتدريج . لهذا ترانى أخفف من غلواء الشدة على التلاميذ كلما أيقنت أنهم خطوا خطوات جديدة إلى الأمام فى سبيل تحصيل العلوم وأنهم أصبحوا أكثر استشعاراً بكرامتهم وأدق تقديراً لحالتهم

ولا يسعنى فى هذا المقام أن أغفل ما امتاز المصريون به على وجه العموم من حدة الذكاء وقوة الذاكرة ، ولكن لا يسعنى إلا الأقرار فى الآن نفسه بما جبلوا عليه من النزعة المستنكرة إلى الحوادث والأفكار المبنية على الأغراق فى المبالغة أو المتصلة بالأوهام الباطلة والوساوس الفاسدة . فمن ذلك أنه كان من المتعذر حملهم على ترك النظريات والأساليب القديمة فى الهيئة والطب ، وهو مايستنتج منه ميلهم الفطرى إلى الجمود على القديم. ومن مظاهر هذا الميل إعجابهم بفلسفة أرسطو

وفى المصريين قابلية غريبة للتنافس والتناظر ناشئة بلا شك عن سرعة تحمسهم وميلهم الى الفخر . ولقد نهزت نهزة هذا

الاستعداد الفطرى لتنبيه كامن تلك الفضيلة فى نفوسهم وإذكاء نارها فى أفئدتهم إذ أنشأت بالمدرسة درجات ورتباً وشارات فخرية ، فجاء هذا العمل بما كنت أتوقعه له من النجاح التام . وكان كلما آن أوان الامتحان بذل الطلبة ما لا يتصور من الجهود لأحراز الفوز الذى ينيلهم التقدم والارتقاء . واتفق يوماً أن طالباً منهم لم يوفق لنيل درجة وكيل مساعد كان تقدم لأحرازها مع جماعة غيره فصاح على مسمع من جماعة الممتحنين قائلا إنه يؤثر الموت على هذه الفضيحة وأنه عول على ترك المدرسة . وقد حدث هذا بينا كان الذين كللت رؤوسهم بأكاليل النجاح يظهرون ماخالج أفئدتهم من الفرح العظيم بفوزهم ويتلقون التهانىء والقبلات من أهلهم وأقاربهم وأصدقائهم

وإنه لمنحتم علىّ أن أؤدى الى زملائى الذين شاطرونى العمل على إنجاح هذه المدرسة إتاوة المدح والتقريظ لهم فأننى كنت أثناء قيامى بتشكيلها وتنظيمها أستمد دواماً بآرائهم وأستضىء بأنوار اقتراحاتهم ونصائحهم . وكان قد سبق لى فى بداية الأمر أن استدعيت للجلوس فى منصات التدريس أشهر سكان القطر المصرى بالقدرة والكفاءة والعلم ، ثم وجهنا النظر نحو أوربا فى

طلب من لم نعثر عليهم من أساطين الأخصائيين . ولا مشاحة في أنهم جميعاً حريون بشكر العلم والمدنية وثنائهما تلقاء قيامهم على أحسن وجه بالمهمات التى عهدت الى كفاءتهم وفضلهم . وأعتقد أنى لا أنصف إذا جعلت كتابى هذا غفلا من أسماء زملائى الذين قاموا لمدرسة الطب بجليل الخدم . لذا أذكر من بين الذين ساعدونى على تكوين المدرسة وكانوا خير معوان على قضاء هذه المهمة الأستاذ (جايتانى) الطبيب الأسباني تلميذ الأستاذ (فا كا) وهو الذى صار فيما بعد عضواً لمجلس الصحة العام وطبيباً خاصاً لسمو الوالى ورفع إلى رتبة البكوية منذ عامين ، والأستاذ (دوفنيو) من جامعة الطب الباريسية الذى استحق بفضله وعرفانه أن يتولى فيما بعد زمام إدارة مدرسة الطب ، والأستاذين (سليزيا) و (فيجارى) اللذين ذاع لهما فى إيطاليا صيتهما خير أهل له ، والأستاذين (برنارد) و (برتلمى) اللذين رقيا بفضلهما وعلمهما وماضيهما الشريف إلى الوظائف السامية التى ألقيت اليهما مقاليدها . وفيما بعد حظيت المدرسة بخدمة كل من الأستاذ (برونر) الطبيب البافارى صاحب الفضل العظيم والأستاذ فيشر الطبيب البافارى أيضاً ، والأستاذ

(بيرون) الكيماوى المعروف من مدرسة باريس والأستاذين (باشتود) و (سيسون) ومن هذه الأسماء يرى القارىء أننى تحريت فى اختيار ذوى الفضل والمكانة والقدم الراسخة فى العلم بصرف النظر عن الجنسيات التى ينتمون اليها

٥

نقل المستشفى والمدرسة الى القاهرة

النقل — معهد القصر العينى — غرفة التاريخ الطبيعى — المستشفى — البيمارستان — مستشفيات الولادة — الحبشيات — مدرسة الولادة — خواطر فى نظام المصلحة الطبية بالقطر المصرى

٦٢ — النقل

كان المكان الذى قضت الضرورة بأنشاء مدرسة الطب فيه بادىء ذى بدء ، مستشفي أبى زعبل طبعاً لتوافر وسائل التعليم الطبي بأسرها فيه ولأنه ، بصرف النظر عن كونه المستشفى الوحيد فى ذلك الوقت ، كان يحتوى على الدوام عدداً عظيما من المرضى الذين كانوا يتواردون عليه من معسكر التعليم فى الخانقاه ، وكان هذا المعسكر يحتوى دواما من عشرين ألفاً

إلى خمسة وعشرين ألفاًمن العساكر . وكان أبرع الأطباء الذين اختير منهم الأساتذة أطباء فيه ، دع أن موقعه المنعزل كانت تتوافر فيه مزيتان إحداهما تسهيل درس التشريح والحيلولة بين الطلبة والانكباب على الملاهي الميسورة فى المدينة وتأثير الأشخاص الذين تذهب بهم الاعتقادات الفاسدة والخرافات العاطلة إلى اعتبار تشريح جثة الانسان من الجرائم التي لا تغتفر

ولكن ظهرت منذ نقل معسكر التعليم العسكرى من الخانقاه حاجة الى نقل المدرسة والمستشفى من أبى زعبل الى نقطة أخرى تجمع الى مزية موافقتها المرضى فضيلة تسهيل التعليم الطبي فيها . وقد انقضت خمس سنوات قبل أن يتنفذ المشروع الذى كنت أبذل كل جهودى بطلب المسارعة بتنفيذه

ومما لاخلاف فيه أن ترك مكان كلف خزينة الحكومة مبالغ باهظة جداً وإيجاد مكان آخر بالقاهرة يسع من ألف إلى ألف وخمسمائة مريض بحيث يكون ذا ملحقات كافية لاقامة ثلاثمائة تلميذ وغرف عديدة صالحة للتدريس ، لمن الصعوبة بمكان . إلا أن سمو الوالى ذلل بعزمه الماضى هذه الصعوبة بأن خصص للمستشفى ومدرسة الطب مدرسة القصر العينى الكبرى

الواقعة بين القاهرة وبولاق تجاه جزيرة الروضة على مسافة قليلة من العاصمة

والقصر العيني بناية مربعة الشكل تحيط به المتنزهات الجميلة. وله طابقان فوق الطابق الأرضى وكل الأجنحة فيه عبارة عن صفين من الغرف تفصلهما دهاليز بقدر امتدادهما . وكل جناح ينقسم إلى أربع غرف فى كل غرفة خمسون سريراً . والطابق الأرضى عبارة عن مغاور معقودة تصلح كمستودعات ومخازن . وفى وسط البنيان صحن فسيح جداً مفروش بالأشجار . وإلى الجناح القبلى أربع بنايات كبيرة مفصولة بعضها عن بعض .

الأولى خاصة بالانفتياترات والمعامل الكيميائية وغرف الطبيعة والتاريخ الطبيعي

والثانية لمحلات النوم وغرف الطعام

والثالثة للصيدلة العمومية

والرابعة للمطابخ والحمامات والمغاسل

ومن هذا الوصف يرى أنه كان من المتعذر وجود أصلح من هذا المكان ولا أحسن موقعاً لوضع المدرسة الطبية فيه

أما المزايا الناشئة عن نقل المدرسة من أبى زعبل إلى القاهرة

فجزيلة جليلة . منها أن المستشفي أصبح قريباً من مكان الحاميـة وأن المرضى لايحتاجون فى الوصول اليه إلى قطع المسافات الطويلة لاسيما وأن في قدرتهم اختصار الطريق الموصلةاليه سواء براً أم بطريق النيل

وكذا المرضى فأنهم بعد أن كانوا موزعين على مستشفي أبى زعبل والأزبكية فى القاهرة قد أصبحوا الآن مجتمعين فى حظيرة واحدة ، وتيسر تطبيق التعليم العملى عليهم بحسب ماهم مصـابون به من مختلف الأمراض . ثم إنه أصبح فى مقـدور طلاب العلوم الدينيـة الذين يردون على مصر من مختلف أنحـاء البلاد الشرقية لدرس الشريعة الأسلاميـة بالجامع الأزهر ، أن يحضروا أفواجاً إلى مدرسة الطب ليسـمعوا مايلقي من الدروس والمحاضرات وينقلوا فيما بعـد إلى مواطنهم ما اقتطفوه من ثمـار العلوم الطبية . وبهذه الكيفية لايكون انتشار هذه العلوم مقتصراً على مصر بل متناولا غيرها من الأصقاع التى مابرحت محرومة منها ، ولا شك فى أن هذا الانتشار كثير المزايا شامل الفوائد نافع للانسانية والحضارة

ولم يكن من قصدى التصدى فى غضون الكلام على هذه

المسئلة للنقطة الاقتصـادية إلا أنني لا أجد بدأً من ملاحظة أن المصروفات التى نشأت عن ذلك النقل بألغاء وظائف الموظفين الطبيين والاداريين الذين كانوا بمستشفي القاهرة القديم قد انخفضت كثيراً على أثر إدماج هذا المستشفي في مستشفي القصر العيني. ثم لا ينسى ماهنالك من فوائد وجود دار الصيدلة العمومية التى تحضر فيها المجهزات الكيميائية والصيدلية بمقادير عظيمة جداً بجوار المدرسة. إذ يتيسر بهذه المجاورة تطبيق العلم على العمل فى مجاله الصحيح. وهى طريقة أفضل بكثير من التطبيق على سبيل التمثيل أثناء إلقاء الدروس النظرية. ولما أخذ التعليم هذا السمت واتجه هذا الاتجاه أصبح أكثر فائدة وأجدى نفعاً منه قبلا. لأن مدارك التلاميذ ارتفعت إلى المستوى الذى تفهم فيه مايلقى عليها من البيانات والشروح

وإذا كان هناك ما استدعي الاسف على أثر نقل مدرسة الطب من أبى زعبل فأنما هو حرمانها الحديقة النباتية التى بذل فى سبيل إنشائها الكثير من العناية والعناء. ولكن صاحب السمو ابراهيم باشا الذى طالما بذل الضحايا الجليلة فى كل ماله مساس بالزراعة قد تفضل فخصص لأنشاء حديقة جديدة للنباتات جزءا

من أراضى جزيرة الروضة المعروفة بحدائقها الذى تناظر حدائق أوربا جمالا وحسن تنسيق

٦٣ — غرفة التاريخ الطبيعى

لقد انسقت فى هذا المقام الى ذكر بعض كلمات عن غرفة التاريخ الطبيعي فى المدرسة الطبية ، فأنى قد استشعرت منذ انشاء هذه المدرسة في أبي زعبل بضرورة إيقاف التلاميذ على علم قد أصبح عند الشعوب المتمدينة ركناً من أركان التعليم الذى يعطي للشبيبة ، وله ارتباط وثيق بأحسن مستكشفاتنا الزراعية والصناعية ، بل هو التكملة التى لابد منها فى التربية الطبية

وكان الشبان المصريون الذى عهد تعليمهم الى ادارة الأستاذ (ويجيس) ، وهو من علماء التاريخ الطبيعى الممتلئين نشاطاً وحذقاً وتلميذ العلامة الشهير الأستاذ (بو نللى) بمدينة تورين ،قد تقدموا فى تحصيل ذلك العلم تقدماً يرجى معه أن تحرز مصر علماً جديداً كانت فيما قبل لاتدرى من حقيقته شيئاً

وإنا لمدينون للاطباء المنتشرين فى مختلف أرجاء القطر المصرى وسوريا وقنديا والحجاز واليمن ببعض الكائنات الطبيعية

التى أضيفت إلى ماعنى الأستاذ (ريجيس) بالتقاطه وجمعه حتى تألفت من هـذا وذاك موجودات غرفة التاريخ الطبيعى التى سبقت الأشارة اليها

ولقد قدرنا المزايا الجليلة التى تنجم عن تبادل ما لاحاجة لنا به من الموجودات الطبيعية مع أوربا لوجود نظير له ، فأرسلنا الشىء الكثير منه إلى فرنسا وانجلترا والروسيا وألمانيا وإيطاليا الخ ، فوردت الينا فى مقابله أشياء نفيسة جداً . ولسوف يرد الينا غيرها ، وبهذه الواسطة تحصل مصر بالتدريج على متحف طبيعى جليل بثمن قليل

٦٤ — المستشفى الملكى

بالنظر إلى عدم وجود مستشفى للملكيين ، أجاز سمو الوالى قبول المرضى منهم فى المستشفيات العسكريه . ولما كان المستشفى فى أبى زعبل ، خصص مكان لقبول المريضات من النساء . غير أن بعده السحيق عن المدينة حال دون تحقيق الأمانى الخيرية التى كانت الباعث الأول لسموه على إنشائه

ولما أصبح مستشفى القاهرة العسكرى خالياً على أثر نقل

المرضى منه إلى مستشفى القصر العينى ، جعل مستشفى ملكياً لمعالجة فقراء المرضى من الذكور والأناث. وموقع هذا المستشفى فى ميدان الازبكية ، جميل جداً . وهو يتألف من بنايتين حديثتى العمارة ومنفصلتين عن بعضهما

ولم يتيسر حتى الآن الاشتغال بأنشاء المستشفيات الملكية في الأقاليم . إذ لا بد قبل الأخذ بأنشائها من تخريج ضباط للصحة من المصريين ، وأن تسمح الظروف للحكومة بالاشتغال بالأصلاحات الداخلية . ومع هذا فيوجد بمدارس الأقاليم كافة جماعة من الجراحين لأسعاف المرضى بعلاجهم ، هذا فضلا عن أن لكل مدرسة شفاخانة لمعالجة المرضى من التلاميذ فيها

٦٥ — البيمارستان

يوجد بوسط القاهرة ملجأ مخصص للفقراء والمجاذيب من الرجال والنساء ، أريد به البيمارستان الذى أنشأه السلطان الناصر محمد بن قلاوون منذ ستة قرون . وهذا البيمارستان بؤرة قذرة لا يمكن لمن يبصر بها أن يتصور كيف يستطيع أولئك التعساء الاستمرار على البقاء فيها . فقد كان المجذوبون الموجودون به

يرسفون فى السلاسل ويقيمون فى حجرات ضيقة مبنية بالحجر الصلد . وهذه المعاملة السيئة فى ذلك العهد قد ازدادت سوءاً فى أيامنا هذه بسبب ما أصاب مبانيه من التلف وقلة إيراد الأعيان المرصودة للانفاق على ذلك البيمارستان

ولم ترَ حكومة سمو الوالى حتى الآن ما يوجب تداخلها فى إدارة ذلك المعهد المقصود به محض الخير ، إلا أنه قد ساءها كثيراً ما شهدته من سوء حالة ضيوفه البائسين فأمرت بنقلهم إلى المستشفى الملكى الجديد حيث يوافون بالعناية المتواصلة والغذاء الطيب والمسكن المناسب

٦٦ — مستشفيات الولادة

كان الشعور بأهمية مسألة الوضع والتوليد يزداد كل يوم، والمفهوم من التقارير التى قدمتها أن السودانيات والحبشيات كن يتلقين فن التوليد في مدرسة قريبة من مدرسة الطب بأبي زعبل ليسهل عليهن الحصول فيها على ما لايتيسر حصولهن عليه فى أى مكان آخر . وقد تعلم عدد عظيم منهن القراءة والكتابة باللغة العربية على وجهها الصحيح ولم يغفلن دراسة رسالة مؤلفة

فى التوليد ترجمت إلى هذه اللغة . وكانت تقوم بتطبيق العلم لهن، على مثال إنسانى مصنوع ، معلمة أوربية فى فن التوليد وأستاذ نيطت به إدارة هذا المعهد

وألحق بمدرستهن مستشفي صغير للنساء فتيسر لهن بذلك تطبيق العلم على العمل بمباشرة توليدهن وعمل الحجامة لهن وبتلقيح المولودين بالمادة الجدرية وتضميد الجراح وعمل اللفائف الخ . وألقيت عليهن مبادىء المادة الطبية ودربن على أبسط أعمال الصيدلة ووظفت تلميذة متخرجة من مدرسة الولادة بباريس، وهى الآنسة (جولت) رئيسة للمولدات فى المستشفى المومأ اليه، فرأت عند وصولها أن تلميذاتها كن على جانب من العلم وأن لهن من حسن الاستعداد لتحصيل ماجملها تفكر فى إمكان تعليمهن اللغة الفرنسية ، من غير أن تضر بدراستهن الأولى . ولما كانت الآنسة جولت تجمع الي حسن التربية ومحامد الخصال المعرفة التامة بفنها فقد أخذت على عهدتها مباشرة تعليم تلك اللغة لهن . وقد قطع التلميذات فى هذا السبيل شوطا كبيراً، وكفاءتهن فيها تستدعي الدهشة خصوصا في هذا الوقت الذى أخذ بعض

ثملتشاين فيه ينكرون على الجنس الأسود كل أهلية واستعداد
للذكاء والفهم

٦٧ — الحبشيات

حقا إن أغلب التلميذات اللائي تكلمنا عنهن حبشيات
الجنس وأنهن فريق غير فريق السودانيات ، بالرغم مما اشترك
الفريقان فيه من العلامات والأوصاف الخارجية المتشابهة فيهما
كشعث الشعر وسواد اللون الخ . ولكنه مما لامشاحة فيه أن
من بين السودانيات الموجودات فى المدرسة من بلغن فى
الكفاءة والذكاء مبلغاً لايختلف بشيء عنه فى الأجناس الأخرى
التي يظهر أنها تبغى إخراجهن من حظيرة الكائنات النبيهة .
وأخص بالذكر النساء اللائى أصلهن من (سنار) و (ميرونى)

٦٨ — مدرسة الولادة

لم يكن ثمة مانع ، والحالة هذه يحول دون إنشاء مدرسة
للولادة بالقاهرة . ولقد أنشئت فعلا وجعلت بالقرب من مكان
المستشفى الملكي الجديد في قسم من الجناح المخصص للنساء .

ويقبل بها بنات العاصمة ونساؤها وكذا بنات الأقاليم ونساؤها ليتعلمن فيها على نفقة الحكومة ويصرف لهن الغذاء واللباس. وقد أجريت عليهن المرتبات الشهرية كما أجريت على طلبة مدرسة الطب. ويفضل في اختيارهن اليتيمات وبنات العساكر المتوفين أو الذين لا يزالون فى الجيش العامل. وبلغ عدد التلميذات اللائى أصلهن من العاصمة عشرين تلميذة، والواردات من الأقاليم أربعاً عن كل مديرية فتجاوز مجموع التلميذات بذلك المائة. وبهذه المثابة ستتألف طائفة من المولدات المتعلمات تقوم مقام الدايات اللائى غلب عليهن الجهل وأفسد عقولهن الاعتقاد الفاسد بالخرافات. وإن مثلا واحداً نذكره في هذا المقام ليكفى لأماطة اللثام عن الوسائل الغريبة التى يلجأن اليها فى مباشرة فن قد انحلنه انحلالا رغم إرادة الانسانية والطبيعة، ولمجرد إلحاق الضرر بهما. فقد حدث أن امرأه حاملا قضت ثلاثة أيام تعاني الوضع فاتخذت معها كل الوسائل واستنفدت جميع الحيل. فمن مركبات علاجية غريبة إلى أدوية فى أشد مايستعمل خطراً. ولم يقتصر على ذلك، بل حصنت بالأحجبة والتمائم. فلما لم يجد كل ذلك نفعاً تقدمت واحدة من تلك الدجالات مقترحة وسيلة

قالت إنها من أنجع ماشهدت فى حياتها لاتمام الوضع . ثم عمدت إلى غلام فأرقصته بين ساقي الحامل التعسة زاعمة أن رقصه لسوف يحرك الجنين فى الرحم فيلتمس النزول من بطن أمه

والحقيقة أن الوضع المنذر بوخامة العاقبة نادر جداً فى مصر والبلدان المتأخرة مثلها فى الحضارة والمدنية ، ولا سيما بين نساء الشعب والفلاحات . وأوكد من هـذه الحقيقة أن إخلاد نساء المدن إلى العيش فى ظل الترف والنعيم يعرضهن فى مصر كما يعرضهن فى بلادنا إلى أخطار الوضع العسير . ولا شك فى أنه إذا لم تسعف الطبيعة الحامل بسرعة الوضع ، فلن تجدى حيل الدايات نفعاً . بل كثيراً ماتكون مداخلتهن فى شؤون الحامل أضر بها من تجنبهن إياها . ذلك لأن جهلهن يؤذى فى الغالب الوالدة والمولود معاً فى الأيام الأولى من الوضع . ثم إن لدى الدايات أسراراً علاجية يرمين بها الى منع العقم كما أن لديهن أسرارا أخر مؤكدة التأثير فى إسقاط الجنين . وهـذه جريرة يجرنها على أنفسهن كل يوم بلا اكتراث ولا ذمة

وإذا كانت الحامل لاتود ، لسبب ما ، أن تؤم (أى تصير أماً) فلا أيسر من أن ترى تلكم الدايات فى إتلاف الجنين الذى

تحمله بين ضلوعها أمرا طبعيا يعتقدن أنهن لايحاسبن عليه لا من الله ولا من بنى الأنسان. ومن ثم يقبلن بلا إلٍّ ولا ذمة على ارتكاب هذه الجناية الفظيعة المؤدية الى فناء النوع الأنسانى

وبدهىّ أن انقطاع تلك النسوة المجرمات عن مزاولة حرفتهن اللعينة لايكون إلا إذا تألفت طائفة من المولدات المتعلمات اللائى سيؤدين فيما عدا الصناعة التى تخصصن لها واجباً آخر ذا مساس بالمصلحة العامة، ألا وهو علاج الأمراض السرية التى يمكن أن تصيب بعض النساء فيمنعهن الحياء الكاذب عن مكاشفة الأطباء بها. ولا يخفي أن سلطان الوهم فى هذه المسئلة وأشباهها متين القوى إلى حد أن الرجل يفضل أن يرى امرأته أو ابنته المصابة بتلك الأدواء ترد موارد الموت على أن يخالف الأصول والمبادىء التى يقول إن العرب سنوها في المصنفات الطبية

فهذه الأسباب كلها حملتنى على أن أوسع، بقدر الأمكان، نطاق التعليم الذى تعطاه التلميذات اللائى يتعلمن فن الولادة. ويشمل تعليم هذا الفن الدروس الآتى بيانها:

أولا — مبادىء اللغة العربية بحيث يستطعن تلاوة

الدروس التى تعطينها تلاوة صحيحة

ثانياً — فن التوليد نظرياً وعملياً

ثالثاً — العناية الصحية بالحوامل والنساء اللائى في حالة الوضع والمولودين حديثاً

رابعاً — طريقة علاج الأمراض الخفية

خامساً — مبادىء الجراحة الأولية الكافية لعلاج الأورام الالتهابية وتضميد الجراح البسيطة وعمل الكى ووضع اللزقات وما شابه ذلك

سادساً — طريقة عمل الحجامة وتلقيح الجدرى وأخذ الكاسات الهوائية ووضع الدود

سابعاً — العلم بالأدوية الأكثر تداولا فى الاستعمال وتجهيزها .

وبهذا التعليم أصبح من السهل توسيع نطاق معارفهن شيئاً فشيئاً حتى توافرت منهن طائفة بلغت من العلم مبلغاً يؤهلهن تعليم فن التوليد تحت إدارة وإشراف معلمة أجنبية

٦٩ — خواطر فى نظام المصلحة الطبية بمصر

صورنا فيما تقدم حالة المصلحة الصحية والتعليم الطبي فى القطر المصرى . وفى استطاعتى القول بلا ازدهاء ولا استكبار، وإنما مع الرجوع إلى آراء الأخصائيين أن مدرستنا الطبية معهد فريد فى نوعه بفضل نظامه وقانونه المدرسى الذى يخضع التلاميذ طوعاً لأحكامه ، وأسلوب التعليم فيه وتوافر الوسائل للتعليم النظرى والعملى . فلا غرو إذا كان جديراً بالثناء الذى أطراه به جميع الذين زاروه وتفقدوا أقسامه

ولست أظننى بحاجة إلى التوسع فى الكلام على النتائج الجليلة التى جاء بها هذا المعهد ، منذ تأسيسه ، لصالح الأنسانية والحضارة ، فأنه من الميسور استنتاج هذه النتائج وإدراك كنهها وتقديرها حق قدرها

ولقد سبق لى أن أجملت الكلام على بعضها وأقول الآن إن الثمار التى أثمرتها المدرسة لا سبيل لأحد إلى نكرانها أو القضاء عليها بحكم باطل أو رأى فطير ، بالرغم مما يخالج أفئدة المرتابين من الخوف على مستقبلها . فمن ثمارها الغضة نقل أجود

المصنفات الطبية الأوربية الى اللغة العربية وطبع العدد الكثير من نسخها بالقاهرة . وستعزز هذه المصنفات منذ الآن فصاعداً بتعريب ماسيظهر من المصنفات الحديثة القيمة فترفع للعلوم الطبية بين المصريين مناراً وتقيم لها عندهم أسواقاً نافقة

وكما أن مدرسة الطب كانت فى عهد قريب منبعثاً لأنوار العلم والعرفان يهتدى بها أفراد الأمة المصرية فى دياجير الجهل إلى شرائف الغايات، فستكون كذلك فى مستقبل الزمان ماتوالى الملوان وأضاء النيران

ولقد رأينا فيما سبق كيف تطورت ناشئتنا بالأطوار التى بدلت من عاداتهم وأخلاقهم . فأن التعصب الدينى الذى كان فطرة فطروا عليها ، قد انمحت من أفئدتهم آيته ، فلم يعودوا يرون فى معجزات علم الكيمياء والطبيعة والهيئة أنها أساطير الأولين وأعمال الشياطين ، بل صاروا من القدرة والبراعة فيها بحيث يستطيعون تعليل الآثار العلوية كالبرق والرعد على حقائقها المقررة فى العلم . فهم الآن يعتقدون أنها لم تكن كما كانوا يقولون قبلا أثراً من آثار غضب الله وسخطه على العباد . وكذلك يفسرون الظواهر الأخرى للطبيعة ويعللونها بعللها الصحيحة

من غير نزوع إلى الاعتقاد بأنها من المعجزات . وهذا التقدم العقلي يذيعه التلاميذ طبعا بين أسراتهم فيأتي بالفوائد المقصودة منها تدريجاً ثم ينتشر من ثمّ بين أبناء جلدتهم

ولا يسعنى فى هذا المقام إلا الاعتراف بما داخلنى من السرور كلما لقيت تشجيعا من المصادر السامية أو سمعت مدحا فيما بذلته من الجهود أو تحبيذاً لعملى من مشاهير الرجال الذين زاروا مصر . وأرى منحتما علىّ فى هذا المقام ، الاعراب عن مزيد شكرى لهم . إلا أنه من ذا الذى كان يخطر بباله أن المشاق التى تكبدناها فى سبيل إنجاح معهد جدير بصنوف الرعاية والعطف ، ولو لم يبلغ حد النصاب من الكمال والاتقان ، يقابل من بعض الناس بالمطاعن التى تترفع عنها النفوس ، حتى المنطوية على السخائم والأحقاد ، ولو كان حقدها الكمين مبنياً على العقل والصواب . فلقد راشت صحيفة شرقية في مدرسة الطب المصرية سهام مطاعنها القارصة ونفثت فيها من سموم التقريع والوشاية ماراق لها أن تنفثه . وهو مالم يسع أساتذة المدرسة بإزائه إلا أن ينشروا الرسالة الآتية التى أوردها هنا برمتها (١)

(١) نشرت هذه الرسالة فى الطبعة الشرقية لجريدة « سيمافور الشرق » التى لها في الشرق الادنى نفوذ عظيم وكلمة مسموعة ومكانة عالية

إدحاضاً لتلك المطاعن التى وجهت إلى المدرسة بلا مبرر والتى لا يبعد أن توجه اليها مرة أخرى . وأظن أن فيهـا الكفاية لتنوير القراء وإيقافهم على طبيعة تلك المطاعن

« القاهرة فى ٥ دسمبر سنة ١٨٣٨

« حضرة محرر جريدة إزمير

« قرأنا فى عدد جريدتكم الصادر بتاريخ ١٧ نوفبر فصلا طعنتم فيه ، بمناسبة مشروع إنشاء مدرسـة للطب بالأستانة ، الطعن المقذع فى مدرسة الطب المصرية ولم تضنوا فيه بالسباب والأهانة على أساتذة هذه المدرسة أجمعين

« إن الأسلوب الذى توخيتموه فى نقد كل ماهو حاصل فى هذا القطر يكشف لنـا القناع عن وجه السـبب الذي حدا بكم إلى اتخاذ اللهجة التى تخذتموها نحونا

« على أنه إذا كان هناك مايستوجب التسامح والعطف ، فأنما هو ذاك المعهد الذى أقيمت قواعده على أسس وطيدة من الأنسانيـة والعرفان . ولطالمـا وقفت روح التحزب والغرض دون المنشآت المقصود بها محض العمل لتخفيف آلام الأنسانية وويلاتها فلم تنل منهـا شـيئاً . ولا عجب فأن الحروب ، على ما

وصفت به من القسوة والصرامة فى المعاملة ، تحترم العلم الأسود الذى يخفق على مأوى المرضى والجرحى فتحجم عن أن تلحق به أقل أذى

« وليس من مرامى أغراضنا أن نتغلغل فى الجزئيات والتفاصيل لنقيم لكم الدليل على أن الترتيب الأول للمدرسة كان من النظام وحسن النسق بقدر ما كانت تسمح به ظروف الأحوال ، وأنه قد أدخلت عليها بتعاقب الأيام إصلاحات وتحسينات قضي بها الزمن ودعت طبعاً إليها التجربة والاختبار. ونأبى أن نعتقد أنها فى الحالة الحاضرة أدنى بكثير من مثيلاتها فى الأقطار الأوربية سواء فيما يتعلق باتساع نطاق التعليم أو بمتانة الأساليب التى تلقي الدروس بمقتضاها .أما نحن فمع كوننا لانزعم زعماً مبنياً على الزهو والخيلاء أننا نروم مجاراة أساتذة المدارس الطبية الجامعة التى تلقينا فيها العلوم ونلنا منها الدرجات والألقاب الدالة على تحصيلنا إياها ، فى الكفاءة وسعة العلم . فأننا على اعتقاد راسخ وإيمان وطيد بقدرتنا على إحراز قسط من النجاح لتعليمنا للغير ماعلمنا إياه أساتذتنا أو طالعناه في المصنفات أو وقفنا عليه بالخبرة والمران الطويلين

« أما الوسائل المادية للتعليم فى المدرسة الطبية بالقاهرة ، فلا تقل فى شىء عن نظائرها بمدارس الطب في البلاد الأجنبية. ومع هذا فلنا أن نؤكد بمقتضى ماوصل اليه علمنا أنه لا يوجد فى قطر غير مصر ماتوافر فيه معا من وسائل التعليم النظرى والعملى. ففي مدرستنا الطبية مكتبة حاوية للمصنفات القيمة فى علوم الطب ، وغرف فسيحة للطبيعة والكيمياء والتاريخ الطبيعي ، ومجموعات وافية عن المادة الطبية ، وآلات كاملة للجراحة ، وقطع صناعية لتمثيل الأحوال التشريحية ، وأنفتياترات كبيرة ومعامل للقيام بالعمليات الكيميائية والصيدلية المركزية العامة ، ومستشفى كبير يأوى اليه المرضي بالأمراض المزمنة والحادة على اختلافها . والى هذه المزايا الجليلة نستطيع أن نضيف مزية أخرى وهي وجود طلاب داخليين خاضعين لنظام المدارس الداخلية

« بقى علينا ان نتكلم على طريقة النقل التى يظهر أنكم لم تمعنوا النظر فيها طويلا فلم تدركوا كنهها

« نحن لانشارككم فيما ذهبتم اليه من ضرورة تمكن الشخص المنوط به أمر الوساطة بين الأستاذ والتلاميذ من العلم

الذى يلقيه الأستاذ ويقوم هو بنقله إلى اللغة العربية . فأنه يكفى فيما نراه ، أن يكون هـذا الناقل حسن الالمـام باللغتين ومن الكفاءة بحيث يفهم الدروس التى يفسرها الأسـتاذ له . ومن الميسور للأستاذ ، متى تم النقل على الصفة المتقدمة أى بطريق الرواية عن الأستاذ ، أن يراقب صحة ما ألقاه الوسيط فى حضرته بتكليفه إياه أن يترجم إلى الفرنسية ما كان قد عربه عنها . ومثل هذا التمرين المضاعف ينتهى بالمترجم الى الاضطلاع بنصوص الدرس والأحاطة بأطرافه ، فيكون مما لاشك فيه أن الدرس الذى حضر على هـذا المثال ، قد نقل نقلا دقيقاً روعيت فيـه الأمانة التامة

« وهذا البيان الوجيز كاف للقضاء على المفتريات التى افتريتموها والقذائع التى تقذعتم بها لنا وإقناعكم فى الآن نفسه بفساد ما ادعيتموه من أن مدرسة أبى زعبل لاتستطيع أن تخرج للناس سوى لفيف من الممرضين . وكنتم تمنون أن تصادف هذه الوشاية الغليظة هوى فى بعض النفوس وتتوهمون أنكم ستفلحون فى حمل الناس على التسليم بأن جماعة من الأطباء الجديرين بحمل هذا اللقب قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم الشريف ، ونسوا ما

لهم من كرامة وشرف فتــدلوا من الحضــيض إلى حد الرضى بتضحية حياتهم فى تعليم لا يتخرج به غير الممرضين والمضــمدين للجراح

« أما ما زعمتموه من أن ابراهيم باشــا قــد أيقن أنه ان يستطيع أن يستفيد بأوائل المتخرجين من مدرسة أبى زعبل في غير العمل بمستشفياته كممرضين فقط ، فمن القوة بما يناسب الدعيــات التى أردتم تأييدها به وألفيناه غير حقيق بالعنــاية بتكذيبه وإثبات فساده . ومع هــذا فقد أحببنا بأن نحيطكم علماً هنا بأن الخمسمائة ضابط صحى الذين قدمنــاهم من مدرســتنا للعمل فى الجيش والمصالح الرسمية الأخرى ليس منهم من أحيل على فرقة الممرضــين ، بل أن من بينهم طبيباً حائزاً على رتبــة الرياســة وعدداً عظــيما غيره حائزين على رتبة البكباشــية أو المساعدين وأن المصريين منهم هم الذين يتولون الرياسة فى جمــلة من الألايات وفى بعض المستشفيات ، وأن فريقاً منهم يؤدى فى مدرســة الطب وظيفة مدرس مساعد ، منــاظرين بذلك زملاءهم الذين أعطيت لهم الدكتورية من مدرسة باريس الطبية الجامعــة ، وأن من الافتراء المحض ماذكرتموه من أن أكثر

أولئك المتخرجين براعة ليسوا من الكفاءة التامة بحيث يستطيعون تضميد بعض الجراح أو القيام ببعض العمليات الجراحية غير ذات الأهمية . فلقد قام الكثيرون منهم بعمليات جراحية عظيمة الشأن منها رد الرضوض والكسور واستخراج الحصوة والسادّ (الماء الساقط فى العين) الخ ، وعالجوا بنجاح تام أصعب الأمراض وأعضلها . ومع كل هذا فلم نزعم قط أنه لم يخرج من بين أيدينا سوى النابغين . إذ أية مدرسة فى العالم ، ولو تكن أشهر المدارس وأعلاها كعباً ، لا يكون بين خريجيها شىء ولو يسير من التفاوت أو لا يعترض نجاح تلاميذها ما يعترضه فى كل مكان من الأسباب التى لا أرتاب فى أنها بمصر أكثر توافراً منها بغيرها من البلدان نظراً إلى ما يلازم المعاهد الحديثة النشأة عادة من الصعوبات وما تلاقيه فى طريق نجاحها من العقبات

« تقولون إن مدرسة أبى زعبل لم تكن إلا مظهراً مزوقاً من المظاهر المضحكة أراد بعض شطار الدجالين الاستفادة به وابتزاز المال من جرائه . وهنا لم تنل الأهانة منا فقط بل نالت من سائر المكلفين بمراقبة أعمالنا وملاحظة نتائجها ، ففيها التهمة الصريحة لهم بأنهم ظلوا عشر سنوات كاملة واقعين فى

فخاخ أولئك الدجالين من غير أن يشعروا فى كل هذه المدة بما وقعوا فى شباكه من الخطأ والاغترار . وعلى هذا فأذا سلمنا بما ذكرتموه تكون نظارات الحكومة التى جعلت المدرسة تابعة لها بعضها تلو بعض وكذا المجلس الصحى العام ومفتشه والجم الغفير من الأخصائيين وعلماء جميع الأقطار الذين شهدوا أعمالنا اليومية ووقف أمامهم تلاميذنا واحداً تلو واحد فى الامتحانات العمومية ، قد وقعوا في شر خدعة أو هم شركاء لأولئك الدجالين في دجلهم . ولكن ما رأيكم فى الاثنى عشر تلميذا مصرياً الذين أرسلوا إلى باريس بعد إنشاء المدرسة بخمس سنين فاستطاعوا أن يؤدوا أمام الأكاذيمية الملوكية للطب امتحاناً طرحت عليهم فيه معضلات المسائل فى التشريح وعلم وظائف الأعضاء والطب والجراحة فاقاموا الدليل بأجوبتهم على أنهم تلقوا من العلوم فى مصر ما يعدل بالتقريب مايلقي منها في أغلب المدارس الجامعة ؟ إنا لانرتاب فى أنكم لا تجسرون على أن تتهموا بالخطأ أو الزيغ عن جادة الصواب أو الكذب أساطين الممتحنين وهم (ديبويترن) و (دوبوا) و (أورفيلا) و (مارك) و (باريزيه) و (كلوكيه) و (روش) و (سانسون) و (بريشيه) و (بيجن) الذين سجلت

أصواتهم في محاضر الجلسة التى نبعث بها اليكم درج هذا

« كلا يامولاى . إنا لانخشى أبداً أن تنتزع مطاعنكم فى مدرسة الطب المصرية ما اكتسبته من الشهرة والثقة خلال عشر سنوات كان رائدها فيها الفلاح والنجاح ولا أن تحرموا أساتذتها احترام أصحاب النزاهة من ذوى الرأى الصائب والفضل العظيم . بل أننا بالعكس نثق أنكم لن تصادفوا كما توقعتم إلا اللوم والريبة فى صدق ما ادعيتم . وإنه لما يدعو إلى العجب والدهشة أن لا ينتثر من فم صحفى واجبه معاونة البلاد التى ينشر فيها صحيفته على التقدم ، سوى كلمات الازدراء والتحقير لأبناء جنسه الذين عقدوا الخناصر على العمل فى سبيل الخير ، وأن يسلق بألسنة حداد معهداً يعد إنشاؤه فوزا ساطعاً على الأوهام الفاسدة والخيالات الكاذبة ، بينا هذا المعهد لم يكن الغرض منه أن يحيى فقط فى موطن كبار الأطباء الأقدمين ، بمن يخرجهم من التلاميذ أو بما يعربه من المصنفات ، علوماً يراد بها صيانة الصحة العمومية والقضاء الأخير على الآفات المشئومة التى أصيب بها شعوب الشرق، بل ان يحصر أيضاً مختلف المعلومات البشرية فيها ليصير ينبوعا تتدفق منه نعم المدنية الفياضة

« وإنه لينبغى أن لاتعتبروا هذا الرد استفتاحاً لمناقشة لا نود أبداً النزول معكم فى ميدانها ، بل أن تروا فيه أداء لواجب تفرضه علينا العناية بشؤون معهدضحينا ونضحى فىسبيل إنجاحه جهودنا بباعث من عاطفة الكرامة والشعور بالحاجة إلى صيانة الرأى العام من التأثير السيء الذى يحدثه الكذب فى الرواية والتلفيق في الأخبار

« ولقـد كان من بواعث الخوف أن تفضى مزاعمكم إلى عرقلة نيات السلطان محمود التى نواها لخير الانسانية فتكونون بذلك قد خنتم مصالحه كما تخونون مصالح العلم والأنسانية . وإنا لنعتقد أننا قد أدينا بذلك خدمة نافعة لجلالته وللعلم والأنسانية بتأييدنا تلك النيات المقصود بها إنشاء مدرسة طبية في الأستانة بأقامة الدليـل على أن إنشاء هذه المدرسة قد جاء بالفوائد المنتظرة منه

« وإنا نرى ياسيدى أنه لايزال فى نفسكم من الأنصاف والنزاهة مايدعوكم إلى تخصـيص مكان من جريدتكم فى العـدد المقبل منها لنشر هذه الرسالة بحذافيرها »

الأمضاءات : دوفنيو — پرونر — پرون — فيشر —

بكتود — سيسون — فيجارى — ولسنيور — ديتوش — كلوت بك .

ولأتمام ماذكرته عن الترتيبات والأنظمة الطبية ، لا أرى بدأً من القول بأنى رأيت قبيل مبارحتى القطر المصرى فى شهر مايو سنة ١٨٣٩ للاستشفاء فى أوربا وابتغاء السلامة لصحتى التى كان هناك مايدعونى الى الخوف عليها ، رأيت من الواجب علىّ أن أبعث الى ناظرى الداخلية والمدارس تقريرا بيانياً عن حالة المصلحة ضمنته الأصلاحات التى هى فى حاجة اليها ، معتبرا ذلك من الفروض التى توجبها على وظيفتى ، لاسيما وأنى كنت أخشى أن تدس الدسائس بعد سفرى وتنصرف الأطماع لافساد ماعانيت المشاق كلها في ايجاده من العدم . ولقد برأت نفسى ، بتقديمى ذلك المستند ، من كل مسئولية فيما يمكن أن يحدث أثناء غيابى. وهو خير ماينهض دليلا عند الحاجة لى انني لم أغفل شيئاً مما قدرت منذ البدء امكان تحقيقه القيام به.

٦

الطب ومدرسة البيطرة

واسطبلات الخيل فى شبرى

حالة الطب البيطرى قبل محمد على — انشاء مدرسة الطب البيطرى — ترتيب اسطبلات الخيل فى شبرى — نقل مدرسة الطب البيطرى الى شبرى

٧٠ — حالة الطب البيطرى قبل محمد على

توافرت الدلائل على أن الطب البيطرى يرجع إلى نفس العهد الذى ظهر فيه الطب البشرى ، أى إلى القرون المتوغلة فى القدم . وفى الواقع فأن الرعاة والمزارعين والمحاربين شهدوا حيواناتهم فى كل زمان ومكان ، من أغنام ومعز وبقرات وخيل، تدركها الأمراض فتضنى وتهزل فيبحثون عن أسباب دائها ويباشرون علاجه بقدر مايصل اليه جهدهم . وليس فى عنايتهم بأمرها مايستنكر . فأنهم بسعيهم فى علاج ماشيتهم ودوابهم من أعراض الأمراض إنما يدافعون عن أشياء واقعة فى حوزتهم وداخلة فى ملكيتهم . ثم إن شعور الرحمة الغريزى فى الانسان يحمله على النهوض بأسعاف الكائنات التي يراها واقعة في براثن

الألم . دع أن ماتبثه العادة فيه من التعلق بالجمادات والعجماوات التي ألف رؤيتها منذ زمن طويل وربما كان ينتفع بها في شؤون حياته أو يجلب بواسطتها أسباب الفرح والاغتباط لنفسه ، من شأنه أن يستفز فى نفسه الميل إلى استطلاع أسرار الحيوانات الأهلية ودرس الوسائل الكفيلة بحفظ صحتها

ومع هذا فأن طب الحيوانات لم يتقدم إلى الأمام بمثل السرعة التي تقدم بها طب الأنسان . لأن الأول من هذين العلمين لم يكن ليهتم الناس به اهتمامهم بالثانى نظراً لتفضيلهم مصلحة الأنسان على مصلحة الحيوان . ثم إن المشاهدات التى كان ينبغي أن يبنى عليها علم الطب البيطرى كانت قليلة التواتر وغير موثوق بها فضلا عما كان هنالك من تعذر التمييز بينها فكانت تستدعي بالطبع زمناً طويلا للتمكن من تقييد أوابدها وجعلهاأساسايقوم عليه مذهب علمي خاص.ولعل هذاهوالسبب فى أنه لم توجد أمة رفعت علم الطب البيطرى إلى المكانة التى وصل إليها علم الطب البشرى ، حتى الأمة اليونانية نفسها ، ولم نر أن هـذا العلم وضعت له الآساس وأقيمت القواعد إلا فى سنة ١٧٦٢ حينما أنشأ الأستاذ (كلود بورجلات) مدرسة للطب

البيطرى بمدينة (ليون) وتبعها مدرسة (ألفور) فى سنة ١٧٦٥

يضاف إلى ماتقدم أن الآثار المصرية القديمة لم تذكر شيئاً فى نقوشها عن الطب البيطرى لا ولا عن الطب البشرى . نعم سبق لقدماء المؤلفين من العرب أن ذكروا فى مصنفاتهم شيئاً عن علم الطب البيطرى ، غير أن ما أوردوه منه لم يكن سوى تجارب ووصفات ما أنزل الله بها من سلطان . ويمكن القول بحق أن ما استنبطه الشرقيون فى علم الطب البيطرى يحصر فى أمور تجريبية لا يصح التعويل عليها بوجه ما

نعم قد أيدت التجربة عندهم أموراً لاريب فى صلوحها ومطابقتها للصواب والمصلحة ، وهو أمر بدهي . فأنهم ممن شغفوا حباً بكرائم الخيل ، فكان من مقتضى هذا الشغف أن يعنوا العناية الفائقة بها وأن يحرصوا على صحتها ويجمعوا ما استطاعوا أن يجمعوه من الملاحظات المفيدة بشأنها . والعربى من دون الشرقيين كافة يمتاز بحب الخيل ، وله بها ارتباط وثيق يفوق ماوصفته الروايات القصصية من صنوف الارتباط بين الناس . ولذا كان يشاطرها ماتملكه يمينه ببذل لايجاريه بذل الكرماء . فهي تقاسمه خيمته التي ينزل فيها مع أهله وغذاءه

وشرابه ، وهما أنفس ماعنده فى وسط الصحراء . وإذ كان العربى أعرف الناس بأخلاق الخيل وما تحتاج إليه ، فلا بد أن يكون من أكثرهم معرفة أيضاً بمختلف أمراضها

إلا أن هذه المعرفة لم تكن قائمة على أساس صحيح من العلم بل أن آثار الجهل ظاهرة فيها وحافة بها من كل جانب . ولذا كان من المتعذر ترتيبها وتنسيقها بمقتضى مبادىء العلم وقواعده . وهوما يؤخذمنه أن ماذهب البعض اليه من سعة إلمام المسلمين بالطب البيطرى وخصوصاًماتعلق منه بالخيل لاظل له من الصحة والصواب

٧١ — انشاء مدرسة الطب البيطرى

قبل أن تجىء ولاية مصر إلى محمد على كان بياطرة الخيل والدواب فى هذا القطر يمارسون البيطرة بحسب ماعندهم من قواعد الطب البيطرى الناقصة القليلة . وكانت حرفة البيطرة تستدعي العلم بحقيقة أمراض الخيل وعلى الخصوص مايصيب منها قوائمها لتعرضها إلى الآفات والأمراض أكثر من الأعضاء الأخرى . غير أن الوالى لم يستدع البياطرة من أوربا

إلا في سنة ١٨٢٧ وكانت أمراض الحيوانات وآفاتها فاشية في مصر وتفتك فتكها الذريع بالبقر المستعملة فى رشيد لتبييض الأرز . فاغتنم بعض الأوربيين من أصدقاء الوالى هذه الفرصة ليخبروه بوجود أطباء إخصائيين فى أوربا لعلاج الحيوانات وكشفوا له عن وجه الصواب إذا اهتدى بأنوار العلم والحضارة فى هذه المسئلة ، كما فعل فى مسائل كثيرة غيرها

وكان الوالى لا يحب أن تفوته النصيحة الطيبة ولا يفتر عن الاهتداء بآراء أهل العلم ، فلم يجعل أقوالهم الحكيمة دبر أذنه بل جعلها نصب عينيه . واستدعى من أوربا على الفور تلميذين بارعين من خريجى مدرسة (ألفور) وهما المسيو (هامون) والمسيو (پرتو) فقام الاثنان فى رشيد بالخدمات المنتظرة منهما . وما مضى بعد وصولهما زمن حتى مرّ بخاطرهما إنشاء مدرسة للطب البيطرى . وكان نجم مدرسة أبى زعبل الطبية حينئذ فى صعود مستمر إلى أوج النجاح . وكان المسيو هامون فى اتصال بالمجلس الصحي للاستعانة به فى طلب الآلات والعقاقير وغيرهما إنجازاً للأعمال التى وكلت إلى عهدته برشيد . فكاشف ذلك المجلس بمشروعه فتلقاه منه بأحسن قبول . وأذكر

فيما يتعلق بى ، أننى أيدته بكل مافى وسعي وعضدت مشروعه بكل جوارحى . وحبذ مجلس الصحة هذا المشروع لدى صاحب السمو الوالى ، فناط به الناظر البحث فى نظامنامة المدرسة المراد إنشاؤها ووكل إليه الحصول على التلاميذ الذين سيتلقون دروسها فنهض المجلس بهذه الأعباء إذ قدم إلى المسيو هامون التلاميذ المطلوبين من مدرسة أبى زعبل واقترح معاملتهم بما يعامل به تلاميذ مدرسة الطب البشرى أى أن ينعم عليهم برتب شبيهة برتبهم التى سبق لنا الكلام عليها

وكان مقر مدرسة الطب البيطرى فى أول عهدها بثغر رشيد السحيق البعد عن القاهرة . وكانت فوائدها لهذا السبب قليلة خصوصاً وأنه كان ينقصها كل شىء بالرغم مما كان يبذله المسيو (هامون) من الهمة والنشاط والدراية فى إدارتها . فأن الثمرات التى جاءت بها لم تكن لتعدل مابذله في سبيلها من المساعى الجليلة والجهود الكبيرة . وعندئذ أدرك ماهنالك من فائدة جعل مدرسته قريبة من مدرسة الطب البشرى بأبى زعبل . فقد كان يوجد بهذه المدرسة فيما عدا الأدوات والموظفين الطبيين ، غرفة لعلم الطبيعة ومعمل للكيمياء وأساتذة فى مختلف العلوم

يستطيعون إفادة تلاميذ مدرسة الطب البيطرى بمعلوماتهم الفنية الواسعة كما يفيدون تلاميذ مدرسة الطب البشرى . ثم إن أمهات المصنفات كانت قد ترجمت فى هذه المدرسة ووضعت لها الحدود والاصطلاحات . وكنا من جهتنا ننظر إلى هذا التقريب الذى اقترحه المسيو (هامون) بعين السرور والاغتباط لما يتأتى عن اتصال المدرستين من المزايا الجليلة لكل منهما . ولقد أجيز نقل المدرسة، فوصل المسيو (هامون) إلى أبى زعبل فى عدد قليل من التلاميذ أنزلوا أمكنة تابعة للمستشفى ريثما تتم البناية الخاصة بمدرستهم

ومن ثم اتسع نطاق مدرسة الطب البيطرى إذ وضع مائة تلميذ فى البناية الجميلة التى شيدت برسمها . وعومل هؤلاء التلاميذ معاملة تلاميذ مدرسة الطب بالسواء أى جعل سكنهم وغذاؤهم ولباسهم على نفقة الحكومة وأجريت عليهم المرتبات الشهرية . واستدعى بعض الأساتذة من أوربا وأقيمت الامتحانات السنوية التى أثبتت على مرأى ومسمع من الجمهور ما أحرزته المدرسة من التقدم وأصابه التلاميذ من الفلاح . وقد وضعت الآساس لتعليم منتظم وطيد بها فلم تلبث أن قدمت من يلزم

من الأطباء البيطريين لفرق الفرسان

٧٢ — تنظيم اسطبلات شبرى

بالرغم من تعليم الطب البيطرى فى مدرسة أبى زعبل ، لم تكن الاسطبلات التى أنشأها عزيز مصر فى شبرى ، قائمة الأدارة على المبادى الصحية بمعرفة رجال الفن فلقد تفشت بها فى سنة ١٨٣٨ أمراض عديدة قضت باستدعاء المسيو (هامون) وتكليفه بالبحث فى تلك الاسطبلات عن سبب هذه الامراض التى فتكت بالخيل وبيان الوسائل اللازمة لاستئصال شأفتها ومنع رجوعها مرة أخرى

وكانت المهمة التي عهدت إلى المسيو (هامون) خطيرة الشأن جليلة الأهمية . لأنه كان لا مناص له من استئناف العمل كله كأنه لم يكن والسبب في ذلك جهل المصريين بسياسة الخيل وصيانتها واستنسالها جهلا كبيراً . لأنهم كانوا يوقفونها مقيدة القوائم الأربع فلا تستطيع حراكا . وكانت الاسطبلات واطئة غير مقسمة أقساماً ، فأصيبت الأفراس وفحولها بالضعف والهزال وقويت فيها العيوب الوراثية وكان النتاج ضئيلا مصاباً

بالنزلات مطروحاً على الأرض تحت بطون أمهاته . وكانت الأفراس المريضة مختلطة بالسليمة كما كانت الفحول والأفراس والنتاج مقيدة ليل نهار أمام مرابط معينة لها مدة خمسة أشهر فى السنة، بحسب ما ألفه أهل البلاد من العادات السيئة فى ذلك ، بدون أن تتاح لها الحركة فى الغيطان المزروعة بالبرسيم ، وهو الغذاء الوحيد الذى تعطاه فى تلك المدة وعلى هذه الحال . وكانت تلك الخيل عقب إعادتها من المرعى (الربيع) لا يراعى فى تغذيتها واجب التنقل التدريجي من الحشائش الخضراء إلى الكلأ الجاف. وكان هذا الكلأ فيما يتبقى من السنة كلها عبارة عن التبن والشعير يوزعان عليها من غير تمييز بين أعمارها وأحوالها

ولم يكن هناك سجل لتقييد أنساب الخيل وأصولها ، كما كان النزو يحصل بلا قاعدة معينة ولا طريقة معقولة ، إذ كانت الفرس تقدم لأى فحل بدون نظر فيما إذا كانت صفات أحدهما توافق صفات الآخر . ذلك لأنهم كانوا يجهلون كل الجهل ما وراء التوفيق بين الفحول والأفراس فى أشكالها وصفاتها من المزايا والفوائد . وكانت الأفراس الكثيرة عرضة للأجهاض بعد الضراب للسبب المتقدم ، خصوصاً وأن القيود التى تعقل بها

كانت تحول دون نمو بطونها بتأثير الحمل . وكانت إذا جاءت بنتاج لا يعطي هذا النتاج الكفاية من الغذاء لتكوينه . وكان إذا بلغ السنة الأولى من عمره ونجا من الأمراض المتفشية أرسل فى الحال إلى المستودعات القريبة من القاهرة حيث لا نظام أيضاً ولا طرائق ثابتة للعناية بالخيل

ومن ثمّ يرى أن كل شيء كان يستدعى البدء من جديد . وها كم الطريقة التى روعيت في إقامة اسطبلات شبرى بناء على الاقتراحات التى رفعها المسيو (هامون) فى تقرير له إلى مقام سمو الوالى قال :

« بنيت الأسطبلات الجديدة فى قطعة من أرض شبرى طولها مائتان وثمانون متراً وعرضهامائة وثمانون متراً . وقسمت على اتجاه الطول من الشمال إلى الجنوب ، الي قسمين منفصلين بأفنية فسيحة . وجعل ارتفاع الأسوار المبنية بحجر النحت ثمانى عشرة قدماً فتحت فيها النوافذ العريضة العالية . ورتبت الاسطبلات بحيث تتقابل الخيول فى وضعها يمنة ويسرة وجهاً لوجه . وهذا الترتيب يسمح للزائر ، إذا سرح نظره فى الخيل بالوقوف على أشكالها وهيئاتها. وجعلت وسط الاسطبلات ممشاة

تقسمها قسمين متماثلين. فالأفراس الحاملة أو المرضعة جعل مقرها في جهة تستطيع فيها التنقل والحركة مرسلة غير مقيدة وتناول غذائها من العلف الأخضر موضوعاً فى مذاود خاصة بها . وأنشئت حول الاسطبلات حقول فسيحة محاطة بسياجات من النبات ويفصلها عن هذه سياج عال من الحديد . وخصصت الأراضى الفسيحة لزرع النباتات الكلأية من مصرية وأجنبية وألحقت بتلك الاصطبلات

وقد أضاف سمو الوالى الى الزراعة المصرية زراعة نباتات جزيلة الفائدة لمثل الاسطبلات التى أنشأها فى شبرى ، كالبرسيم وعشرة أصناف من الجاودار وغيرها من الأطريفل والنباتات المهمة . وجلبت من البلاد الأجنبية الزور الصالحة لاستنبات المروج الصناعية . وأذكر من بين هذه البذور صنفاً من البرسيم يزرع منذ زمن طويل بالقرب من مكة . ومحصوله من الكثرة بحيث يتعذر على العقل الأخذ به . فأن أرضه إذا رويت رياً جيداً أمكن حصدها ثلاث مرات فى الشهر الواحد

وقد فكت جميع الخيول تقريباً الآن من القيود التى كانت تحملها قبلا . أما النتاج فقد أطلق سراحه فى الحقول بعد أن كان

يحجز في أماكن مسورة . وبوشر تنويع غذائه وجعل أوفر منه قبلا . وخصص سجل لتسجيل أوان النزو وتعيين جنس النتاج وتاريخ وضعه وحساب ميعاد النزو بحيث يحصل الوضع بالنسبة لثلثى الأفراس الحوامل . وتترك الأفراس ونتاجها صباحاً فى المراعى الخصيبة بحيث لاتعود الى اسطبلاتها إلا فى المساء . ومتى جاء أوان فطامه أى متى بلغ الشهر الثالث من العمر ، يعطى له من أربعة ارطال إلى خمسة من الشعير المجروش (المدشوش) غير العلف الاخضر الذى يترك له ليتناول منه ما يطيب له

والمفهوم أن هـذه الاصلاحات المفيدة كان ينبغى أن تأتى بأحسن النتائج فيما يتعلق بتحسين نوع الخيل المصرية . وفى الواقع فأن الأمراض قل تفشيها بينها وكثر النتاج وتحسن شكله. وكان من اكبر عيوبه فى الاسطبلات القديمة قبح قامته وقلة اعتدالها . ولكن الطريقة التى سار عليها المسيو (هامون) وبذل كل مالديه من البراعة لتطبيقها أخذ يزول شيئاً فشيئاً بحيث أصبح النتاج الذى لايتجاوز من العمر عامين اكثر ارتفاعاً من الخيل البالغة أربع سنوات من العمر في عهد الأسطبلات القديمة

وفى طاقة الاسطبلات الحالية أن تسع نحو الألف من رؤوس الخيل . وكانت فى سنة ١٨٣٨ تحتوى اثنين وثلاثين فحلا عربياً وأربعمائة وخمسين فرساً مصرية وأربعين نتاجاً بالغاً السنتين من العمر ومئة وخمسين بالغة سنة واحدة ومئة حديثة عهد بالولادة . وكان يقوم بالخدمة في هذه الاسطبلات ثلاثمائة رجل بين ساسة وزراع وجميعهم خاضعون للنظام العسكرى ويتقاضون من الحكومة ، مع مرتباتهم ، الكسوة والتعيينات الغذائية

وفى نية سمو الوالى أن ينشىء فى الوجهين القبلى والبحرى اسطبلات أخر ليزيد فى استنتاج الخيل ويحسن أنواعها

٧٣ — نقل مدرسة الطب البيطرى الى شبرى

لما نقلت مدرسة الطب البشرى من أبى زعبل لم يبق من الأسباب هناك مايبرر استمرار وجود مدرسة الطب البيطرى بهذه البلدة ، لاسيما وأن جملة من الأسباب التى دفعت بالحكومة إلى نقل إحدى المدرستين كان لابد أن تدفع بها إلى نقل الآخر أيضاً . فمن ذلك أن بلدة أبى زعبل موجودة على مسافة

ستة فراسخ أو سبعة من أقرب مستقر لفيالق الجيش . فكان لابد من اختراق الحيوانات المراد علاجها قسما من الصحراء للوصول إليها ، فينالها الأعياء لطول الشقة وعقبات الطريق ما يزيد أمراضها خطراً ويعجل بموتها . وكان فى هذه العقبة مايحول دون ملاحظة التلاميذ للأمراض الحادة ، ويعتبر نقصاً كبيراً فى التعليم العملى ، فكان من المهم إذاً السعى لدفع هذا المحظور . وكان ثمة سبيل يؤدى إلى هذا الغرض وهو إضافة مدرسة الطب البيطرى إلى اسطبلات شبرى . وهذا الضم كان لابد أن يأتى بنتائج حسنة جداً إذ كان من مزاياه الجليلة تمهيد الطريق للتلاميذ ليتقنوا معلوماتهم بتطبيقها يومياً على العمل تطبيقاً فسيح المدى . ولقد قرر مجلس المعارف العمومية هذه المزايا حق قدرها فقرر نقل مدرسة البيطرة الى شبرى

وبالمدرسة الآن مائة وعشرون تلميذاً يقوم بالتدريس لهم خمسة أساتذة كلهم فرنسيون ، يساعدهم عالمان من الأزهر ومترجمان ، ومدة الدراسة به خمس سنوات . وقد عربت أمهات المصنفات الفرنسية فى علم الطب البيطرى ، وهى متداولة بين الطلاب . والدروس التى تدرس بالمدرسة هي : الطبيعة والكيمياء

على طريقة التطبيق ، وعلم النباتات ، وعلم التشريح الوصفى والعام، وعلم وظائف الأعضاء والعمليات والصيدلة والمادة الطبية والامراض الباطنية والخارجية وتربية الحيوانات الأهلية الداجنة

ويناط بالتلاميذ تحت مراقبة أساتذتهم علاج الحيوانات المريضة وترتيب خيول الفرسان وتنظيم المستودعات الخاصة بالنزو الخ . وكل ذلك واقع في مستشفي كبير بالقرب من الاسطبلات

ولا أختم هذا الفصل قبل أن أذكر أنه ، بالرغم من تعضيدى لمدرسة الطب البيطرى ومن قيام مدرسة الطب لها بخدمات عظيمة جداً ، لم تخل الحال من وقوع خلاف بينى والمسيو (هامون) . ولا يسعنى إلا الاعتراف بما بذله هذا العالم من الهمة والنشاط وأبداه من الدراية التامة فى عمله . وأربأ بنفسى عن الافتئات عليه فى فرع من فروع العلم لم يكن داخلا فى دائرة اختصاصى . إلا أننى سأظل مقتنعاً بفائدة المشروع الذى اقترحته متعلقاً بمدرسة الطب البيطرى فأننى كنت أميل إلى إدماجها فى مدرسة الطب البشرى أو جعلها قسما من أقسامها ، بحيث يجرى إلقاء علوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والمادة الطبية والصيدلة

على تلاميذ المدرستين معاً . وإذا ذهبت الى ذلك فما هو إلا لأنى كنت أرى فيه جملة مزايا أخصها الاقتصاد . وهذا فضلا عن أنه لما كانت المصلحة الطبية والمصلحة البيطرية تستمدان ما تحتاجان اليه من اللوازم والأدوية من مخازن واحدة وصيدلية واحدة ، فقد كان بدهياً أن يتمثل الطب البيطرى فى مجلس الصحة طبيب بيطرى . غير أن المسيو (هامون) اعترض على هذا الأدماج ولم يستحسنه مع ما كان فيه من دلائل الشرف لفرقة البياطرة على أن هذا الأدماج حاصل في أوربا ببلاد عديدة . وهو مرغوب فيه بفرنسا ويؤيدنى فى رأيى هذا كثيرون من ذوى الخبرة والفضل

على أنى أرجو أن لا يرى المسيو (هامون) أو غيره فيما أوردته أثرا لمصلحة ذاتية أو مجرد زعم باطل ، فأنى إنما كنت أريد الأعراب عن رأي فتننى بما ظهر فيه من الارتباط الوثيق والتناسب مع احتياجات إدارة حكومة صغيرة لا تستطيع مباشرة الأحوال فى نطاق أوسع وعلى وجه أعم . وكان كل اقتصاد فى نفقاتها يسوغه الصواب ويعقب النتائج النافعة

الباب الثانى عشر

طرق المواصلات

ووسائل النقل

١

الملاحة في النيل

مراكب النيل — المعاش — القياسة — الذهبيات — القنجات — السفن التجارية — الملاحة فى النيل — لوازم وأدوات السفن — نوتية النيل

١ — مراكب النيل

إن مصر لا يتجاوز عرضها بضعة فراسخ فى الشطر الأكبر من امتدادها الطولى . وهي منبطحة مهدتها يد الطبيعة ، فصار النيل منها بمثابة طريق للمواصلات بالسفن يشقها على اتجاهها الطولى ويغنيها عن وسائل الصناعة لتقريب المسافات بين أطرافها المتباعدة ، ويجعل الاحتياج اليها فيها أقل منه فى الأقطار الأخرى . والنيل والترع الصالحة للملاحة كترعة المحمودية

وغيرها من خير وسائل النقل للحاصلات الزراعية والانتقال للمسافرين

وما استقر محمد عليّ فى دست الحكم على مصر حتى اتسع نطاق الملاحة فى النيل وزاد رواجها . فقد كان عدد المراكب التى تمخر مياهه فى عهد الحملة الفرنسية لايتجاوز ألفاً وستمائة مركب تغدو وتروح فيه كما تروح وتغدو فى الترع الكبيرة ، فبلغ هذا العدد الآن إلى ثلاثة آلاف وثلاثمائة منها ثمانمائة تملكها الحكومة . وهذه المراكب المختلفة الأنواع والأشكال تنقسم، بحسب أحجامها والغاية المقصودة من استعمالها ، الى درجات مختلفات

٢ — مراكب المعاش

القوارب الكبرى المعروفة بالمعاش تصلح لنقل البضائع الثقيلة كالقطن والحبوب الخ وهي تضاهى فى الحجم مراكبنا التجارية المعتادة والتى منها مايبلغ محموله خمسمائة طن . ولها إما ساريتان أو ثلاث ساريات واسعة الشراع من الطراز اللاطينى وهي لاتسير فى النيل إلا فى زمن الفيضان إذ يكون

الماء عميقاً يحمل الجزء الغائص منها فيه . والعادة أنها تقوم بسفرتين فى النيل كل عام

٣ — الاشاكيف

هذه القوارب أقل حجما من قوارب المعاش . وهى وإن تكن مخصصة مثلها لحمل البضائع لاتسير إلا فى فرعى النيل . وقد تخرج إلى بحر الاسكندرية وتذهب إلى ثغرى دمياط ورشيد ، وأحيانا إلى بلاد الشام وقبرص

٤ — الذهبيات

أما المراكب المخصصة لنقل المسافرين فهي الذهبيات والقياسات والقنجات والمراكب المعروفة بالقايق . أما الذهبيات فمراكب كبيرة يختلف طولها من أربعين قدماً إلى خمسين وعرضها من ١٢ قدماً إلى ١٥ وللذهبية شراعان لاطينيان . وهى تسير بالجاديف أيضاً ويعدل عدد نوتيتها عدد مافيها من المجاديف . فالذهبيات الكبيرة تحتوى من ثمانية عشر جدافاً الى عشرين وتصلح فى الأصل لنقل البضائع زمن التحاريق

وبمؤخرها غرفتان أو ثلاث غرف للمسافرين ولكنها لاتقبل من هؤلاء إلا من تكون الأعمال التجارية باعث سفرهم ويؤثرون بسببها الأمن والراحة على السرعة في الوصول الى الجهة المقصودة

٥ ـ القنجات

تنزل هذه المراكب فى مصر بمنزلة الزوارق المعروفة بالجوندول فى ثغر البندقية . فأنها ظريفة الشكل بسيطة التركيب سريعة السير ، يبلغ طولها عادة من ثلاثين قدماً الى أربعين وعرضها من ثمانى أقدام الى عشر . ولها فى العادة إما سارية واحدة وإما ساريتان تعلق بهما أشرعة مثلثة الشكل . ولها فى المؤخرة حجرة ذات غرفة واحدة أو غرفتين تسع شخصين يبدعون فى زخرفتها وتنميقها بنقوش ينم تناسق تركيبها على سلامة الذوق .وتمتاز قنجات الأكابر والسيدات بحسن نقوشها وجمال زينتها وكثيراً ماتكون هذه الزخارف من خارجها بالدجال (ماء الذهب) . وهي تسير بسرعة لاتكاد تصدق إذ تقطع المسافة بين القاهرة والاسكندرية في أربع وعشرين ساعة .

وهذه المسـافة تبلغ بحسب تعاريج النيل وملتوياته نحو الستين فرسخاً

أما القياسات فمراكب فرطاحة بطيئة الحركة يقصد بها السير فى النيل أثناء التحاريق . ويتخذ الفلاحون للملاحة فى النيل زوارق صغيرة ضيقة تسمى القايق . وهم يتكدسون فيها من غير تدبر ولا احتياط، فيحدث غالباً أن تغرق فلا ينجو منهم إلا النزر اليسير

٦ — السفن البخارية

لم تظهر السفن البخارية في النيل إلا منذ سنوات يسيرة . فقد اخترقت هذا النهر سـفينة بخارية من الحديد خاصة بسمو الوالى ، فكان لمنظرها تأثير كبير فى نفوس سكان القطر المصرى الذين بهتوا وحاروا فى أمرها حينما رأوا تلك السفينة الجميلة متحركة بذاتها تزفر من صدرها إلى كبد السماء أنفاساً من الدخان . وقد ذهب بهم الظن بادىء ذى بدء إلى أن هذه الأعجوبة النادرة المثال ليست إلا تنيناً جسيماً أو عنقاء هائلة

وبديهي أن الملاحة البخارية بمصر تكلف نفقات طائلة

لقلة الوفود فيها ، ولا بد من مضى زمن طويل قبل شـيوعها ، دع أن حركة العلائق بين مختلف الجهـات فى داخـل القطر المصرى لم تبلغ من النشاط المبلغ الذى يستفز الجمهور إلى اقتصاد الزمن باستعمال سفن البخار في الانتقال من مكان الى مكان . فلا بد من انقضاء زمن طويل قبل أن يشعر الناس بضرورة وجود وسيلة للنقل والانتقال في مصر بواسطة البخار

٧٠ — الملاحة فى النيل

لا يتيسر الصعود فى النيل غالباً إلا بالشراع والملاحة به توافقها الرياح الشمالية الشرقية مدة ستة أشهر من السنة تقريباً أى من أواخر الربيع إلى أوائل الخريف . ويحدث أحياناً أن لا تكون الريح شديدة ولا تستطيع المركب متابعة سيرها فى طريقها فينزل رجالها إلى الشاطيء ويشدونها بالحبال (اللبان) . وهذه الوسيلة لا يلجأ اليها عادة إلا إذا كان المسافرون من الأوروبيين لقلة صبرهم وشدة ميلهم إلى تقصير أمد السفر بالوصول سريعـا إلى مقصدهم

وفى حالة السير فى النهر مضيا مع التيار ، يستطيع الركاب

زيادة سرعة سير المراكب بتحريك المجادف أو نشر الشراع

ولما كان النيل كثير التعاريج والملتويات ، فأن الكثيرين من النوتية يغتنمون فرصة اختلاف الرياح فى الاتجاهات المضادة . لذا لايمر يوم حتى ترى فيه المراكب بين صاعدة في النهر ونازلة بسرعة تكاد تكون واحدة فى الحالتين ، مع أن القوة المسيرة لها في الاتجاهين ريح واحدة . وتحدث فى النيل تيارات عنيفة فجائية يخشي في بعض الأحيان خطرها إذا غفل النوتية عنها ولم يكترثوا لها ، إذ يغرق العدد الكبير من المراكب فى النيل كما يحدث كل عام

ولا شيء يستوقف النظر ويحير الفكر كالملاحة فى النيل أيام الفيضان . فأنك فى هذه المدة ترى السفن العديدة تشق بحيزومها النهر فى كل اتجاه تملوها الأشرعة العالية يشتبك بعضها ببعض أحيانا ، وبميل على سطح الماء أحيانا اخرى ، فتشبه تلك الطيور البحرية التى تنشر أجنحتها البيضاء وتترك نفسها لعناصر الطبيعة فتعبث الريح بها تارة وتحركها الأمواج تارة أخرى

٨ — آلات المراكب وأدواتها وجهازاتها

لاريب فى أن طريقة تجهيز المراكب النيلية بالآلات والأدوات غير وافية . فترى الساريات والأشرعة تفوق حد النسبة الموافقة لأحجامها . وسبب ذلك اضطرار النوتية الى السمو بأشرعتهم فوق المرتفعات والجبال الحافة بالنيل لكي تجيئها الريح من فوقها . ثم إن الأشرعة بدلا من هبوطها على على سطح المركب بالبكرات تربط بالدقل . ومعنى هذا أنه اذا هبت ريح شديدة على غير انتظار فكورت الأشرعة وخيف منها سوء العاقبة لزم النوتية أن يصعدوا الى الساريات متسلقين لطيها وهو مايستدعى زمناً طويلاً ربما وقع فى خلاله الخطر الداهم . أما القنجات فقليلا ماتستعمل الأشرعة لتسييرها لأنها من الخفة بحيث أن النسيم، إذا اشتد هبوبه قليلا ، قد يكون سبباً لغرقها

٩ — نوتية النيل

نوتية النيل رجال اعتادوا منذ الطفولة متاعب الملاحة فى هذا النهر ، فاكتسبوا من القوة والصلابة والمران ما لا يخطر

ببال أحد . فمن ذلك أنهم يجدفون على طول المسافة بين القاهرة والاسكندرية بالجداف أى مدة ثلاثين ساعة بدون أن يلتمسوا راحة لأنفسهم . أما مهارتهم فحدث عنها ولا حرج لاسيما وأن لهم إلماماً تاماً بتصاريف الرياح وأحوال الجو ، يشهد لهم بذلك الخبراء فى فن الملاحة . غير أنهم كغيرهم من المصريين شديدو التهور لا يعملون للمستقبل حساباً . فأنك إذا سألتهم عن الزمن الذى يتوقعون فيه إتمام الرحلة ، اكتفوا بقولهم « الله أعلم » . ومجرى النيل سريع التغير والتحول إلى حد لا يندر معه أن تجنح مراكبهم فى الرمال التى تتكون بذاك التحول مهما تكن خبرتهم بفنهم . وفى مثل هذه الأحوال لا يجد النوتية سوى النزول فى الماء ودفع المركب بأكتافهم لتعويمها وتخليصها من موقفها الحرج

٢

طرق المواصلات

ووسائل النقل براً

الطرقات — المركبات ـ عربات النقل — الهجن — الخيول — البغال — الحمير — حمير المكارية ـ حمير الحريم ـ السواس ـ الاحتياطات للسفر فى الصحراء

١٠ — الطرقات

كان الواجب لتجهيز مصر بمجموعة منظمة من الطرقات أن يشرع من قبل بهذا العمل العظيم فأنه لجعل هذه الطرقات متينة تحتمل مايمر فوقها من الأثقال ينبغى تقوية الجسور وتعليتها لتستطيع مقاومة الفيضان ، وإلا غمرها بمياهه كل عام . ولكن الحكومات التى تعاقبت فى الولاية على مصر أهملت شأن الطرقات إهمالا عظيما . ومعتقدى أنه بالرغم من الظروف الطبوغرافية الخاصة بمصر كان من الواجب الاهتمام الشديد بذلك الموضوع . ولعل بعض تلك الحكومات رأت فى حرمان مصر من طرقات ممهدة محددة حائلا دون إغارة الأجانب عليها ولكن مهما يكن الغرض الذى رمت اليه ، كان من السهل اغتنام فرصة

حفر الترع لتكوين الطرقات على وجه أكثر استجماعاً لشروط الاقتصاد . إذ من الحقائق الملموسة إمكان إنشاء الطرقات على الجسور بأقل نفقة ، كما يمكن توطيد هذه الطرقات بغرس الأشجار على حفافها . وكان من الممكن أن تقوم هذه الطرقات أثناء التحاريق مقام الترع التى تصبح في هذا الشطر من السنة غير صالحة للملاحة فيها . دع ما هنالك من استطاعة الاستعانة بها أثناء الفيضان على تسيير المراكب بالخيل . ولقد اتبعت هذه الطريقة فى ترعة المحمودية بين الاسكندرية والنيل فجاءت بأجل المزايا وأعم الفوائد

والطرقات التى عنى سمو الوالى بتمهدها وزيادة عددها ، وفاق فى هذه العناية من تقدمه من الأمراء والملوك لم تقسم إلى درجات تبعاً لتقسيمات الأراضى التى تشقها . ومع هذا فأن بينها طرقات سميت بالسلطانية وبعضها جميل جداً وممهد أحسن تمهيد كالطريق الموصل من القاهرة إلى شبرى . وقد غرست الأشجار على حافتيه فصارت من أفخم المسالك وأطولها . وهو يفضى إلى القصر الذى أنشأه محمد على عند نهايته

١١ - المركبات

لا يوجد من المركبات بالقطر المصرى إلا العدد اليسير . وإذا كان استعمالها هي وعجلات النقل غير شائع فيها ، فما ذلك إلا لتعدد المواصلات بطريق الماء وسهولتها وقلة كلفتها . وكانت المركبات وعجلات النقل مجهولة تقريباً من المصريين ، إذ قصارى ما يذكرونه من شأنها أن مركبة تلقاها ابراهيم بك أحد أمراء المماليك من فرنسا ، وأنه كان لنابوليون فى أيام الحملة الفرنسية مركبة يجرها ستة من الخيل كان يجوب بها أضيق شوارع القاهرة وبولاق ، وأن المصريين كانوا يرمقونها بعين الاستغراب والدهشة . وكان سمو الوالى أول من استعمل المركبات بعد ذلك لنفسه ولحرمه ثم تلاه ابراهيم باشا فجميع أفراد الأسرة الذين لم يلبثوا أن ألفوا ركوب المركبات والانتقال بها من مكان الى مكان

ولو لم يعط سمو الوالى بعض نظار حكومته وأركان دولته جملة من المركبات هدية اليهم ، لما انتشر فيما بعد استعمالها ولظل الناس جامدين على سابق اعتقادهم أن ركوب المركبات أصبح

وقفاً على أعضاء الأسرة الحاكمة . ولم يمض زمن عقب ذلك حتى تشبه لفيف من كبار الموظفين بالنظار فى اقتناء المركبات، فبلغ عدد ما يشاهد منها بالقاهرة ثلاثين مركبة على اختلاف طرازاتها . أما الاسكندرية فكان عدد المركبات فيها أكثر من ذلك إذ كانت ملكا للقناصل الجنراليين وأكابر التجار الأوربيين الكثيرى العدد فيها

١٢ — عجلات النقل

كان ما أنجز من الأشغال الكبيرة فى المعامل وأقيم من المبانى الجسيمة باعثاً على استيراد مقدار وافر من عجلات النقل إلى القطر المصرى . وقد استعملت هذه العجلات بوجه خاص لرفع أتربة الآكام الحافة بمدينة القاهرة . ولقد شاع الآن استعمالها بحيث صارت فى الورش والمعامل الوسيلة الوحيدة للنقل . وألفها المصريون فصنع جماعة منهم عربات عديدة لنقل بضائعهم وحاصلاتهم واتخذها آخرون وسيلة تسهل عليهم السفر والانتقال من مكان إلى مكان . ومما لاشك فيه أن انتشار استعمالها سيكون باعثا على تسهيل المواصلات وداعياً للحكومة

على الاهتمام بالطرقات وتمهيدها بحيث تصلح لسير المركبات من كل نوع عليها

ووسائل النقل الخاصة بمصر تتألف من ثلاثة أنواع من الحيوانات وهي الجمال والخيل والحمير

١٣ — الجمال

بمصر نوعان من الجمال أحدهما كبير الجسم شديد القوة بطيء الحركة ، وهو مخصص لحمل الاثقال فقط . والثانى صغير الجسم ضامر البطن نحيل الأعضاء رشيق الهيئة سريع النهضة ، ويصلح بنوع خاص لركوب الانسان . وهو ينزل من النوع الأول بمنزلة خيل الركوب من خيل السحب والجر . ويبلغ ما تستطيع جمال النوع الأول أن تحمله من الأثقال خمسمائة كيلو جرام إلى ستمائة . ولما كانت الجمال مرتفعة الجسم فقد جرت العادة بتدريبها على الاناخة لتحميلها بالأحمال . ولقد سميت بحق سفن الصحراء ، وإذا تألفت منها القوافل وبلغ عددها فيها المئات شرعت فى اختراقها ذهوباً وجيئة فى أيام معلومة

أما جمال النوع الثانى فلا تحمل ، كما قلنا ، سوى الانسان

وتسمى بالهجن : وقد دربت أيضاً على الأناخة كلما أحب الأنسان أن يركبها . والراكب يستوى منها على رحل مقوس الوسط ، تتقدمه قطعة مستديرة من الخشب مثبتة فى مكانها على اتجاه رأسي تثبيتاً وثيقاً ويمسك الراكب بها . وليس للهجن لجام تخضع به لأرادة الراكب وإنما يثقب أحد منخريها بثقب وهو الخزم تمرر به خزامة أى حلقة صغيرة يشد بها حبل دقيق يمسك الراكب بطرفه فيكون بمثابة الزمام . وفي الصحراء يتخذون لها رقيبة وإذا أريد حثها على المسير أو توجيهها إلى جهة ضربت بسوط من الناحية التى يراد أن تسير فيها . وأكبر مزية للهجن سيرها الخبب بخطوات واسعة لا اضطراب فيها . وهى لا تركض أبداً والعادة أن يتعب سيرها من لم يتعود ركوبها وأن يصيبه بعارض يشبه الدوار . ولكن لا شيء أجمل ولا أوقع أثراً فى النفس من مشاهدة ذلك الحيوان السريع الخفيف الحركة ، وقد أوغل فى السهل حاملا على متنه بدوياً يخفق رداؤه الواسع وبرنسه الأبيض العريض حول جسمه . ومفهوم أن الصحراء هى مراح عرب البادية ومجالهم الذى يتقلبون فيه محتملين صنوف الحرمان أياماً طوالا من الشراب والطعام

١٤ — الخيل

الخيل ، ولاسيما الأفراس منها ، هي الدواب التي يميل المصريون إلى ركوبها . والعادة أنهم لايمتطون إلا الأفراس بينما العثمانيون لايركبون سوى الجياد الصافنات . ولقد سبق لي أن أوردت ، في الباب الذي عقدته للكلام على الحيوانات ، بعض الشيء عن الخيل أوجه اليه نظر القراء

١٥ — البغال

إذا امتازت مصر بكرائم الخيل وأجود الحمير فلا عجب إذا امتازت أيضاً بجوده بغالها . والمصريون يؤثرونها على بقية الدواب ، فهي مطية العلماء ورجال الشرع ، كما كانت عندنا مركب رجال الأكليروس زمناً مديداً . ومن البغال مايجمل شكله ويعلو قدره ويغلو ثمنه . وهي لاتسير عدواً أبدا ولا ركضاً بل تسير بخطوات واسعة سيرا وئيداً متداركا موزوناً يعودها إياه بعض المروضين بشد اليدين والرجلين بحبلين ، كل يد والرجل التي تقابلها بحبل مدة ما من الزمن . ولها سرج خاص تغطي

بسجادة صغيرة تصلح عند اللزوم لأداء الصلاة عليها . ويشاهد الكثير منها ، وهي تخترق شوارع القاهرة بخطواتها البطيئة ، حاملة على متونها العلماء متوجة رؤوسهم بالعمائم الكبيره ومغطاة أجسامهم بالبنشات الثمينة وبادية على وجوههم سمات الجلال والوقار

١٦ - الحمير

أما الحمير فهى مطية الطبقة الوسطي من المصريين كما أنها مطية النساء بوجه خاص لايعرفن غيرها للانتقال من مكان إلى مكان . ويسخر الحمار فى كثير من الاعمال بمصر ولذا كان أهل الشرق أكثر تقديراً لهومعرفة بمزاياه من أهل الغرب . وجنسه منتشر وشائع فى نواحى القطر المصرى ، ويعرف بجودة أصله

ولا يكاد يوجد مصري، إلا وله حمار يركبه ويطوى به المسافات البعيدة فى تنقلاته سواء للزيارة أو الاسفار أو قضاء الاعمال . وكان فيما غبر من الزمان المطية الوحيدة التى يسمح للمسيحيين امتطاؤها ، ولذا كانوا يهتمون بأمره اهتمام المسلمين بالبغال والخيل

١٧ — حمير المكارية

بالقاهرة بضعة آلاف من حمير المكارية . وفى الاسكندرية بضع مئات منها . وهي فى المدينتين وغيرهما من مدائن القطر وبنادره تقوم مقام المركبات . ولها مواقف خاصة بالميادين والأسواق وقوارع الطرقات . وكل حمار مسرج ببرذعة لينة فى مقدمتها اسناد متكور، ويقوم بتسيير الحمير وسوقها أطفال يسمون « الحمارة » يركضون خلفها ليحثوها على السير وينبهوا السابلة للاحتياط وأخذ الحذر . والحمار من وسائل نقل الأحمال التى لا تكلف كثيراً من المال . ومن عادة الأوربيين ، متى وصلوا من رحلتهم إلى القاهرة اتخاذهم إياه المطية الوحيدة . وسواء ألبسوا ملابسهم العادية أم تزيوا بزى المصريين فلا أحد سواهم يركض الحمير فى الطرقات يتبعها الحمارة الذين يكاد ينقطع نياط قلوبهم من شدة الركض . والناظر إليهم وهم فى هذه الحال ، لا يلبث أن يدرك الفرق بين خفتهم وطيشهم فى ركضهم ومايبدو من الوقار والسمت في مشية غيرهم من الأهلين الذين اعتادوا وصفهم بالطيش والنزق

ولا يفوتنى أن ألاحظ بهذه المناسبة قسوة قلوب الذين يحملون أولئك الأطفال الضعفاء على الركض العنيف زمناً طويلا، وهم لا تتجاوز أسنانهم الثانية عشرة ، وتجردها من عواطف الشفقة والرحمة . وأغرب مايقع بين أولئك الأطفال المكارية والأوربيين الذين يستأجرون حميرهم النقار فالشجار على الكراء

وعند الحمارين شيء من اللباقة والخفة الممزوجتين بالدهاء والخبث ، فهم من طائفة المصريين الذين يميلون بفطرتهم إلى النكتة ويحبون المطايبة التى تنم على الذكاء وسرعة الفهم وحضور الذهن. ولهم إلمام بنتف من كل لغة ، فترى الواحد منهم يحدثك ببعض كلمات من اللغات الفرنسية والانجليزية والايطالية والهولاندية ، بل ولغة مقاطعة (بروفنس) . وعندهم من قوة الفراسة وصدق النظر ما إذا وقع نظرهم معه على أجنبى عرفوا فى الحال من أية ملة هو وأية لغة يتكلم . فأذا كان فرنسياً ابتدروه بقولهم : Monsieur, dis donc! وإذا كان انجليزياً قالوا : Master Jhon !

وكان جنودنا فى عهد الحملة الفرنسية يتحرون البسط والسرور بركوب الحمير إذ كانوا يسمونها « أنصاف العلماء » . وقد كان

أحدهم يكترى الحمار من صاحبه طول النهار بأجرة لاتتجاوز بارات معدودة . فأذا حان وقت الدفع أطالوا فى مساومة المكارية المساكين عليها وعذبوهم . فأذا طلبها هؤلاء منهم ، وهم يسمونها « المشوار » توهم العساكر أو تظاهروا أنهم يتوهمون أن المقصود بهذه الكلمة كلمة Mouchoir التى معناها بالفرنسية المنديل . وأداروا المحاورة والمباسطة على محور هذا الجناس اللفظي وانصرفوا فى نهاية الأمر من غير أن يدفعوا الكراء أو المشوار المستحق عليهم متذرعين بسوء التفاهم الذى أدى إليه الجناس

وفى عهد الحملة على بلاد الشام بلغ عدد الحمير في الجيش الفرنسى ثمانية آلاف حمار شهد نابليون نفسه أنها قامت بجزيل الخدم وجليلها للحملة

١٨ — حمير الحريم

أما الحمير المعدة لركوب السيدات فتختلف برذعتها وعدتها عنهما فى الحمير المعدة لركوب الرجال . فأن برذعة حمير السيدات مسطحة ومائلة قليلا من الخلف إلى الأمام ، ولها مخدات كبيرة . والنساء لا يستوين عليها كما يستوي الرجال ، أى بأرسال الفخذين

إلى جانبي الدابة بل جالسات فى اتجاهها يسندهن فى هذا الوضع المرتفع ارتفاعاً عظيما فوق سطح الأرض الحمار المنوط به السير بجانبهن واضعاً ذراعه حول وسطهن . ولما كان هذا الوضع يحرك كوامن النفس ، فأنك ترى أصحاب الغيرة على نسائهم لا يكلفون بمهمة مرافقتهن في انتقالهن على الحمير سوى الشيوخ دون الشبان

وتستعين المرأة على ركوب الحمار بالوقوف فوق كرسى من الخشب عظيم الارتفاع ، ويقتدى الرجال بهن فى ذلك تقريباً إذ أنهم لا يثبون على دوابهم بل يتخذون للوصول الى متونها تارة كرسياً من الخشب وطوراً كتف السائس يتكئون عليها

١٩ — السواس (السياس)

اعتاد الفناجرة أى المغرمون بركوب الخيل أن لا يخترقوا بها الطرقات إلا ويتقدمهم سائس أو سائسان . والسواس كالكشافة يستطلعون الطريق ويفسحونه لمرور مخدوميهم . وتتألف منهم فى مصر طبقة تمتاز بالدربة والرياضة على السير والركض . والعادة أن يتقلنس السائس بعمة وأن يتخذ لباسه من قميص أزرق يشده حول الجسم بنطاق عريض ويرسله فيما يليه الي الركبتين اللتين

تبقيان عاريتين

والجمهور يستملح هيئة السواس وحسن بزتهم لأنهم يحملون فيما عدا ثيابهم المزركشة الجميلة ، عصياً رفيعة تشبه الرمح يمسكونها من طرفها الأسفل بأيديهم اليمنى بحيث تكون رأسية الوضع . وهم يسبقون متبوعيهم بحيث تفصلهم عنهم مسافة تختلف من ثمانى خطوات إلى عشر . فإذا بلغ الراكب مقصده أعانه سواسه على النزول عن دابته وتولوا بعد ذلك شؤونها فيسيرونها لتجفيف عرقها ويباشرون خدمتها . وكان العظماء فيما غبر من الزمن يتقدم أحدهم أربعة سواس أو خمسة فأهملت هذه العادة فى زمننا ، لأنهم رأوا سمو الوالى والأمراء يكتفون بسائسين فاقتدوا بهم تأدباً وعملوا بمقتضى المثل السائر « الناس على دين ملوكهم » !

وفيما عدا السواس يصحب ركاب العظماء رجل آخر يحمل قلة ماء ومملوك أو مملوكان يحملان شبك التدخين أو غيره مما يهم هؤلاء السادة أن يجدوه دواماً فى متناول أيديهم . ويزداد عدد الخدم كثيراً إذا كانت الرحلة فى الخلوات

٢٠ — الاحتياطات للسفر فى الصحراء

لما كانت الصحراء تحف بمصر من الجانبين ، فمن المنحتم على المسافر أن يتجهز للرحلة تجهزاً خاصاً . ذلك لأنه مضطر إلى الانحراف عن أطرافها العامرة لاسيما إذا كان اتجاه سفره فيها طولياً أى من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس واعتمد اختصار الطريق بتجنب مسايرة النيل فى تعاريجه وملتوياته . أما التجهيزات فتنحصر فى إعداد مايكفي من الهجن لحمل الأتباع ومن الجمال لحمل الغذاء والماء . ولابد أيضاً من الخيام لأقامتها فى نهاية كل مرحلة للسكون إليها واتقاء حرارة الشمس بها . والعادة إذا اشتد القيظ في الصحراء أن يكون السير أثناء الليل فيبتدأ بالسرى حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر ويواصل إلى الساعة التاسعة أو العاشرة من الصباح .

والمراحل فى الصحراء محدودة بالآبار أو المستنقعات . ويلتقى المسافر من آن الى آخر حفافى الأراضى المزروعة بقبائل من العربان يرتادون لمواشيهم المراعى الخصيبة . والضيافة عندهم مضمونة لمن يريدها وهى مبنية على رفع الكلفة والتنزه من قصد المنفعة

الباب الثالث عشر

الاشغال العامة

١

ترع مصر

الاهمية السياسية للترع فى مصر — ترعة يوسف — ترعة بحرمويس — ترعة شبين — ترع الوجه البحرى التى أنشاها محمد على — ترع طنطا — ترعة الباسوسية — ترع مديرية البحيرة — الجسور التى أقامها محمد على — حياض الوجه القبلى — جسور شواطىء النيل — تعداد أعمال الترع الاساسية التى قام بها محمد على — الاعمال الكبرى المبنية — نتائج الاعمال

١ - الاهمية السياسية للترع فى مصر

رأينا فيما تقدم من الكلام على الزراعة أهمية الترع لمصر وتأثيرها البالغ فى ثروتها ورفاهيتها ، إذ قلنا إن النيل كنز ثمين تستفيد منه الأدارة الحازمة الحاذقة العاملة ويذهب ضياعاً بتفريط الأدارة الغبية المتراخية القصيرة النظر فى مغبات الأمور وهذه حقيقة لامراء فيها . فأن مصر بلا نيل هي الصحراء القاحلة والأرض المجدبة ، وهي به التربة الخصيبة المنبتة للخير العميم .

وإنما خصبها يتناسب مع مايعمها من مائه وما يبذل من جهد فى سبيل الانتفاع به . فرفاهية مصر وسعادتها من المسائل التى لا يعترض حلها صعوبة ، فأن ماء النيل يندفع بمقادير معينة إلى ناحية البحر فما تستطيع أن تحجبه منه فى مسيله بأراضيها يفيد الأرض خصباً وينمى محاصيلها ويضاعف خيراتها

فتدبير ماء النيل يتوقف إذاً على نظام شق الترع وبثها فى أرجاء البلاد فاذا روعيت فى إنشائها المبادىء الصحيحة والأصول الفنية فأن مصر المنتجة للحاصلات الوفيرة يتسع فيها نطاق الأرض القابلة للزراعة وتزداد ثروتها ويتوطد صرح حضارتها وشوكتها . أما إذا قلت الترع وأهمل شأنها وساءتدبيرها فأنه يعتريها من الضعف والانحلال ما يعترى المريض منهما ، وتكون عاقبة ذلك وقوعها فى هوة الفقر والهمجية والاستعباد . فالترع لمصر كشرايين الدم للجسم لاتقوم لحياتها قائمة إلا بها . غير أن نظام أعمال عامة تناظر شق الترع ، لبثها فى أنحاء البلاد ، أهمية وخطورة تستدعي ابتكاره وتنفيذه مع ما فيه من ارتباط أجزائه ارتباط تكافل وتضامن وحدةً فى النسق وتجانساً فى الشكل لا يتيسر توافرهما فى الافراد والجماعات ولا فى المدن ، إذا انفصل

بعضها عن بعض . فذلك النظام يتطلب اذاً العمل على تطبيقه من سلطة تمثل القطر المصرى بحذافيره بحيث تتجسم فيها مصالحه وقواته كافة

قال نابوليون : « ليس على وجه الأرض قطر لحكومته نفوذ في الشؤون الزراعية وبالتالى فى السكان كمصر . فأن سهول بوس (من مقاطعات فرنسا القديمة المشهورة بخصب تربتها) وبريا (إقليم صغير شرق باريس) يخصبها هطول الأمطار بانتظام . فتأثير الادارة فيهامعدوم لهذا السبب . أما فى مصر حيث الرى ليس إلا من الاجرياء الصورية التى لا مهيمن عليها فالحكومة هى الكل فى الكل . فأذا كانت قوية فقد سنت للتصرف فى المياه وإنشاء ترع الرى وتعهدها بالعناية ، اللوائح والانظمة التى لاخلاف فى صلوحها . وإذا كانت سيئة ذات عوج ومتحيزة ضعيفة فأنها توافى بعض الأماكن دون البعض الآخر وتؤثر بها الأملاك الخاصة على أكتاف المصلحة العامة فتكون العاقبة فى النهاية أن تصبح عاجزة عن قمع مايثور من الشجار في الاقاليم بين الأهلين عند فتح الترع الكبرى أو بسبب تطرق الفساد إليها بالأهمال، وينشأ عن هذا وذاك أن ينحصر الفيضان في مناطق

محدودة وأن يضيق اتساع الأراضى الصالحة للزراعة »

ذاك كلام ثقة عارف بحقيقة الأحوال . وفيه من الأدلة ما يثبت ضرورة وجود نظام تنحصر السلطة بمقتضاه فى جهة مركزية ليتيسر الأشراف منها على إدارة الأشغال العامة

شهد نابليون بنفسه ما ترتب على فوضى حكومة المماليك واختلالها من النتائج المشئومة على مصر ، ورأى ما كانت فيه من تفكك الأوصال لحرمانها الوحدة المركزية وخلوها من نظام جامع ينطبق على مقتضى المصلحة العامة .فقد كان رئيس كل إقليم مستقلا تقريباً فى دائرة إدارته لا يعمل إلا ما يرضى شهواته ويوافق ماركب فيه من حب التخريب والأفساد وطبيعة التوانى والكسل والغفلة . وكان لكل مركز بل ولكل قرية ترع خاصة تصلح مع العناء لسد مطالب سكانها ، بدون أن تربطها بنظام عام للرى رابطة ما . فكان الملاك والمزارعون المجاورون لشواطىء هذه الترع يختصون أنفسهم بالماء يحتكرونه احتكاراً أو يبعثرونه كيفما شاءت أهواؤهم باعتبار أنهم أول من يمر الماء بأرضهم فيحرمون الأراضى البعيدة نصيبها من مزايا الفيضان وخيراته . وكثيراً ما كان هذا الاغتصاب مثار النقار فالشجار بين أهل

القرى المتجاورة وكثيراً ما كان ينتهى بسفك الدماء وإفاضة الأرواح

وفى خلال هذه الفوضى ، كان ماخلفه قدماء المصريين أو أنشأته الأدارة الرومانية أو شاده الفاتحون العرب فى صدر الأسلام من المبانى والمنشآت العامة ينتابه البوار والدمار . إذ كان لاينقضى يوم إلا ويندثر شىء من تلك الآثار النافعة التى كانت من مقومات الحياة الاقتصادية لمصر . وكانت الفوضى أظهر مايكون فى هذا الأمر وكان الشعور بالحاجة إلى درء ضررها ، بوضع النظام وتقرير الوحدة فى العمل وحصر الأدارة فى مركز واحد ، يقوى شيئاً فشيئاً . ولا ضرورة من هذه الضرورات إلا وكانت تلتمس قضاءها وسد خلتها وإلا منيت مصر بالهلاك والخراب العاجلين من جرائها

فالسلطة القديرة التى وطد محمد على دعائمها ووثق أركانها وافت مصر كعناية من عند الله ونعمة بعد نقمة ، إذ بأدارته الحكيمة الحازمة بلغت مصالح مصر ومرافقها المادية درجة من التقدم لم يعهدها المصريون منذ زمن مديد . وقبل أن نتكلم بالبيان الوافى فيما أدخله سمو الوالى من الزيادة والتحسين على

نظام تفريع الترع فى مصر لا بد لى من كلمة فى الفروع الأساسية
التى يتألف منها هذا النظام

٢ — ترعة أو بحر يوسف

يطلق هذا الأسم على ترعة كبيرة تجرى فى أقاليم الصعيد ،
مع المؤازاة للنيل ، من ملوى الى مديرية الفيوم فتوافى بمياهها
أراضى هذه المديرية بما يشتق منها من الترع المنبثة فى أرجائها .
وقد ذهب بعض الجغرافيين الى أن البحر اليوسفي فرع من
فروع النيل القديمة وأنه كان في غابر الزمان يتجه من الفيوم نحو
الغرب أى نحو البحر الأبيض المتوسط بطريق مجرى « بحر بلا
ماء » . ومتوسط عرض بحر يوسف مائة متر تقريباً وجارووره أى
مجراه منخفض عن السهل الذى يخترقه

٣ — بحر مويس

بحر مويس أحد الترع الكبيرة المشتقة من النيل. ومأخذه
الأصلى منه على مسافة فرسخ واحد فوق مدينة القاهرة . ويتجه
فى الشطوط اليمنى لفرع دمياط نحو الشمال الشرقى ثم يتفرع فى

مديرية الشرقية بالقرب من (بوباست) القديمة المعروفة الآن بتل بسطه ، فرعين يحملان مياههما الى بحيرة المنزلة . وبحر مويس قابل للملاحة قابلية النيل نفسه لها . ويقرب امتداده نحو أربعين فرسخاً وعرضه نحو مائة وخمسين متراً وهو كثير الملتويات والتعاريج وضفتاه منبطحتان وفى مستوى السهل الذى يخترقه . ومحتمل أن يكون مجراه مجرى فرعى (بيلوزة) و(تنيس) القديمين

٤ — بحر شبين

تخترق هذه الترعة مثلث الدلتا من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربى وتتلقي مياهها من فرع دمياط عند بلدة القرينين ثم تصبها فى فرع رشيد عند بلدة الفرستق

ويشتق منها عند شبين الكوم فرع آخر يسمى ترعة مليج وينضم بالقرب من (سبل نيتوس) إلى ترعة (التعبانية) التى تصب مياهها في بحيرة البرلس . وهناك مايحمل على الظن أن بحر شبين الكوم من مأخذه فى فرع دمياط إلى مصبه في بحيرة البرلس هو الفرع السبينيتيكي القديم . وبحر شبين صالح

الملاحة ويختلف عرضه من مائة وخمسين متراً إلى مائتى متر .
وهو يوافي بمياهه ترعاً كثيرة تروى الأراضى الداخلة فى زمام
مدن الدلتا وقراه

٥ — ترعة المحمودية

كانت أهمية المواصلات بين الأسكندرية والقاهرة
وصعوبة الملاحة فى فرعى النيل لصعوبة اجتياز بوغازيهما ، مما
حمل محمداً علياً على حفر ترعة المحمودية

وكان العرب قد فتحوا إثر فتحهم لمصر ترعة شبيهة بترعة
المحمودية ، ولكنها كانت أقل أهمية منها فأهمل المماليك أمرها
بسوء إدارتهم حتى طمستها الرمال والأتربة فأصبحت أثراً بعد
عين

وطول ترعة المحمودية خمسة وعشرون فرسخاً ، ومأخذها
من فرع رشيد على مسافة ربع فرسخ من فوة ، وهى صالحة
للملاحة . وقد تم حفرها فى عشرة أشهر وقام بالعمل فيها
ثلاثمائة الف وثلاثة عشر ألفاً من العمال . وترعة المحمودية جديرة
بأن تعد من الأعمال الخطيرة والآثار الجليلة التى كان قدماء

المصريين يقومون بمثلها فى غابر الأزمان

٦ — ترع الوجه البحرى التى انشاها محمد على

أنشأ محمد على فى طنطا ترعة جعل مأخذها منه مأخذ بحر شبين قبلى بلدة الجعفرية وعلى مسافة قليلة منها . وتلتقى بترعة كفر الشيخ غربى بلدة (دفرية) . ويبلغ طولها خمسين كيلومتراً وعرضها نحو ستة عشر متراً . وفى نقط مختلفة من امتدادها أربعة أهوسة ذات بوابات لتنظيم صرف المياه

٧ — ترعة ابوهيبة

مأخذ هذه الترعة فى فرع دمياط بحرى بلدة (دقادوس) وتتجه نحو الشمال الغربى (الشرقى) حتى تبلغ السنبلاوين ، ومنها تجرى شرقاً حتى تلتقى ببحر مويس قبلى كفر داوود . وطولها أكثر من خمسين كيلو متراً وعرضها ستة عشر متراً تقريباً .
وفى امتدادها أربعة أهوسة ذات بوابات

٨ – ترعة مديرية البحيرة

تصب بحرى بلدة بنى سلام على فرع رشيد . وتساير ضفاف النيل على خط مستقيم حتى بلدة الرحمانية . وطولها مائة كيلو متر وعرضها تسعة عشر مترا وفيها خمس قناطر ذات أهوسة وبوابات

٩ – الجسور التى أنشاها محمد على

أنشئت القناطر والحواجز على أغلب الترع التى أنشأها محمد على لخزن الماء ورفعه فيما وراءها حتى يبلغ منسوبا يؤذن بتسلط الماء على الأرض سواء بعمل فتحات فى الجسور أو بأدارة السواقى التى ، برفعها الماء إلى نحو مترين فوق منسوبه ، تبثه في الأراضى المرتفعة

ولتلك القناطر مزية أخرى وهى تسهيل رى الأراضى المبذورة مرتين أو ثلاث مرات بعد الفيضان . وهذا يساعد ضمناً على تحسين الزراعة وتحسين حاصلاتها

١٠ – حياض الوجه القبلي

أنشئت بالوجه القبلي حياض كبيرة بمد جسور عرضية تذهب من ضفاف النيل عمودية عليه حتى تبلغ حدود الأراضي الزراعية من ناحية الجبل . وهـذه الحياض التي يتصل بعضها ببعض بترعة تخترقها طولا مع الموازاة لمجرى النيل تمتلىء بالماء طبعاً في وقت الفيضان العام . فإذا انتهى الفيضان وانحسرت مياهه عنها انسكبت من الأحواض المرتفعة أي العليا منها في الأحواض المنخفضة أي السفلى . وتظل الحال كذلك حتى تجف الأحواض بالتتابع على الترتيب المتقدم

وهذه الأحواض ، وهي خير معين على تنظيم فيضان النيل، لم تكن كل الأصلاحات التي أمر محمد علي بأنفاذها . فلقد أشار حفظه الله بأغلاق فرع الترعة الفرعونية التي كانت تفضي بمقدار عظيم من الماء إلى فرع رشيد، فتنقص الماء من فرع دمياط . وكانت الصعوبات التي تعترض هذا العمل جمة متعذرة التذليل إذ كان المقصود به تحويل جزء من ماء النيل عن مجراه إلى مجرى آخر . وقد جاءت النتيجة وفق ما أريد بهذا العمل الجسيم

١١ — جسور شواطئ النيل

من الأعمال الجليلة التى قضت الارادة المحمدية العلوية باتخاذها إنشاء جسر متوسط عرضه ستة أمتار وارتفاعه متران على مسافة ٢٣٢٠٠٠٠ متر من امتداد النيل بين جبل السلسلة والبحر الأبيض المتوسط وعلى ضفتيه الاثنتين . والغرض منه حجز ماء النيل فى مجراه بعد أن كان فى أوان الفيضان يطغى على الضفتين فيغمر الأرضين كلها وينشأ عنه من التلف والضرر ما لا يقدر ، ثم إبقاء المياه الحاملة لذرات الخير الوفير ما يستطاع من الزمن على الأرض المغمورة

ويؤخذ من البيانات المتقدمة الذكر عن أقطار ذلك الجسر أن مكعب حجمه يبلغ ٢٧٨٤٠٠٠ متر مكعب . وهذا الرقم يمثل بوحداته عدد الأيام التى تكفى لانجاز ذلك العمل الشاق بيد رجل واحد ، أو عدد الرجال الذين يقومون به فى يوم واحد. ولقد تم على أحسن مايراد دون أن ينجم عنه اضطراب أو اختلال . واشتركت فى إنجازه القرى بنسبة مايخص زمامها من تلك الجسور

١٢ — الترع الكبرى التى انشاها محمد على

نذكر فيما يلى بيان الأشغال الكبرى التى أنفذت فى مصر خلال السنوات الاخيرة لأنشاء الترع . ونعتقد أن القراء سيهتمون بتلاوته . لأنه مستمد من الأوراق الرسمية

اعمال الرى الكبري

التى تمت على يد محمد على

أسماء المديريات[١]	بيان الأعمال	الطول	المكعبات
إسنا	ترعة الرمادى	١٢٢٥٠	٦٠٣٠٠٠
«	» العقيلي	١٤٠٠٠	١٢٩٠٠٠٠
قنا	» الشال	١٤٠٠٠	٨٦٠٠٠٠
«	» النابة	١٤٠٠٠	٨٦٠٠٠٠

(١) للوقوف على التقسيم الحالى الي مديريات راجع المصنف الذى نشره العلامة (جومار) سنة ١٨٣٩ وعنوانه «التاريخ الاجمالى لمصر وعهد محمدعلى » تاليف العلامة منجن . وتليه أبحاث تاريخية وجغرافية عن بلاد العرب للناشر العلامة (جومار) طبعة فرمان ديدو بباريس فى مجلد واحد

أسماء المديريات	بيان الأعمال	الطول	المكعبات
قنا	ترعة سنهور الشريف	٥٢٥٠	٧٧٤٠٠٠
«	» بلاجيا وقد وسعت وأطيلت	٢٨٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
«	جسر ابو ديال	٨٧٥٠	٥٦٤٣٧٥
فرشوط	ترعة المرعشلى	٢١٠٠٠	١٨٠٦٠٠٠
«	جسر فرشوط	١٧٥٠٠	٩٠٣٠٠٠
«	جسر آخر بهذا الأسم	١٧٥٠٠	٩٠٣٠٠٠
جرجا	ترعة السبخة	٧٧٠٠	١٩٩٠٨٠٠
«	جسر المنشاة	١٥٧٥٠	١٩٣٥٠٠٠
السوهاجية	» الوادية	٥٢٥٠	٥١٦٠٠٠
«	» الشباسات	٥٢٥٠	٤٦٥٧٧٦
«	» مشطا	١٧٠٠٠	٢١٥٠٠٠٠
«	ترعة اسلامية	١٢٢٥٠	٥٠٧٩١٦
سيوط	جسر دنهيا	٨٧٥٠	١٧٥٠٠٠
«	» قاو	١٠٥٠٠	٤٣٥٣٧٥

أسماء المديريات	بيان الأعمال	الطول	المكعبات
مغلوط	ترعة بنى كلب والمحرق	١٧٥٠٠	٥٥١٦٣٨
ملوي	» كودية	١٤٠٠٠	١٣٧٦٠٠٠
المنيا	» طهنشاوى	٢٣٤٥٠	٥٩٢١٩٦
بني مزار	» القيس فى بني على	٩٥٩٠	٦١٨٥٥٥
الفشن	ترعة الفشن	١٥٧٥٠	٤٣٠٠٠٠
»	جسر البرامقه	١٠٨٥٠	٤٧٣٩٠٣
بني سويف	» الرقة	١٢٢٥٠	٥٦٤٣٧٥
»	ترعة البرامقة	١٤٥٠٠	٧٠٥٤٣٨
قليوب	ترعة الزعفرانية	٥٦٢٨٥	٥٨٢٠٣٠٠
»	» الشرقاوية	٢٣٠٠٠	٤٣٧٥٠٠٠
»	» الباسوسية	١٥٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠
الشرقية	مصرف بلبيس	٣٥٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠
»	ترعة الوادى	٤٥٠٠٠	٤٢٠٠٠٠٠
المنصورة	» دويده	٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠
»	» البوهية	٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠

أسماء المديريات	بيان الاعمال	الطول	المكعبات
المنصورة	ترعة المنضورية	٣٥٠٠٠	٢٦٠٠٠٠٠
«	» الشرقاوية	٤٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠
منوف	» النعناعية	٣٥٠٠٠	٥١٥٠٠٠٠
«	» السرساوية	٣٥٠٠٠	٤٩٥٠٠٠٠
«	» الباجورية	٦٢٠٠٠	٧٤٤٠٠٠٠
الغربية	» مسيد الردراة	٦٢٠٠٠	٥٧٢٠٠٠٠
«	» البجيدي	٦٢٠٠٠	٢٩٧٠٠٠٠
«	» الجعفريةوامتدادها	٥٥٠٠٠	٢٧٥٠٠٠٠
البحيرة	» الخطاطبة	١٩٥٠٠٠	١٥١٢٠٠٠٠
«	» المحمودية	٨٠٠٠٠	١١٥٢٠٠٠٠

فهذه الأشغال التي أنجزت لجر مياه الرى وتسهيله قد بلغت ١٠٤٣٥٦٦٧٩ متراً مكعباً

وهاك، فضلا عما تقدم، متوسط أعمال الحفر التي أجريت سنوياً فى السنوات الست الأخيرة بمديريات القطر المصري

	المديريات	أمتار مكعبة
الصعيد أو مصر العليا	إسنا	١٢٣٨٤٠٠
«	قنا	١٥٧٢٢٨٨
«	فرشوط	١٠٩١٣٦٨
«	جرجا	١٠٤٥٩٩٦
«	السوهاجية	١٠٠٣٨٠٤
«	اسيوط	١٧٤٦٥٢٣
«	منفلوط	١٩٦٧٩٤٢
«	ملوي	١٨٤٢٣١٤
مصر الوسطى	المنيا	١٩٧٨٣٢٤
«	بني مزار	١٦٥٠٧٠٩
«	الفشن	١٦٨٥٢٤١
«	بنى سويف	١٤٩١٨٠٥
«	الفيوم	١٥٥٠٩٩٧
الوجه البحرى	الجيزه	٢٤٠٠٢٤٠
«	قليوب	٢٢٠٠٧٨٩
«	الشرقية	٣٩٤٣٦٧٨

	المديريات	أمتار مكعبه
الوجه البحرى	المنصوره	٣٢٠١٤٣٦
«	منوف	٢٥٢٤٦٧٨
«	الغربية	٣٨٢٤٦٧٣
«	البحيره	٢٦٣٤٦٢٤

ومجموع هذا ٤٠٣٧٩٣٣٩ متراً مكعباً من التسوية الترابية في كل عام . ولا يدخل فى هذا الحساب إصلاح الجسور وتطهير الترع ولا غيرهما من الاعمال التي لقلة أهميتها بالنسبة للاعمال السابقة يكون من الاسهاب الممل إيرادها بالتفصيل فى هذا المقام

ولكننا إذا فرضنا أن رقم ٤٠٠٠٠٠٠٠ من الامتار المكعبة يعدل مجموع الاعمال السنوية ، ولما كان من المستطاع تقدير عمل العامل الواحد بمتر مكعب . وكان موسم العمل فى السنة لا يتجاوز أربعة أشهر فقط منها أى أثناء الفصل الذى يكون الفلاحون فيه أقل انكباباً على الاعمال الزراعية ، فمن السهل استنتاج أن عدد العمال الذين يشتغلون كل عام في إنشاء الترع يبلغ ٣٥٥٠٠٠ عامل عَلَى أقل تقدير

يقي علينا أن نطلع القاريء على المباني الـكبرى التى أمر محمد علىّ بتشييدها لإتمام النظام الذى وضعه لري الاراضي

القناطر والجسور والمصارف

فرشوط	قنطرة لحجز المياه عَلَى ترعة المراشده	٢٧٠٠٠
جرجا	» لصب المياه فى جسر سمهود	٩٠٠٠
»	» » » المصالحة	١٢٠٠٠
السوهاجية	» سوهاج	٢٤٦٠٠
»	» لصب المياه فى جسر الشباسات	٢١٠٠٠
سيوط	» » » بنى سميع	٣٠٠٠٠
»	» » » قلاى	١٩٠٠٠
»	» » » اسيوط	١٢٠٠٠
»	» » بمدخل مدينة اسيوط	١٢٠٠٠
»	» لحجز المياه فى بسره	١٢٠٠٠
»	بدالة على بك بقرب بنوب	٩٠٠٠
منفلوط	قنطرة صب المياه في العتامنه	١٤٦٠٨
مللوى	» » قطع ابو عفريته	٩٠٠٠

المنيا	قنطرة اصب المياه فى طنهشاوى	٢٤٠٠٠
»	» » » الطحاوية	١٨٠٠٠
الفشن	» » » عبال	١٢٠٠٠
»	» » » الجرنوسي	٦٠٠٠
»	» » » سنشتاد	١٢٠٠٠
الجيزة	» » » الرقه	١٥٠٠٠
بني سويف	قناطر جسرية فى جسر شوشه	٨٢٥٠٠
الفيوم	خزان الطامية	٥٩٢٠٠
»	» سنورس	٣٥٢٣٢
	الصعيد ومصر الوسطي	٤٧٥١٤٠

قليوب	قنطرة حجز المياه فى الشرقاويه	١٥٠٠٠
»	ثماني قناطر عَلَى ترعة الزعفرانية	٧١٠٠٠
»	قنطرة حجز المياه في أبي المنجي	٩٠٠٠
منوف	» ترعة الفعناعية	٩٠٠٠
»	» الشرساويه	٩٠٠٠
»	» الباجورية	٢١٠٠٠

منوف	قنطرة حجز المياه فى ميت عفيف	٢١٠٠٠
الغربية	» السنطة	٢١٠٠٠
»	» الراهبين	٢١٠٠٠
»	» دميره	٢١٠٠٠
»	» سرى	١٥٠٠٠
»	» بيله	١٥٠٠٠
»	» نشرت	١٥٠٠٠
الشرقيــة	» البوهية	٩٠٠٠
»	» المنصورية	٩٠٠٠
»	قنطرة كبرى لحجز الماء ذات ثلاثة أوجه بالزقازيق	٤٥٠٠٠
»	» لحجز الماء ذات ثلاثة اوجه فى الصفرة	١٥٠٠٠
البحيرة	» » » في البريجات	١٥٠٠٠
»	قناطر وجسور على المحمودية	١٣٢٠٠٠
	المجموع	٤٨٩٠٠٠

١٤ — جملة هذه الأعمال(١)

جملة مكعبات أعمال الترع هو	٩٦٤١٤٠
يضاف إليها مكعبات الأعمال الأقل أهمية	١٨٥٠٠٠٠
جملة مكعبات أعمال المبانى كلها	٢٨١٤١٤٠

وبفضل هذه الأعمال التى راعي مبتكروها فيها التوسع والسخاء وأنجزوها بسرعة نادرة أخذ الفيضان يعم الوجه البحرى شيئاً فشيئاً ويوافى أرضه بعناصر الخصب والبركة فاتسع نطاقها وازدادت حاصلاتها

أما الوجه القبلى ، فبالرغم مما بذله سمو الوالى من الجهود العظيمة لأشراكه مع الوجه البحرى فى التمتع بمزايا تلك النعم الجزيلة ، لم تحقق نياته الشريفة فى هذا الصدد . ذلك لأن شطراً كبيراً من الأراضى كان ماء الفيضان لايبلغ إليه إذا كان ارتفاعه متوسطاً ، فألهم الله سمو الوالى مشروع إنشاء ترعة جانبية للنيل حفافى الصحراء ، بعد أن تشتق منه عند جبل

(١) الأرقام السابقة نشرت في جريدة « سيمافور الشرق » التى سبق الكلام عليها فى غير هذا المكان والتى لا يسعنى تلقاء جودة تحريرها الا القيام نحوها بما هى خير أهل له من المدح المبنى على الحق والانصاف

السلسلة ليبقي ارتفاع الماء فيها على الدوام فوق مستوى سطح الأرض المجانبة له

وبهذه المثابة يستفيد الصعيد ومصر الوسطى من فيضان تام يستطاع التصرف فيه بحسب الأرادة . وتصلح تلك الترعة فى آن واحد أثناء التحاريق وفى أيام الفيضان التدريجى للحياض المختلفة ، وتعرضت للجفاف بانحسار مياهه عنها شيئاً فشيئاً

وبالرغم من كثرة عدد الترع فى الوجه البحرى ، فأنها لاتكفي دائماً لجعل الفيضان كاملا تاماً ، بالنظر لاستحالة تطهيرها كل عام واتساع نطاق الأراضى الزراعية اتساعا مطردا . وقد تكون مياه النيل واطئة أحياناً إلى حد يحول دون انبثاثها في جميع الترع على السواء . فدفعاً لهذه العقبات تقرر وضع مشروع لأنشاء قناطر جسيمة على النيل عند رأس الدلتا . وهذا العمل الجليل سأفرد له بحثاً خاصاً فيما يلى :

٢

القناطر الخيرية اى قناطر الدلتا

أهميتها — رسم مشروع القناطر الخيرية بحسب أوضاع المهندس لينان — نتائج انشاء القناطر الخيرية — رأى المهندس كورديه بشان القناطر — الشروط التى يراد من القناطر أن توفى بها — طريقة انشائها ونفقاتها — قناطر النيل فى الوجه القبلى

١ – أهميتها

إذا اعتبرنا أن الشطر الأوفى من الأراضي لا تبلغه مياه الرى سواء أثناء التحاريق أم فى حالة عدم كفاية مياه الفيضان، وأنه لهذا السبب لا يأتى بالمنتظر من المحاصيل الوفيرة، فأول ما يخطر ببال المفكر أنه من المنحتم على كل إنسان العمل على حرمان البحر الأبيض المتوسط ما يلقيه النيل فيه من مياهه الغزيرة بلا فائدة تعود على البلاد.

والظاهر أن مهندسى الحملة الفرنسية كانوا أول من مرت بخاطرهم فكرة إنشاء قناطر لحجز مياه النيل ورى الأراضى الزراعية بحسب الارادة. وقد دوّن (نابليون) فى مذكراته ما عنّ له من الخواطر والأفكار أثناء مقامه القصير بالقطر

المصرى ، فذكر فيما دونه ما يأتى : « من الأعمال الجليلة التى لا مناص من تنفيذها يوماً ما إنشاء سدود على فرعي دمياط ورشيد عند بطن البقرة . فأن هذه السدود ، إذا أنشئت ستؤذن لمياه النيل كلها بالمضى فى سبيلها شرقاً وغرباً فتضاعف مياه الفيضان »

ومن المقطوع به أن المهندسين الذين نظمهم سمو الوالى في سلك خدمته أطلعوه على المشروع الذى مرّ بالخواطر أثناء الحملة الفرنسية والمباحث التى كان قد بدأ بها تأهباً لتنفيذه . فبهت محمد على لخطورة هـذا العمل الجسيم الذى يصبح القابض على زمام مصر به مطلق التصرف فى النيل ، أى قابضاً على وسيلة من أقوى الوسائل لاستدرار ماتستطيع الأرض أن تدره من المحاصيل . ولقد عمد قبل إنفاذ هذا المشروع الخطير ، إلى إنفاذ مشاريع أخر من نوعه ولكنها أقل منه أهمية بكثير ، فجاءت بأجزل الفوائد وأوفر الثمرات . فأقام قناطر الحجز الصغيرة على الترع الأساسية كالقنطرة التى أنشاها فى الزقازيق على ترعة بحر مويس وعلى مسافة أربعة فراسخ من مصبها . وهى قنطرة جليلة ذات أهوسة يتيسر بواسطتها إيصال الماء إلى قسم عظيم من مديرية الشرقية لم يكن الماء ببالغ إليها لولاها وكانت قبل إنشائها

محرومة منها بالمرة . وقد نشأ عن نجاح هذه التجارب أن قويت في نفس سمو الوالي الرغبة في متابعة تلك الأعمال ، فأنه بعد أن ملك ناصية الترع السالفة الذكر وتحكم في مياهها جال بخاطره أن يذعن النيل لأرادته وأن يتصرف في مياهه بحكمته ، فناط بلفيف من المهندسين وضع جملة مشاريع في هذا المعنى، فوضعوها وحرروا بها تقريراً رفعوه إلى سدته . ولقد أحرز شرف القبول منها المشروع الذي ابتكره المهندس لينان ، ونورد فيما يلي خلاصته

١٦ – مشروع القناطر بحسب المهندس لينان

لما كانت نقطة انفراج فرعي النيل أوفق النقط لحجز المياه وتصريفها في أنحاء الدلتا والأراضي المجاورة لها فقد تخيرها المهندس لينان لأنشاء القناطر وعين لهذا الغرض قطعتين من الأرض بين ملتويين من ملتويات ذينك الفرعين . وقد رمى بهذا الاختيار أن يكون بناء القناطر بادىء الأمر في الأرض الجافة بعيداً عن مجرى الفرعين، حتى إذا تم إنشاؤها حولهما إليها بحفر مجريين جديدين . وكانت الأعمال المنوى اجراؤها تتناول قنطرتين لحجز الماء بما يتبعهما من أهوسة وبوابات، ومصبين

ببوابات لصرف الماء الزائد فى المجريين القديمين للنيل وترعتين للملاحة بأحواض وثلاث ترع للرى إحداها برسم الدلتا والاخرى برسم مديرية البحيرة والثالثة برسم مديرية الشرقية

وكان المقرر ان تكون قنطرة حجز المياه فى فرع رشيد مؤلفة من أربع وعشرين عقدا عرض كل منها عشرة أمتار ، ثم من عقد فى الوسط عرضه أربعة وثلاثون مترا يبقى مفتوحاً على الدوام ليضمن للماء استمرار جريانه . أما فرشة القناطر فكان من المقرر أن تكون على عمق تسعة أمتار وستمائة وثلاثين ملليمترا من المسطح الطبيعى للأرض

أما مصب هذا الفرع لتصريف الماء الزائد فكان مقدراً له ، بمقتضى المشروع ، أن يتألف من تسعة وعشرين عقدا عرض كل عقد عشرة أمتار . وأن يكون سمك الفرشة تحت الأرض متراً وثمانية عشر ملليمتراً . أما ترعة الملاحة التى تحفر لتسهيل عبور المراكب في الفرع الصناعي المستحدث ، مع اجتنابها المرور من العقد الكبير لما فيه من الصعوبات والأخطار المرجح وقوعها بسبب اشتداد تيار المياه التي تنبثق من هذه الفتحة ، فمن المقرر أن يكون عرضها ستة عشر متراً . أما حوض الهويس فمن السعة

بحيث يستطيع احتواء أربعة قوارب كبيرة

وبمقتضى المشروع عينه كان المقرر أن تكون قنطرة فرع دمياط مؤلفة من ستة عشر عقداً بعرض عشرة أمتار لكل عقد ، ومن عقد واحد في الوسط يبقى مفتوحاً على الدوام لجريان المياه . وكان من المقرر أن تكون الفرشة من ظاهر الأرض بمسافة تسعة أمتار وسبعين سنتيماً وأن يكون مصب الماء الزائد مؤلفاً من خمسة وعشرين عقداً عرض كل عقد عشرة أمتار وأن يكون سمك الفرشة تحت الأرض متراً وأربعين سنتيماً . أما ترع الملاحة فقد تقرر أن يكون الأمر بشأنها مثله بشأن ترع فرع رشيد

ومفهوم أن القناطر التى نحن بصدد الكلام عليها تبقى ، أثناء الفيضان وبلوغ المياه إلى أقصى ارتفاعها ، مفتوحة كلها إلا الأهوسة التى تقفل ترع الرى بواسطتها . أما إذا هبطت المياه وانخفض منسوبها ، فمن المعين أن تبقى فتحات القناطر ومصبات الماء الزائد مفتوحة ، ماعدا فتحتى العقدين الكبيرين وأهوسة ترع الرى

ومما تقرر فى ذلك المشروع أن تمر ترعة الرى ، بواسطة

البدالات ، فوق ترع النعناعية وميت عفيف وشبين (بحر شبين) ومزيد وأن تصب فى هذه الترع أثناء انخفاض النيل وحصول التحاريق ، المياه الضرورية لرى ما تخترقه الآن من الأراضى . وتقرر كذلك أن تمد ترعة رى البحيرة بمياهها ترعة المحمودية بواسطة البحر اليوسفى وأن تمد ترعة الشرقية بمياهها ترعة الملاحة المراد إنشاؤها بحيث تصل إلى السويس

١٧ — نتائج انشاء قناطر الدلتا

يؤخذ مما سبق أن الأعمال الأيدروليكية التى اعتزم سمو الوالى القيام بها لخير مصر لمن أعظم وأجل الأعمال التى عرفت من نوعها إلى عهدنا الحاضر . وسيكون إنجازها أبهر فوز لقوة الأنسان على قوة الطبيعة . أما نتائج تلك الأعمال فستكون من أجل النتائج وأحفلها بالفوائد ، إذ بواسطتها ستعم مياه النيل أراضى الدلتا كلها والأراضى الواقعة شرقى النيل وغربيه ، ويسهل رى ما تربو مساحته على مليون هكتار ونصف من الأراضى الصالحة للزراعة ، ويستغنى عن الانتفاع بأكثر من خمس وعشرين ألف ساقية تستلزم إدارة الواحدة منها عملا

متواصلا يقوم به الرجل وثوران فيقتصد بذلك عمل خمسة وعشرين الف رجل وخمسين ألف ثور

ثم إن ارتفاع مياه النيل وانصرافها بحسب الأرادة من المصبات الخاصة بها ، لمما يمهد استخدام قوة الهدارات الناشئة عن سقوطها فى إدارة آلات المعامل والفاوريقات ، ويساعد على توسيع نطاق الصناعة المصرية وتعزيز مركزها

ولقد تركت هذه النتائج الجليلة المنتظرة من إنشاء القناطر أثراً لايمحي فى ذهن سمو الوالى ، فتعلقت إرادته العلية بالمبادرة إلى العمل فيها . وكانت الأدوات والآلات اللازمة لتحقيق أغراضه وإنجاح مساعيه المبرورة لخير البلاد وسعادة أهلها مكدسة بالأماكن التى اختيرت لتنفيذ المشروع فيها ، فأذا بالحرب وقد شب ضرامها وبالمسائل السياسية وقد انفتحت أبوابها على مصاريعها ، فحول إليها التفاته وصرف إليها عنايته ، وهو ما أفضى بالطبع إلى تعطيل العمل لأنجاز ذلك المشروع الجليل ، رجاء أن تخفق رايات السلام ويستقر الأمن فى نصابه فيستأنف العمل فيه وينجزه على خير ماتستلزمه مصالح البلاد وتقتضيه

١٨ — آراء وتصميمات المهندس كورديه فى القناطر

لما كان مشروع قناطر حجز المياه عند رأس الدلتا من أهم المسائل التى تستثيرها المصالح المادية والمنافع الاقتصادية بالقطر المصرى ، وكان يتوقف على إنجازه تمتع سكان هذا القطر بالثروة والنعيم فقد حادثت الكثيرين من أهل العلم والأخصائيين في أمره مستطلعاً آراءهم ومستجلياً ملاحظاتهم فأسعفنى الحظ المؤاتى بمقابلة مهندس من فطاحل مهندسى فرنسا المعروفين ونابغ من أشهر نوابغها في الفنون الهندسية وهو المسيو (كورديه) النائب عن مقاطعة (جورا) . وهو الذى قام على أتم مايرام بأعمال القناطر التى نصبت على أنهار (الرين) و (إسكوت) وغيرهما . ومع أن تصميم هذا المهندس الجليل فيما يختص بقناطر الدلتا يخالف تصميم المسيو (لينان) الذى أحرز رضى الكثيرين من أصحاب الرأى وموافقتهم ، فلست أجد بأساً فى إيقاف قرائى عليه . ومع أنى أربأ بنفسى عن التصدى للبحث فى شؤون لم تكن من اختصاصي ، فلست أجد غضاضة فى أن أنقل اليهم رأى ذلك المهندس الخبير المسيو (كورديه) فى ذلك المشروع ،

ويحدو بى إلى إيراده بنصه أن ماتضمنه من الاقتراحات يستتبع ، فى حالة تنفيذه ، الاقتصاد العظيم فى الزمن والمال والعمال . فأذا لم يلق معارضة ما من أصحاب الشأن والقابضين على أزمة الأمور وكان من حظه الظهور إلى عالم الوجود فقد تترتب عليه سعادة مصر ورخاؤها، ومنه يستدر سكان هذا القطر أخلاف الخيرات الوفيرة والثمرات الطيبة ، وبه تدخل مصر فى دور جديد مقرون بالثروة والمجد والعظمة . ولست أرى لاصابة المرمى إلا أن أورد ما وافانى به المهندس (كوردييه) من المذكرات والملاحظات بنصها من غير تعديل ولا تغيير

١٩ — الشروط التى ينبغى الاتوفى القناطر بها

قبل استكشاف طريقة الاهوسة وأحواضها على اختلاف أشكالها بقصد التحكم فى المياه وتنظيم مناسيبها بحسب الارادة من رفع وخفض وتصريف مايراد صرفه منها ، كانت الترع المشتقة من النيل لاتأتى إلا بجزء طفيف من المزايا التى يستطاع الحصول عليها بتطبيق العلم الايدروليكي فيما قطعه من أشواط التقدم والارتقاء

فقد كانت الحاجة داعية ، بالنظر الى حالة جسور النيل والترع ، ولا تزال كذلك الى استخدام بضعة آلاف من الثيران فى كل اقليم ، لرفع المياه منها الى الاراضى المجاورة ، لريها

ولما كان احداث القطوع على شواطيء النيل لاشتقاق الترع منها يؤدى الى استنزاف مياه هذا النهر . فأن الملاحة تصبح غير ميسورة فيه إلا للقوارب والمراكب الصغيرة لمدة ستة أشهر فقط من كل سنة ، لاسيما وأن جرها بواسطة الخيل لا يكون إلا إذا كانت المسافات المراد قطعها طويلة

ولما كان إيراد فرعى النيل من الماء عند مصبهما في البحر المتوسط ضعيفاً وحجمه صغيراً فأن ماء هذا البحر يطغى على هذين الفرعين أثناء هياجه بتأثير الأنواء ويغمر البحيرات الساحلية فلا تلبث الجهات الحافة بها أن يصبح المقام فيها ضاراً بالصحة والأراضى أن تصير غير صالحة للزراعة بل ولا للسكنى بها

فمما يحتم إزاء هذه الحالة أن توفى القناطر المزمع إنشاؤها على النيل بثلاثة شروط أساسية وهى :

أولا — منع مياه البحر الأبيض المتوسط من الطغيان

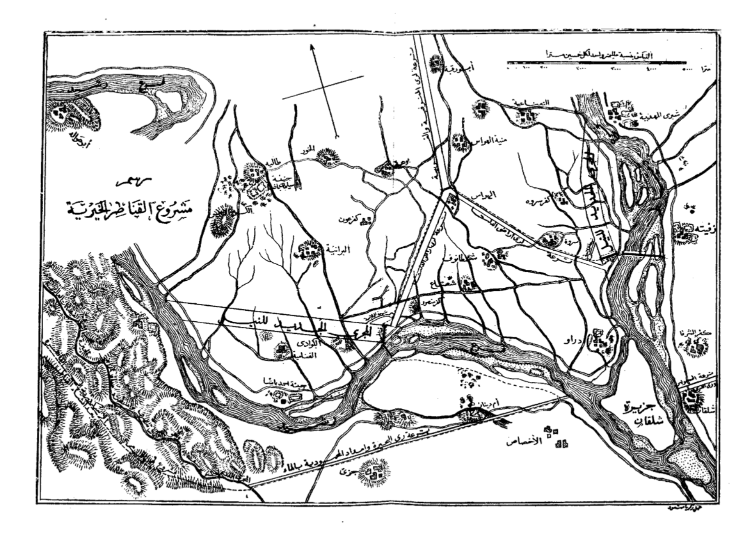
على البحيرات الساحلية

ثانياً — تحسين أحوال الملاحة فى فرعى النيل بتنظيمها وتسهيلها على السفن الكبيرة الحجم وجعلها ممكنة في كل فصول السنة

ثالثاً — إرسال مياه النهر إلى أراضي القطر المصرى كافة فى الوقت الذى تكون هذه المياه فيه أكثر انخفاضاً عنها حينما يبلغ الفيضان قصاراه وتوسيع نطاق الأراضى القابلة للزراعة بهذه الوسيلة حتى تبلغ مساحتها ضعفها الآن

ولنلخص المشروع الكفيل بأصابة الأغراض المتنوعة التى سبق إيرادها بتطبيقه أولا على فرع رشيد

نقترح إنشاء قنطرة ذات هويسين بحوضين ، على مقربة من مصب هذا الفرع فى البحر الأبيض المتوسط ، لمرور السفن المختلفة الأحجام ، وأحواض أخر وأهوسة جانبية لطرد الماء وبوابات دوارة لتعميق ممر السفن (قنال) . فأن تلك القنطرة، إذا بنيت على هذا النمط ، حالت دون طغيان مياه البحر الملح ورفعت منسوب الماء فى النيل ، فتتمكن السفن حتى الكبيرة من السير فيه ويتيسر رى الأراضي المجانبة للنهر بالراحة


رسم
مشروع القناطر الخيرية
المقياس بنسبة ١ : ٥٠٠٠٠
متراً ٥٠٠٠ ٤٠٠٠ ٣٠٠٠ ٢٠٠٠ ١٠٠٠
أبو الغيط
طاليه
الخور
جنينة السلحدار
الكوم
كفر زعون
البرانية
الكوادى
الضامنية
جنينة احمد باشا
المجرى الجديد للنيل
كفر منصور
شبرامنت
شطانوف
العواس
منية العواس
أبو دوقة
القناطر
شبرى المهدية
كفر سروه
سروه
زفيته
دراو
كفر الشرفا
شلقان
جزيرة شلقان
أم دينار
الأخصاص
ترعة ري البحيرة وامداد المحمودية بالماء
جزى

ولما كانت كل فوهة من فوهات القنطرة يتدفق الماء منها على شكل هدار ، ففي الأمكان استخدام القوة المتولدة من هذا الاندفاق لتحريك الآلات الأيدروليكية المقصود بها تجفيف البحيرات وجعلها صالحة للزراعة

ودون مأخذ الترعة الواصلة من فرع رشيد إلى الاسكندرية بالقرب من الرحمانية تنشأ قناطر أخرى لحجز المياه ، ترمي إلى الغرض والفائدة اللذين ترمى إليهما قناطر رشيد

وفيما بين الرحمانية والقاهرة تنشأ قنطرتان أخريان لمعادلة ميل قاع النهر وانحداره ، إحداهما بالقرب من (بنوفر) والأخرى تجاه (الطرانة)

ولما كان انحدار النهر بين القاهرة ورشيد خمسة أمتار وستين سنتياً ، ففي إنشاء القناطر الأربع السالفة ذات الأهوسة مايكفل معادلته ، على أن يكون ارتفاع الهدار المتدفق من كل منها متراً وأربعين سنتياً

واذا أنشىء بجانب كل قنطرة مصب ثابت عرضه ضعفا عرض النهر وارتفاع بنائه فوق خط التحاريق متر وخمسون سنتياً ، فلا بد لمياه الفيضان التى يبلغ ارتفاعها بالقاهرة ستة عشر

متراً وأربعين سنتياً فوق ذلك الخط عينه من تغطية مصب القنطرة الثابتة بما يبلغ ارتفاعه خمسة أمتار من الماء . ومفهوم أن منسوب الفيضان لا يطرأ عليه أى ارتفاع محسوس من جراء القناطر وتأثيرها

وبهذه الاعمال المتنوعة يمكن تحقيق شطر غير يسير من الأغراض التى يرمي إليها المشروع . فأن ماء البحر الملح لايعود الى الطغيان على النيل ، وممر السفن (البوغاز) يعمق بقدر العمق المناسب ، وسواحل البحر تصبح صالحة للزراعة ويرتفع الماء فى النيل فوق مناسيبه المعتادة بمقدار متر وأربعين سنتياً . وهو ما إذا أضيف إلى ارتفاعه فى وقت التحاريق جعل النهر صالحاً فى كل فصول السنة لسير السفن ، حتى التى يبلغ محمولها منها ٦٠٠ طن . وبعد هذا لا يبقى إلا أن يوفى المشروع بالشرط الأخير وهو الأهم أى رى الأرض رياً طبيعياً من غير واسطة . وهو مطلب لاينال إلا برفع بناء الأهوسة فوق منسوب أكثر الفيضان ارتفاعاً ليكفل مرور السفن فى كل آن ، وإقامة قناطر متحركة فوق القناطر الثابتة التى سبق الكلام عليها لاحتفاظه بمنسوب مياه النيل عند حد معين ليرفع بحسب الأرادة ولو ليبلغ منسوب

الفيضانات العالية

ونحن على يقين من نجاح تلك الأعمال ، لأننا تولينا أعمالا كثيرة من نوعها ، لا على نهر باتساع النيل بل على نهيرات لا تقل صعوبات العمل وعقباته فيها عنها فيه . ومع هذا فقد تحقق المطلوب تحققاً تاماً بنفقات معتدلة

وبعد القيام بالأعمال التى من شأنها جعل فرع دمياط صالحاً للملاحة ، يشرع بأقامة قناطر على المثال المتقدم فى أفرع النيل الأخرى للحصول بواسطتها على المزايا التى سلف سردها ، ومن أخصها صد مياه البحر المالح عن الايغال صعوداً في النيل وتعميق الموانىء والثغور وتجفيف البحيرات الساحلية وتحسين أحوال الملاحة ورى الأراضى الصالحة للزراعة فى القطر المصرى بالراحة فى كل فصل ، ولو كانت من الأراضى التى أغارت رمال الصحراء على شطر منها

٢٠ — طريقة بناية القناطر ونفقاتها

نشر بعض الثقات من المؤلفين فى موضوع مشروع القناطر الكبرى الجديدة المزمع إنشاؤها لحجز مياه النيل مستندات

يؤخذ منها أن هذا المشروع يستلزم إنجازه نفقات طائلة وأن نجاحه مشكوك فيه . ولكننا إذا ألقينا عليه نظرة باحث منقب لانلبث أن نوقن بوجوب الأحجام عن مشاركتهم فيما ذهبوا من الآراء اليـه

وبيـان ذلك أن تحت نظرنا الآن منظر القطاع الجانبي للنيل ، في وادى اسـيوط ، حيث تجتمع المياه في مجرى واحد . وعرض النيل في هذا المكان أيام التحاريق ٣٨٠ مترا ومساحة مقطعه ٧٦٠ متراً وإيراده من الماء في الثانيـة الواحدة ٧٦٠ متراً مكعباً ، بفرض أن سرعة جريانه متر واحد في الثانيـة أو متر و٣٥ سـنتيا باعتبار أن إيراد المـاء الف متر مكعب . وهو ما يبدو أنه من المبالغة بمكان على مايؤخذ من حساب الانحدارات والمسطحات

وباعتبار أن إيراد النيل في ذلك المكان ألف متر مكعب في الدقيقة الواحدة فأن حجم المياه المنصرفة على هـذا الاعتبار في كل أربع وعشرين سـاعة ٨٦٤٠٠٠٠٠ متر مكعب . وهـذا الحجم لم يبـلغ نصف حجم إيراد نهر السين من الماء في وقت فيضانه . وبناء عليه فلا تكاد النفقات اللازمة لأقامة قناطر على

النيل تبلغ ثلاثة أمثـال نفقات مايقام من نوعها على نهر السـين الأسفل

ولكن لما كان من المحتوم انصراف مياه النيل ثانياً فى أفرعه السبعة القديمة كى تبثها في الأراضى وتغذوها بما تحمله من عناصر الخصب وتوسع نطاقها بضم أراضى الصحراء إليها ، فكل قنطرة تنشأ عند فم كل فرع تكون من السهولة وقلة النفقات كما لو كان المراد إنشاؤها على أحد أنهر (الأسكوت) و (التاميز) و (الرين) فى القسم المنبث منه ببـلاد (هولانده) . وهنـاك وسائل ومعدات حديثة أيدت مزاياها التجربة من شـأنها ، إذا روعي العمل بها ، أن تقلل من نفقات البناء وتزيد في متانته

ولما كانت أراضى الوجه البحرى ووادى النيل بالوجه القبلى متكونة من الطمى الممزوج بالرمل ، فالأعمال الأيدروليكية التى تؤسس على الخوازيق تكلف مبالغ طائلة جداً ولا تكون من المتـانة والأحكام بما يفى بالمراد . واللازم فى القطر المصرى تجنب الأعمال الفنية التى تتطلب استخدام العمال المدربين ، وهم قليلو العدد حتى فى أوربا ، واستعمال مواد تقضى الحاجة بجلبها من جهات بعيدة واختيارها من الاصناف التي تستدعي كثرة النفقة

ومما يدعو إلى الاقتصاد الكبير فى المال والوقت ، إنشاء بناية القناطر على أساس من الخرسانة يحفر في الطين بالكراكات ولا يستلزم استنزاف الماء . ويعنى بزيادة عرض هذا الأساس زيادة عظيمة منعاً لتربيح البناء . ومما نوجه الخواطر اليه فى هذا المقام أن المواد الاولية اللازمة للبناء على الوجه المتقدم متوافرة في القطر المصرى ، وأن الصناع المصريين يقومون بأنجاز الاعمال على أحسن مايراد وبأقل نفقة اذا أحكم المشرفون عليهم ادارتهم. ويراعى فى سمك الخرسانة أن تكون بحيث يطابق ارتفاعها ارتفاع النيل فى مدة التحاريق ، وتعلى بعد ذلك ببناية من حجر النحت يبلغ ارتفاعها فوق خط التحاريق متراً وأربعين سنتياً . وفى هذه الطبقة من البناية تمشق وتثبت الحواجز المتحركة من القنطرة وهى عبارة عن بوابات رأسية الحركة تحجز المياه إلى المستوى المعين بل إلى مايعدل مستوى النيل فى فيضانه

ومما تنبغى ملاحظته بهذه المناسبة : أولا — أن لا جليد فى النيل ، فهو لا يطرد فى حركة سيره شيئاً منه حتى يلحق الضرر بالحواجز المتحركة السالفة الذكر أثناء الفيضان . ثانياً — أنه لما كان طول القناطر ضعف عرض المجرى الأصلى للنيل فمن

المستطاع تأسيسها فى الأرض الجافة تقريباً بالابتداء بالعمل خارج المجرى الحالى . ثالثاً — أن الفيضانات الصناعية تنظم وتجدد حسب الأرادة

وكل قنطرة تنشأ على النمط الذى سبق شرحه لاتتجاوز تكاليفها من مليون إلى مليون ونصف من الفرنكات بحسب اختلاف المواقع التى تختار لأنشائها . غير أن هذا الاختيار من الأهمية والخطورة بحيث يؤثر تأثيراً بالغاً فى نتائج الأعمال والنفقات اللازمة لها ويستدعى خبرة فائقة واضطلاعاً تاماً بالاعمال الأيدروليكية

وما اقترح من إنشاء قناطر يتلو بعضها بعضاً لايغير فتيلاً من نظام الرى القديم فضلا عن أنه لايحتاج به إلى حفر ترع جديدة لما هنالك من سهولة الانتفاع بالترع الموجودة وإمكان تطهير الترع القديمة التى تتوزع مياه النهر بواسطتها فى جميع أرجاء القطر ونواحيه بدون أن يطرأ خالل على نظام الرى . وينتفع فى هذه الحالة بمياه النهر كلها فى رى الأراضى التى لم تكن تروى بها من قبل

أما القناطر الكبرى المزمع إنشاؤها في بطن البقرة على

مقربة من القاهرة فأنها ، إذا تم إنشاؤها ، لن توفى بالأغراض التى سبق لنا البحث فيها

يدعو إلى ذلك أن إيجاد فرع ذى هويس مؤلف من تسعة وعشرين عقدا بعرض عشرة أمتار وطول خمسة آلاف متر لا يأتى بالمزايا التى يأتى بها قطاع طوله مائتا متر فى عرض عشرين مترا عند القاع وبطرفيه هويسان . أما الممرات التى تترك لمرور السفن منها فأنها فضلا عن انصراف كميات جسيمة من الماء بواسطتها ، تتدفق المياه منها بشكل هدار يتعذر معه على السفن الصاعدة في النيل اجتيازها إلا بصعوبة محفوفة بالأخطار .

أما القناطر التى يراد بناؤها فى الجهات العليا من النهر فلن يترتب على إقامتها تأثير فيما يراد إصلاحه من أراضى السهول السفلى التى تعدل مساحتها عشرة أضعاف المنطقة المراد ريها بالترع المزمع إنشاؤها

ثم إن استعمال الخشب فى الأساس يستتبع الكلاف الباهظة ولا يفى بشرط المتانة ، إذ لا بد فى استعماله من إنزال الخوازيق فى الطمي إلى عمق عظيم لجعلها مستقرة ثابتة ، فى حين أن خرسانة عامة بسمك ثلاثة أمتار ترسو على قاع من الطين تحمل أثقل

المبانى وأعظمها حجما

٢١ — قناطر النيل فى الوجه القبلى

إن إقامة القناطر على النيل فى الوجه القبلى أيسر عملا منها على فرعيه فى الوجه البحرى . وإذ كانت مواد البناء من أجود الأنواع متوافرة حيث يراد انشاؤها ، فبناؤها على النسق المومأ اليه تؤدى الى مضاعفة مسطح الأراضى القابلة للزراعة ببث الخصوبة فى رمال الصحراء

وأنسب المواقع وأوفقها لأنشائها ماكان مجرى النيل فيه ضيقاً شديد التعرج والالتواء. ولكن الخرائط والرسوم التفصيلية لاتكفل صواب اختيار المواقع الأكثر موافقة من من تلك للعمل. فلا بد إذاً من فحصها مع مايحيط بها من الظروف فحصاً دقيقاً لتوكيد نجاحها بأقل مايستطاع من النفقات .

٣

برزخ السويس

مشروع ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط — السكة الحديد من القاهرة الى السويس — نتائج اتصال البحرين — الترع التى شرع بانشائها قديماً لايصال النيل بالبحر الاحمر — ترعة العرب — اهمية وامكان انشاء ترعة تصل البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط — السكة الحديد

٢٢ — معلوم أن البحر الأحمر لا يفصله عن البحر الابيض المتوسط سوى برزخ رملي لا يزيد عرضه على عشرين فرسخاً

ومن المؤكد أنه لما كان البحر الأبيض المتوسط، في الأزمان السابقة على التاريخ، متغلغلا فى أراضى القطر المصرى ومنبثاً في أرجائها المختلفة ومكوناً بهذا الأيغال خليجاً موازياً للبحر الأحمر، كان هذان البحران متصلين ببعضهما

يؤيد هذا الرأى منظر المكان (البرزخ) وهيئة انخفاضه واحتواؤه بحيرات مالحة الماء متكونة من الرواسب البحرية، وهو رأى وافق عليه الكثيرون من أساطين العلم

وبرزخ السويس عقبة تحول دون الاتصال مباشرة بالسفن، بين الشعوب التجارية فى أوربا والأملاك الفسيحة الحافة

بالأقيانوس الهندى إذ تضطر تلك السفن ، فى الوصول إلى هذه الأرجاء ؛ إلى التماس طريق طويل جداً هو طريق رأس الرجاء الصالح

فالاتصال بين البحرين يقصر الشقة على السفن التى تغادر (مرسيليا) و (جنوة) و (تريستة) و (ليفورنة) وغيرهما والأقطار الهندية بقدر ثلاثة آلاف من الفراسخ ، كما تقصرها بين (لوندره) و(أمستردام) من جهة و (جاوة) و (الصين) من جهة أخري بأكثر من ألفي فرسخ ، وبين (نيويورك) وهذه البلاد ذاتها بألف فرسخ . وبزوال تلك العقبة يجتنب المرور مرتين تحت خط الاستواء وتتقي الأمراض والأخطار الخاصة بمنطقته

ومع أن أهمية هذا الاتصال لم تكن فى وقت ما أعظم منها فى وقتنا هذا ، فقد شعر الناس بها في كل زمان . فقد كان (سيزوستريس) العظيم أول من فكر ، على مايظهر ، فى الايصال بين البحرين بترعة تشق بينهما . بل بدأ بتنفيذ هذه الفكرة إذ وصل بين النيل والبحر الأحمر بترعة قال (ديودورس الصقلى) أنها كانت تبتدىء من (منفيس) وتنتهي عند بلدة (قلياس)

أى القلزم . واهتم أحد خلفائه وهو الملك (نخوس) بذلك الاتصال ولكنه لم يتمه

ويؤخذ من أقوال المؤرخ (هيرودتس) أن الأشغال الأولى لحفر القناة ، وهي التى ضاعت فى سبيلها أرواح مائة وعشرين الف عامل وقفت بناء على إجابة الهاتف الذى استشاره فيها الملك (نخوس) ، فأجابه بما معناه : « **ان انشاء القناة يفتح للاجانب باب الاغارة على مصر** »

واستأنف (داريوس) بن (هستاسب) ملك الفرس فى عهد استيلائهم على مصر العمل الذى بدأ (نخوس) به فلم يتمه وإنما أتمه الملك (بطليموس فيلادلف) وأطلق اسمه عليه . وذكر (استرابون) أن هذا الملك جهز القناة بحواجز كانت الغاية فى التدبير الهندسى ، إذ كانت تفتح لمرور السفن ثم تغلق سريعاً بعد مرورها منها . ويؤخذ من أقوال (بليناس) و (استرابون) أن هذه القناة التي بلغ عرضها مائة ذراع كان عمقها ثلاثين قدماً وطولها خمسين فرسخاً ، وكانت تمهد للسفن الشراعية حرية الملاحة فيها والتقابل فى طريقها بعضها ببعض غدواً ورواحاً ، من غير أن يقع لها حادث مكدر . وكانت تقطع تلك المسافة فى يومين أو

ثلاثة أيام . وكانت هذه الترعة التي سميت بقناة بطليموس (كاناليس بتولوميوس) تبتدىء من الفرع البيلوزى للنيل . دون (بوباست) أى تل بسطة القريبة من الدلتا ثم تمتد ذاهبة الى مدينة (آسيينا) المشيدة على الطرف الأكثر امتداداً الى الشمال من الخليج العربى . فمما تقدم يؤخذ أن تلك القناة كانت تخترق فى منتصف طريقها بحيرة (عامر) ، كما يخترق نهر (الرون) فى أوروبا بحيرة (جنيفة) . وكان فى مستطاع سفن البحر الأحمر التى تصل إلى الفرع البيلوزى من النيل أن تواصل سيرها حتى تبلغ الى جميع المرافىء المصرية على البحر الأبيض المتوسط أو الصعود فى النهر إلى مدينة (منفيس) ثم منها إلى مدينة طيبة

وكانت قناة بطليموس تمد أراضى برزخ السويس بالمياه الغزيرة للرى . فجادت تربة هذه الأراضى وبدلت من محلها بخصوبة ، ولم تلبث أن امتلات بالمدن العامرة والمراكز الآهلة الزاهرة

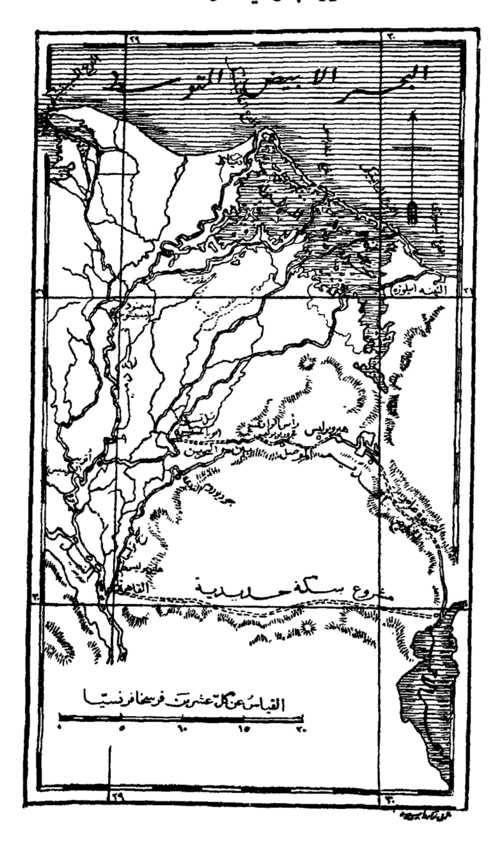
وكان المسافر في الفرع البيلوزى للنيل يجد إلى شماله مدينة (هيروبوليس) ثم من بعدها مدينتى (بو باستيس) أى تل بسطه و (فاجريوپوليس) وكذا مدينة (سراييوم) القريبة من مدينة

(أرسينوة)

وفي عهد الدولة الرومانيــة جدد الامبراطور تراجان تلك القناة وأضاف اليها فرعاً ينتهي الى مدينة (منفيس) على بعد بضع استادات منها. وكان هذا الامتداد معروفاً بأسم ترعة (تراجان) أو (تراجانوس) وهو الذى أشار اليه بطليوس الفالوذى بالنص فيما يأتى من كتابه (تخطيط البلدان) قال : «فيما بين (هيليوبوليس) و (بابيلون) يجرى نهر تراجان (أمنيس تراجانوس) ». وقدأسماه (كنت كورس) بنهر (أوكسيوس) وسماه العرب (المراحمى) . ونسب المقريزى فى خططه إنشـاء تلك القنـاة الى الامبراطور (أدريانوس قيصر) . وصفوة القول فى الموضوع أن حفر القنـاة للأيصال بين البحرين لم يقف عند حد أولئك الملوك بل عداهم الى العرب الذين اقتدوا بهم فيه

ونقل (ابن العميد) النصرانى المؤرخ أن الحرمين الشريفين مكة والمدينة أصابهما قحط فى خلافة عمر بن الخطاب فأمر عمرو ابن العاص واليه بأنشاء قناة بين النيل والقلزم (كليسما القديمة) لنقل القمح والشعير الى بلاد العرب . فصدع عمرو بن العـاص بالأمر وأنشأ القناة وأسماها (خليج أمير المؤمنين) . ونقـل

المصور الجغرافي لشرق الدلتا



(فولنى) أن الخليفة أبا جعفر المنصور العباسى الذى ولى الخلافة بعد ذلك بمائة وأربع وثلاثين سنة أمر بسد هذا الخليج وطمس معالمه ، ليقطع الذخائر والأقوات عن المعتصمين بالمدينة من الثائرين العلويين . ومنذ هذا العهد لم يفتح الخليج ولم يعد سيرته الأولى ، غير أن هذه القناة لا يزال شطر منها موجودا وهو معروف بين الناس باسم « الخليج » ويشتق من النيل عند مصر القديمة على مقربة من القصر المعروف بقصر الماء فيخترق القاهرة ثم يلتقى ، على مسافة أربعة فراسخ منها شمالا بشرق ، بالبركة المعروفة ببركة الحج

وهذا الخليج يقطع كل سنة باحتفال باهر ، عند وفاء النيل . وزعم (سافارى) بما ألفه من المبالغة أن هذا الخليج نحت فى الصخر على امتداد أربعة وعشرين فرسخاً ، وأن من الميسور لهذا السبب تطهيره من الطمي والرمل ، إذا انصرفت النية إلى الاتصال بين النيل والبحر الأحمر

ولاحظ المهندسون الفرنسيون أيام الحملة اتجاه القناة القديمة ومساحاتها والتسوية الترابية بين السويس والقاهرة وبيلوزه . وقدموا قواعد مشروع القناة من السويس الى القاهرة على أن

تمد بمياه النيل أثناء الفيضان

غير أن النيل لم يكن ، فيما بين القاهرة والأسكندرية ودمياط ورشيد صالحاً لسير السفن الكبيرة فيه ، إلا فى ستة أشهر من السنة ، كما أن الخليج الكبير نفسه كان لا يصلح لرسو المراكب فيه هذه المدة نفسها . فقناة الاتصال بين البحرين والنيل لا تكون والحالة هذه إلا قناة مصرية بحتة لا تستطيع السفن التجارية الأجنبية أن تمخر فيها . نعم لا ريب في أنه ، إذا نفذ ، يعود بالفوائد الجليلة والمنافع الجزيلة ، ولكنه لن يأتى بما ينتظره العالم أجمع من مزايا الاتصال بين البحرين

ونحن ، فى هذا المقام ، ننظر إلى المشروع من وجهته العامة لا الخاصة .فالواجب ، فيما نراه ،أن يكون موفياًبشرط أساسى ألا وهو صلاحيته لسير السفن الكبيرة الذاهبة إلى الهند بل أيضاً سفن القتال التي من الطراز الأول والسفن البخارية الكبيرة الحجم . وللوصول إلي هذه الغاية المبتغاة ، ينبغى أن لا يقل عرض سطح القناة عن عشرين متراً وعمقها الكلى عن عشرة أمتار وعرض سطحها فى أماكن المرور من الأهوسة عن ستة عشر متراً

وهذه البيانات الأولية لحل المسئلة تستلزم أن تكون قناة

الاتصال بين البحرين الأحمر والابيض متجهة من السويس إلى بيلوزة وداعية إلى اتخاذ الوسائل للتغلب على العقبات التى حملت البعض على الاعتقاد بعدم قابلية المشروع للتنفيذ نظراً إلى سعة المستنقعات وتحرك الرمال وقلة عمق البحر المتوسط عند بيلوزة. أما نحن فنعتبر تذليل هذه العقبات من الأمور المحقق إمكانها اعتماداً على خبرة المسيو (كورديه) وصدق نظره، لأنه عنى بالمسئلة وأخذ بأطرافها وقتلها بحثا وفحصاً

وإذا نجح هذا المشروع بعد العمل خمس سنوات وصالا على إنجازه، وسارت السفن الكبيرة فى القناة على مسافة خمسة وثلاثين فرسخاً، فالمؤكد أن ينجم عن ذلك انقلاب كبير فى العلاقات التجارية بين أوربا والبلاد الهندية. ولهذا يكون سمو الوالى، إذا أبرز هذا المشروع الى حيز الوجود، جديراً بشكر الشعوب طراً وتخليد ذكراه وتمجيد سيرته

٢٣ — السكة الحديد من السويس الى القاهرة

شرح المارشال الدوق (دى راجوز) فى كتاب رحلته بما هو مأثور عنه من الفكر الثاقب والرأى الصائب، العقبات التى

تمترض إنشاء السكة الحديد بين السويس والقاهرة وتسبب حتما فشل هذا المشروع . فأشار الى دوام تحرك الرمال وقلة المسافرين وتعذر وجود المهندسين الميكانيكيين الماهرين . ولقد جاءت هذه الأسباب مؤيدة لظنه ومعززة لرأيه

فأن المسافر المقبل من الهند ، إذا وصل إلى القاهرة بواسطة تلك السكة يبقى عليه أن يخترق من أراضى القطر المصرى خمسة وستين فرسخاً بين القاهرة والأسكندرية فى سفن تسير بالشراع أو تسحب باللبان وأثبت المارشال ماهنالك من مزية إنشاء قناة تصل بين السويس والقاهرة على إنشاء سكة حديدية لن يكون من حظها إلا ماسبقت الاشارة إليه فيما تقدم من القول

غير أن ملاحظات المارشال تقتضى فتح القناة القديمة بين السويس والقاهرة مع العلم بأنه يذهب إلى الحكم مع غيره من المؤلفين الذين كتبوا فى هذا الموضوع باستحالة إنشاء قناة اتصال البحرين بين السويس وبيلوزه . ولكن إذا كان من الثابت كما هو الواقع، أن الاتصال المقصود به سير السفن بين البحرين الأحمر والأبيض ينبغى أن يكون امتداده من السويس الى

بيلوزه ، وأن تسلكه جميع السفن التى تبرح أوروبا قاصدة الى الهند ، فمن البدهى اذاً أن تصير مدينتا السويس وبيلوزة فى سنوات قليلة ، وقد وصلت اليهما المياه العذبة ، مركزين خطيرين للتجارة ومدينتين آهلتين بالسكان ، وأن لا ينقضى زمن يسير حتى تعود المدائن القديمة التى اندرست معالمها فى تلك الجهة الى ما كانت عليه من العظمة والمجد . وفى هذه الحالة تصير السكة الحديدية بين البحرين الأحمر والأبيض ، وهي المسافة التى يقطعها المسافرون فى خمس ساعات ، من أكثر سكك حديد العالم رواجاً وأوفرها ثمرة وربحاً

وسكة حديدية كهذه ، إذا أنشئت ، تنشأ على أحد جسرى القناة ولا تكلف من النفقات غير وضع القضبان ، لأن الجسر المذكور يكاد يكون مستقيما وأفقياً تماماً

والفروض التى فرضناها فى موضوع إنشاء قناة باعتبار أنها ستفتح لجميع السفن ويتردد عليها المارة وتقام بطرفيها وعلى ضفتيها من نقطة اشتقاقها المدن الآهلة بالسكان وتروى بمياهها رمال الصحراء على امتداد ألف فرسخ ، يؤخذ منها إمكان تذليل العقبات الحقيقية التي تعترض نجاح إنشاء سكة حديدية في

أصقاع ما برحت حتى الآن صحارى قاحلة وأرضاً جرداء

إن مصر التي بعثها سمو الوالي من قبرها وبث فيها حياة جديدة يظهر أن من المقدر لها الوصول إلى أبعد غايات المجد والعظمة . فأنها لن يمضي عليها ردح من الزمن حتى تخترقها خطوط سكك حديدية عديدة :

الأول من السويس إلى القاهرة وبيلوزة على جسور القناة الكبرى ، والثاني من القاهرة إلى الأسكندرية على ضفاف النيل ، والثالث من الاسكندرية إلى رشيد و دمياط وبيلوزة على سواحل البحر . ومتى تم تجفيف البحيرات وتحولت أرضها إلى مزارع ناضرة، فستصير هذه الأصقاع التي لابد أن يصبح مناخها أجود مناخ للصحة من أكثر بلاد العالم خصباً وعمراناً وتشبه عندئذ سهول (هولندا) و (وفلاندر) التي كانت بحراً فتغلبت عليها الأرض وأخذت تخترقها في كل ناحية منها القنوات والسكك الحديدية

٢٤ — نتيجة ما تقدم

مصر من أزهر بلاد الأرض مستقبلا وأوثقها ركناً

وأشـدها تأثيراً في تجارة أمم أوربا والهنـد التي تربطها بعضـها ببعض روابط المبادلة التجارية

ولا شك فى أن قناة كبيرة القطاعات تمتد من البحر الأحمر إلى البحر الأبيض المتوسط ، بين السويس وبيـلوزة ، تقرب الشقة بين الهند وأوربا ببضعة آلاف من الفراسخ . ثم ثم إن تسـيير السفن البخارية بالبحر الأحمر يقى المسـافرين والبضائع أخطار الملاحة فى هذا البحر ويذلل صـعابها التى بالغ الرواة كثيراً فيها

أما الاختـلاف بين منسوبى البحرين ففيـه فائدة جليلة تكفل النجاح التام للقناة بالحصول على مرسى عميق للسـفن فى مرفأ بيلوزة

وإذا حفرت القناة فلا تنقضي سـنوات قلائل حتى تبـلغ حاصلات مصر ثلاثة أضعافها ويزداد عدد سكانها ويرتفع شأنهـا وتنمو ثروتها بنسبة ازدياد قوتها . ولا يسع أوربا آنئذ إلا أن تصفق للوالى استحسـاناً وتشجيعا وتترنم بحمده وذكره لما يكون قد أحرزه من النجاح وظفر به من الأمانى . كما لا يسع فرنسا بوجه خاص ، وهي أول من يدعي إلى استيفاء حصتها من مزايا

الاتصال بين البحرين ، إلا أن تنظر بعين الرضى لتنفيذ هـذا المشروع الذى كان من جلائل الأعمال التى طالما فكرت الحملة الفرنسية فيها ، وان لم توفق لجنى ثمارها بيدها

٤

الاشغال المختلفة

منارة جديدة للاسكندرية — رصيف الشحن وخط سكة حديد المحمودية — سكة حديد الدلتا

٢٥ — المنارة الجديدة (الفنار)

كل يعلم أن سواحل الاسكندرية واطئة جداً لايدركها نظر الناظر من البحر فى النهار حتى على بعد ثلاثة فراسخ منها وهذا هو السر فى أن السفن كثيراً ما تتعرض لأخطار الغرق إذا حاولت الابتعاد عن السواحل فى الوقت المناسب فتعذر عليها هذا الاستدراك . ومن ثم كان إنشاء منارة من الطراز الأول أمرا تستدعيه المصلحة التجارية كما تقتضيه وقاية الأنسان من الاخطار . ولقد أدرك سمو الوالى هـذه الضرورة فسارع الى الامر بانشاء منارة كبرى بطرف رأس التين

وسيكون ارتفاع هذا البناء عند تمامه خمسة وستين متراً فوق مستوى سطح البحر الملح . وينبعث ضوءه فى البحر إلى مسافة ثمانية فراسخ . أما بنايته كلهـا فمن الحجر النحت الذى دبر نحته بحيث يتألف منه شكل اسطوانة قطرها الخارجى تسعة أمتار و٧٥ سنتياً عند القاعدة وقطرها الداخلى خمسة أمتار و٧٥ سنتياً . وقد ثبتت فى جدرانها درجات السلم المؤدية الى غرفة المصباح بأعلى المنارة . وعند قاعدته سياج مستدير من المبانى خصص بعضه لا يواء الحراس والملاحظين والبعض الآخر لخزن الزيوت . وقد بلغت البناية من الارتفاع حتى الآن ٤٨ متراً من ستين متراً ، والمرجو ان تضاء في الشتاء المقبل

وقد أحرزت هذه البناية الجليلة فى كلياتهـا وجزئياتهـا إعجاب من شهدوها من السياح . وهو ماينطق بفضل المهندس مظهر افندى أحد الطلبة المصريين الذين تلقوا العلم فى فرنسا ويوجب مدحه والثناء عليه . وسينهض عمله هذا دليلا على ما يبذله سمو الوالى من الجهود لاعادة مصر الى مجدهـا القـديم وفخارها المضيع . وغاية ما يستدعي الأسف فى أمر هذه المنارة، ماقررته الحكومة من اتباع الطريقة الانكليزية لانارتها مع ماهو واضح

وضوح الشمس فى رائعة النهار من فساد هذه الطريقة ونقضها ، حتى أن الانكليز أنفسهم أخذوا يفكرون فى اطراحها جانباً للاستبدال منها بالطريقة الفرنسية الجمة المزايا من كل وجه .

وإنى لأرجو ، في هذا الصدد ، ان يستنير سمو الوالى بآراء الخبيرين فى الموضوع ويأمر بالعدول عن تلك النية ويتوج عمله فى ذلك الأثر الصالح بالأنارة على الطريقة الفرنسية التى ابتكرها البارع (فرسنل)

٢٦ — رصيف الشحن وسكة حديد المحمودية

العادة أن تصل بطريق الماء فى الاسكندرية حاصلات زراعة الوجهين البحرى والقبلى المخصصة للتصدير الى البلاد الأجنبية ، وأن تودع المخازن الى أن تسنح الفرصة لتصديرها .

ولما كان نقل الحبوب بحراً لا يتم دون أن يلحقها الضرر الذى ينجم عن تخمرها بتأثير الحرارة الرطبة ، فكثيراً ما لا يشرع في الشحن كله إلا خلال الشتاء حيث تتهافت السفن على شحنه وتدعو الحاجة عندئذ الى استخدام عدد بالغ من الحمالين كثيراً مايتراوح في اليوم بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ، فيحملون الحبوب فى السلال من

المستودعات إلى القوارب والمواعين وهذه تنقلها إلى السفن الراسية بعيداً عن الشاطئ فتشحن بها

وقد اتضح أن استخدام عمال بهذا العدد البالغ فى دائرة ضيقة كثيراً مايفضى إلى الاختلاط والالتباك في العمل ، دع خسارة بعض الحاصلات المنقولة وبطء الشحن ووقوع الشحناء بين العمال . فدفعاً لهذه الصعوبات توجهت الأرادة المحمدية العلوية الى الاستفادة بنشاط المسيو (مونجل) والاعتماد عليه فى كل مايفيد المصالح العامة . فناط به إنشاء سكة حديدية تبتدىء من وسط المستودعات وتنتهي عند طرف رصيف الشحن الموغل فى البحر إيغالا يؤذن للسفن بالوقوف الى جانبه

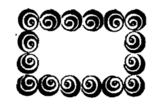
وتلك السكة ذات قضيبين وطولها ٣٠٠ متر . وقد ركبت عليها ثلاثون مركبة بضاعة تسع كل منها ٣٠ هكتولترا من الحبوب . إذا أطلقت على السكة سارت بدافع من نفسها حتى تبلغ الى نهاية الرصيف ، حيث يلقى مشحونها من الحبوب في المجارى الخاصة بالسفن فيهبط عنابرها . ويكفي للقيام بعملية الشحن على هذا المثال رجلان فقط بدلا من ذلك الجم الغفير . ذاك ماهو مقرر لتلك السكة أن تؤديه من جزيل المنافع بحسب

المشروع الذى وضع لها

والمفهوم أن إنشاءها قدتم منذ زمن وأن مركبات شحن الحبوب أخذت تسير عليها . فلا عجب إذا تلقت التجارة هـذا التسهيل الجديد بتصفيق الاستحسان وعبارات الشكر والامتنان لما سيعقبها من تسهيل حركة الميناء وإفساح المجال ليشتغل أولئك العمال فى غير ذلك العمل من الأعمال

ويفكر سمو الوالى فى قطع الدلتا من غربها إلى شرقها حتى المنصورة بسكة حديدية وضع تصميمها ورسمت خطوطها على الأرض . وقد وصل شطر كبير من القضبان ، غير أننى بالرغم من هذه المعدات ، أود أن يهمل هـذا المشروع ويبنى ليعوض منه بأنشاء ترعة كبيرة نعتقد أن حفرها وتمهدها يكلفان أقل مما تكلفه السكة الحديدية ، فضلا عن سهولتهما . أما وجه هذا التفضيل فهو أن الترعة مع صلوحها لأن تكون من طرق المواصلات تفيد الأراضى المجاورة لها بحمل مياه الرى اليها . ولست ألجّ فيما امتازت به مصر من القابلية العظمى لشق أرضها بالترع وجر المياه اليها أكثر من قابليتها لمد السكك الحديدية ، خصوصاً اذا اعتبرنا أن أراضيها تعلوها مياه

الفيضان وأن المواد الاولية والعوامل المحركة للآلات تنقصها نقصاً يجعلها أصلح لحفر الترع منها لمد الخطوط الحديدية . وإنما تفضيل الخطوط الحديدية على الترع نبذ للوسائل الطبيعية المتوافرة بين أيدينا وتعويل على غيرها من وسائل أشد صعوبة وأقل ثقة وأمناً مع فداحة كلفها





الباب الرابع عشر

مركز مصر حيال اوربا

الآن وقد مررنا بأحوال مصر مراً سريعاً وأبنا ما كانت عليه وشرحنا ما صارت اليه فى عهد محمد على، وما يرجى أن تكون فى مستقبل الزمان، فقد حق علينا أن نمعن النظر فى ماهية مركزها الجديد حيال العالم الأوربى

والبحث فى هذه المسألة من الأبحاث الدقيقة لارتباطه بمختلف المصالح السياسية . فاذا انبريت للبحث فيها فلن يكون ذلك من الوجهة الوقتية التى تواجه بها تلك المصالح . كلا بل أننى

أريد النظر الى حقيقتها المجردة جاعلا رائدى المصلحة العامة للنوع البشرى دون سواها . ووجهة النظر هذه هى التى سيعتمد عليها الخلف النزيه للحكم على حوادث التاريخ . بل هى التى ستجعل هذا الخلف يحوط الحوادث والثورات بسياج من قراره الذى لا استئناف له

إن مصر وسوريا وبلاد العرب وسنار منفصلة بمقتضى مواقعها انفصالا تاماً عن مجموعة الولايات الأسيوية والأوربية التى تتألف منها الدولة العثمانيـة ، والتى مركزها الطبيعي هو الاستانة . وفى الشمال من جبال (طوروس) يقيم الاتراك وفى الجنوب يوجد العرب ، فالاختلاف بين الفريقين عظيم وهو أعظم أيضاً من جهة أجناس الأمم القاطنة بتلك الأقطار وأخلاقها ولغاتها . والمفهوم أن العرب قد امتلأت صدورهم بالحقد على العثمانيين والنفور من سيادة الدولة العثمانية عليهم

ولنظرة واحدة يمر بها الباحث فى التاريخ مراً سريعاً تكفي لاثبات أنه ماتوافرت القوة مرة لتلك الأقطار حتى تألفت منها بانضمامها بعضها الى بعض مملكة مستقلة . وكان شأنها هذا لآخر مرة في عهد الخلفاء

والواقع أن الدولة العثمانية لم تمتلك بلاد مصر والشام بالمعنى المقصود من لفظ المملكة . فأن السلطان سليما الأول هو الذى أخضع هذه البلاد فى أوائل القرن السادس عشر وتغلب على أهليها ،وهو أمر لا ريبة فيه وحقيقة لا سبيل إلى طمسها .ولكنه ما كاد ينصرف عنهما حتى أصبحت سيادة الباب العالى عليهما أثراً لاعيناً وقولا لافعلا . والدليل على ذلك ، فيما يتعلق بمصر ، قد تجلى للقارىء فى غضون الكلام على الدستور أو مايشبه الدستور الذى خولها إياه السلطان سليم ، ولم يعقب تطبيقه إلا جعل سلطة الباب العالى على مصر أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة . فأن سلطة السلطان فى القطر المصرى لم تكن فى الحقيقة أوطد منها فى إيالات البربر (المغرب) . أما الشام فكانت بالبلد المستقل أشبه منها بالخاضع التابع لغيره .ذلك لأن نفوذ السلطان فيها تحطم فى اصطدامه المتعاقب بشوكة الباشوات من ولاتها كالجزار وعبد الله

وكانت بلاد العرب فى قبضة الائمة وشريف مكة ، وكانت قبائلها فى حروب مستمرة وخصومات لاتسكن لهاثائرة ، وكان من المتعذر القيام بشعائر الحج مالم يدفع الحجاج المبالغ الباهظة

والأتاوات الفادحة ، بالرغم من احتياط الحكومة العثمانية لدفع هذا الخطر بتخصيصها الفصائل الكثيفة من الجند للمحافظة على القوافل . أما بلاد سنار فلم تكن قبل محمد على ملكا لدولة ما من دول الأسلام

كانت تلك البلاد كلها واقعة في مخالب الفوضى. وكان ولاتها يعزلون فى كل عام ويطردون أو يذبحون ، فلم يسطع فيها قط شعاع لضوء العلوم والفنون ، وكانت الزراعة مهملة والتجارة لاتقوم لها قائمة إلا بالنظام وحسن التدبير ،كالمريض الذى يضنيه المرض ويورده موارد الفناء . وكان المسيحيون فى تلك الممالك قد سقطوا فى الدرك الأسفل من حضيض المهانة والمقت، لاتمر بهم ساعة إلا ويكابدون فيها من صنوف الاحتقار والتنقيص ما يروق لظالميهم المتعصبين أن يلحقوه بهم منها . وكانت صفة القناصل الأوربيين موضوعاً للتحقير والسخرية ، بل كانت حياتهم معرضة للأخطار فكانوا أشبه شيء بوكلاء متنكرين لحكوماتهم، لايسمح لهم فى الغالب بوضع شاراتهم ولا بالارتداء بثيابهم الوطنية . وقبل أن يستولى سمو الوالى على دمشق كانت انجلترا القوية المنيعة الجانب تحاول تعيين قنصل لها فيها ، فلم تدرك

هذه البغية . وكانت مناسر اللصوص من العربان فى مصر تعيث كما قلنا فساداً في الصحراء الواقعة بين البحر الأحمر والنيل . وكان لايجرأ أحد أن يوغل بقصد الوصول إلى الواحات أو يحاول الذهاب إلى الشلال الأول ، بل ولا إلى الأهرام لزيارتها ، بدون أن يكتنفه الحرس من كل جانب

وحسبك أن تقرأ كتاب رحلة الكاتب (شاتوبريان) أو ما دوّنه بعض الرحالة لترى مقدار ما كان سائداً من الخلل والفساد فى بلاد الشام . فلقد كان محظوراً على الناس أن يزوروا الأماكن المقدسة قبل أن يؤدوا إلى أبى غوش الشهير الأتاوة المخزية المزرية من المال ، كما لم يكن مسموحاً لأحد أن يخترق الشوارع ممتطياً جواده . ولم تكن للفرمانات التى يصدرها الباب العالى قيمة ما فى أعين الناس . فكم من مسافرين هلكوا بسبب هذا التحكم الجائر والقهر المجحف والانتقاص الذى لامبرر له ولم يكن الأهالى الوطنيون ، تجاه هذا الاختلال ، أسعد حالا من الأجانب . فأن عربان عنيزة والأكراد كانوا يسلبون الفلاحين حاصلاتهم والرعاة مواشيهم ، فكان هذا من أقوى البواعث على امتناع الناس عن الحرث والزرع حتي أصبح الشطر

الأكبر من الأراضي خراباً يباباً

وكانت المنازعات الأهلية والانشقاقات الداخلية لاينقطع لها حبل ولا تنفصم لها عروة ، إذ كان الأمراء وهم أشبه شيء بأولئك الظلمة أصحاب الالتزام ، في تقاتل مستمر أو ثورة على الولاة العاجزين عن مكافحتهم

وسيوقن الذين يتذكرون ماوصف به الكاتب الرحالة (فولنى) سوء حالة مصر والشام أن ما أوردناه الآن فى هذا الموضوع ليس فيه أقل أثر المبالغة . وفى استطاعتى أن أورد هنا الكثير من أقوال الكتاب الذين أفاضوا فى وصف تأثير الادارة على عهد الولاة السابقين على الوالى ، وصفاً يتبين منه بأجلى وضوح مقدار ما أغدقه من النعم على البلاد المصرية . غير أننى اجتزىء عن كل ذلك بالأسطر التالية من رحلة (فولنى) بياناً لما كانت البلاد عليه من الاختلال والفساد . قال :

« كل مايقع فى مصر تحت البصر أو السمع يدل على أن هذا البلد بلد الاستعباد والاستبداد . فأنك لاتسمع حديثاً إلا وله صلة بفتنة أهلية أو فاقة عامة أو ابتزاز مال أو اغتصاب حق أو تعذيب بالضرب أو إفاضة لروح . فالأمن فيها على الأرواح

والأموال مفقود ودم الأنسان يهدر بها كما يهدر دم الحيوان .
والقضاء نفسه يسفك الدم من غير صوره قضائية ، وعسس الليل
والشرطة يتولون ، فى جولاتهم الليلية والنهارية للمحافظة على
الأمن والنظام ، الفصل فى الخصومات بين الناس وينطقون
بالأحكام على الفور وينفذونها فى أقل من لمح البصر ، بدون أن
يكون للمحكوم عليه حق الاستئناف . وترى الجلادين لهذا
السبب يطأون مواقع أقدام الجنود ويرافقونهم أيان يذهبون
ويلازمونهم حيث يحلون . فما إلا هى إشارة من أحدهم حتى ترى
رأس مظلوم وقد هوت إلى قاع كيس الجلد

« وياليت خطورة الذنب نفسه تسوغ تعريض المذنب
لمثل تلك العقوبة ، فأنك كثيراً ماتجد أن الباعث على السير بين
الناس بمثل هذا العسف شره دب فى نفس عظيم من أرباب
الشوكة والجاه أو وشاية من عدو بغيض . وهو ماينجم عنه أن
يدعي الرجل المشتبه فيه بأن عنده مالاً إلى المثول بين يدى البيك
فيطالبه هذا بمبلغ معين . فأذا أنكر أن عنده مالا يفى بالمطلوب
طرح أرضاً وجلد على قدميه مائتى جلدة أو ثلاثمائة ، وكثيراً ما
يفضى هذا الضرب إلى موته . فتعساً تعساً لمن يشتبه فيه أنه على

شيء من اليسر والرخاء إذ ما من أحد تتجه إليه هذه الشبهة إلا وقد كانت العيون مبثوثة حوله للتجسس عليه، فلا يلبث أن يبلغ أمره إلى ذوى الشأن

« وليس بميسور لأحد أن ينقذ نفسه من شر اعتداء الأقوياء على ماله إلا إذا تظاهر بالفقر المدقع ولبس للمسكنة والزراية لبوسها »

تلك كانت حالة مصر على عهد المماليك . ولم تكن الشام بأقل تعاسة منها تحت حكم الولاة الباشوات . وهو ما سوف تقف عليه من الأسطر التالية التى أنقلها عن الكاتب البليغ (دوشاتوبريان) قال :

« إن بيت المقدس إذاً فى قبضة حاكم يكاد يكون مستقلا له أن يعمل ، بلا رقيب ولا حسيب ، كل مايشاء من الأذى ، وليس لأحد أن يحاسبه على أعماله إلا الوالى وحده . ومعلوم أن لكل رئيس فى بلاد الدولة العثمانية الحق فى أن يخول مرؤوسه كل ماله من السلطة نادباً إياه للقيام بها . وهذه السلطة تتحكم عادة في الأموال والأرواح . ففى وسع الانكشارى البسيط أن يصبح ، فى مقابل دفع بضعة أكياس من المال ،

أغا صغيراً . ومتى حصل على هذا المنصب أصبح من حقوقه التى لا ينازعه عليها منازع أن يقتلك إذا أراد أو يأذن لك بافتداء نفسك بفدية من المال تؤديها صاغراً اليه . وهذا هو السبب فى وفرة عدد الجلادين بجميع قرى بلاد يهودا والأمر الوحيد الذى يسمع فى هذا البلد، بل القانون الفريد الذى لا يدور الكلام إلا على محوره هو قولهم : سيدفع فلان عشرة أكياس أو عشرين كيساً أو ثلاثين . . . . سيجلد فلان خمسين جلدة . . . سيرمى عنق فلان . . . . الخ

« ولما كان ارتكاب الجور يفضى إلى ارتكاب جور أفحش منه ، فأذا جرد أحد الفلاحين من ماله فأن الحاجة إلى تجريد جاره لا يلبث أن يشتد الشعور بها ، إذ لابد للخلاص من نزاهة الباشا المبنية على الرياء والختل ، من ارتكاب جرم ثان للتمكن بواسطة ثمنه من دفع ثمن التجاوز عن العقوبة التى يوجبها ارتكاب الجرم الأول

« ولنتخيل أن الباشا ، بجوسه خلال ولايته ، يقصد وضع حد لهذه المصائب أو ينتقم لشعبه المظلوم . ولكن الباشا هو فى ذاته أجل ما ينزل بسكان مدينة أورشليم من

الكوارث والمحن . وهؤلاء السكان يدركون هذه الحقيقة ، ولذا تراهم ، إذا وصل الى مدينتهم ، يخشون بأسه ويرتاعون منه كما لو كان قائد جيش أو فاتحاً لاهمّ له إلا الفتك بالمغلوبين ، فسرعان مايغلقون أبواب حوانيتهم ويتوارون فى السراديب والأنفاق والمغاور أو يتظاهرون،وقد طرحوا بأنفسهم على الحصير البالى ، بأنهم يعالجون سكرات الموت أو يفرون الى الجبال للاعتصام بها

« وفي قدرتى إقامة الدليل على هذه الحوادث ، لأننى كنت بأورشليم وقتما وصل الباشا عبد الله اليها . وهذا الوالى مفطور على الشح والتقتير معروف بهما كما فطر عليهما وعرف بهما المسلمون كافة . فأنه بصفته رئيس المحمل الذاهب إلى مكة ، وبحجة الحاجة إلى تحصيل النقود لحماية الحجاج أباح لنفسه مضاعفة الضغط على الناس لابتزاز أموالهم . فما من وسيلة توصله الى هذا الغرض إلا وابتكرها ،أخص بالذكر منها وسيلة يظهر أنها كانت مألوفة عنده. وهي أنه كان يحدد للحاجيات أسعاراً غاية فى الانخفاض ،على أن تكون الحد الأقصى لها فى الارتفاع ، فيصبح الأهلون هاتفين له بالدعاء ويقولون : ياللمعجزة ! ياللنادرة! ولكن التجار لايلبثون أن يغلقوا حوانيتهم وينقطعوا عن البيع فيحس المستنفدون

بالجوع ويفشو القحط . وفى هذه الأثناء يخابر الباشا أولئك التجار سراً وتنتهى المخابرة بأن يجيز لهم ، فى مقابل مال يوافونه به ، بيع بضائعهم بالأسعار التى تروق لهم فيصرف التجار همتهم عندئذ إلى استرداد المال الذى دفعوه إلى الباشا أضعافاً مضاعفة ، برفعهم الأسعار إلى نهايتها القصوى ، ويضطر الأهلون وقد نالت منهم المسغبة إلى تجريد أنفسهم من ثيابهم ليسدوا بثمنها رمقهم

« ورأيت بنفسي عبد الله باشا يبتز أموال الأهلين ويعاملهم بالحيف والخسف بحيلة أحذق من السابقة . ولقد ذكرت أنه كان قد أرسل فرسانه لنهب العربان المزارعين فى الضفة الأخرى من نهر الأردن . وكان هؤلاء الناس قد دفعوا أموال — الميرى — ولم يخطر قط ببالهم أن هناك مايدعو إلى أن يكونوا فى حرب أو خصومة مع الحكومة . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى دهم الفرسان خيامهم وقطعانهم وسلبوهم ٢٢٠٠ رأس من الغنم والمعز و٩٤ عجلا وألف حمار وست أفراس كريمة . أما الجمال فقد تمكنت من الفرار لأن شيخاً من العربان دعاها من بعيد بنداء خاص فاقتفت أثره ووافت بألبانها وأصوافها أصحابها

الذين اعتصموا بالجبال ، كما لو كانت تعرف أن لا غذاء لهم غير ألبانها

« وليس في مقدور أوربى أن يصدق مافعله الباشا بالماشية التى غنمها من أهلها عدواناً وظلماً . لذا نقول إنه قدر لكل حيوان منها ثمناً يزيد على ثمنها الحقيقي بنحو الضعفين فجعل ثمن الرأس من الماعز أو الضأن عشرين قرشاً والعجل ثمانين ، ثم بعث بها كلها إلى الأهلين ورؤساء القرى المجاورة ليأخذوها بالأثمان المقدرة لها فمن امتنع عن استلامها وأبى أن يدفع ثمنها سيق الى ساحة الأعدام ليهدر دمه . وأضيف إلى هذا القول أني شهدت هذا الظلم بعيني رأسي ، ولولا ذلك لما صدقت به . أما الحمير والأفراس فقد تركت للفرسان عملا باتفاق غريب مبرم بين أولئك اللصوص ، من مقتضاه أن تكون الحيوانات ذات الظلفين من حظ الباشا وما عداها للجنود الغانمين

« وبعد أن استصفي الباشا أموال أورشليم ارتد عنها . ولكنه ليتخلص من دفع مرتبات حراس المدينة ويزيد فى عدد حراس المحمل المسافر الى مكة ، استصحب الجنود وبقي حاكم البلدة وحده ومعه اثني عشر من الشرطة . وهذه القوة لا تكفي

طبعاً لتقرير قواعد الأمن داخل المدينة فضلا عن خارجها . وفى السنة السابقة لرحلتى اضطر إلى الاختفاء فى بيته للتخلص من عصابات اللصوص التى كانت تتسلق أسوار مدينة أورشليم وتتأهب لنهبها

« وما كاد يختفى عبد الله باشا حتى نزلت نازلة أخرى كانت أثراً من آثار ظلمه . ذلك أن سكان القرى التى دمرت ونهبت ثابوا إلى الاضطراب وسادت الفوضى بينهم ، فأخذوا يهجمون بعضهم على بعض ليشفوا مافى قلوبهم من الحزازات ويأخذوا بثاراتهم القديمة ، وانقطعت جميع المواصلات فتقهقرت الزراعة وخرج الفلاحون فى الليل لاتلاف كروم خصومهم وقطع أشجارهم الزيتونية

« وفى السنة التالية عاد الباشا فطالب الأهلين بالضريبة عينها ، ولكنهم كانوا قد نقص عددهم ، فاقتضى منهم أن يدفعوا رغم ذلك من المال مثل ما كانوا يدفعونه على تمام عددهم ، وذلك حتى لايقل المال المطلوب عن النصاب المعتاد . وقد لجأ إلى الشدة بل إلى الفتك بالأرواح لاصابة ذلك الغرض . وما انقضى من الزمن إلا القليل حتى اتسع نطاق الصحراء بما انتشر من الخراب

فى الأراضى الزراعية وكثر من الأطلال والأنقاض واتسع من نطاق المقابر التى مابرحت تزداد على توالىَ الأيام . ومن كانت تمر سنة إلا وقد ذهبت بأطلال أكواخ وآثار أسرات كانت تقطنها . وسارت الأحوال على هذا المنوال حتى حل الخراب والأمحال محل العمران والخصب ولم تبق إلا القبور دليلا ماثلا على أن قرية كانت زاهية زاهرة فى هذ المكان ثم اندثرت ودخلت بالظلم فى خبر كان »

فهل تلك هى الحالة التى يراد أن تجدد فى مصر والشام ؟ وهل كان فى استطاعة الباب العالى أن يتوصل إلى توطيد دعائم النظام فى هذه البلاد ؟ وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لم تستطع القيام بهذا الواجب فى خلال المائتى سنة الماضية ؟ ومن ذا الذى يعتقد أنها جعلت الأمن والنظام فيهما يستقران فى نصابهما مع عجزها الظاهر عن إخماد نار الفتن التى شب ضرامها فى الولايات والاقاليم الخاضعة مباشرة لحكمها كألبانيا مثلا ؟ ولو أن مصر والشام بقيتا في قبضتها لذهبتا فريسة الفوضى ولساءت أحوالهما . فكان لا بد إذاً للقضاء على الفوضى وإحلال النظام والأمن محلها من رجل نشيط رزين يهاب الناس قدرته وتتمثل للأنظار

فى أرجاء البلاد هيبته

ثم ما الذى كانت الحكومة التركيــة تســتفيد به من الشام ومصر ؟ أهو الجزية المضروبة على القطرين تدفع اليهــا بالنظام وعلى التمام ؟ كلا ، فأنها تتقاضى الآن من محمدعلى جزية تعدل ما كان يدفعه أسلافه بنحو عشرين ضـعفاً . وهو يؤديها اليها بنظام مطرد كاملة غير منقوصة

وهل كان للحكومات الأوربية فائدة فى بقاء حالة كانت سيئة فصارت بفضل سمو الوالى من خير مايكون ؟ لقد رأينا فيما تقدم أن هذه الأحوال كانت تعرض للخطر حيــاة رعاياها وأموالهم وعلائقهم التجاريةالسريعة التأثر بالطوارىء والظروف حتى آل الأمر إلى النقصان بلا انقطاع

وهــل لم يكن من المســتطاع أن نقول فى حق الدولة التى أقام الوالى معالمها إنها إذا لم تكن موجودة فقد كان من الواجب إيجادها ؟ بلى ينبغى إيجادها ، ليس فقط لمصلحة الباب العالى بل لمصلحة أوربا أيضاً . ولقد عمل محمد على كثيراً ، والحق يقــال ، لصالح الدولة العليــة . ألم ينظم من المســلمين فى بعض الأقاليم العثمانية قوات عسكرية لولا أنه استجاشها وجعلها في قبضته لما

بقيت هذه الأقاليم فى حوزة السلاطين ؟ فمحمد على كان إذاً مساعداً قوياً للحكومة العثمانية ، لأنه كان بثاقب رأيه قد نظر إلى أحوال الباب العالى فأدرك مايحيط به من الضعف والعجز عن الاحتفاظ وحده بالعناصر الأسلامية التى انفرط سلكها وكاد يذهب بدداً ، فلم يكن منه إلا أن اهتم بعمله وعاهد نفسه على إنجازه وتمكن بأسلوبه الذى ابتكره ، وكان هو خير الأساليب وأفضلها ، من توثيق وحدة الدولة وضبط مجموعها . وإنها لفكرة وطنية جليلة كريمة قد تكشفت لنا آثارها الآن ، أى فى الوقت الذى نراه فيه مكتفياً بالمطالبة بحق الوراثة لسلالته فى الأقطار التى فتحها لا أكثر ولا أقل . نقول « لا أكثر » لأنه لايود تبديد وحدة الدولة ، ونقول « لا أقل » لأنه يروم بالوراثة المذكورة الاحتفاظ بالحكومة التى أسسها والتوفيق بين هذا النقص السياسى العالى والشعور الطبعى الباعث له على حب أسرته والرغبة فى تخليد ذكراه بواسطتها

وستكون مصر على الدوام خير حليف للدولة العثمانية ، وأنفعه لها لأن مصالح الاثنتين متشابهة وعقيدتهما الدينية واحدة . ومما لامراء فيه أن مصر تفضل أن تكون الآستانة

صاحبة السيادة عليها دون أية دولة أخرى لا يبعد أن ترهقها بأعباء سيطرتها ونفوذها . وبدهى أن قوات مصر الحربية من بحرية وبرية ستكون عند الحاجة قيد إرادة السلطان وطوع إشارته بدلا من أن تكون كذلك لصالح إحدى الدول المسيحية

وإنى فى هذا المقام أسائل أرباب النهى ماذا في استطاعة الحكومات الأوربية أن تشتهيه لمصالحها الخاصة أكثر من ذلك ؟ إن غاية ما تصبو اليه إنما هو صون كيان الدولة العثمانية ووقاية شوكتها من الاضمحلال والتلاشى . فمحمد على بقوته وهمته كفيل بصون ذلك الكيان وتعزيزه

تريد تلك الحكومات إقامة التوازن فى الشرق على الآساس الوطيدة . وها نحن أولاء تقول إن فى مصر سياجاً قام من نفسه ليحول دون الأهواء والأطماع الأجنبية

وغير خاف أن الدول تقتطف الآن ثمار المزايا التى أثمرتها فعال والى مصر . فالدولة البريطانية مثلا ، ستحصل بواسطة البحر الأحمر على فتح طريق إلى الهند لا يعارضها فيه معارض ولا يجاريها مجار . دع أن ألوفاً من الجمال وضعت تحت تصرفه لتنقل ، بثمن بخس من السويس إلى القاهرة ، المسافرين من

أبنائها والوارد والصادر من بضائعها . وهكذا الشأن بالنسبة إلى الامم الأخرى ، فأنها لايمنعها مانع عن التمتع بالفوائد الجليلة والتسهيلات الكبرى التى تؤديها مصر والشام للتجارة ، بل وبالأمن الذى مد الوالى رواقه على المبادلات التجارية والمعاملات المختلفة وحركة النقل والانتقال للبضاعات والمسافرين . والشيء الوحيد الذى ينقص الدول بعد ذلك إنما هو العطف على سمو الوالى لما يبذله من الجهود وتعهده بصنوف العناية والرعاية ومعاونته على انتشال بلاده من الحضيض الذى تنكست فيه الى شرائف الرتب وأسمي الغايات

والآن وقد صيغت المسألة الحاضرة فى قالب العبارات المتقدمة ، لا يتأتى أن يكون لها غير حل واحد يطابق أمانى محمد على ويوافق ميوله . ومن ذا الذى يجرأ على مخالفة ماتقتضيه النيات السليمة وتتطلبه المصالح الصريحة بالعمل لايقاف تيار نهضة الحضارة المصرية ؟ إن الأفضاء بزمام دولة وضعت قواعدها عبقرية رجل فذّ الى ولاة معرضين للعزل لا أصل لهم يعرف فى البلاد ولا علم بماجريات الأحوال الخاصة بالأشخاص والأشياء فيها ، خصوصاً وأن تلك الدولة الفتية لايستطيع الاختصاص بها

سوى أسرة اندمجت بأهالى البلاد وتشبهت بهم ، مناصرة صريحة للهمجية والتوحش على الحضارة والتقدم . فما كسة محمد على على مايطالب به من الامتيازات لنفسه ذهاب الى تدمير قوته ورضي بخضد شوكته ، بل انحياز ظاهر الى جانب الهمجية ضد المدنية

ولا خلاف فى أن تعريض الحضارة التى نبت غرسها فى مصر ، للذبول والذواء استرجاع للفوضى التي طردها محمد على وطاردها حتى اختفت من الوجود المصرى . ومهما تكن المصالح المختلفة التى تحرك عواملها الدول القابضة بيدها على زمام مستقبل الشرق ، فأننى لا أعرف واحدة منهن وصلت الجرأة بها الى حد الاعتراف بأن مثل هذه الاغراض السيئة والنيات الخبيثة يخالج خاطرها

وليتخيل الانسان بفكره الحالة التى تصير مصر اليها إذا قدر لاسمح الله وانقلب عرش محمد على وأسرته . فأن مثل هذا الحادث المشئوم إذا فرض وقوعه ، كان عنوان الانحلال العام بل والكارثة السياسية الكبرى . فأنه لا تلبث الفوضى عندئذ أن تفشى في الحال أطراف هذه المملكة لانتقال زمامها من اليد

الحازمة التى كانت قابضـة عليه ، بل أن المطامع كلها والمصـالح والأهواء والشهوات المتخالفة ، لاتلبث أن يهب إعصارها فتمزقها كل ممزق وتذهب بها أيدى سبا . فمن جهة ترى بلاد سـنار التى يكفل خضوعها لحكومة سمو الوالى شرذمة صغيرة من الجنـد وروعة اسم محمد على ، لايلبث حاكمها أن يعلن استقلاله بها ، وبلاد العرب التى جبلت قبائلها على التمرد والعصيان حتى أنها مابرحت وهي فى قبضة محمد على كالأتون المتأجج ، لاشك فى أنهـا تنزع إلى الثورة خصوصاً مع ماعرفت به من النعرة والعصـبية اللتين كتم الضغط أنفاسهما منذ زمن بعيد ، وحب الانضواء إلى راية الوهابيين الذين يخشى المسلمون السنيون بأسهم

ثم لاننسى بلاد الشام التى كانت فيما سبق مقسمة الى ست باشلكيات وتحت رحمة القبائل الجبلية الممارسة للحرب والعربان المجبولين على التعدى بالنهب والسلب والقتل ، فأنا لانلبث أن نرى جبالها وصحاراها وقد ألقت عليها حمما من سكانها المتوحشـين فتصبح من جديد ميداناً لعربدتهم وضراوتهم ونهباً مقسما لهم

أما مصر فأن المعاهد الكبرى التى أنشئت بها لغرس العلوم والمعارف أو لخدمة الأنسانية لاتلبث أن يتولاها الخراب

والدمار وتقف حركة المدنية لهذا السبب أجيالا متعاقبة . ويحدث في كل مكان رد فعل شديد يذهب بالأوربيين الذين غمرهم محمد على بأنعمه وشرفهم برعايتـه والتفاتاته ، ولا يبقى مكان إلا ويرى المسيحيون فيه مضطرين إلى افتداء حريتهم بالثمن الغالى

ثم ماذا يفيد الباب العالى نفسه وقوع مثل هذا الانقلاب ؟ أما من جهة المال فهو الخاسر لامحالة ، إذ كيف يمكنه في وسط هذا الاختلال جمع أموال الجباية والجزية ؟ وإذا جمعها فمن أين لها أن تعدل مايدفعه الوالى من الجزية الآن ؛ وأما من جهة السياسة فهو الخاسر كذلك لامحالة ، لأنه يضيف إلى مشـاكله الحاضرة العديدة مشكلة سيتعذر حلها عليه حتما . فهو الآن بين أحد أمرين: إما أن يجنح إلى أن يكون له مالمحمد على نفسه من السلطة التى لاحد لها على الاقطار التي يملكها وإما أن يكتفى بسيادة وهمية عليها وجودها وعدمها سواء . وفى الحالة الاخيرة ماذا تكون فائدته من السعى لقلب الأريكة المحمدية العلوية ؟ وفى الحالة الأولى ألا يجب عليه لكبح ما أثاره من الشـهوات الخبيثة والاضطرابات التى لامبرر لها أن ينفذ بتلك الجيوش المكثيفة إلى الأقاليم السحيقة فى عين الوقت الذى يعتبر وجودها

بضواحي الأستانة من أجل الفوائد الحيوية لها ؟ فالباب العالى بتبديده من الجيوش بأطراف تلك الأصقاع ماهو فى حاجة اليه للذود عن حياض كيانه الذاتي يضعف كيان المملكة ولا ينال، بالرغم من هذه التضحية ، مأرباً من اخضاع الشام والعرب

ولقد حدث أخيراً في ولاية طرابلس مايعزز هذا الرأى وينصره . فقد كانت طرابلس إيالة وراثية ، فجعلها الباب العالى عداد الباشلكيات التى تنقسم اليها الممالك العثمانية ، فلم يمض على هذا التغيير يوم واحد حتى فشا الاضطراب في الأيالة وعمتها الفتنة . أما السيادة الوهمية التي احتفظ بها الباب العالى عليها ، فقد كانت من بواعث الأضرار به و إيراده موارد العدم ولم يجن من ذلك التغيير الذى أدخله أدنى ثمرة . وفى خلال السنوات الثلاث الماضية أنفذ لتولى الحكم عليها أربعة من الولاة فكان من أمرهم ، وهم الممثلون فيها للذات السلطانية ، أن حبسوا ليشهدوا بأعينهم كيف يحقر الجمهور سلطة مولاهم فى أشخاصهم ويستخفوا بسيادته التى انتابها من الهوان ماخفض من شأنها فى نظرهم

ولست أسائل أحداً بالسؤال الآتى : ماذا تستفيد الدول من وراء سعيها لاسقاط أحد الولاة؟ فأنه مما تمجه النفس افتراض

أن هناك حكومة أوربية تستطيع الاستفادة من خذلان المدنية وفشلها بهذا الفعل . فمن ذا الذي يستفيد اذاً من انقلاب الأسرة المصرية القابضة الآن على زمام مصر . الجواب: الهمجية ولا شيء غير الهمجية

وليس بوسع أحد، إذا أمعن النظر في هذه الاعتبارات التي لا غبار عليها ، أن يفهم كيف تخلفت أوربا طول هذا الزمن عن صون الكيان السياسي لمحمد علي وحياطته برعايتها وعنايتها

فلتسارع الدول اذاً الى منحه ماطلبه من حق الوراثة في أسرته ولتحدد تحديدا صريحاً ثابتاً مركز التابع حيال متبوعه ، وليسمح للبلاد الواقعة تحت حكمه بتوسيع نطاق مواردها في كل باب ومطلب ، وقضاء ماتشعر بالحاجة الشديدة اليه من رد الايدي العاملة التي لا شاغل لها اليوم إلا حمل السلاح في الجيوش ، وإلا حسب محمد علي نفسه مضطراً الى الاحتفاظ بها على قدم الحرب . ولتنشر الدول عليه جناح رعايتها فيكون لها الأثر الجليل والفضل العظيم على الحضارة والمدنية

أما أنا فأرى فيما أبداه الوالي من المطالب والمزاعم أنه دون حقه وأقل مما هو جدير به . فلقد كان بأمكانه لو دعا الى الالتفاف

حوله جميع الولايات العثمانية المتكلمة باللغة العربيـة ، المطالبـة باستقلالها استقلالا مطلقاً . وليست فكرة إنشاء دولة عربيـة من الفكر الخيالية كما ذهب إلى زعمه البعض ، فلقد حازت هذه الفكرة استحسان نابوليون وتعضيده . وإذا لم يكن له من الافكار سواها فحسبه إياها وكفي لأظهار قدره فى نظر العالم السياسى . ولقد كتب هذا الرجل العظيم الذى حكم على الاشياء ونظر فيها نظراً أدهش العـالم بما انطوى عليه من السـداد والصواب ، وهو فى أسره بجزيرة القديسة هيلانة ، السطور الآتية الى الجنرال (جورجود) . قال :

« مافتئت الدولة العثمانية منـذ اضمحلت أحوالهـا توجه التجريدات العسكرية ضد المماليك من غير أن تحرز عليهم فوزاً إذ كانت تنتهى كل تجريدة بالفشل والانكسار . وقد أفضت هذه الحروب إلى تسوية تخول المماليك حق الاستمرار على مباشرة السلطة والحكم مع إدخال تعديلات طفيفة وقتية عليـه . والذى يقرأ بالتفات تام تاريخ الحوادث التى توالت على مصر فى المائتى عام الأخيرتين ، يوقن أنه لو عهدت الى والٍ من أهل البلاد كما هو الحال فى ألبانيا بدلا من أن تعهد الى اثنى عشر ألفاً من المماليك

لاستقلت المملكة العربية التي تتألف من أمة تخالف الامم غيرها مخالفة كلية بعقليتها وأوهامها ولغتها وتاريخها وشملت مصر وبلاد العرب وشطرا من بلاد أفريقية كما استقلت مراكش من قبل »

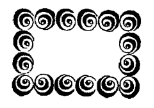
واني لأعتقد أن لا نبوءة في السياسة أصابت شاكلة الصواب كالنبوءة التي سلف إيرادها . فلقد مات نابوليون في سنة ١٨٢١ فلم تقبل سنتا ١٨٢٣ و١٨٢٤ حتى قام أحد الولاة في مصر، بعد أن انتزع زمام السلطة من يد المماليك ، بتأليف جيش منتظم من أهل البلاد نفسها . ولم تنقض سنوات بعد ذلك حتى كان يملي شروطه على الباب العالي وألقى بذلك قواعد المملكة العربية وأصبح قادراً على تعزيز استقلاله بقوة السلاح

وكان نابوليون يعد الشام من الأقطار الواجب نظمها في سلك الدولة العربية وان لم ترد الاشارة بذلك فيما أوردنا من كلامه . غير أنه قال في مذكرة له عن الحملة الفرنسية ما يأتي .

« تتمنى ولايات الدولة العثمانيه التي لغة اهلها العربية من صميم فؤادها وقوع تغيير عظيم وتنتظر الرجل الذي يقع هذا التغيير على يده»

أفلم ير الذين اطلعوا على أحوال الشرق منذ ذلك الوقت

وتتبعوا حوادثه وكتبوا فيه ، أن الرجل المنتظر الذى حدث عنه نابوليون قد جاء ؟ ومع أننى لم انحل لنفسى من صدق النظر وصواب الرأى مايجعلنى فى جملة الذاهبين إلى هـذا الرأى أقول إنه كان مطابقاً على الدوام لما يجول بخاطرى وكنت مفتوناً به إلى حد ازدادت معه الرابطة بينى والعمل الجليل الذى قام به محمـد على وثوقاً وتوكيداً . وها أنذا ما برحت مقتنعا بأن نبوءة نابوليون لسوف تحقق بحذافيرها رغم ما ينافيها الآن من ظهوره في مظهر الاعتدال والتسامح



الباب الخامس عشر

١

الاثار القديمة

الهندسة المصرية بوجه عام — المسلات — الاهرام — اثار الاسكندرية — آثار صائيس — أطلال بوباست أو تل بسطه — أطلال عين شمس أو هليوبوليس — اهرام الجيزة — سقاره ومنفيس — مقابر بنى حسن — اسيوط — دندره — طيبة — الكرنك — ارمنت أو هرمونتيس — اسنا — الكاب — ادفو — جبل السلسلة — كوم امبو — جزيرة فيله — محاجر اصوان — اثار قديمة مختلفة

١ — إن شطراً كبيرا من اهتمام الناس كافة بمصر وعنايتهم بشؤونها يرجع إلى أطلالها القديمة وماضيها المجيد . فأن قدم هذه الأطلال ، وهي صحائف الألغاز والأحاجى التى بدأ العلم الحديث يستشف من خلالها مدنية كان كل همها التستر بالأسرار ، لما يضاعف فى قيمتها ويكسبها من الروعة الجذابة مايحفز الرغبات إلى استكناه عجائبها . ومعلوم أن أغلب الآثار الضخمة المبنية فى نواحى القطر المصرى كانت قبل الميلاد بألفى

عام قائمة المعالم شديدة المقاوم ، وأن مصر طبعت هندستها المعمارية بطابع من الجلال يبهت له المتأمل رهبة وإعجاباً لاتساع تلك الآثار وضخامة أجزائها ولأنها الدليل الناطق بتغلب جهود الأنسان على قوة المادة وأخذه بأطرافها

حقاً ليس المقام مقام إسهاب ولا إطناب فى ذكر تلك الآثار الجليلة التى استغرق البحث فيها حياة فريق من أكابر العلماء ، استقصاء لحقائقها التى دونت في عدة من المجلدات الضخمة ، ولكنه من غير الميسور غض الطرف أبداً عن شأن من أهم ماينبغي الاطلاع عليه من شؤون مصر ألا وهو الآثار . فللتوفيق بين هذا الموضوع واتساع مدى مؤلفنا هذا ،عولت فى ذكرها على الاجتزاء بالموجود من الآثار حتى الشلال الأول أى فى مصر الأصلية ، مع بيان مواقعها مرتبة بحسب الصعود من الأسكندرية إلى جزيرة فيله . وإذا سريت هذا المسرى فسيكون هذا الفصل مفيداً للسياح ومرشداً لهم إلى حقيقة مايبحثون عنه .

٢ — الهندسة المصرية بوجه عام

كان قدماء المصريين يستعملون فى مبانيهم الحجر الجيرى والحجر الرملى الأحمر والصوان أى الجرانيت . وكانوا فى اتخاذ هذه الأحجار واقتطاعها من المقالع يتحرون الضخامة واتساع الأقطار . وهذا هو سر إسرافهم فى بناء الآثار من أحجار كبيرة جداً أو من حجر واحد . ومن آثارهم المؤلفة من قطعة حجرية واحدة المسلات والتماثيل . فلقد نحتوا من المسلات مابلغ طوله مائة قدم ومن التماثيل ماوصل ارتفاعه الى خمس وخمسين قدماً وأحياناً إلى سبعين . وهذه وتلك كانت مؤلفة من حجر واحد كما ذكرنا

ولا يبعد أن تكون السهولة التى كان المصريون يحصلون بها على القطع الحجرية الكبيرة الحجم بما كان لديهم من الوسائل الآلية سبب إغفالهم القبو فى البناء . فأن سقوفهم وسطوحهم وهى فسيحة عادة متباعدة الأطراف ومؤلفة من تلك الأحجار ضخمة قد تيسر لهم إحكام ضمها بعضها الى بعض محمولة على الأعمدة المتينة بدون حاجة الى قبوها . ولا شك فى أنه لم يتوافر

لديهم من الاحجار الآ الصغير الحجم ولو خطر لهم أن يجمعوا في مبانيهم بين الفخامة والمتانة ، لأعوزتهم هذه الضرورة الى استكشاف طريقة القبو فى البناء

ومع أنه لم يكن من الثابت أن المصريين كانوا يعرفون طريقة عقد البناء على هيئة القباب، فقد شوهد في بعض مبانى الوجه القبلى أجزاء متقبية أحجارها معقودة بعضها الى بعض . واستكشف على ضفاف النيل رَصَف معقودة بعقود أفقية تتجه تجاويفها نحو الماء فتقاوم اندفاع الأراضى اليه مقاومة عظيمة . وتحلى بنقوش يذكر فيها الغرض من إنشاء الأثر الذى أقيمت أمامه وتكون بمثابة تاريخ له ، إذ يدون فى تلك النقوش أيضاً بيان الترميمات أو التنسيقات التى أجريت أو أدخلت عليه . وكانوا يأتون بهذه المسلات المؤلفة من قطعة واحدة من محاجر الصوان الوردى بضاحية أسوان . والمسلات يشبه شكلها جذعاً مستطيلا لهرم رباعى الزوايا ينتهى عند رأسه بهرم صغير يسمى الهريم . وأقدم المسلات الموجودة الآن يرجع تاريخ نحته الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد المسيحي . وقد نقلت مسلات عديدة الى بعض مدائن أوروبا ، فأن الامبراطور أوغسطس الرومانى جاء

الي رومية بثلاث مسلات . وهى تحتوى منها الآن أربع عشرة مسلة . وفى مدائن أخرى من إيطاليا جملة مسلات . وأقام الامبراطور قسطنطين مسلة بالقسطنطينية . ولا يفتأ الباريسيون يعجبون بالمسلة المقامة فى وسط ميدان الكونكورد بباريس وهي احدى المسلتين اللتين كانتا قائمتين أمام واجهة هيكل الاقصر (١)

٤ — الاهرام

فى القطر المصري أهرام كثيرة أهمها أهرام الجيزة وسقارة وسنذكر بحسب اتجاه الصاعد فى النيل ، أى من الشمال الى الجنوب ، الاهرام القائمة فى الصحراء على مقربة من النهر . وقد

---

(١) اهدي سمو الوالى محمد على المسلة القائمة الان بوسط ميدان (الكونكورد) الى فرنسا فى عهد حكومة (الرستراسيون) . وكان البارون (تيلور) مكافا منها باستهدائه اياها . وهذا البارون من ذوى القرائح الوقادة والآراء الراجحة والاحاطة بمختلف العلوم والاذواق السليمة . وقد سبق له ان حصل لفرنسا على مجموعات فنية جميلة . والى هذه المواهب يرجع نجاحه فى مهمته لدى محمد على . وكانت بعثة الاقصر والاعمال التى قام بها المهندس (ليبا) الذى نيط به انتزاع المسلة من مكانها مما شغل الخواطر ولفت الانظار وكان حضور البارون تيلور الى مصر فى طلب المسلة ثانى رحلة له اليها . وقد زار عقب انتهاء هذه المهمة بلاد الشام والف فى زيارته لها رحلة في مجلدين وصف فيهما اخلاق اهلها واهل مصر وآثارهما ومناظرهما وصفا مستفاضا راعى فيه الدقة ومطابقة الواقع ومصنفه هذا من أجل واوفى المصنفات التي وصفت فيها تلك البلاد الشرقية

تعددت الأقاويل والفروض في أمر هذه الآثار الضخمة . فأن أحجام أهرام الجيزة من الجسامة بما اتجهت ظنون الناس معه الى أنها لم تكن من عمل الانسان . وهذا الرأى لاحاجة الى إقامة الدليل على فساده ، ولهذا لانقف عنده ببحث أو تمحيص . وإنما نذكر القارىء بأن مناقشات شتى قد ثار ثائرها بين العلماء والباحثين لاستبانة الغرض الذى لاجله شيدت الأهرام . فقد ذهب البعض الى أنها كانت المراصد الفلكية لقدماء المصريين ، وجاءوا بدليل على صحة زعمهم دقة اتجاه الوجوه الأربعة لكل هرم نحو الجهات الأصلية الأربعة وهي الشمال والجنوب والشرق والغرب . وضرب آخرون في بيداء الحدس والتخمين فقالوا إنها كانت هياكل غير الهياكل المعتادة يخفي الكهان فيها أسرارهم الكهنوتية . وزعم أحد المؤلفين أن الهرم الكبير لم يكن إلا خزانا كبيرا لمياه النيل.

هذه الفروض والتخمينات كلها لم تصب كبد الحقيقة . غير أنه من المسلم به أن الأهرام شيدت لتكون مقابر لأصحابها بدليل أنهم عثروا فى بعضها على توابيت الموتى منهم

وسبب اتخاذ الشكل الهرمى فى بناية هذه المقابر أنها به

تكون أشد متانة وبالتالى أطول عمراً . وهي على وجه عام مؤلفة من طبقات من الأحجار الجيرية ، ولكن منها ماهو مبنى بالآجر. أما ظاهرها فكان مكسواً بطبقة صقيلة مملسة . ويظنون أن المصريين استنبطوا لرفع الاحجار الضخمة الى ذلك العلو الشاهق جملة من الوسائل الآلية والحيل الميكانيكية التى مابرح سرها غامضاً حتى الآن

والحقيقة أن شيئاً من ذلك لم يكن . فأنما شيدت الأهرام ورفعت من أجلها الأحجار الجسيمة إلى العلو الشاهق بقوة عضل الرجال وكثرة عددهم . فأننا نرى فى رسوم الهياكل وتهوشها مايمثل صور الأحجار الكبيرة منقولة على عجلات لا بكرات لها يسحبها عدد عظيم من الرجال . ومن المحتمل أن المصريين كانوا يمهدون طريقاً مائلا يصلون بسحب تلك العجلات عليه إلى أعلى المبانى فترتفع الأحجار بهذه الوسيلة إلى العلو الشاهق من غير ما حاجة إلى استنباط الآلات الرافعة واستعمالها

وهاك ماذكره (هيرودتس) المؤرخ فى وصف الطريقة التى اتبعت لكسوة الهرم الكبير بالطبقة الصقيلة المملسة التى سبقت الأشارة إليها . قال :

« يؤخذ من الطريقة التى اتبعت فى تشييد الهرم أن وجوهه الأربعة كانت على شكل مدرج . فلما انتهي بناؤها وهى بهذا الشكل وعنّ لهم أن يكسوها استعملوا فى رفع الأحجار اللازمة لهذه الكسوة آلات صغيرة من الخشب ، كانت الآلة منها ترفع الحجر من سطح الأرض إلى الدرجة الأولى ، فأذا وصل إليها رفع إلى الثانية فالثالثة وهكذا سواء أكان رفعها بآلات من هذا القبيل ركبت تباعاً على جميع الدرجات بحيث تتناول العليا الحجر من السفلى ، أم كانت آلة واحدة تنقل من درجة إلى درجة لرفعه من الدرجة التى كانت هى فيها . وقد ذكرت لى هاتان الروايتان فلم أجد بداً من إيرادهما كما سمعتهما . وبهذه الطريقة بدىء بكسوة الجزء الأعلى وتواصل العمل هبوطاً منه إلى الأجزاء السفلى حتى انتهت الكسوة عند الدرجة المتصلة بسطح الأرض »

ومن يفكر فى أصل الأهرام وما اتخذ من وسائل العسف والشدة فى تشييدها ، مع أن المقصود بها الغلو فى الصلف والبذخ لا يسعه إلا استبشاع هذه الفعال والتقزز من مرتكبيها . هذا إذا اعتبرنا الرواية التالية التى رواها (هيرودتس) مطابقة للحقيقة .

فقد قال :

«أغلق (كيوبس) الهيا كل وحرم على الناس تقديم القرابين فيها ثم حكم عليهم جميعاً ، من غير فارق ولا تمييز ، بالأشغال الشاقة : فخص فريقا منهم باقتلاع الأحجار من محاجر سلسلة جبال العرب وجرها حتى ضفة النيل ، وأكره فريقاً آخر على تسلمها واجتياز النهر بها فى المراكب وسحبها بعد ذلك إلى الجبل بناحية ليبية . وكان يحشد فى كل ثلاثة أشهر مائة ألف رجل ليسخرهم فى هذه الأعمال . فانقضت عشر سنوات فى إنشاء الطريق اللازم لجر الأحجار تكبد الشعب أثناءها من المشاق ما يشق المزائر ، لأن هذا الجسر لم يكن عند نهايته أقل ارتفاعاً من الهرم نفسه . وقد بلغ طوله خمس إستادات أى ٢٥٦ توازاً وعرضه عشر أورجيات أى من ٥٦ إلى ٥٧ قدماً وارتفاعه فى الجهة التى يبلغ فيها أقصى العلو ثمانى أورجيات أى ٤٥ قدماً ونصف قدم . وكان ذلك الجسر مكسواً بأحجار صقيلة محلاة بالنقوش . وعليه فيكون إنشاؤه هو وبعض الغرف تحت أرض الأكمة التى شيدت الأهرام الثلاثة عليها قد استغرق عشر سنوات كاملة ، وكان الملك يريد بأنشاء الغرف تحت الأرض

أن تكون مقبرة له . وقد جعل هذا قبره بها في جزيرة يحيط بها ماء يصل اليها من قناة مشتقة من النهر . أما بناية الهرم الكبير المعروف باسمه فقد استغرق العمل فيها عشرين عاماً وصالا

« ولكي يحصل (كيوبس) على نفقة تلك البناية الجسيمة سار بالظلم بين الرعية وأسرف من العسف بهم ولم تأب شيمته احتمال ضيم الخسيسة وعار المنكر، فأنه قد أباح لابنته ارتكاب الفاحشة مع من تريد لتحصل له من هذا السبيل على أقصى ما تستطيع من المال . ولم يخبرني أحد بمقدار ما جمعته من المال بهذا الأسلوب المخزي إذعاناً لأمر والدها . ولكن أكد الرواة لي أنها اعتزمت قبل وفاتها إقامة أثر تخلد به اسمها ، فكانت كلما هم بها رجل من مريديها اشترطت عليه أن يقدم اليها هدية حجراً واحداً تجعله في بناية ذلك الأثر . ولقد شادت فعلا بالأحجار التي أهديت اليها الهرم الأوسط من الأهرام الثلاثة الصغيرة المصطفة تجاه الهرم الكبير . وطول كل ضلع من أضلاعه بلتر واحد ونصف بلتر »

٥ — آثار الاسكندرية

الآثار والأطلال المشهورة فى الاسكندرية هى : عمود (بومبيوس) ومسلتا (كليوباترة) والكتا كومب (القبور) والهيبودروم (ملعب الخيل)

أما العمود ، ويعرف عند العامة بعمود بومبيوس ، فارتفاعه مائة قدم وأربع عشرة قدماً . واسطوانته حجر واحد طوله تسعون قدماً ، وقطره تسع أقدام ، وينتهى أعلاه بتاج من النمط القورنثى ارتفاعه عشر أقدام . ونسبة العمود إلى (بومبيوس) لا محل لها من الصواب ، إذ الواجب أن يعزى الى (دقلطيانوس) الذى أمر بتشييده على الأرجح . وهو واقع على مسافة بضع دقائق من المنطقة التى يشغلها جماعة العربان جنوبى المدينة ، والسفن الواصلة الى الاسكندرية تتخذه وسيلة للاهتداء الى مرفأ هذا الثغر

أما مسلتا (كليوباترة) فتحتوى وجوههما نقوشاً رأسية فى ثلاثة أنهر . ولم يقف العلماء حتى الآن على أصلها ، ولكن فريقاً منهم ينسبونها الى الملك (مريس) وفريقاً آخر الى أحد

الفراعنة الذين خلفوا الملك (سيزوستريس) . وهما غير متساويتى الحجم وإحداهما لا تزال مائلة فى مكانها ، وقد أهداها الى الحكومة الفرنسية سمو والى مصر . أما الثانيـة فمطروحة على الرمل وقـد أصبحت ملـكا للانكليز . والاثنتان مصنوعتان من قطعة واحدة من حجر الصوان وطولهما يقرب من ستين قدماً فى قطر سبعة أقدام عند القاعدة

أما الكتاكومب الكائن موقعها على مسيرة نصف فرسـخ شرقى عمود بومبيوس فعبارة عن غرف فسـيحة محفورة فى الأرض تتألف منها دهاليز مرفوعة السقوف على أبعاد متفاوتة بأعمدة ضخمة . وهذه الغرف مملوءة بالأنقاض والدخول فيها يعترضه بعض المصاعب ، إذ لا بد للداخل من الاحتياط بنشره عند المدخل خيطاً يهتدى به حين الخروج من هذا التيه القبرى . وفيما بين الكتاكومب والأسـكندرية ترى على ساحل البحر حمامات تأكلها الماء بتأثيره فيها على توالى الزمن . وهي التى سميت خطأ بحمامات كليوباترة

وبالقرب من هذا المـكان أيضاً أطلال الهيبودروم الذى يشغل مسطحاً فسيحاً من الأرض

أما معسكر قيصر الواقع بين الأسكندرية وأبي قير بالقرب من أطلال (كانوب) فعبارة عن حظيرة فسيحة يحدق بها سياج من الآجر تهدم النصف منه تقريبا

٦ — المزل صانيس

بالقرب من فوّة (على مسافة صغيرة من القرية المعروفة باسم (صا الحجر) توجد أطلال (صانيس) التي كانت فيما غبر من الزمان عاصمة الدلتا . وكل ما تبقى من هذه المدينة الشهيرة سياج مديد يضم إلى جوانبه ذلك الطلل البالى

٧ — المزل بوباست

في شرقي الدلتا بأقليم الشرقية قرية (تل بسطه) التي استكشفت بجوارها ، أيام الحملة الفرنسية ، أطلال مدينة (بوباست القديمة) ، وهي تبدو للناظر من مسافة بعيدة جداً فيخيل له أنها جبل صغير . ويحيط بها سياج يكاد يكون على شكل الدائرة . وهي عبارة عن قطع حجرية يحتوى أغلبها نقوشاً هيروغليفية

٨ – الهول هليو بوليس

فى قرية المطرية الواقعة شمالى القاهرة بعض أطلال من مدينة عين شمس القديمة (هليو بوليس) منها أطلال هيكل الشمس وقطع من تمثال لأبى الهول ومسلة من حجر واحد طولها ثمانى وستون قدماً فى قطر ست أقدام عند القاعدة

٩ – اهرام الجيزة

تجاه مدينة القاهرة توجد قرية الجيزة الصغيرة التى سميت بها أكبر أهرام مصر حجما . وعدد هذه الأهرام ستة ، ثلاثة منها طبقت شهرتها الآفاق وثلاثة صغيرة . أما الهرم الأكبر الذى أنشأه (كيوبس) وقد سبق الكلام عليه ، فارتفاعه الرأسى بالقياس الذى قامت به لجنة مصر أربعمائة قدم وثمانى وعشرون قدماً (أى مايعدل ضعف ارتفاع كنيسة نوتردام الباريسية) وطول قاعدته سبعمائة قدم وست عشرة قدماً وحجمه الكلى مليون وأربعمائة وأربع وأربعون ألفا وستمائة تؤازا مكعبا ، بصرف النظر عن الفراغ القليل الموجود بداخله

أما تمثال أبي الهول العظيم الجاثم على مقربة من الأهرام الثلاثة ، فالظاهر أنه كان مدخلا سرياً يؤدى إلى الدهاليز المبنية تحت الهرم الكبير . وذلك التمثال متصل بالأرض وارتفاعه فوقها أربعون قدما ، ويبلغ مجموع طوله مائة وسبع عشرة قدما، ومحيط رأسه من جهة الجبهة احدى وثمانين قدما ، واتساعه من الباطن إلى قمة الرأس احدى وخمسين قدما . وفى هذه القمة تجويف يؤدى إلى الفتحة التى يوصل منها الى الهرم الكبير

١٠ — سقارة ومنفيس

تتألف من القبور الكثيرة المحفورة فى السهل الفسيح المحيط بالهرم مقبرة (منفيس) القديمة . ولهذه المقبرة ارتباط بجميع الأدوار منذ الأزمان الموغلة فى القدم إلى دولة ملوك اليونان وإمبراطورة الرومان . وقد دفن بها أناس من جميع طبقات الهيئة الاجتماعية،كهانا وجنودا وعمالا وأفرادأمن عامة الشعب . وتبعد أهرام سقارة عن أهرام الجيزة بنحو ثلاثة فراسخ وعددها كلها ثمانية عشر هرما متوسطة الأحجام ، منها ثمانية مشيدة بالاحجار الجيرية وغيرها بالآجر . وفى سقارة مقبرة منفيس القديمة التى

استكشف الاستاذ (كافيليا) فى دائرتها تمثال (سيزوستريس) العظيم الذى يبلغ ارتفاعه بدون ساقيه خمسا وثلاثين قدما. وهو هنالك بجوار تمثال آخر سماه المؤرخ (هيرودتس) بتمثال الزهرة الأجنبية

وفيما بين قرى البدرشين وميت رهينه ومنف ترى أطلال مدينة (منفيس) التي اتخذها الفراعنة عاصمة ثانيــة لملكهم وكان بهذه المدينة هيـا كل فخمة ولكنها اندثرت فلم يبق منهـا حينما زار مصر (استرابون) المؤرخ ، سوى أطلال لم يبق اليوم شيء منها . وجنوبى قرية منف بلدة دهشور القـائمة على أطلال (أكانثيس) القديمة . وقد اشتهرت دهشور بأهرامها . وبالقرب من بلدة أبى صـير المجاورة لها مقـابر الطيور التى ذكر خبرها الكثيرون من السـياح ، وهي عبارة عن دهاليز واسـعة مملوءة بجرار صغيرة وضعت فيها أجسام الطيور محنطة

وعلى بعد فرسخ من قرية القطورى هرم مشهور هنالك باسم الهرم « الكذاب » . وهو يختلف عن جميع الأهرام الأخرى بشكل بنايته، لأنه عبارة عن جذع هرم أي هرم ناقص متخذ قاعدة لهرم صغير جداً

وبالفيوم هرمان آخران أحدهما وهو هرم اللاهون مبنى بالآجر

١١ — قبور بني حسن

هذه الآثار الجميلة خاصة بالأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة. فتاريخها يرجع إذاً إلى أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد المسيحي. والرسوم الجميلة التي تحتويها في أقصى ما يكون من الأهمية من حيث التاريخ المدني لمصر، ومن جهة المعلومات التي تكشف القناع عن أسرار معيشة طبقة الجند وعاداتها وأعمالها. وهي لا تزال حافظة لرونقها وألوانها بما يخيل للناظر معه أنها حديثة العهد. والمفهوم أن المصريين كانوا لا يستعملون في صورهم اللون الفاتح ولا الغامق بل الألوان الزاهية الساطعة وكانوا يوفقون بينها توفيقاً عجيباً

وإذا صعد الإنسان نحو الشرق إلى حافة تجارة قديمة هناك رأى هيكلا خاصاً بدفن جثث الحيوانات المحنطة. وقد نقش بابه هذا الهيكل في عهد الإسكندر الأكبر.

وفيما يلي ذاك هيكل آخر يسميه العرب اسطبل عنتر

أنشأه الملك مريس برسم (بخت) إلهة (بو باستيس)

١٢ - اسيوط

كل مايستحق النظر فيهامن الآثار هو الأغوار والكهوف المنقورة فى الصخر ، فى أقدم عهد للتاريخ . وقد نال منها التلف والاندثار ، وتشاهد فيها صور جنود ملتحين ومرتدين بثياب هى أقدم ماعرف فى التاريخ

١٣ - دندره او تنتيريس

بها هيكل شيد برسم الآلهة (آثيس) وأقدم مافيه من النقوش ماس بحكم الملكة (كليوباترة) و (قيصريون) . وهذه النقوش فى الجدار الخارجى لمؤخر الهيكل . وتتضمن حوادث تتعلق بالأمبراطرة (نيرون) و (طيبريوس) و (كاليجولا)

والهيكل الصغير المجاور له معهد للولادة (تيفونيوم) أو (مرميزى) نقش فى عهدى الأمبراطورين (أنطونين) و (تراجان)

١٤ — طيبه او ديوسبوليس

الجانب الأيمن أو الشرقي (الأثر المسمى بقصر الأقصر) — هذا الأثر العظيم هيكل للأله (امون) ، أنشأه وقام بنقش رسومه بعض فراعنة الأسرة الثامنة عشرة آخرهم الملك رعمسيس الثالث (سيزوستريس) « هكذا » الذى أضاف إليه المدخل والتماثيل والمسلات . أما المعبد ، وكان بطرف الأثر قبالة النيل فيظن أن الفرس قد دمروه . ولكنه جدد فى عهد الاسكندر ابن الاسكندر الأكبر

١٥ — هيكل الكرنك

يؤخذ من انفساح المكان المنتشرة فيه أطلال هذا الهيكل أنه أكبر آثار القطر المصرى على الاطلاق ، بل أكبر آثار العالم كله . فأن جملة أسرات من الملوك اشتركت فى تكبيره وتوسيع نطاقه بما أضافته إليه من الملحقات والمنشآت الجديدة . أما الهيكل الأصلى فقد أسسه الملوك الأول من الأسرة الثامنة عشرة ، ثم أضيفت إليه أبنية جسيمة فى عهد الملكة (أمينسه)

التى أقامت به مسلتين هما أكثر ماشوهد من المسلات ارتفاعاً . ولا تزال إحداهما ماثلة في مكانها وسط ذلك الأثر . وبعد هذه الملكة ، وسع نطاق بناية هيكل الكرنك ببنايات إضافية أخرى أنشأها تحوتموزيس الرابع (مريس) ورعمسيس الثانى ورعمسيس الثالث الذى يسند إليه إتمام البهو الكبير ذى الأعمدة. أما الصحن الأول الكبير فيرجع تاريخه إلى عهد الأسرة السادسة والعشرين الصائية ، وربما إلى عهد تال له . وإلى يسار هذا الصحن هيكل صغير شاده الملك (منفتاح) الثالث ، وهو قبل الأخير من ملوك الأسرة الثامنة عشرة . وإلى اليمين الجزء المقدم من أثر شاده (رعمسيس السادس ميامون) رأس الأسرة التاسعة عشرة . وترى فى أسفل الجوانب الخارجية للجدار المقابل للبهو الكبير ذى الأعمدة نقوش بارزة ذات أهمية تاريخية عظمى . لأنها تصور الفتوحات التى قام بها في آسيا الملك منفتاح الأول وفتوحات ابنه رعمسيس الثالث . ولكن النقوش البارزة الخاصة برعمسيس الثالث أصابها تلف كبير :

وهناك أربع بوابات كبيرة تبتدىء من الجانب الجنوبى لقصر الكرنك ثم تتجه نحو مسطح فسيح ممتلىء بأطلال هيكل

تسمى (أطلال الجنوب) .

وبالقرب من قرية الكرنك الحالية وإلى الجنوب الغربى من القصر يرى أثر جميل هو الهيكل الذى شاده ملوك اليونان برسم الاله (شوس) بن (أمون رع) من زوجته (ماث) . وهناك باب كبير يفضى إلى الطرقة التى تحف بها تماثيل أبى الهول برؤوس الحملان . وهذه الممشاة كانت بين هيكل الكرنك وقصر الأقصر على مسافة ثلث فرسخ

الجانب الأيسر أو الغربى — هذا الجانب من مدينة طيبة كان يسمي باسم خاص به وهو : (ممنونيا) بسبب المقبرة التى لاتزال ترى حتى الآن بما تحتويه من القبور الكثيرة المنقورة فى الجبل الكثيرة النقوش الممثلة لأطوار المعيشة المدنية لقدماء المصريين . أما الأثر الأكبر الذى يسميه العرب هناك (مدينة آبو) فقد كان قصراً للملك (رعمسيس الرابع ميامون) . وتمثل نقوشه فتوحات هذا الملك فى آسيا وفعاله الجليلة للدين . وبداخل سياج هذا الأثر أثر شاده الملك (تحوتموزيس الرابع) أى (مريس)

وفى هذا الجانب من العاصمة القديمة ثلاثة هياكل صغرى

للآلهة (أثيس) و (توت) و (إيزيس). وعلى مقربة من وسط السهل يسترعي الأنظار صنمان كبيران هما تمثالا (ممنون)، عرف البحري منهما في عهد الرومان بما زعموه من انبعاث صوت من رأسه في وقت معين من اليوم . ووجود هذين الصنمين الهائلين يدل على موقع قديم لبناية أثرية فسيحة جداً لعلها التي كان يسميها كتاب اليونان هيكل (ممنونيوم) المعزو بناؤه إلى الملك (أمينوفيس الثالث) الملقب عند قدماء اليونان بالملك (ممنون) . أما الأثر الجميل القائم بقرب الجبل إلى ناحية الشمال والذي سماه السياح (ممنونيوم) فلم يكن في الحقيقة إلا أحد القصور التي شاذها الملك (رعمسيس سيزوستريس) . وعليه فاسمه ينبغي أن يكون (رعمسيسيون) لا (ممنونيوم)

وبأيغال الزائر في ناحية الشمال يرى قصر القرنة وهو الأثر الذي أقامه تخليداً لذكرى (منفتاح الأول) ابناه (رعمسيس الثاني) و (رعمسيس الثالث) . وإذا دنا من هذه الناحية إلى جبل ليبية وجد في جوف الوادي الذي يسميه العرب هنالك (الأساحيف) أثراً شيد جزء منه ونقر الآخر في الصخر في عهد الأسرة الملوكية التحوتمية . وقد رمم البطالسة الأجزاء

السفلى منه فيما بعد . ويلى هذه الجهة من الجبل الوادى المعروف ببيان الملوك حيث توجد القبور الفخمة لفراعنة الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين منقورة فى الجبل

١٦ — ارمنت (هرمونثيس)

شيد هذا الهيكل تكريماً لمولد (هورفريه) أى (هوروس الشمس) وأمه (تريتو) زوجة الأله (موردون) . وقد أريد به الرمز إلى مولد (قيصريون) بن (قيصر) من زوجته (كليوباترة)

١٧ — اسنا (لاتوبوليس)

بها بوابة هيكل صغير شاده برسم (أمون خنوفيس) الأمبراطور (كلوديوس) وقد تواصل العمل فيه تباعاً فى عهد من خلفه من الأمبراطرة إلى الأمبراطور (أدريانوس)

١٨ — الكاب (ايثيا)

ليس بها سوى أطلال هيكل قديم شيد برسم الألهة (سوان) أو (إليثيا) . وفي الجبل المجاور للهيكل (ناحية الشرق) ترى

مقابر عديدة منقورة يظهر أنها خاصة بعهد قديم جداً . واثنتان منها تلفتان النظر بصياناتهما وبالأعمال الزراعية التى تمثلها فيهما النقوش الملونة المتقنة الصنع

١٩ - ادفو (ابو لينو بوليس ماننا)

شاد هذا الهيكل العظيم البطالسة (إيفان) و (إيفرجيطة الثانى) و (اسكندر) تكريماً للأله (حارحات) أى (هوروس هرمس تريسمجسط) . أما الهيكل الصغير المدفون فى التراب فهو هيكل الولادة ويسمي باللغة المصرية (مانميزى) أى حجرة الولادة . وفيه ولد ابن للأله الأكبر صاحب الهيكل

٢٠ - جبل السلسلة (سلسيليس)

إن التماثيل والمعابد التى تشاهد منقورة فى الجبل المعروف بالسلسلة من ناحية الغرب تتعلق بعصور فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة . أما هيكل (أسفيوس) المنقور فى الصخر فشيد تكريماً للآلهة (فريه) ويحتوى صوراً دينية وتاريخية لجملة من الفراعنة الذين استخرجوا الأحجار من المقالع القريبة لتشييد

اثار طيبة وهيا كاها

٢١ - كوم امبو (امبوس)

يعزى هيكلها الأكبر إلى عهد البطالسة . والغريب فيه أنه هيكل مضاعف أى منقسم فى اتجاه محوره إلى قسمين ، قسم خاص بالأله (اوزيريس) أى (أبوللون) والآخر للأله(سيفيك) أى زحل

أما الأطلال التى على الضفة المتطرفة من النيل فأطلال هيكل آخر كان مخصصاً للالهة (أثير)

٢٢ - جزيرة فيله

شاد البطالسة هذا الهيكل العظيم برسم الالهة (إيزيس) وأتمه بعدهم أمبراطرة الرومان . والهيكل الصغير الموجود عند الزاوية الجنوبية الغربية من الصحن الكبير شاده الملك (نقطنبو) من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين قبل ميلاد المسيح بمائتين وسبعين عاماً برسم الالهة (أثير) . أما الهيكل الصغير الذى لم يتم بناؤه ، وهو إلى جهة الشرق ، فعبارة عن باب منعزل تشاهه

عليه صورة الأله (إيوتيه)

وما يرى من النقوش على القطع الصخرية الحافة بالطريق الموصل من جزيرة فيله إلى أسوان ، فخاص بجميع العصور الفرعونية . وفى جزيرة (اليفنتين) أى جزيرة أسوان التى سماها (دينون) بحديقة المدار، فليس فيها سوى أطلال لهيكل (خنوفيس) القديم الذى كان لا يزال موجوداً في عهد الحملة الفرنسية

٢٣ ـ مقالع اسوانه

إن مقالع الجرانيت أى الصوان التى كان القدماء يستخرجون منها هذا الحجر ممتدة على أكثر من ستة آلاف متر . ومنظر هذه المقالع غريب جداً ، فأن الجرانيت مقطوع فيها قطعاً رأسياً . وكل قطعة من القطع الكبيرة مخططة على وجه من وجوهها . وترى فيها آثار قطع الآلات والثقوب المعدة لوضع قطع الخشب . والذى يشاهد مواضع القطع وما هى عليه من مظهر الحداثة والجدة يذهب به الظن إلى أن الأشغال التى كان يريد الأقدمون إتمامها بتلك الأحجار قد أوقفت فجأة وأن إيقافها قريب العهد منا جداً

ومن أدعي هذه القطع للعجب ولفت النظر مسلة تقرب في حجمها من مسلة الاقصر وكذا تمثال هائل يمثل (أوزيمندياس)

٢٤ — آثار قديمة مختلفة

تكلمنا فيما تقدم على الآثار القديمة القائمة على وجه الأرض فلنذكر الآن شيئاً عن الآثار المدفونة في باطنها والتي استكشفت بطريق المصادفة والجزاف

لايخفى أن وجه الأرض في مصر ارتفع عما كان عليه في الأزمنة القديمة ، فنشأ عن ذلك أن آثاراً كثيرة انطمرت كلها أو جزء منها في الأتربة أو الرمال أو الانقاض التي تراكمت عليها. فمن البدهي إذاً أن تستكشف بقايا تلك المباني المدفونة أثناء القيام بعمليات الحفر لاستكشاف الآثار . والباحثون عن الآثار يجدون أحياناً في الأعماق الجسيمة قطعاً عظيمة من الأحجار الرملية والجيرية والبركانية مختلفة الاشكال ومغطاة بالنقوش أو غفلا منها . وهذا ماحدث غالباً ، ولا سيما في السنوات الأخيرة بجميع أنحاء القطر المصرى حتى أنه ليصح القول بأنه لاتوجد بهذا القطر جهة لم تترك العصور والأجيال عليها طبقة من

الأطلال والخرائب

ولكن كثيراً مايجد الباحث فى وسط تلك القطع الكبيرة الحجم كميات عظيمة من أشياء صغيرة مختلفة الأنواع كان قدماء المصريين يستعملونها فى مصالحهم البيتية وغيرها . ومن هذا القبيل التمائم المصنوعة من الخشب أو الطين المحروق أو الأحجار الصلبة أو الحجر الرملى أو الأحجار الكريمة أو البرونز أو الذهب أو الفضة أو غير ذلك ، فقد كان قدماء المصريين يعنون عناية فائقة بوضعها مع جثث موتاهم . وهى تمثل صوراً صغيرة للانسان أو الحيوانات المقدسة أو المعبودات أو غيرها

ومما يعثر عليه أيضاً خلال التنقيب عن الآثار النقود المصرية ، غير أن تاريخها لا يرجع إلى العهود المستغرقة فى القدم . والظاهر أن المصريين لم يستعملوا فى تلك العهود النقود المعروفة فى التعامل . وقطع النقد التى يعثر عليها ، مصنوعة من الزجاج والفضة والذهب والنحاس ، ويرجع تاريخها بوجه عام إلى عصر الفرس والمقدونيين والبطالسة والرومان

ومما يوجد فى ثنايا الأرض حلقات من الطين أو النحاس أو الذهب بعضها مرصع بالأحجار الثمينة منحوتة على شكل الجعل

(الجدران) أو الصور الهيروغليفية . وهناك أحجار ثمينة تختلف عن بعضها في جودة النقش وغيرها من مواد مختلفة

وتحتوى المقابر أوانى قبرية تصنع عادة من المرمر الشرقي . ولكن البعض منها مصنوع بالحجر الرملى أو البركانى أو الطين المحترق أو النحاس ، ولها أشكال ظريفة جداً ، وكثير منها مغطي بالنقوش الهيروغليفية . ومما يعنى بجمعه هواة الآثار المصرية القديمة شتى الأشياء الصغيرة ذات المساس بالفنون والتصوير والكتابة والنقش ، كأوراق البردي والعقود المتخذة من الحرير أو الزجاج أو المرجان أو الذهب وعقود أخر محلاة بالمينا . ومما يلاحظ أيضاً بين هذه الأشياء الأسلحة والرماح والنبال والمدى التي كانت تذبح بها القرابين . وهذه الأدوات القاطعة كلها مصنوعة بالبرونز ، لأنه لم يثبت حتى الآن أن المصريين عرفوا الحديدواستعملوه

وثمة أشياء أخر مشغولة بالخشب كالكراسى والأسرّة والصناديق الصغيرة والثفانات المختلفة الانواع .

وفى أيامنا هذه بدأت المجاميع التى يجمعها المشتغلون بالآثار القديمة تقل عن ذى قبل . لأنه منذ سمح للناس جميعاً

بزيارة القطر المصرى فى أمن وسلام تولى السياح الذين يجوسون خلالها الشره الشديد إلى اختيار الآثار القديمة ، حتى اضطر الوالى إلى منع تصديرها وأمر بالتريث وإنعام النظر قبل الأذن لأى كان بمباشرة الحفر للبحث عنها

وقبل أن أختم هذا الفصل أتمنى أن يذكر سمو الوالى فى إنشاء متحف للآثار القديمة بالقطر المصرى يضم بين جوانبه ما يحتويه هذا القطر من نفائس تلك الآثار

٢

الاثار العربية

الهندسة العربية — مساجد : عمرو — طولون — الازهر — برقوق — قلاوون — السلطان حسن — قايتباى — المنارات أو المآذن — المقابر

٢٥ — الهندسة العربية

يبتدىء تاريخ الهندسة العربية من تاريخ ظهور الاسلام أعنى فى القرن السابع من الميلاد المسيحي أى فى وقت كانت تقاليد الفن القديم فيه يلتهمها تيار العالم الحديث . وإذ كانت تلك الهندسة خاضعة لعقائد ديانة متشددة فى مبادئها ، فقد انقطعت

الصلة بينها والماضى فاتخذت لنفسها نمطاً هندسياً مستقلاً لا يستمد فتيلا من الهندسة المبنية على التصوير

ولقد سما للهندسة العربية شأن فى العالم بضخامة آثارها وفخامة مبانيها وحسن نسقها ووفرة أجزائها التفصيلية المبنية على الدقة والحساب المضبوط . وهى لا تزال حتى الآن الحلية التى تجمل بها المبانى فى أفريقية والقسطنطينية وإسبانيا بل وفي كل مكان بقي به أثر من فكرة عظمة الأمة العربية وجلال شوكتها واقتدارها

وما شيدت الآثار الفنية الأولى عند الشعوب كافة إلا لتعظيم الربوبية وتمجيدها . فكان حقاً أن يكون الأمر كذلك فى أمة رحالة نزالة معروفة بعبقريتها الشعرية وشدة مراسها فى الحروب. ولقد وافى الرسول محمد بمعاونته على إعادة بناء الكعبة وشاد مسجداً فى قباء على مسافة ميلين من المدينة ووضع أساس جملة من المساجد وحرر القبلة أى الاتجاه نحو مكة . ولكن عمرو ابن العاص لم يفتح مصر إلا فى السنة العشرين للهجرة أيام خلافة عمر الذى استولى من ناحية أخرى على دمشق وأنشأ البصرة عند مصب الدجلة والفرات واستولى على حمص واللاذقية وحلب

وإنطاكية ونابلس وأورشليم والمدائن عاصمة فارس . فلما تمّ لذلك القائد الاستيلاء على مصر أنشأ بالمكان الذى نزلت فيه جيوشه مسجداً مشهوراً بعظمته وجماله . ومنذ هذا الوقت اتسع نطاق الهندسة العربية المعمارية ، ولاسيما في عهد الخلفاء حتى بلغ من الأتقان درجة ما برحت ،من وجهة الفن والعلم ، من أشد بواعث دهشتنا وإعجابنا

وفى القاهرة ، وهى المدينة العربية البحتة ، آثار نفيسة للخلفاء العباسيين والفاطميين ثم المماليك والجراكسة . دع أن بعض ذوى الثروة والجاه كانوا يقتدون بالأمراء والملوك في التبرع بأنشاء الآثار الدينية ، فأزينت المدينة بما شادوه من الآثار الجليلة شكراً لله على ما أولاهم من نعمه وحباً بالمصلحة العامة

وهنالك ما لا يحصى من المساجد المنمقة والحمامات والخانات والمدارس والأسبلة والقبور والأبواب الأثرية ، تحلى به مدينة القاهرة وكذا الخليج المصرى الذى يخترقها طولا وتحف به من الجانبين خارج القاهرة كرمات بديعة يتم بها جمال الوصف الذى وصفنا به العاصمة المصرية

وأشهر آثار القاهرة مساجد عمرو وابن طولون والأزهر

وبرقوق وقلاوون وقايتباى وميرآخور وابراهيم أغا ثم القبور التي أنشأها الخلفاء الفاطميون والسلاطين الأيوبيون بالشمال الشرقى للمدينة . وبالجهة المقابلة له مقابر أبناء محمد على وأقربائه أى مقبرة الأمام الشافعي . أما أجمل أبواب المدينة فهي باب النصر وباب طولون والقلعة وبئر يوسف وسبيل سوق العصر والحمامات العمومية في باب الشعرية ووكالة ذو الفقار

وأخص ماتتجلى فيه طبيعة السخاء والكرم عند العرب الآثار التي يشيدونها لمحض الخير وما يوقفونه من المنشآت المقصود بها المنفعة العامة . والمساجد والخانات بل ومنازل الأفراد عندهم تحتوى أجنحة لنزول المسافرين والأجانب وضيافتهم فيها

والأنماط الهندسية للآثار والمبانى العربية كثيرة الاختلاف والتفاوت وتلفت النظر إليها بغرابة شكلها . وإذا سرحنا الطرف فى المساجد لانلبث أن نوقن أنها مع تضارعها فى مجموع بنائها لايشبه أحدها الآخر فى تفاصيل بنائه وتنسيقه وزخرفته

٢٦ — جامع عمرو

قلنا فيما سبق أن أول مسجد بنى فى مصر هو الجامع الذي شاده عمرو بها سنة ٢١ للهجرة . وهو واقع شرقى مصر القديمة وسط أطلال مدينة الفسطاط . وفى سذاجة وضعه وبساطة زخرفته مايشير إلى الدور الأول من أدوار الفنون الهندسية في أمة مبتدية . وقد أطلق عليه اسم عمرو بن العاص نسبة الى مؤسسه كما يسمي أيضاً بالمسجدالعتيق وتاج المساجد . ويتألف داخله من ستة صفوف من الأعمدة في صدرها القبلة والمنبر ، والبوابات الجانبية أقل اتساعاً من البوابات الأخرى . وفي وسط الصحن المربع للجامع ، وطول كل ضلع من أضلاعه ثمانون متراً ، مكان الوضوء . وكان يوجد قبل الحظيرة المخصصة للصلاة صحن آخر كان جانباه يحتويان أماكن للاستحمام وبيوت خلاء وسبيلا ومشرباً ووكالة لنزول المسافرين والغرباء

ولمنظر الجامع فى مجموعه هيبةوجلال وعظمة ، رغم سذاجته وخلوه من مظاهر الزينة والزخرفة . ويبلغ عدد الأعمدة فيه مائتين وخمسين عموداً كل منها قطعة واحدة ومن أصناف

متباينة من الرمر . وفيما عدا الألف والخمسمائة مصباح المعلقة بعوارض الخشب الممتدة بين الأعمدة ، والمنبر والقبلة والادراج أيضاً لا يوجد بالجامع أقل اثر للنقوش أو الزخارف أو أى شيء آخر مما يشير إلى ميول العرب وأذواقهم في الفنون

وجامع عمرو يكاد يكون فى الوقت الحاضر مهجوراً . وقد سقطت أبنيته فى جملة أماكن منه لعدم تعهده بالعناية والترميم والعادة ، إذا تأخر النيل عن الوفاء وخيف نزول القحط والمجاعة فى السنة التالية ، أن يدعو ولى الأمر العلماء والمشائخ والربابنة اليهود والقساوسة الأقباط واليونان والكاثوليك إلي الاجتماع فى مسجد عمرو مع أبناء دينهم فيلتئم شمل كل طائفة من هذه الطوائف خارج حظيرة المسجد للابتهال إلى الله تعالى أن يمد البلاد بعونه ويحفها برضاه وأن يدرأ عنها خطر المجاعة بعودة النيل إلى الزيادة حتي يبلغ درجة الوفاء

وهذا الاجتماع المسمي بصلاة الاستسقاء يجرى على أتم نظام وبأقصى مايكون من التقوى ومظاهر الورع . ويتبادل أهل الاديان والعقائد المختلفة فيه شواهد الاحترام ودلائل العطف ، ويسلكون بعضهم حيال بعض كما لو كانوا أعضاء أسرة واحدة

٢٧ — جامع ابن طولون

شيد هذا الجامع سنة ٢٦٣ للهجرة (٨٧٦ للميلاد) شاده لنفسه احمد بن طولون أمير مصر من قبل المعتمد الخليفة العباسي

وموقع الجامع إلى الجنوب الغربي من القاهرة . وهو عبارة عن صحن مربع طول كل ضلع من أضلاعه تسعون متراً تحيط به بوابات معقودة . وثلاثة من أضلاع الصحن تحتوى صفين من الدهاليز . أما الضلع المتصل بالمصلى فيحتوى خمسة منها . ولم يكن فى نمط البناية شيء مستعاراً من الآثار القديمة كما هو المشاهد في الأعمدة المرمرية التى تحمل البواكي والسقوف فى جامع عمرو . وهي محاطة بسياجين لمنع وصول ضوضاء الناس في الخارج إلى المصلين ، وكلها من الآجر المطلي بطبقة سميكة من البياض

ولقد كان بناء هذا الأثر بمقتضى مثال مدبر ونمط متفق عليه من قبل . ولهذا يشاهد فيه الطابع العربي البحت نقياً من أثر التفاصيل والدقائق التى لافائدة منها ترتجي ، خالياً من الأعمدة التي لا نسق بينها في أقطارها ولا في أشكالها

والخلاصة أن بالإمكان اعتبار جامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص والجامع الازهر مثالا للهندسة العربية بمصر فى العهد الاول للأسلام

٢٨ — الجامع الازهر

موقع الجامع الأزهر من مدينة القاهرة إلى الشمال الشرقي وهو من أقدم المباني في القسم الذى يوجد به من العاصمة المصرية . أنشأه جوهر الصقلي القائد مولى الخليفة المعز لدين الله معدّ في سنة ٣٥٩ للهجره (سنة ٩٨١ للميلاد) وكمل بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة ٣٦١ وكتب بدائرة قبته التى فى الرواق الأول تاريخ الإنشاء واسم الآمر بالبناء[١]

وفى الجامع صحن كبير تحيط به بوابات تشبه فى وضعها تقريباً البوابات المحيطة بصحن جامع عمرو . والمسجد نفسه يتألف من تسعة أروقة يضيئها ألف ومائة مصباح . وبناية الجامع قائمة على ثلاثمائة وثمانين عموداً بعضها من المرمر الأبيض

(١) هذا ماكتب بالنص بعد البسملة : « مما أمر ببنيانه عبد الله ووليه ابو تميم معد الامام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في سنة ٣٦٠ »

والجرانيت والبعض الآخر من حجر السماق ، ولها قواعد وتيجان جيء بها من الكنائس الكبري القديمة . وهذه البناية لم تكن خاصة بالمصلين الذين يردون إليه فى جموع كثيفة وأفواج كثيرة العدد . بل هي أيضاً مدرسة جامعة لأشتات الطلاب من أهل البلاد والاجانب الذين يفدون إليها لاتقان العلوم الإسلامية من توحيد وفقه وغيرهما

ومنذ أنشيء الجامع الازهر اشتهرت مدرسته في آفاق الأرض بكثرة الفطاحل من العلماء الذين يقومون فيه بشؤون التدريس فى علمي التوحيد والفقه والذى أمر بأنشاء المدرسة هو الخليفة العزيز بالله نزار الفاطمى أشار عليه بذلك وزيره أبو الفرج يعقوب في سنة ٣٧٨ للهجرة

وقد حولت البوابات التي إلى جانبي الجامع يمنة ويسرة إلى غرف فصل بعضها عن بعض بفواصل من شبك الحديد أو حواجز من الخشب وأضيف إليها بعض غرف أخرى . وفى هذه الغرف يجتمع الطلاب لتلقي الدروس المقرر عليهم تفهمها

وفي كل غرفة من الغرف المذكورة دواليب وخزانات لحفظ الكتب المخطوطة ومشائخ لتولى إلقاء الدروس على التلاميذ

الكثير عديدهم

ويصلح الجامع الأزهر من جهة أخرى ملجأ يأوي إليه فقراء المسلمين والأجانب والدراويش يقضون الليل به فى سكون نائمين فوق الحصر المفروشة عَلَى البلاط

ويشبه الأزهر فندقاً كبيرا ، لأنه فضلا عن الأماكن المخصصة فيه للصلاة يوجد كما سبق لنا قوله مواضع عديدة يقوم العلماء فيها بتعليم القرآن والأحاديث النبوية

وبداخل بناء الجامع أقسام أى أروقة خاصة بأقامة الطلاب الأجانب الذين يفدون من الشام وفارس وبلاد العرب ومن أقاليم الولايات العثمانية وأفريقية الغربية وغيرها . ولكل فريق من أمة رواقها . ولكن الأروقه خاصة بمن يفدون على الجامع لتلقي العلم . وهذا هو السبب فى رؤية الطلاب منصبين دواماً على المطالعة والدروس

ولكل رواق ناظر أي مفتش يرجع فى تصريف سلطته إلى شيخ الجامع القائم بتدبير شؤونه العامة . ويوزع عَلَى الطلاب في كل يومين ثمانية وثلاثون قنطارا من الخبز وكذا كمية من الزيت للاستصباح . وفى آخر كل شهر توزع مرتبات طفيفة

من النقد ليتداركوا بها بعض احتياجاتهم ويسدوا عوزهم

وتبلغ نفقات الجامع الأزهر في كل عام ١٢٦٠ كيساً أي ٦٣٠٠٠٠ قرش كل قرش أربعون بارة . وتقوم الحكومة بدفع بعض هذا المبلغ من ناتج الرزقة . أما الباقي فيدفع من إيراد الأملاك الموقوفة عليه . ولكل جامع شيء قليل أو كثير من هذه الأملاك مرصودة للنفقة عليه وتسمي بالأوقاف

والزحام في الجامع الأزهر مستمر فجعلت حوله المنافذ العديدة لتسهيل الدخول فيه والخروج منه

٢٩ — جامع برقوق

جامع برقوق كائن بظاهر القاهرة في الشمال الشرقي من من جبل الجيوشي ، أنشأه الخليفة « هكذا » برقوق بن أنص في سنة ٥٢٧ للهجرة (سنة ١١٤٩ للميلاد) [١] وبنايته من حجر النحت وهي من أحكم البنايات وأتقنها . والجامع الأصلي يتضمن

(١) في تعيين موقع جامع برقوق وتاريخ انشائه خطأ ظاهر من المؤلف فأن مكان هذا الجامع من القاهرة شارع النحاسين وهو بداخلها لا بظاهرها كما أن السلطان برقوق منشئه توفي سنة ٨٠١ للهجرة فحكمه كان في أواخر القرن الثامن لا في أوائل القرن السادس الذي كان الحكم فيه بمصر لا يزال بيد الفاطميين على عهد الخليفة الحافظ لدين الله

بنايتين مربعتين تعلوهما قبة إحداهما ضريح برقوق والأخرى ضريح أسرته . والجامع مربع الشكل ويشتمل فيما عدا المسجد مساكن للصيف وأخرى للشتاء ينزل بها الغرباء وثلاثة مساكن لمشائخ الجامع وبعض أصحاب المقامات

ومما نلاحظه هنا أنه يوجد على مقربة من القبتين اللتين فوق الضريحين أضرحة أخرى مبنية ومزخرفة على مثالهما بحسب الأنماط الهندسية العربية وهي في الغاية القصوى من الدقة والأتقان الدالين على الذوق والدراية .وقطع الاحجار فيه بشكل الزوايا لتقوية التماسك بين أجزاء القباب والأركان وغيرها من الأصول الهندسية المبنية علي العلم.أما النقوش والزخارف الداخلية والخارجيةفقد بذل في عملها من الدقة والذوق خصوصاً فى القباب المبنية بالحجر ما لا يستطيع القلم وصفه . ومن أجمل ما بداخل الجامع ، من الوجهة الفنية المنبر فأنه عَلَى الغاية من المطابقة للذوق السليم والاتقان فى الصنع

٣٠ — جامع قلاوون

كانت ولاية المنصور قلاوون فى سنة ٦٨٢ للهجرة عَلَى

سلطنة مصر وولاية من خلفوه من أبنائه من أزهي عصور مصر وأزهرها وأحفلها بالآثار الباذخة . وقد امتاز من بينهم ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون بالميل إلي إقامة المباني الجليلة. ميلا كان من أعظم بواعث الإقبال عليها والاحتفال بتنميقها ، حتي لقد قال بعض المؤرخين في وصف هذا الاقبال أنه كان يفتح مجال التظني بصدور أمر محتم بتنجيد الأبنية وتشييد العمارات لأن الامراء ورجال الجند وكتاب الدواوين والسكان بوجه عام أخذوا يتبارون فى ذلك ويتنافسون في الزخرفة والتنميق

والملك المنصور قلاوون هو الذى بني البيمارستان بين القصرين والمدرسة وجعل فيه الجامع والقبة التى فيها ضريحه ، وكل ما يرتبط عادة بمثل هذه المنشآت من اللوازم والأدوات . وكان بناؤه فى سنة ٦٨٣ للهجرة والسبب الذي حمل الملك المنصور قلاوون على بنـايته أنه مرض بالشام قبل هـذا التاريخ ببضع سنوات ثم شفي من مرضه عَلَى أثر ماوجده من العناية بعلاجه فى بيمارستان دمشق فنذر عَلَى نفسه أن ينشيء مثله بمصر . وقد وفى بنذره إذ بناه وأنفق عليه النفقات الجليلة . وكان هناك بيمارستان آخر أنشأه بمصر القديمة احمد بن طولون وبيمارستانان آخران

أقل منه شأناً ، ولكن الملك المنصور قلاوون وسع في بناية بيمارستانه حتي فاق تلك البيمارستانات عظمة وسما عليها أهميـة ووصف لهذا السبب بوصف الكبير

وموقعه من مدينة القاهرة إلى الشمال الشرقى منهـا . وهو مخصص لعلاج المرضي وإيواء المجانين والمعتوهين من الرجال والنساء

٣١ — جامع السلطان حسن

ومن سلاطين دوله المماليك الذين قلدوا جيد مدينة القاهرة بباذخ الآثار ومحاسن البنايات السلطان الناصر حسن والسلطان المؤيد شيخ والسلطان الأشرف قايتباى

فأما السلطان الناصر ابو المعالى حسن بن محمد الناصر بن قلاوون فقد بنى فى ميدان الرميلة المدرسة المسماة بجامع السلطان حسـن . وهي من أمتن وأضخم ما أسس في عهد المماليـك . وكانت البداية ببنائها فى سنة ٧٥٧ للهجرة والانتهاء منها فى ثلاث سنوات بالضبط . روي المقريزى أن ما كان ينفق عَلَى عمارتها كل يوم عشرون الف درهم من الفضة . ومما لاخلاف فيه ان

هذا السلطان قد حلى جيد القاهرة بأثر من أفخم آثارها وأصبرها عَلَى الدهر

ومنظر الوضع الأساسي العام للجامع ينهض دليلا عَلَى ان هندسة العمارة فيه قد وصلت الى الدرجة القصوى من الحسن والأتقان . فأن هذا الوضع يشبه الصليب اليونانى أى خطين بسيطين متقاطعين في زوايا قائمة . والأروقة مقبية عَلَى كل ضلع من أضلاع الصحن وفى الرواق الجنوبى الشرقي مكان العبادة تعلوه قبة قطرها الداخلى عشرون مترا . أما الأروقة الثلاثة الأخرى فخاصة بجمهور الناس

وقد كان الرواق الاكبر التالى لمكان العبادة خاصًّا بالسلطان . وكان يصلى بالقرب من القبلة ويعلو المنبر ، إذا عَنَّ له أن يعظ المصلين أو ينشر عليهم أمرا

وفى وسط الصحن فسقية الوضوء وهي ذات وضع غريب ، إذ تتألف من كرة قطرها ثمانية أمتار محمولة على أعمدة تمثل هيئة الدنيا ويعلوها هلال وقد دهنت بطلاء أزرق . ويحيط بالكرة منطقة نقشت فيها كتابة عربية بحروف الذهب

٣٢ — جامع المؤيد

جامع المؤيد واقع بوسط القاهرة فى السوق المشهورة بالسكَّرية .أنشأه في سنة ٨١٨ للهجرة (سنة ١٤١٥ للميلاد) الملك المؤيد شيخ المحمودى من مماليك الظاهر برقوق، فى المكان الذى كانت قائمة به البناية المعروفة بخزانة الشمائل التي كان يحبس فيها المذنبون . وسبب اختياره هذا المكان دون غيره لانشاء الجامع أن الامير موطش كان قد قهر المماليك مرة فحبس الملك المؤيد في خزانة الشمائل فنذر على نفسه وهو في الحبس أن يبني فى مكان هذه الخزانة مسجدا إن منّ الله عليه بالخلاص من أسره . ولقد حقّقَ الله أمنيته بالخلاص من الحبس فوفي بما نذره على نفسه وهو فيه

أما الوضع الأساسي للجامع فعبارة عن صحن كبير مربّع محاط ببوابات ذات أعمدة تحمل عقودا مقبية . وثلاثة من الأضلاع بواباتها زوجية الصفوف . أما الضلع الرابع فيحتوى ثلاثة صفوف تنزل من الجامع بمنزلة الأروقة ومنها يتألف المسجد الأصلى أى مكان الصلاة . والى اليمين واليسار أضرحة

عديدة تجعل الجامع بوضعها شبيها بأوضاع جامع السلطان برقوق

أما زخرفة المسجد في الغاية من الفخامة والحسن . فأن السقف مقسم أقساما مستطيلة جللت بالنقوش والزخرفة بالألوان والذهب. والمسجد الأصلي يزجي إلى ذهن الناظر، عن جلال الزخرفة ودقتها بداخل المباني العامة كالجوامع ، فكرة يرى معها أنها لم تكن مقتصرة على الغرض المقصود منها وهو العبادة فحسب ، بل كانت أيضا مستقراً ليسكن اليه السلاطين والأمراء في بعض الأحيان لاستقبال الأجانب وتلقي زيارات الزائرين

وترتيب أوضاع الجوامع في الشرق على المثال المتقدم معروف فيه منذ زمان مديد . وعند الشرقيين تقابل كلمتا «الباب» و « العتبة » كلمة « المحكمة » عندنا أو كلمة « السدة » أو عبارة « السلطة العليا »

٣٣ — جامع قايتباى

جامع قايتباي بالصحراء هو ، بلا مراء ، أدق وأرشق أثر عربي يتاح للمرء أن يراه . ووضعه جامع لأشتات المحاسن الفنية

وبابه وقبته ومنـارته من التناسب في الأقطار والتناسـق فى الترتيب والدقة في الزخرفة والاحكام في العمارة بما يتعذر اجتماعه فى بناية واحدة من المبانى المشيدة علي النمط العربى

وبالرغم من صغر هذا الجامع فمن المنحتم اعتباره أكمل وأجمل العمارات الاثرية بالقاهرة

أنشيء جامع قايتباى سنة ٨٧٠ للهجرة (سنة ١٤٦٣ للميلاد) في مكان شرقي مدينة القاهرة خارج أسوارها . وهو مبنى كله بحجر النحت طبقات بعضـها فوق بعض ، والقبة منقوشـة أحجارها نقشا عجيبا . وخلاصة القول أن هذا الجامع ينبغي اعتباره أتم مثال لأجمل الآثار الهندسية العربية في القرن الخامس عشر من الميلاد

٣٤ — المنارات

المنارة للجامع عند المسلمين كبرج النواقيس للكنيسة عند المسيحيين . وهي أشبه شيء بعمود أو برج ذى شرفات عديدة من ظاهره يصعد المؤذن إليها ليدعو الناس إلى أداء الصلاة فى أوقاتها الخمسة . والظاهر أن أوضاع المنارات بالنسبة للجوامع

لم يراع فيها التخصيص بمواضع معينة منها ، بل تختلف بالنسبة لها . وإنما هي على كل حال بحيث لا يصطدم صوت المؤذن بحائل يحول دون سريانه وانتشاره . وهذا هو السبب لوجودها على الدوام بزوايا المساجد وأركانها

والمنارات تضاء في أيام الأعياد . وفيما عدا التباين في أشكال المنارات والتنوع في زخرفتها فأن بنايتها تسترعي النظر من حيث انها تجمع إلى المتانة رشاقة الشكل وحسنه

ومن أهم المنارات التي ترى بالقاهرة من هذا القبيل منارات جوامع السلطان حسن والغورى وقلاوون والمؤيد والأزهر وبرقوق وطولون وقايتباي وغيرها . وفي القاهرة نحو أربعمائه جامع ، جملة منها مهملة الشأن لعدم كفاية الاموال المرصودة للنفقة على ترميمها والعناية بشأنها

٣٥ — المقابر

المقابر الواقعة الى الشمال الشرقى من القاهرة ، وهي التي احتفل الخلفاء الفاطميون والسلاطين الأيوبيون بعمارتها وبالغوا في تنميقها ، معروفة بحسن شكل قبابها ومتانة بنائها بالأحجار

المنحوتة المتراصة طبقات بعضها فوق بعض . ولبعض هـذه المقابر جوامع متصلة بها تتناسب المنارات فيها مع القباب خير تناسب وأضبطه وأطبقه على قواعد فن العمارة . ولكن هـذه المقابر قد أهملت العناية بشئونها منذ سنوات عديدة ، ولهـذا انقطع الناس عن الاختلاف اليها للزيارة وأداء فروض الصلاة

وفي مقبرة الامام الشافعي قبلى القاهرة عمارة مستطيلة شيدت في عهد دولة المماليك على مقربة من القبة الكبرى لمسجد الامام الشافعي . ففي تلك البنايه أقام سمو محمد على باشا ضريحاً فخما لولده طوسن باشا المتوفى بالطاعون عقب عودته من الحملة ضد الوهابيين فى بلاد العرب ، وأضرحة أخر لغيره من أعضاء الأسرة المحمدية العلوية الذين لبوا نداء ربهم منذ استلامه لأزمة الحكم على الديار المصرية

الباب السادس عشر

تقسيم الزمن

والموازين والمكاييل والنقود المستعملة بمصر

تقسيم السنة — الموازين — المكاييل — النقود

١ — تقسيم السنة

لا يعرف المسلمون تاريخاً بغير السنة القمرية . وكلما هلّ شهر صعد مؤذنو المساجد الي أعلى المآذن لرصد ظهور الهلال الجديد بالدقة ، وبحسب الرؤية يتقرر أن الشهر قد هلّ وبدأ . ويحسب المسلمون الدورة الزمنية اليومية من غروب شمس الى الغروب التالى له . والأشهر القمرية يعد أولها ثلاثين يوماً والتالي له تسعة وعشرين وهكذا الى آخر أشهر السنة وتطوف بالسنة الشمسية مرة في كل اربع وثلاثين سنة تقريباً

وأول أشهر السنة الاسلامية المحرم وعدد أيامه ثلاثون والأشهر التالية له هى : صفر ٢٩ ربيع الأول ٣٠ ربيع الثانى ٢٩ جمادي الاولى ٣٠ جمادي الأخيرة ٢٩ رجب ٣٠ شعبان٢٩ رمضان

٣٠ شوال ٢٩ ذو القعدة ٣٠ ذو الحجة ٢٩

فأول يناير من سنتنا الحالية مثلا يقابل ٢٧ شوال من سنة ١٢٥٥ هجرية التي يطابق اول المحرم منها يوم ٣ مارس سنة ١٨٤٠

ويقع عيدالفطر في أول شوال وعيد الأضحى في ١٠ ذي الحجة

وتتبع الأدارة في مصر تقويماً غير التقويم الهجرى ألا وهو التقويم القبطى

والأقباط يقسمون سنتهم الى أشهر عدد أيام كل منها ثلاثون يوماً ثم يردفون الشهر الأخير بخمسة أيام إضافية يسمونها النسيء. والشهر الأول من أشهر سنتهم توت ثم تليه الأشهر الآتية : بابه، هاتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونه، أبيب، مسرى

وأول توت أى مفتتح السنة القبطية يطابق ١٠ سبتمبر من السنة الافرنكية. والسنة الحالية من التاريخ القبطى هى سنة ١٥٥٦ فسنة ١٥٥٧ المقبلة منه ستطابق ١٠ ستمبر من سنة ١٨٤٠ وقد وافق أول يناير من سنة ١٨٤٠ يوم ٢٤ كيهك من سنة ١٥٥٦

والأقباط كالمسلمين يحسبون اليوم من غروب الشمس الى الغروب التالي له. وعادة الأقباط فى ليلة ١١ الي ١٢ بؤنه (١٧ الي

١٨ يونيه) أن يصعدوا الي سطوح منازلهم لاستقبال « النقطة » التي يزعمون أنها تتكون من الزيادة الأولي لماء النيل

٢ — الموازين

الدرهم أساس الموازين المستعملة في مصر وهو يعدل ٣ر٨٨٤ جرام . ومن مركبات الدرهم نوعان من الموازين وهما الرطل وفيه ١٤٤ درهما والأقة وفيها ٤٠٠ درهم

والي القارىء بيان نسبة هذه الموازين الي الموازين المعروفة فى الديار الأوربية

القنطار الواحد الذي هو عبارة عن ١٠٠ رطل أو ٣٦ أقة يساوى

١٤١ و ١٢/١٠٠ رطلا من أرطال جنوة
١٣٠ و ٢٠/١٠٠ » ليفورنة
٩٩ » لوندرة
٥٧ و ٦٠/١٠٠٠ » مالطة
٤٤ و ٤٧/١٠٠ كيلو جراماً من كيلو جرامات مرسيليا
٩٣ ٣٣/١٠٠ رطلا من ارطال البندقية الكبيرة
١٤٧ ٣٦/١٠٠ رطلا من أرطالها الصغيرة

٨١ ١٠٠/٧٢ فونتياً من فونتيات فينا وتريستة

والمائة أقة تساوى :

٣٩٢ رطلا من أرطال جنوة

٣٧٠ « « ليفورنة

٣٧٥ « « لوندرة

١٦٠ « « مالطه

١٢٣ر٥٣ كيلوجراماً من كيلوجرامات مرسيليا

٢٥٩ ¼ رطلا من أرطال البندقية الكبيرة

٤٠٩ ½ « « الصغيرة

٢٢٧ فونتياً من فونتيات فينا وتريسته

٣ — المقاييس

قياس الطول الذي تقاس به الأقمشة هو الذراع وطوله ٦٧٧ ملايمتراً . وهو ينقسم الي أربعة وعشرين جزءاً كل جزء يسمى القيراط . وهاك نسبته الى بعض المقاييس الأوربية

١٠٠ ذراع تساوي ½ ٩٩ من أذرع (برابانت) و٦٧ر٧٠ متراً فرنسياً و٧٥ يرداً انكليزياً و½١١٦ ذراعاً ليفورنياً و½ ٣٣ عصي

مالطية و ¼ ٩٧ ذراعاً بندقية

ومقياس الطول القصبة وهى تساوى ٣٫١٥ أمتار . والقصبة المربعة تساوى ١٢٫٢٥ متراً مربعاً

وقياس السطوح الفدان وهو يساوى ⅓ ٣٣٣ قصبة مربعة أي ٤٠٨٣٫٣٣٣٣ متراً مربعاً أى ٤٠٫٨٣٣ آرا

وقياس الأحجام الأردب . وأردب القاهرة يساوى ١٨٤ لتراً وينقسم الى ست ويبات والويبة الي أربعة أرباع

٤ — النقود

أساس النقود المصرية القرش المؤلف من اربعين بارة . وتتألف البارة من ثلاثة جدد . ومعلوم أن فساد النقود بما يطرأ عليها من التغيير لا يزال شائعاً في الشرق وهذا هو السبب في أن القروش التى تضرب الآن على أن تزن درهماً لا تحتوى من الفضة إلا قدر النصف ولا تعدل بناء علي ذلك إلا ٢٥ سنتيما تقريباً من النقود الفرنسية

والنقود التى كانت تضرب في القاهرة قبلاً هى الخيرية وكانت تعدل تسعة قروش ونصف ، ونصف الخيرية وكانت تعدل

أربعة قروش والقرش وقطع من النقد تعدل ٢٠ بارة و١٠ بارات و ٥ بارات

ولقد اتجهت إرادة سمو الوالى الي إصلاح ذلك الفساد منعاً صدير النقود من مصر . ومال الى اتخاذ القاعدة الأعشارية أساساً لنقود مصر فضرب من الذهب قطعاً تعدل ١٠٠ قرش و٢٠ قرشاً و١٠ قروش و٥ قروش ومن الفضة قطعاً تعدل ٢٠ قرشاً و١٠ قروش و٥ قروش وقرشاً واحداً

وكل النقود المصرية تضرب بسكة السلطان . ولما كان المسلمون ممن يحرمون الصور فأنهم لا يضربون نقودهم بصورة أحد ولكن من الثابت ان بعض الخلفاء شذوا عن هذه القاعدة برسم صورهم علي النقود

والنقود المقبولة بمصر وليست مضروبة فيها هي :

الريال الاسباني . المحبوب البندقى . الدوكا الهولندى المحبوب المجرى . الجنيهات . القرش الأسباني

قطع الخمسة فرنكات والعشرين فرنكا لاسيما الريال النمسوى الذى يساوى عشرين بارة تقريباً



فهرست

الجزء الثاني

أخلاق وعادات المسلمين

١ — الاغذية وآداب الطعام

٢ — الاثاث

٣ — آداب الاجتماع

٤ — الختان

٥ — الزواج

٦ — الوفاة وتشييع الجنازات

٧ — الاعتقادات الباطلة



الحكومة والأنظمة السياسية

الباب التاسع

الزراعة والصناعة والتجارة

١ — الاراضى القابلة للزراعة والاراضى المزروعة

٢ — الرى

٣ — آلات الحراثة والاساليب الزراعية

٤ — الزراعات الكبرى فى مصر

الصناعة

١ — الفاوريقات

٢ — الصناعات الصغرى والفنون والمهن

التجارة

الباب العاشر

التعليم العام والمدارس في مصر

الباب الحادي عشر

صحة المصريين وأمراضهم وطبهم وتنظيم المصلحة الطبية

١ — تربية المصريين وطريقة معيشتهم من الوجهة الصحية

٢ — الامراض المصرية



الاشغال العامة



الباب الخامس عشر

الآثار والاطلال

١ — الآثار القديمة

٢ — الآثار العربية



تقسيم الزمن والموازين والمقاييس والمكاييل والنقود





